الكاتب الفلسطيني

العدد ٢٠ صيف ١٩٩٠ - تموز - آب - أيلول



الكاتب الفلسطيني

العدد ٢٠ صيف ١٩٩٠ ـ تموز ـ آب ـ أيلول

مجلة فصلية تصدر عن
الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين
لجنة العمل النقابية

الآراء الواردة لاتعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير

الاشتراكات السنوية

للأفراد: ـ سوريا ولبنان ١٥٠ ل.س
ـ بقية الأقطار العربية ٢٥٠ ل.س
ـ اقطار العالم ٢٥ دولار
للمؤسسات: ٥٠ دولار

الفهرست

كلمة الكاتب

القضية الفلسطينية والمتغيرات الدولية

كثر الحديث، مع التحولات السياسية التي حدثت في الاتحاد السوفياتي وأوروبة الشرقية، عن المتغيرات التي أحاطت بالقضية الفلسطينية. ونحا الحديث في معظمه منحى التاكيد على اتجاه العالم نحو السلام، وبالتالي حل القضايا المتفجرة والساخنة حلاً سلمياً، وقاد ذلك كله إلى القناعة، بأن القضية الفلسطينية، ستحل حلاً سلمياً أيضاً.

وكان أن اتجهت القيادة في م.ت.ف، بناء على ذلك إلى طرح مبادرتها السلمية، التي سميت برنامج الاستقلال، والقائمة على الاعتراف بالقرار ٢٤٢.

وارتبط هذا بالتوجه الى طرح صيغة المؤتمر الدولي اطاراً لحل القضية، وإلى اللهاث وراء فتح باب الحوار مع حكومة الولايات المتحدة الاميركية أساساً، وتطوير الحوار مع دول اوروبة الغربية واليابان.

وكان هذا التوجه الاستسلامي يقوم على مايلي:

أولاً: التشكيك بقدرة الأنظمة العربية على الحرب مع العدو الصهيوني، ورغبتها فيها.

ثانياً: التشكيك بقدرة الحركة الشعبية في الوطن العربي على تقديم اية مساندة جدّية للقضية الفلسطينية.

ثالثاً: المراهنة على الاتجاهات السلمية في اوروبة والولايات المتحدة الاميركية والكيان الصهيوني.

رابعاً: المراهنة على الدور الفعّال للاتحاد السوفياتي في تاييد القضية الفلسطينية.

وكان ذلك يكتسف عدم الثقة بالشعب، وعدم وعي حركته، كما يكشف سوء الفهم وسوء التقدير بالنسبة لحركة الصراع على الصعيد العالمي، والانجرار الى مزالق القوى الاستسلامية العربية، المرتبطة بالامبريالية الامريكية.

ولذلك، فان الوقائع اثبتت ضحالة التحليل العربي المراهن على «الحل السلمي». لان حكومة الاتحاد السوفياتي تخلت عن دورها العالمي المعادي للامبريالية والصهيونية، وانتهجت خطاً يعتمد على تطوير العلاقات الثنائية مع الولايات المتحدة الاميركية وأوروبة، على حساب كل المبادىء والالتزامات السابقة.

وكان طبيعياً ان يقود ذلك إلى تفرد حكومة الولايات المتحدة الاميركية، وإلى محاولتها بسط السيطرة على العالم دون منازع.

رافق ذلك أمور ثلاثة:

الأولى: تشدد حكومة الولايات المتحدة الاميركية ازاء الطرف الفلسطيني، والتزامها ببرنامج حكومة شامير.

الثاني: تشدد حكومة شامير ازاء المطالب الفلسطينية، حتى وهي تستند إلى الاعتراف بالكيان الصهيوني على ٧٧٪ من أراضي فلسطين.

الثالث: استمرار تنازلات الاطراف العربية المستسلمة، دون حدود.

وهاهي الوقائع تثبت ان المتغيرات الدولية، كانت حتى الآن، وفي المدى المنظور، انتصاراً للراسمالية على الاشتراكية، ولسياسة الحرب، على سياسة السلام. ذلك أن العالم الذي كانت تحكمه سياستان «اشتراكية» وراسمالية، صارت تحكمه سياسة واحدة هي سياسة الراسمالية والحرب والعدوان.

ولقد كشفت أزمة الخليج عن طبيعة الدور الاميركي، بعد انتهاء الواقع السياسي الذي كانت تحكمه سياسة القطبين المتنازعين الاشتراكي والراسمالي،،وباتت تحكمه معادلة القطب الواحد.

ونحن اليوم، نعيش مرحلة غطرسة القوة العدوانية التي تجعل العالم كله مسرحاً لحركاتها، والتدخل والعدوان قانونها الوحيد.

وجاءت أزمة الخليج لتؤكد مايلي:

١ ـ إن وطننا العربي، مازال منطقة قرار دولي، وموضع مطامع استعمارية تضع كل ثقلها لابقائه

في حالة ضعف وعجز وتبعية

٢ ـ ان الشرعية الدولية، مازالت من الضعف والهشاشة، مايجعلها لعبة بيد الكبار ومازالت هذه الشرعية اداة بيد الأقوى. واذا كانت هذه الشرعية قد مرت بمرحلة مشجعة، منذ بداية السبعينات، في ظل وجود سياسة المعسكرين وانتصار حركات التحرر، فان هذه الشرعية الآن، تمر بمرحلة انتكاس، في ظل غياب الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية، وتراجع حركات التحرير، ووجود ظروف ملائمة لسياسة غطرسة القوة الاميركية.

٣ ـ ان دور الكيان الصهيوني، في مثل هذه الحال، يظل مطلوباً، لحماية المصالح الامبريالية، ولضمان التدخل الدولي، ولمنع اي تغيير، يمس الوضع القائم.

وامام ذلك كله، يجد العرب انفسهم مطالبين بالنضال من اجل تحقيق ارادتهم، والحيلولة دون استمرار الهيمنة الدولية التي تمنع وحدتهم وتحررهم وتقدمهم. وتظل قضية تحرير فلسطين جزءاً من هذه المهمة الكبيرة. فلا مجال لاستعادة الأرض اذا لم نكن قادرين على تحريرها، ولا مجال في ان يتحول الاعداء الى الاصدقاء، ولايمكن لحكومة الولايات المتحدة الاميركية ان تكون حكماً في صراع هي الأساس فيه.

لقد اسقطت الاحداث سياسة المراهنة على الحل الدولي الذي اعلنته قيادة م.ت.ف. وعملت لتنفيذه خلال السنوات العشرين الماضية. وها نحن نعود مجدداً الى الصراع، رغم التنازلات التي تمس الأرض والسيادة والكرامة الوطنية، ورغم محاولات تهيئة الاذهان للسلام.

وبات مطلوباً منا، وبعد ان كشف الوضع الدولي ماكشف ان نعيد دراسة الوضع الدولي، وان نراه على حقيقته، لان السيادة في الوضع الدولي الآن لقوى العدوان، وليس لقوى السلام، ولان اعتى قوى امبريالية عالمية، وهي حكومة الولايات المتحدة الاميركية، معنية بزيادة سيطرتها على وطننا، وزيادة دور الكيان الصهيوني. وفي هذا الوضع تتراجع مؤقتاً صراعات المحاور الدولية، وسياسات مقاومة الامبريالية كما لم يحدث من قبل.

وهذا كله يدعو إلى بناء القوى العربية القادرة على المواجهة، والى تطوير وعي شعبنا بحقوقه، وتعبئته للدفاع عنها.

وبالتالي، فإن زيادة دور قوانا الذاتية، هو الأساس في المواجهة. واهم مافيه تطوير الحركة الشعبية في كل الوطن العربي، لتعبر عن ارادة الشعب، ولتحشد قواه في المواجهة.

لقد اعتمد العرب كثيراً، ومنذ بداية مايسمى عصر النهضة على المناشدات الدولية، والتماس عون الدول الكبرى، ولكن ذلك كله لم يساعدهم على تحقيق اي هدف من اهدافهم. وعلى النقيض من ذلك، حلت بهم الكوارث والنكبات المعروفة. وآن لهم ان يحشدوا قواهم لتحقيق اهدافهم، باعتبار ذلك هو الطريق الوحيد .

هيئة التحرير

الكاتب والمؤرخ السوفييتي «يفغيني يفسييف» في مواجهة الصهيونية* «القومية والأمية»

جهاد صالح*

في ١٧ شباط ١٩٩٠ ، اغتيل في موسكو ، الكاتب والمؤرخ السوفييتي « يفغيني سيمينوفتش يفسييف » ، أحد أكثر الرموز والكتاب مناهضة للصهيونية في العالم ، وأكثرهم تأييداً للقضية الفلسطينية . وإذا كانت الجهة التي اغتالته معروفة تماماً ، عبّر عنها الآلاف من مؤيديه في اليوم التالي لوفاته ، الذين تجمعوا أمام مبنى التلفزيون السوفييتي ، وهم يرددون : « الصهيونية لن تمر » و« الموت للصهاينة » كما عبرت عنها الكلمة المؤثرة التي ألقاها صديقه المؤرخ اللينينغرادي المعروف « رومانينكا » الذي تساءل : « هل الديمقراطية والتعددية للصهاينة ، والموت لنا » . وكذلك في البيان الذي أصدره اتحاد الكتاب الروس في موسكو . فإن زمان ، ومكان ، وطريقة الاغتيال ، قد أثار ويثير عشرات

* كاتب من فلسطين.

الأسئلة ، مثلما كانت حياة « يفسييف » ونشاطاته تثيران جدلاً واسعاً ، ليس فقط في الأوساط الصهيونية والامبريالية ، بل وفي الأوساط التقدمية نفسهـا . وفي الآونة الأخيرة أثار جدلاً حتى في الأوساط الفلسطينية ، والتي تتمحور جميعها حول « نزعته القومية الروسية » ، وموقفه الحاسم الذي لا يقبل المساومة من « الحركة الصهيونية » ونشاطاتها داخل الاتحاد السوفييتي ، وخارجه ، وتفاعلات هذا الموقف والنشاط داخل الاتحاد السوفييتي ، وانعكاساته على القضية الفلسطينية ، خاصة إن هذا الموقف ، قد انطلق عند يفسييف والتيار الشعبي الذي يمثله ، من قناعة ، أصبحت تمثل له « مسألة حياة أو موت » ، هذه القناعة التي أصبحت أكثر تعضياً في ظل العهد الجديد ، حيث المجتمع السوفييتي نفسه أصبح أكثر تحركاً ، وحيث فجرت قوى التأثير الاجتماعي ، كالعلنية ، وحرية الانتقاد ، الحماس الروحي القومي في مختلف الجمهوريات السوفييتية . هذا الانفجار الذي يبدو في أحد وجهيه موضوعياً وطبيعياً ، بفعل الحقبة التاريخية الطويلة من البيروقراطية ، والفردية والجمود العقائدي . فإنه يبدو في وجهه الآخر ، قسرياً ، أو موجهاً نحو إجراء خلخلة اجتماعية ، وسياسية ، خارج التطور الموضوعي للأحداث الجارية في الاتحاد السوفييتي ، ونحو تدمير الأسس التي قام عليها النظام الاشتراكي ، وتجربته في ترسيخ تجربة المجتمع السوفييتي متعدد القوميات ، من قبل القوى والرموز الأكثر رجعية ، وحقداً على الاشتراكية والتقدم ، وفي مقدمتها « الحركة الصهيونية » كقوة منظمة ، تمتلك امتداداتٍ رجعيةً في الخارج ، وتحتل مواقعها المؤثرة في مختلف الهيئات ، والمؤسسات ، الأكثر تأثيراً على الوعي التعبوي السوفييتي .

فمن المعروف ، أن الحركة الصهيونية ، بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، قد اتخذت قراراً في الذوبان عمودياً وأفقياً في المجتمع السوفييتي ، بدءاً بهيئات الحزب الشيوعي ، وانتهاءاً بشبكات التهريب والسوق السوداء ، مروراً بالمؤسساتِ الإعلامية والثقافية والفنية ، لتلعب دوراً مؤثراً ، ليس فقط في الحياة الاجتماعية السوفييتية ، بل لتؤدي أيضاً دوراً سياسياً على الصعيد الخارجي ، خاصة فيما يتعلق بالنشاطات العالمية للحركة الصهيونية ، وتكريس مشروعها الكولونيالي في فلسطين ، والصراع العربي - الصهيوني الذي نتج عن هذا المشروع ، والذي أصبح يعرف « بمشكلة الشرق الأوسط » .

وبغض النظر عن بعض الارتباكات في الموقف السوفييتي ، تجاه مسألة الصراع العربي - الصهيوني ، في بعض المراحل ، مثل : تأييد قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، والاعتراف بالكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ ، وتأييد القرار ٢٤٢ عام ١٩٦٧ ، فإنه وبشكل عام ، ومنذ العام ١٩٥٦ ، ظل الاتحاد السوفييتي متمسكاً بموقفه الثابت والحاسم لجهة تأييد القضايا العربية في مختلف المجالات من ناحية ، ولجهة إدانة الأعمال العدوانية والتوسعية من ناحية ثانية . الأمر الذي جعل الاتحاد السوفييتي ، والنيل من سمعته الدولية ، والتشهيرية هدفاً صهيونياً استراتيجياً ، كما جعل بالمقابل الحركة الصهيونية عدواً مباشراً له ، ولدول المنظومة الاشتراكية .

وفي ظل هذا الوضع ، تبلورت في الاتحاد السوفييتي عدة أشكال ومؤسسات ، تعمل لتعميق التعاون والصداقة مع البلدان العربية من ناحية ، وتناهض الصهيونية ، والأعمال العدوانية الاسرائيلية من ناحية ثانية . برز خلالها عدد من الرموز المهمة من الكتاب ، والسياسيين السوفييت ، أسهموا إسهاماً

عظيماً في الكشف عن جوهر الصهيونية ، وأعمالها التخريبية في المجتمعات المختلفة ، الأمر الذي اسهم في تعبئة الرأي العالمي ضدها ، وكذلك فقد أسهمت هذه الجهود ، في خلق مناخ دولي مؤيد للقضية الفلسطينية ، ومتعاطف مع القضايا العربية .

أمـا في ظل العهد الجديد ، والتغييرات الجارية في الاتحاد السوفييتي على مختلف الجبهات الاقتصادية - والاجتماعية ، والسياسية ، والثقافية ، وفي ظل مناخ الديمقراطية ، والعلنية ، والتعددية ، وانفجار المسألة القومية بشكل حاد ، فإن بعض الرموز الصهيونية ، قد أطلت برؤوسها ، وبدأت ترفع أصواتها للاستفادة من الوضع الجديد ، بأقصى سرعة ، وأكثر فاعلية ، لتحقيق ثلاثة أهداف رئيسية .

الاول ؛ الاستفادة من مبدأ التعددية ، لإضفاء صفة الشرعية . والعلنية على النشاط الصهيوني في الاتحاد السوفييتي ، ومحاولة تأسيس حزب صهيوني معترف به .

الثاني : الاستفادة من مبدأ إطفاء بؤر التوتر الإقليمية في العالم الذي يتبناه العهد الجديد ، وسياسة التقارب بين الشرق والغرب ، لدفع الاتحاد السوفييتي لإعادة العلاقات مع « اسرائيل » ، واتخاذ موقف وسطي في الشرق الأوسط .

الثالث : الاستفادة من الوضع القومي الذي انفجر بحدة في مختلف الجمهوريات ، وكذلك الاستفادة من قانون حرية التنقل والهجرة ، لرفع وتيرة الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة ، وإثارة مسألة النزعة الروسية الناشئة ، وتضخيمها لتخويف اليهود من عودة اللاسامية في روسيا ، وتذكيرهم بالمذابح الروسية القديمة التي ارتكبت بحق اليهود .

ومما لا شك فيه ، أن الحركة الصهيونية ، ونتيجة للتحولات السريعة في المجتمع السوفييتي ، قد حققت نجاحات لا يستهان بها ، في هذه الميادين الثلاثة ، فهي . أولاً : وإن لم تنجح حتى الآن في انتزاع اعتراف رسمي بتأسيس حزب صهيوني ، فإنها استطاعت انتزاع موافقة لعقد المؤتمر اليهودي في موسكو ، في نهاية العام الماضي ، وراح عدد من الكتاب والصحافيين اليهود ، ينشرون في الصحف ووسائل الإعلام الأخرى مقالاتٍ وإعلاناتٍ مواليةً بشكل مباشر ، وغير مباشر للصهيونية . ومن ناحية ثانية : فإن العديد من الأصوات ، رافقتها خطوات عملية ، راحت تطالب بتطبيع العلاقات مع الكيان الصهيوني ، وتخطي قرار قطع العلاقات عام ١٩٦٧ .

ومن ناحية ثالثة : وبفعل النزعة القومية التي اجتاحت الاتحاد السوفييتي ، وخاصة في الجمهورية الروسية ، أكثر المناطق التي يتواجد فيها اليهود ، وبفعل قانون حرية التنقل والسفر والهجرة الجديد ، والتسهيلات الممنوحة لليهود ، استطاعت الصهيونية دفع عدد كبير منهم للهجرة من الاتحاد السوفييتي إلى الكيان الصهيوني .

وبـما أن المقصود بالبريسترويكا ، والعهد الجديد ، هو إعادة صياغة المجتمع السوفييتي ، على مختلف المستويات والصعد ، فإن ذلك يحتاج إلى تربية وثقافة جديدة . ومثل هذه العملية التاريخية ، لا يمكنها أن تتقدم إلا ببطء ، حتى تستقر على أسسها الموضوعية ، فإن الرموز الصهيونية ، تحاول بكل جهد الاستفادة من الـوضع الحالي المتفجر ، بأقصى سرعة ممكنة ، وكذلك تحاول إبقاء استمرار حالة عدم

الاستقرار الجارية الآن في عموم الاتحاد السوفييتي أطول مدة ممكنة .

هذه الصورة ، وإن تكن متشائمة ، لجهة انعكاساتها على القضية الفلسطينية ، وتأثيراتها على مسار الصراع العربي - الصهيوني ، وميزان القوى الإقليمي والدولي بشأنه . فإنها يجب ان لا تجعلنا ، لا نرى وجهها الآخر ، والمتمثل بالجهد المكثف والحيوي لدرجة البطولة ، الذي تقوم به الرموز والشخصيات السوفييتية المؤيدة للقضايا العربية ، والمناهضة للصهيونية ، والتي استطاعت بفعل هذا الجهد ، أن تمنع العناصر الصهيونية من الاستفادة الكاملة من التغييرات الجارية والأوضاع المتفجرة في الاتحاد السوفييتي ، بل إنها قامت هي الأخرى بالاستفادة من هذه المتغيرات والأوضاع ، لخلق حالة شعبية واسعة ، مناهضة للصهيونية ، ومؤيدة للقضايا العربية .

ومن المفيد أن نشير في هذا المجال ، إلى أنه في الآونة الأخيرة ، وكرد على النشاطات الصهيونية سالفة الذكر ، برزت ثلاثة تيارات سوفييتية وروسية مناهضة للصهيونية :

الأول : اللجنة السوفييتية لمكافحة الصهيونية ، والمشكلة من العناصر ، والفعاليات اليهودية ، برئاسة الجنرال « ديفيد دراغونسكي » ، هذه اللجنة ، وإن تكن قد شكلت قبل العهد الجديد ، أي في عهد « يوري أندروبوف » عام ١٩٨٢ ، فإن استمرارها على الرغم من المعطيات الجديدة ، والضغوطات المتعددة ، يعني استمراراً للموقف الرسمي تجاه الصهيونية من ناحية ، ومن ناحية أخرى تعني أن تياراً يهودياً ، ما زال خارج دائرة التأثير الصهيونية .

الثاني : تيار الإخاء القومي الروسي ، وهو التيار المنادي بتمايز الشخصية الروسية ، بكل ما فيها من قوميات ، ويعتبر اليهود الروس جزءاً من القومية الروسية ، ويعتبر الصهيونية معادية لروسيا ، ويناهضها بقوة ، أما على صعيد الموقف من الصراع العربي - الصهيوني ، فهو يؤيد التسوية السلمية في إطار المؤتمر الدولي ، ويؤيد عودة العلاقات مع « اسرائيل » ، ويرى في هذه العودة مدخلاً لدفع « اسرائيل » للقبول بالتفاوض مع الفلسطينيين ، ويرى من خلالها إمكانية أكثر لقيام الاتحاد السوفييتي بلعب دور مؤثر في هذه التسوية .

الثالث : تيار « روسيا النظيفة » - والذي يعتبر « يفسييف » أحد رموزه النشيطين ، وينادي بتمايز القومية الروسية ، شأنها شأن القوميات الأخرى ، ويرفض تذويب هذه القومية بالهوية السوفييتية ، كما كان سائداً في العهود السابقة ، يعادي الصهيونية بكل قوة ، ويرفض عودة العلاقات مع اسرائيل . أما بصدد « اليهود » فينادي بذوبانهم في المجتمع الروسي ، ويرفض أي تمايز أو نشاط قومي لهم .

وهذا التيار ، وأفكار ونشاطات « يفسييف » بالذات أثارت جدلاً واسعاً ، ليس فقط في الاوساط الصهيونية والامبريالية ، بل وفي الأوساط التقدمية نفسها ، كما إنه أثار في الآونة الاخيرة جدلاً حتى في الأوساط الفلسطينية ، تمحور حول « نزعته القومية الروسية » ، وتفاعلاتها في الاتحاد السوفييتي ، وانعكاساتها على القضية الفلسطينية .

وتتلخص وجهة نظر المعارضين ليفسييف من جميع الاتجاهات في التساؤلين التاليين :

الأول : كيف يمكن التوفيق بين نزعته القومية « الروسية » ، مع تمسكه بالشيوعية ، وبالتطبيق الأممي

للمجتمع السوفييتي الاشتراكي ؟

الثاني : كيف يمكن فهم موقفه الحاسم في تأييد قضية الشعب العربي الفلسطيني ، والمطلق في معاداته للصهيونية ، في نفس الوقت الذي تسهم نشاطاته ، في خلق المبررات لزيادة الهجرة اليهودية ، أي تسهيل مهمة الصهيونية بشكل غير مباشر ؟

وكما هو واضح ، فإن التساؤلين يندرجان في موضوعة واحدة ، يمكن أن نسميها « القومية والأممية » عند يفسييف .

القومية والأممية عند يفسييف

وفي حوار معه حول هذا الموضوع ، لخص « يفسييف » وجهة نظره على النحو التالي : « لقد رأى لينين ، والحزب الشيوعي لعموم روسيا ، بعد نجاح ثورة أكتوبر الاشتراكية ، أن نجاح التجربة السوفييتية ، يقتضي صهر القومية الروسية ، في المجتمع الاشتراكي الجديد ، في الوقت نفسه الذي يقتضي بعث ، وتطوير المزايا القومية الإيجابية عند القوميات السوفييتية الأخرى ، وذلك لسببين :

الأول : التخوف من النزعة القومية الروسية الاستعمارية ، التي كانت سائدة قبل انتصار الثورة ، وطمأنة القوميات السوفييتية الأخرى .

الثاني : لكي يمثل الروس الحاضنة القومية لنجاح تجربة بناء المجتمع الأخوي الجديد ، على اعتبارهم القومية الأكثر عدداً وحضارة .

ويمضي « يفسييف » في وجهة نظره ، فيقول : « إذا كان صهر القومية الروسية ، في المجتمع السوفييتي صحيحاً ، لإنجاح التجربة السوفييتية ، فإنه أصبح ضرورياً إعادة الاعتبار لها ، بعد تكريس هذه التجربة ، بعد سبعين سنة من تطبيقها ، بل إنها اليوم أصبحت قضية نضالية يجب أن يخوضها الشعب الروسي ، بعد الانفجار الحاد للمسألة القومية ، في ظل العهد الجديد ، الذي بدأ فعلياً منذ العام ١٩٨٧ ، فأنا روسي - لأنني روسي - وروسيا بلد عظيم ، له تاريخ قديم ، وحضارة عريقة ، وحبي لوطني وشعبي ، لا يعني نزعة شوفينية . فالشوفينية ليست حب الوطن والقومية ، بل هي كراهية الشعوب الأخرى ، والعداء لها ، ومن المفروض أن ذلك هو الأساس الذي بني عليه نظام الاتحاد السوفييتي ، كنظام اشتراكي أممي ، بهذا المعنى ، فأنا إلى جانب كوني روسياً ، فأنا أيضاً سوفييتي بالمعنى الحقيقي ، والعلمي لهذه الكلمة .

بهذا الوضوح ، وهذه الصراحة ، يلخص « يفسييف » وجهة نظره ، وباعتقادي إن مثل هذا الرأي لا يشكل خروجاً عن رؤية المسألة القومية من منظار الماركسية اللينينية ، بل التزاماً بها ، ولا يشكل انتقاماً لتجربة البناء السوفييتية ، بل تماشياً معها ، فالاعتزاز القومي نقيض التعصب القومي ، وهو في صلب التطبيق الحيوي الأخوي للمجتمع الاشتراكي ، متعدد القوميات .

وهنا تبرز مسألة ملحة ، لا بد أن نتناولها ، ونحن نناقش هذا الموضوع ، ملخصها في صيغة السؤال

التالي :

لماذا يوصف « يفسييف » بالسوفييتي ، ويتعرض لحملات ضارية ، من قبل العناصر اليهودية والصهيونية ، أو القريبة منها فقط ، بينما يحظى باحترام كبير لدى مختلف القوميات السوفييتية الأخرى ، من الطاجيك إلى التتار ، مروراً بالأرمن والملدافيين ، وغيرهم ؟

والسؤال الآخر المتفرع من موضوع السؤال السابق هو : لماذا يجند الكتاب اليهود في الاتحاد السوفييتي أقلامهم ، لتأييد النزعات القومية في الجمهوريات السوفييتية غير الروسية ، بل إن بعضهم أعطاها الحق في الاستقلال والانفصال ، بينما يعارضون بشدة النزعة الروسية ويصفونها بالشوفينية ؟

هنا تتحدد المسألة ، و تتبلور حقيقة ودوافع الموقف المعادي ، للتيار السياسي الاجتماعي الذي يمثله « يفسييف » في الاتحاد السوفييتي عموماً ، وفي روسيا بشكل خاص ، حيث تتواجد الغالبية العظمى من اليهود السوفييت ، وحيث بدأت العناصر الصهيونية تنشط بشكل علني ، مستغلة الجو الديمقراطي ، والعلنية ، اللذين طرحهما العهد الجديد .

وقبل أن نلقي الضوء على الموقف السياسي والأخلاقي الذي يمثله « يفسييف » في الاتحاد السوفييتي ، نتعرف عليه من خلال بعض المقالات التي نشرتها بعض الصحف الغربية الموالية للصهيونية ، أو الأقلام الصهيونية في الصحف السوفييتية .

● لقد طالبت ، صحيفة « مورننغ فراي غاير » الأميركية الصهيونية ، بتشديد الحصار الاعلامي ، على أعمال يفسييف ، وحرقها (بالفعل ، فمن الغرابة بمكان ، ان كتب يفسييف التي كانت تصدر ، سرعان ما تختفي من الأسواق والمطابع ، لدرجة اضطرته في الآونة الاخيرة ، لأن يوزع بنفسه كتبه التي يصدرها ، وأعتقد أن الأصابع واضحة في هذا المجال) .

● ثم عادت الصحيفة نفسها ، في عام ١٩٨٤ للإعلان : بأنه يمكن القول بسرور : إن اسم « يفسييف » قد اختفى من الصحافة السوفييتية ، منذ العام ١٩٨٢ (وفي ذلك إشارة واضحة ، إلى الحصار الإعلامي الذي استطاعت أن تفرضه العناصر اليهودية ، ذات الميول الصهيونية في الصحافة السوفييتية على كتاباته ومقالاته ») .

● أما مجلة « دير شبيغل » الألمانية ، فقد وصفته بأنه « مجرم حرب تشيكي » ، شارك في تعذيب اليهود في معسكرات النازية .

وفي ظل العلنية ، والديمقراطية ، الجارية اليوم في الاتحاد السوفييتي ، فقد انتقلت هذه الحملة الصهيونية الضارية ضد « يفسييف » إلى الصحافة السوفييتية نفسها ، فكتب « الكسندر بوفين » الصحفي اليهودي المعروف بصهيونيته ، وعدائه للشعب العربي ، مقالاً ، وصفه فيه بالشوفينية ، ومعاداة السامية ، والتحضير لمجازر ضد اليهود .

وقبل اغتياله بعشرة أيام ، وزعت وكالة « تاس » بياناً أصدره الجنرال اليهودي « ديفيد دراغونسكي » ، رئيس اللجنة السوفييتية لمكافحة الصهيونية ، اتهم فيه « يفسييف » بمعاداة السامية ، وإثارة الأحقاد ضد اليهود ، والإضرار بعمل لجنته . الأمر الذي دعا « يفسييف » إلى رفع دعوى قضائية

ضد الجنرال ووكالة « تاس » ، بتهمة « تشويه السمعة » ، وطالب بمواجهة صحفية علنية لتحديد من يعمل لإثارة النعرات القومية (مشيراً إلى أن مجرد نشر البيان بهذا الشكل ، الهدف منه إثارة مثل هذه النعرات) . والجدير بالذكر أن المحكمة قبلت الدعوى ، وحددت يوم ٢٢ شباط موعداً للجلسة الأولى (ولا ندري ، ما إذا كانت المصادفة هي التي أودت بحياته قبل تاريخ المحاكمة بخمسة أيام أم لا !!) .

يتضح مما سبق ، أن هذه الحملة الإعلامية ، ليست بسبب اعتزاز يفسييف القومي ، بل بسبب موقفه المعلن والصريح ضد الصهيونية ، ونضاله ضدها ، وبالتالي تأييده الحاسم للشعب العربي في نضاله لتحرير أرضه ، وانتزاع حريته (وكعادة الصهاينة منذ تأسيس منظمتهم العالمية عام ١٨٩٧ ، فإنهم يلصقون تهمة معاداة السامية واليهود ، لكل من يتصدى لفكرة ، ونشاطات الصهيونية) .

واذا امعنا النظر في مؤلفات « يفسييف » :

١) الصهيونية بين النظرية والتطبيق .
٢) الصهيونية في روسيا القيصرية .
٣) التخريب الفكري الصهيوني .
٤) الصهيونية والعرب .
٥) الفلسطينيون شعب لن يقهر .
٦) فلسطين في شراك الصهيونية .
٧) فلسطين فوق مشنقة الصهيونية .
٨) الفاشية في ظل النجمة السداسية .

بالإضافة إلى عشرات المقالات ، والدراسات ، وسيناريوهات الأفلام الوثائقية ، نجد أنها تتمحور في ثلاثة محاور ، تلتقي جميعها في موضوعة واحدة ، هي الموقف من الصهيونية ، وضرورة مواجهتها بضراوة .

● **المحور الاول : اليهودية والصهيونية :**

ففي جميع كتابات « يفسييف » ، لا نجد أي نص معادٍ لليهودية كدين وأنه في الغالب عندما يتعرض لها ، فلتفنيد حجج الصهيونية ، حول وجود « شعب يهودي عالمي » و« أمة يهودية عالمية » ، ولاثبات أن اليهودية ليست سوى ديانة عبر الدراسات العلمية . ويؤكد في مؤلفه « الفاشية في ظل النجمة السداسية » : « أن الدين لا يعتبر أساساً لشعب ، أو أمة . والوحدة الدينية لم تنتج أبداً شعباً أو قومية ، أو حتى قبيلة . ويستشهد « بأن العناصر الروحية والدينية العامة عند اليهود ، لا تتميز عن تلك العناصر الموجودة لدى المسلمين والمسيحيين ، بل إنها أقل ترابطاً ، غير أن ذلك لا يعطينا الأسس العلمية للاعتقاد بوجود أمة اسلامية ، أو أمة مسيحية .

من هنا ، فتسييس الحالة اليهودية المنتشرة في حوالي مئة دولة من قبل الصهيونية ، خدمة للرجعية ،

قد جعل منها ، أحد أكثر أشكال العنصرية فاشية ، وبالتالي فمحاربتها واجب إنساني عالمي ، نظراً للدور التخريبي الذي تقوم به بين الشعوب . ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ، وحتى اليوم ، ومعاداة السامية ، هي : سلاح الصهيونية ، والوجه الآخر لعملتها ، لدفع اليهود للهجرة إلى فلسطين . لتحقيق حلم الصهاينة باسرائيل الكبرى .

● **المحور الثاني : روسيا القومية في الاتحاد السوفييتي :**

بالإضافة إلى ما سبق ، وأشرت إليه حول هذا الموضوع ، فإن يفسييف ، وتيار المثقفين الروسي الذي يمثله ، يطرحون في ظل المعطيات والمتغيرات التي تعصف حالياً في المجتمع السوفييتي ، خاصة على صعيد المسألة القومية ، شعار « روسيا النظيفة » .

وفي أحد جوانبه الواضحة ، فإن هذا الشعار ، يعني ، التصدي بضراوة للعناصر الصهيونية ، المرتدية رداء اليهودية ، والسوفييتية ، وعدم السماح لها بالإمساك بزمام الأمور الروسية ، كما حصل بتشيكوسلوفاكيا ، والمانيا ، والمجر ، ورومانيا .

وحول اليهود في روسيا يقول « يفسييف » : « نحن لا نمانع أن يعيشوا بيننا ، بل نريد ذلك ، لكننا لن نسمح باستمرار التسلط اليهودي الصهيوني في بلادنا ، هذا التسلط الذي بدأ منذ ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ ، تحت شعار الأممية البروليتارية . أهلاً بهم كمواطنين مثلنا ، شريطة أن يحترموا تاريخنا ، وحضارتنا ، وسيادتنا ، إنهم دين وليسوا قومية ، لذا أهلاً بهم كيهود لهم كامل الحقوق ، وعليهم واجب الإخلاص ، أما كصهاينة فالمسألة بالنسبة لنا ، مسألة حياة أو موت » .

وفي هذا المجال ، نشير إلى أن أرشيف « يفسييف » الخاص ، يحتوي على عشرات الوثائق ، والدراسات التي تؤكد التخريب المتعمد الذي قام به اليهود الصهاينة ، مقنعين زوراً بقناع الأممية ، لإزالة المعالم التاريخية والحضارية للشعب الروسي بأشكال مختلفة . وقد نشر عدة مقالات ، تحدث فيها بالوثائق ، عن إزالة حوالى ٥٠٠ أثر حضاري روسي ، في مدينة موسكو وحدها ، بحجة تجميلها وتحديثها ، وتوسيع شوارعها ، وغيرها من المبررات . وبالرجوع إلى أصحاب القرارات ، والمهندسين في هذا الشأن ، نرى أنهم كانوا في غالبيتهم من اليهود .

لذا ، يؤكد « يفسييف » : « إذا كنا صمتنا في المرحلة السابقة ، حرصاً منا على نجاح التجربة السوفييتية ، متعددة القوميات ، في مجتمعنا ، فلن نسمح لعجلة التاريخ أن تعود إلى الوراء في ظل المستجدات الجارية في بلادنا ، فالحركة الصهيونية : حركة فاشية ، وهي ضد الشعب الروسي منذ ولادتها ، ولن نسمح لها بالنشاط , وإذا سمحت لها السلطات السوفييتية بذلك ، فستتصدى لها وللسلطات معاً » .

أما الحل الذي يراه يفسييف للمسألة اليهودية ، فينحصر في « الذوبان » والاندماج في المجتمعات التي

يعيشون بين ظهرانيها ، أي في الحل اللينيني للمسألة اليهودية ، في إطار الرؤية الشاملة للمسألة القومية . لأن في ذلك دفناً عملياً لمقومات الفكرة الصهيونية من أساسها .

● **المحور الثالث : فلسطين أرض عربية ، والفلسطينيون شعب لن يقهر :**

أما على الجانب الآخر من موقف « يفسييف » المناهضة للصهيونية ، وهو الموقف الذي يمثل رأي تيار شعبي واسع ، فهو الموقف المؤيد للقضية الفلسطينية بخاصة ، وللقضايا العربية بعامة . إذ يرى ، أن من يقف ضد العنصرية بكل أشكالها ، لا بد وأن يقف مع الشعب العربي الفلسطيني ، الذي وقع ضحية الصهيونية والامبريالية .

وفي حواره مع أصدقائه الفلسطينيين والعرب ، يقول « يفسييف » مازحاً : كيف أكون معادياً للسامية ، وأنا أحبكم كل هذا الحب ، يبدو أن الصهيونية تريد أن تحتكر سلالة « سام » وحدها ، أليست هذه سرقة للتاريخ ؟

ويمكننا أن نلخص موقفه المؤيد للحق الفلسطيني على النحو التالي :

١ - إدانته للقرار الدولي الرامي إلى تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ ، كتطبيق لا قانوني لمبدأ تقرير المصير ، وحرية الإنسان .

٢ - إدانته للموقف السوفييتي ، الذي أيد قرار التقسيم أولاً ، ثم تبعه بالاعتراف بالكيان الصهيوني ، معتبراً ذلك من جرائم ستالين السياسية ، مطالباً العهد الجديد بتصحيح هذا الخطأ ، « ما دمنا في وضع نقدي شامل لمرحلة عبادة الفرد التي مثلها ستالين » .

٣ - التصدي لكل المحاولات الرامية لتطبيع العلاقات السوفييتية - الاسرائيلية .

٤ - نقد التراخي العربي في مواجهة الكيان الصهيوني .

٥ - نقد المواقف الفلسطينية ، التي تعتقد أن بإمكانها تحقيق مصلحة شعبها ، عن طريق الحوار ، والتخلي عن القوة لتحرير أرضها .

أما عن رؤيته لحل المشكلة الفلسطينية في وضعها الراهن ، فيرى أنه لا يجوز القبول بأي شكل من الأشكال ، بأقل من القبول بقرار التقسيم لعام ١٩٤٧ ، على الرغم من عدم قانونيته . ويؤكد انطلاقاً من طبيعة الصهيونية ، وكيانها العنصري العسكري ، أن مثل هذا الحل لا يأتي إلا بالقوة ، وهنا يقول بوضوح :

« القوى الفاشية ، والعنصرية ، لا تحاور ، بل تقاتل ، إنني أعجب كيف أن بعضكم قد نسي هذه الحقيقة » .

* * *

هذه المحاور الثلاثة ، المتداخلة في امتداداتها وتشعباتها ، والمتوحدة في جوهرها ، تمثل الأفكار الرئيسية التي توجه كتابات ونشاطات يفسييف ، وهي وإن كانت عنيفة في بعض جوانبها ، فإنها ردة فعل ، لفعل عنصري فاشي صهيوني ، يعتمد القوة ، ويهدد الآخرين ، ويشوه مواقفهم ، ويقوم على تخريب السمات الرئيسية التي تميز الشعوب العربية في حضارتها ، وليست « اسرائيل » سوى نقطة الارتكاز لأخطبوطها التخريبي حول عنق البشرية والإنسانية . شعار « روسيا النظيفة » لم ينطلق من مفهوم عنصري ، بقدر ما كان جواباً لازدواجية الولاء عند اليهودي الصهيوني ، وعدم توافر الحد الأدنى للمواطنية الصالحة عنده ، فالروسي والأرمني ، أو الأذربيجاني عندما يهاجر من الاتحاد السوفييتي ، يظل يشعر بالغربة ، لأنه هو في الخارج ، يظل يحن إلى وطنه السوفييتي . أما اليهودي المتأثر بالدعاية الصهيونية ، فإنه عندما يهاجر ، يقطع جذوره مع الاتحاد السوفييتي ، معتقداً أنه عائد إلى وطنه الذي تربطه به صلة ، أي إن اليهودي الصهيوني ، لا يشعر بالمواطنية الحقيقية في الاتحاد السوفييتي ، بل يعتبر أن وجوده فيه طارىء ومؤقت ، بانتظار الفرصة المواتية للرحيل . فكيف يمكن للإنسان الروسي ، بالمقابل أن يراه بمرآة المواطنية الصالحة وهو يرى الأضرار الفادحة التي تلحق بالمجتمع السوفييتي والروسي من جراء هذا الموقف الصهيوني ؟ يشير يفسييف إلى هذه النقطة بالذات ، في المقابلة التي أجرتها معه مجلة « المنار » ، في شهر أيار عام ١٩٨٨ ، فيقول : « تقدر خسائرنا بسبب حادثة « تشيرنوبل » بحوالي مليوني روبل ، أما خسارتنا بسبب هجرة ٣٠٠ ألف يهودي ، خلال العشرين سنة الماضية ، فتقدر بعشرة أضعاف هذا الرقم ، لأنهم كانوا يقومون بتهريب الايقونات ، والتحف الغالية ، واللوحات التاريخية ، والمعلومات القيمة ، والذهب ، وغير ذلك . بالاضافة الى أن الهجرة اليهودية ، بحد ذاتها ، تمثل خسارة معنوية ، وعلمية هامة ، الهدف منها تخريب النظام الاشتراكي » .

والصهيونية ، امعاناً في تكريس نهجها في روسيا ، راح قادتها المتسترون بالأممية ، يهاجمون ويهددون ، ويقتلون ، كل من يعتز بقوميته ، وتاريخه ، ورموزه . وفي حوار مع يفسييف قال مندهشاً : « تصور إنهم يريدون أن يثبتوا أن اليهودي الاميركي ، والفالاشا الاثيوبي ، واليهودي اليمني والفرنسي والروسي ، ليسوا فقط أبناء شعب واحد ، بل إنهم شعب الله المختار » ، بينما إذا تحدثنا عن تاريخنا الروسي ، وعن غوغول ، وبطرس الأكبر ، ودوستويفسكي ، فإننا في نظرهم لسنا فقط شوفينيين ، بل ومعادين للسامية . إنهم يبحثون عن البطل الإيجابي في تاريخهم على ندرته ، بينما أبطالنا ، عنصريون ، لا ساميون قتلة ، يستحقون القتل ، هكذا حرَّموا دوستويفسكي ، لأنه تحدث عن البطل السلبي اليهودي ، ونبشوا قبر ماياكوفسكي ، لأنه أنشد للجنود والثورة ، وادانوا مكسيم غوركي ، لأنه لم يطلق النار على ستالين ، وقتلوا يوري إيفانوف ، (صديق يفسييف) لأنه حذر من الصهيونية ، بينما يصبح « يفتشينكو نجماً عالمياً » ، لأنه مجد اليهود الذين قتلهم النازيون في كييف ، وايتماتوف الذي يعتقد أنه يشق طريقه الى جائزة نوبل عبر تل ابيب » .

إزاء ذلك يمكننا ، واستناداً إلى ما تقدم ، أن نشارك في الجدل الذي أثارته مواقف « يفسييف » قبل اغتياله ، وإلى البحث عن الأجوبة لعشرات الأسئلة التي أثارها حادث اغتياله في قلب موسكو ، مع ما

رافق ذلك من تعتيم إعلامي سوفييتي رسمي .

فالاعتزاز القومي عند يفسييف ، يستند إلى المبدأ اللينيني ، بشأن المسألة القومية ، وليس خارجاً عنها . أي أنه ينطلق من التعاون ، والتآخي القومي في المجتمع الاشتراكي متعدد القوميات . وموقفه من الحركة الصهيونية ، ليس نابعاً من يهوديتها ، أو ساميتها ، بقدر ما هو تصدٍ لعنصريتها ، ولدورها الرجعي التخريبي ، داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه . وهذا الموقف أيضاً ، نابع من صلب الفهم اللينيني لجوهر وأهداف الحركات الرجعية العنصرية .

أما بشأن موقفه من القضية الفلسطينية ، والشعب العربي الفلسطيني ، فهو نابع أيضاً ، من التطبيق اللينيني الحقيقي لمبدأ تقرير المصير ، الذي تنافى ماضياً مع الموقف السوفييتي إثر موافقته على قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، وتكرس هذا الخطأ عام ١٩٤٨ ، عندما كان الاتحاد السوفييتي من أوائل الدول التي اعترفت بالكيان الصهيوني ، وحاضراً في محاولات التطبيع الجارية بين موسكو وتل أبيب ، بدءاً بالعلاقات التجارية والثقافية ، وانتهاءاً بفتح أبواب الهجرة اليهودية ، مروراً بانعقاد المؤتمر اليهودي العالمي في قلب موسكو .

إلى هنا ، نلاحظ : أن الموقف القومي عند يفسييف الروسي ، لا يخرج عن إطاره الأممي عند يفسييف السوفييتي ، والموقف المبدئي عند يفسييف الفلسطيني ، لا ينسلخ عن إطاره الإنساني عند يفسييف الشيوعي .

وهذه القناعة المتعضية عنده ، قد تحولت إلى نشاطات عملية ، ومواقف جريئة ، في ظل التطورات المستحدثة في الساحة السوفييتية .

● نشاطات جديدة ، في ظل المتغيرات السريعة :

اذا كان موقف « يفسييف » من الحركة الصهيونية ، قد وجد غطاءه سابقاً في الموقف الرسمي للحزب الشيوعي ، والدولة ، في الاتحاد السوفييتي ، فإنه خلال العهد الجديد ، وما رافقه من تطورات ، قد انفلت من عقاله لمواكبة النشاطات الصهيونية المحمومة .

ولأن الرموز الصهيونية ، وبعض العناصر السوفييتية ، راحت تطالب علناً بعودة العلاقات مع « اسرائيل » ، قام يفسييف بإنشاء « اللجنة الشعبية السوفييتية لمناهضة عودة العلاقات مع اسرائيل » . وقد امتدت فروع هذه اللجنة ونشاطاتها ، إلى مختلف المدن في الجمهوريات السوفييتية ، وصدر عنها عشرات البيانات ، ووجهت البرقيات إلى المسؤولين السوفييت ، التي تؤكد على ضرورة استمرار قطع هذه العلاقات ، انسجاماً مع الدستور السوفييتي المناهض للعنصرية والفاشية . ونظراً لأن أسباب قطع العلاقات القائمة على عدوانية اسرائيل وعنصريتها ما زالت قائمة ، بل ازدادت عدوانية في ظل الانتفاضة الفلسطينية ، وهو ما أجمع عليه الرأي العام العالمي .

ولأن بعض الرموز اليهودية ، بدأت تطالب بإنشاء حزب « صهيويني علني » ، قام يفسييف وتيار

المثقفين الذي يمثله ، بالمطالبة العلنية ، للتخلص من التسلط اليهودي الصهيوني ، في المؤسسات والهيئات القريبة من صنع القرار . وقاد المظاهرات المناهضة للصهيونية ، وهدد المشاركون فيها باجراءات حاسمة ، إذا سمحت السلطات للصهاينة بتأسيس حزب لهم .

وإذا كان العهد الجديد قد سمح بالتعددية ، وهو ما استند إليه الصهاينة في مطالبتهم ، فقد استطاع التيار المعادي للصهيونية تفنيد هذا المطلب ، استناداً إلى نص في الدستور ، يمنع بموجبه أي نشاط من شأنه أن يثير النعرة العنصرية ، والأحقاد القومية . وإذا كان الصهاينة ، وعبر كتاباتهم ، أرادوا أن يستفيدوا من حالة النقد ، والعلنية للعهود السابقة ، للتذكير باضطهاد ستالين لليهود ، ولتخطيء قرار قطع العلاقات مع اسرائيل في عهد « بريجنيف » ، فإن دعاة التيار المناهض للصهيونية ، كرسوا كتاباتهم ونشاطاتهم ، لتبيان الخطأ السياسي والايديولوجي الذي ارتكبه ستالين وعهده ، بتأييد قرار تقسيم فلسطين ، والاعتراف بالكيان الصهيوني فيما بعد .

ونظراً لتغلغل اليهود الميالين للصهيونية ، في أجهزة الإعلام ، وتزايد نفوذهم في الوقت الراهن ، فقد قام « يفسييف » في بداية هذا العام ، بإنشاء وكالة خاصة للأنباء ، سماها « وكالة الأنباء المناهضة للصهيونية » ، حدد أهدافها في نشرتها الأولى ، بثلاث نقاط :

١ ـ كشف النشاطات السرية للحركة الصهيونية داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه ، وفضح العناصر الصهيونية ، والمؤيدة لها .

٢ ـ كشف العناصر الصهيونية المرتدية رداء المواطنية السوفييتية ، والتي تعمل في الخارج ، خاصة في الدول العربية ، وتقديم المعلومات عنها .

٣ ـ التصدي الإعلامي ، للكتابات الموالية للصهيونية ، في وسائل الإعلام السوفييتية ، وكشف وفضح غاياتها .

وفي مجال آخر ، وتعبيراً عن تأييده للقضية الفلسطينية ، وترسيخ العلاقات الأخوية السوفييتية - الفلسطينية ، لعب دوراً فعالاً ، من أجل إحياء نشاط « الجمعية الروسية الفلسطينية » هذه الجمعية التي أنشئت عام ١٨٨٢ ، ونتيجة لنشاطه ، فقد انتخب نائباً لرئيس الجمعية ، وقبل استشهاده بأقل من شهر ، وتحديداً في الفترة الممتدة ما بين ٢٣ ـ ٢٧ كانون ثاني من هذا العام ، عقدت الجمعية ، ندوة دولية في موسكو ، بعنوان : « روسيا وفلسطين ـ العلاقات الروحية والثقافية ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً » .

وكنت ، أحد المشاركين في هذه الندوة مع زميل من الأرض المحتلة عن فلسطين ، وفي هذه الندوة ، قدّم « يفسييف » دراسة عن القمع الصهيوني داخل الارض المحتلة في ظل الانتفاضة ، ونظراً لصلابة موقفه ، وجديته في تعاطفه مع أطفال الحجارة ، علق رئيس الجمعية (اوليغ بيرسييكين) مازحاً :

« يا يفسييف ، ماذا تركت للزميلين الفلسطينيين ، ليقولاه في هذه الندوة » .

أما القضية الأخرى ، التي أثارت جدلاً علنياً واسعاً في الصحافة السوفييتية ، بين الكتاب والصحفيين السوفييت ، وعلى الأخص الروس منهم ، المناهضين للصهيونية ، والموالين لها ، فكانت مسألة « انعقاد المؤتمر اليهودي في موسكو » في بناية قريبة من الكرملين .

وفي أثناء انعقاد المؤتمر ، سار « يفسييف » على رأس مظاهرة عارمة ، حاولت اقتحام المقر ، إلا أن قوات الأمن فرقت التظاهرة بالقوة ، فانتقلت المعركة إلى الصحافة ، حيث اشار الكتاب الروس ، إلى خطورة القرار الذي اتخذه المؤتمر ، باعتبار « الصهيونية مسألة يهودية داخلية » . وهذا يعني صهينة اليهودية ، وبما أن الصهيونية حركة عنصرية بإجماع دولي ، فإن ذلك يعني أن الصهيونية ستلعب دوراً تدميرياً ، نتيجة إثارة الحساسيات القومية داخل المجتمع السوفييتي ، الأمر الذي سينتج عنه رد فعل عنيف من قبل القوميات الأخرى ، التي يعيش اليهود بين ظهرانيها .

ومن الواضح ، أن هذا التحليل ، على الرغم من موضوعيته ، وعلميته ، يحمل في طياته تحذيراً واضحاً ، أثار مخاوف السلطات السوفييتية ، فاتخذت سلسلة من الإجراءات ، كبحت خلالها من غلواء الاندفاعة الصهيونية ، أو المؤيدة لها ، في الهيئات والمؤسسات المختلفة .

وفي هذا المجال ، برزت كتابات « يفسييف » متميزة بالصدق والموضوعية ، إلى جانب الحماس الروحي ، فانبرى له عدد من الصحفيين اليهود ، والروس ، الموالين للصهيونية ، وشنوا حملة ضارية في وسائل الإعلام المختلفة ، على موقف يفسييف من الصهيونية ، وكأنه موقف من اليهود عموماً ، فاتهموه باللاسامية ، والشوفينية . أما سراً ، وعلى الهاتف ، فقد هددوه بالقتل .

وقبل استشهاده بثمانية أيام ، قالت لي زوجته : « هذا المجنون بحبكم ، وكراهيتهم سيقتلونه كما قتلوا صديقه ، يوري إيفانوف ، وهو يعلم ذلك ، ولكنه لا يكترث » . وبالفعل ، أقدمت الصهيونية ، على ارتكاب جريمتها النكراء ، فاغتالت ، هذا المفكر والمؤرخ الروسي الكبير ، وهذا الإنسان السوفييتي الذي يشع إنسانية وجمالاً . وباعتقادي ، إنهم أرادوا من وراء هذه الجريمة ، تحقيق أمرين :

الأول : التخلص من هذا الخصم اللدود للصهيونية .

الثاني : دفع أنصاره المتعصبين للانتقام ، للتلويح بالمذابح ضد اليهود ، تشجيعاً للهجرة .

مهما تكن أهداف الصهيونية ، فاننا خسرنا صديقاً كبيراً ، شجاعاً في مواقفه ، صلباً في قناعته ، مندفعاً في تأييد قضايانا العربية ، خصماً لدوداً لعدونا الرئيسي .

وما زالت كلماته ، تتردد في أذني :

« يا صديقي ، القوى الفاشية والعنصرية ، لا تحاور ، بل تقاتل ، إنني أعجب كيف أن بعضكم قد نسي هذه الحقيقة !! » .

---

* هذه المقالة : عبارة عن دمج للكلمتين اللتين ألقاهما كاتبها . الأولى في الندوة الفكرية التي أقامتها اللجنة العربية لمكافحة الصهيونية ، بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٩٩٠ ، في مقر اتحاد نقابات العمال في دمشق .

والثانية في الندوة التأبينية بمناسبة مرور أربعين يوماً على استشهاد يفسييف ، التي أقيمت في مقر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، بدعوة من الاتحاد ، واتحاد الكتاب العرب ، ولجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية ، بتاريخ ٢٧/ ٣/ ١٩٩٠ .

الشروط الموضوعية والذاتية لتحقيق الحرية في الفكر الاشتراكي

د. حامد خليل*

مقدمة:

صحيح ان قضية تحرير الانسان كانت، طوال خمسة وعشرين قرنا، القضية المركزية التي تشكلت على أساسها المذاهب والاتجاهات الفكرية المتنوعة. لكن أيا منها لم يضعها في إطارها الصحيح مثلما فعل مؤسسو الاتجاه الاشتراكي ومفكروه. وربما لا أجانب الصواب إن قلت إنهم فجروا في هذا المجال ثورة لم تكن بأقل أهمية من الثورة التي فجرها «كوبرنيكوس» في علم الفلك، ان لم تكن أعظم شأنا منها وأكثر جدوى.

فقد أدرك أولئك المؤسسون بعمق كيف أن الأفكار الإنسانية، التي صاغها المفكرون عبر العصور، أصبحت، حين التداول، أداة قهر وتحطيم لإنسانية الإنسان، وتحولت إلى النقيض تماما، لأنها لم تقترن

* استاذ علم الاجتماع ـ عميد كلية الآداب بجامعة دمشق.

بشروط تحققها الموضوعية والذاتية، ولذلك سعوا إلى تصحيح هذا الوضع المقلوب، وجعلوا تلك الأفكار تمشي على أقدامها، عوضا عن أن تظل تمشي على رؤوسها، فتأسس على هذا الأساس علم للإنسان لم يزل العلم الذي يشكل شعار كل الساعين إلى تحرير الإنسان من قيوده واغترابه، والطامحين إلى خلق الإنسان الحقيقي الشامل، الذي هو كل إنسان، والذي لم يحدث أن تحقق على الأرض بعد.

وللتوضيح أكثر أقول: إن مفكري الاشتراكية اكتشفوا أن الأفكار الإنسانية، والحرية واحدة منها، التي حملت رايتها الثورات البورجوازية في العالم، لم تكن، حين التداول، سوى قناع للإمعان في تكريس تبعية شعوبها، وقهرها، واستغلالها من قبل قوى جديدة حلت محل القوى القديمة، وذريعة لتحقيق مصالح طبقة معينة بالذات على حساب تلك الجموع التي كانت وقود تلك الثورات. وقد حدث ذلك لأن الأفكار لم تكن تقترن، لا حين صيغت ولا حين مورست، بشروط تحققها الموضوعية والذاتية، فأصبحت على هذا النحو وبالاعلى من ادعى أنها صيغت لإنقاذهم، عوضا عن أن تكون سلاحاً لتحريرهم.

فالإنسان الذي يُفترَض أن الحرية هي الشرط الأساسي لارتقائه، وتفتح قواه العقلية والبدنية، اصبح تابعاً، باسمها، لإنسان آخر، لأنها لم تقترن بشرط تحققها المادي، الذي هو المشاركة بالتساوي في ملكية المجتمع العامة. إذ حين أصبح أحد يملك أكثر مما يستطيع استثماره بنفسه، بينما لايملك الآخر شيئاً، تحتمت تبعية الثاني للأول، وتوثقت أغلاله من قبله، وباسم الحرية ذاتها، حرية أن تَستخدِم، وحرية أن تُستخدَم.

كذلك حين لم يكن بناء مجتمع إنساني حقيقي شرطا أساسيا لتحقق حرية الإنسان تحققا فعليا وارتقائه، بدا المقتدرون من الناس ينتحون ويبنون ويمارسون، باسم الحرية ذاتها، ما يؤدي الى تعميق الانقسام الطبقي في المجتمع، وانحداره وبالتالي انحدار الإنسان فيه وتكريس تبعيته، وتشيؤه.

فبدلا من البدء في بناء نمط من الإنتاج يهدف قبل كل شيء إلى السير باتجاه تحقيق وفرة من الحاجات الإنسانية الأصيلة، التي تبعث الحياة في القوى الرحبة الكامنة في الإنسان، وتحرضها، وتدفعها في طريق النمو والتقدم، عمدت تلك القوى إلى خلق حاجات غير إنسانية جديدة لكي ترغم الإنسان، مستهدفة الثراء فحسب، على أن يقوم بتضحية جديدة. ولإغرائه إلى السير باتجاه نوع جديد من الحياة الاستهلاكية الرخيصة، ولوضعه في علاقة اعتماد أو تبعية جديدة، وسوقه في نهاية المطاف إلى حيث يلقى حتفه الاقتصادي، ومايترتب على ذلك من تحطيم لقيمه، وانحدار مستواه الإنساني، وتجريده من أسلحته الإنسانية، والأهم من ذلك إن هذه الطريقة في الإنتاج جعلت الجميع، المنتجين والسادة، مستعبَدين من قبل السلع، وشروط صنعها، وطرق تصريفها. وقد تم ذلك باسم الحرية ذاتها، حرية أن تنتج ماتشاء، وتبيع وتشتري ماتشاء.

وفي مثل هذا النمط الإنتاجي المذكور، انحرف العمل، وللسبب المذكور نفسه، عن كونه ميدانا رحبا لصياغة الشخصية الإنسانية، وتفتح قواها وتنميتها، وتحريك فاعليتها، وتحويل مشاعرها من مشاعر تتمركز حول ذاتها إلى مشاعر إنسانية حقيقة وشاملة، أقول، انحرف العمل عن النطاق المذكور، وعن كونه قيمة إنسانية حقيقة، وباسم الحرية ذاتها، إلى بضاعة تباع وتشرى، فتحول الإنسان، حامل تلك

القيمة، ونتيجة ذلك، من إنسان يُفترض أن العمل يحقق إنسانيته إلى تابع أو أداة تقتصر وظيفتها على تشغيل عجلة الإنتاج الدائرة لحساب السيد، والى كائن مسخ شوهه التخصص الآلي الضيق المبتور، وحال دون تحرره وبالتالي دون ارتقائه.

وبكلمة أخرى أقول: إن ماأشرت إليه، أعني عدم اقتران فكرة الحرية بشروط تحققها الموضوعية والذاتية، ادى الى ان يصبح غرض الانسان ليس غرضه. اذ ان تكديس الثروة أصبح المطلب الأساسي، وأصبح قدْر الإنسان أن يسهم في زيادتها لا من أجل ارتقائه الانساني - بل كفاية في ذاتها. وقد تحول على هذا الأساس الى مجرد ترس في الآلة الاقتصادية الضخمة، الترس الذي يكون «هاما» اذا كان لديه رأس مال كبير، لكنه لايكون له معنى اذا لم يكن لديه شيء. إنه يكون ترسا لخدمة غرض غير إنساني.

والأهم من ذلك أنه يقطع جميع الروابط الإنسانية التي تربطه بالآخرين، لأنه لم يعد يرى فيهم سوى أنهم منافسون له يتعين عليه التغلب عليهم، وقهرهم، وإزاحتهم من ساحة المعركة الاقتصادية الوحشية التي يحارب فيها كل إنسان ضد كل إنسان آخر.

كذلك أدى ماأشرت إليه إلى أن يكف الإنسان عن أن يصبح نفسه. فهو يبيع في هذه السوق سلعة فحسب، وإنما يبيع أيضا نفسه، ويشعر بأنه أصبح سلعة كباقي السلع، إذ أنه يتعين على العامل ورجل الاعمال والطبيب والكاتب والمفكر وغيرهم أن يمتلكوا «شخصية» ترضي السوق إذا كان عليهم أن يبيعوا إنتاجهم أو خدماتهم. أي إن عليهم أن يكونوا لا كما يريدون، وإنما كما يتوقع منهم الآخرون أن يكونوا.

إن الحرية في هذه السوق تصبح وهم الحرية، ويصبح الإنسان على هذا الأساس هو وحده من بين كل الكائنات الكائن المسخ الذي يشوهه التشيوء، ويكبله بأشكال جديدة من الأغلال.

لقد نفذ مفكرو الاشتراكية إلى أعماق حياة الناس عبر التاريخ، وقرأوا بعمق هذه التجربة ذات الدلالات الغنية، فاكتشفوا إلى أي حد طبع الزيف الأفكار الإنسانية التي صاغتها عقول البشر بطابعه الذي لم يفرغها من مضمونها الإيجابي فحسب، وإنما حولها إلى أداة فاعلة القهر والاغتراب الإنسانيين، فقادهم انتهاؤهم الواعي العميق لقضية تحرير الإنسان، كل إنسان، إلى أن يروا أن التطور الحر المتجانس لكل فرد هو المقدمة الأساسية للتطور الحر للمجتمعات البشرية قاطبة، وبالتالي لتحقيق الحرية الإنسانية الحقيقية. وهذا يستدعي بلا شك ألّا تكون الحرية مجرد نزوة بائسة فقيرة محصورة في إطار الرفض وعدم الالتزام بالحرية، من حيث كونها قدرة المرء الفعلية على أن يجمع في ذاته ثقافة الإنسانية السالفة والحاضرة وقوتها، وقدرته أيضا على الخلق باتجاه تجاوز الحالة الراهنة، وعلى أن تكون له، بفضل هذا الحضور الشامل للإنسانية فيه، مساهمته الخلاقة في صيرورة الجميع. ذلك لأن الانسان لايكون حرا بتأكيد الفردية، ولا بالرفض، ولا بالنفي، ولا بالانفصال عن الآخرين، وإنما يكون حراً فقط عندما يكون مسكونا من قبل الإنسانية قاطبة، أي، من قبل ماضيها كله الذي هو الثقافة، ومن قبل واقعها الحاضر كله الذي هو التعاون على نطاق المعمورة بأسرها.

بمعنى آخر أقول إن الحرية هي أن تتوافر الإمكانية لكل إنسان، للبشر جميعا، في الوصول إلى كلية الثقافة الإنسانية، والمساهمة الكاملة، في العمل المشترك، المنظم تنظيما واعيا. لجميع البشر، والمشاركة في

الثروات والقدرات التي يخلقها هذا العمل، ومن ثم تطوير الإنسان لكامل قوته الخلاقة دونما حدود غير حدود امكانياته ومواهبه، وقد بدا لمفكري الاشتراكية أن ذلك لايكون ممكنا إلا إذا تحققت للإنسان الشروط التي على أساسها تكون له أفكار من نفسه، لا بمعنى إنها لم يفكر فيها شخص آخر من قبل، وإنما بمعنى أنها تصدر عنه هو، وأنها نتيجة لنشاطه الحر، وتكون أفكاره هو، وليست أفكار يُقاد إلى تبنيها واجترارها. وكذلك الشروط التي ستسمح له بتوظيف تلك الأفكار في تطوير المجتمع، والبشرية قاطبة، بحيث يؤدي ذلك إلى توسيع ميدان تحقق الحرية، وضمان تناميها، وتنويع مجالات تطبيقها. أي الشروط التي يستطيع الإنسان بموجبها ممارسة دوره المسؤول في تعميق الارتقاء الإنساني. إذ إن الحرية لاتكون كاملة إن لم تكن المسؤولية كذلك. فنشاط الإنسان الأكثر مسؤولية، المشحون بأعمق وعي وشعور بها، هو وحده الذي يستحق نشاطا حرا أصيلا وواعيا حقا.

على أن مفكري الاشتراكية لم يكونوا ميتافيزيقيين لكي يروا أن تحقق حرية الانسان على النحو المذكور، إنما هي مسألة وعي فحسب، ولا كانوا رومانسيين أو طوباويين لكي يأخذوا بالحل التربوي أو الأخلاقي، وإنما دفعتهم علميتهم إلى أن يفهموا بعمق بالغ الشدة أن تحقق الحرية يخضع لقوانين علمية موضوعية وذاتية يتعين على كل من يسعى الى تحرير البشرية اكتشافها، وتبنيها، والستلح بها، والقتال من أجل وضعها موضع التنفيذ.

وهذا لايتأتى إلا بفعل تاريخي نضالي يستهدف قبل كل شيء إلغاء كافة القيود المادية التي قادت إلى التشكل الطبقي التاريخي للناس. وأعاقت التحقق المذكور عبر التاريخ. أي إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، وكذلك إلغاء الحرية البرجوازية المتمثلة بحرية الإنتاج والبيع والشراء، وحرية تكديس الثروات على حساب المنتجين الحقيقيين، وحرية استغلال الآخرين، وإقامة الملكية الجماعية، ملكية الشعب بأسره لكافة وسائل الإنتاج محلها، وتحرير علاقات العمل، وتقويض كل العداوات القومية المكرسة لخدمة الطبقات المستغلة، وإحلال التعاون بين الأمم والشعوب محلها.

كذلك فهموا أن ذلك لايمكن أن يتم إلا على أساس طبقي، إذ أن كل اغتراب بشري، وكل عبودية وقهر وتمزق وتشيوء للإنسان عبر التاريخ، إنما تنشأ كلها من علاقة واحدة بالذات، هي علاقة الإنسان المنتج بالإنتاج. ولذلك فإن تحرير الإنسان من شروط لا انسانيته المذكورة لايمكن تحقيقه إلّا على يد طبقات المنتجين أنفسهم. ذلك لأن التحرير المذكور هو في حقيقته تحرر الإنسان من علاقته تلك بالإنتاج. وهذا يستدعي حكما تحرير كل إنسان مرتبط بهذه العلاقة، أي تحرير طبقات المنتجين التي هي وحدها المرتبطة بها، والتي يكون تحريرها تحريرا للإنسانية بالكامل.

لكن لما كان التحرير المذكور فعلا نضاليا تاريخيا كما أسلفت. فهذا يعني أنه يتوقف على اضطلاع الطبقات المذكورة بهذا الدور. وبغير هذه الطبقات فإن الحديث عن التحرر يكون ضربا من الوهم، وتكون الحرية مجرد كلمة جوفاء تقبع في مخيلة الشعراء، ولاتفصح عن نفسها إلا في أشعارهم.

نخلص مما تقدم الى نتيجة أساسية واحدة، هي إن تحقق الحرية الإنسانية الحقيقية لايتم، كما يرى مفكرو الاشتراكية، إلا بتوافر مجموعتين من الشروط: شروط موضوعية، وأخرى ذاتية.

أولا: الشروط الموضوعية

إن تحقق الحرية يتوقف، في هذا المجال، على توافر ثلاثة شروط أساسية: شرط مادي، وشرط اجتماعي، وشرط إنساني.

آ ـ الشرط المادي:

لايمكن أن تتحقق لأي إنسان حريته إلا إذا انتفت تبعيته لإنسان آخر. أولطبقة، أو لقوانين السوق التي لايستطيع أحد التحكم بها. ولا التصرف إلا وفقها دون أن يكون له أي دور في وضعها. ولا أراني بحاجة إلى الإكثار من التدليل على صحة هذه الدعوى.

فالأدبيات الاشتراكية أسهبت كثيرا في توضيحها. ويكفيني، للتدليل على أهميتها، أن أشير بهذا الصدد إلى ماقاله الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو في معرض بحثه عن الأسباب التي أدت إلى فساد المجتمعات لتوضيح هذه النقطة.

يقول روسو: «إن أول إنسان أحاط قطعة من الأرض بسياج، وقال «هذا ملكي»، ووجد أناساً بسطاء صدقوا ماقاله لهم، إنما هو مؤسس المجتمع المدني، أي المجتمع الفاسد».

ولكي يزيد المسألة توضيحا أردف يقول: «لو أن أحداً أقدم ـ آنذاك ـ على هدم ذلك السياج هاتفا بأبناء جنسه: احذروا من أن تصدقوا كلام هذا المشعوذ الماكر، ولا تنسوا أن ثمار الأرض للجميع، وأن الأرض ليست ملكا لأحد، لكان وفّر على البشرية الكثير من الجرائم والحروب، والقتل، والشقاء، والفظائع».

بهذه الكلمات البسيطة يكون «روسو» قد أوضح بجلاء أصل كل قهر واغتراب إنسانيين. فتحليل قانونية الملكية الخاصة وآلية عملها تبين بوضوح شديد أنها تشكل عائقا أساسيا يحول دون أن تتحقق للإنسان حريته، سواء أكان مالكا أم غير مالك؟

فحين يقيم الإنسان علاقة خاصة بها، على أساس أنها حاجة ضرورية لها، لاتلبث أن تخلق لديه حاجة جديدة، أعني الحاجة الى توسيع رقعتها، ومدّ نطاق تأثيرها، وبالتالي طلب المزيد منها. غير أن الوفاء بتلك الحاجة، التي هي الاستزادة منها، سيترتب عليه الخضوع لقوانين نموها واتساعها، فيصبح الإنسان تابعا لها، عوضا عن أن يكون السيد الذي يتحكم بها.

أما من جهة الذي لايملك، فإنه غير خاف على أحد أنه سيكون مرغما على بيع نفسه للذي يملك، وبالتالي التخلي عن حريته لصالحه.

ومن الجدير بالذكر أن نشير في هذا المقام إلى أنه حتى بعض مفكري الأنظمة الاجتماعية القائمة على الملكية الخاصة أنفسهم تنبهوا إلى خطورة هذه الأخيرة، أي الملكية الخاصة، على أصحابها، وتهديدها لحرياتهم، رأفة بهم وليس انتصارا لقضية الحرية ذاتها.

لذلك دعوا إلى الحد من سيطرتها، لتقليل الأخطار التي قد تحيق بهم من جرائها.

فقد دعا افلاطون إلى شيوعية الملكية بين أفراد الطبقة «العليا» في المجتمع، خوفاً من أن يؤدي أي انقسام فيما بينهم. بسبب التنافس عليها، إلى حدوث ثغرات في أمن النظام قد ينفذ منها أنصار الديمقراطية، فينتزعون السلطة من أيدي أولئك، فيفقدون بذلك حريتهم.

كذلك دعا ميكافيللي الى المساواة في الملكية، لان الاضطرابات في المجتمع تنجم، في نظره من التفاوت في توزيعها. وقد بين أن الخشية من ضياع تلك الملكية لدى الذين يملكون تدفعهم إلى تحقيق المزيد منها على حساب الآخرين مما يثير في نفوس الذين لايملكون الرغبة في الامتلاك، إما بدافع الثأر لأنفسهم من أولئك الذين ابتزوهم، أو بدافع الرغبة في المشاركة في تلك الثروات. ولذا رأى أنه يتعين تحقيق المساواة في الملكية بين الناس، لكي يتحقق السلام في المجتمع، ولا يفقد الناس، والحقيقة أفراد الطبقة المالكة، حريتهم.

وهكذا يقودنا التحليل إلى أن إلغاء الملكية الخاصة هو الشرط المادي الذي لاغنى عنه لتحقيق الحرية الإنسانية الحقيقية.

ب ـ الشرط الاجتماعي

لم يدن أي فكر من حقيقة تكون الإنسان عبر التاريخ، ولم يفتح له آفاق الرقي والتقدم، مثلما فعل الفكر الاشتراكي.

فبينما يرى مفكرو الاتجاهات الاجتماعية الطبقية أن الطبائع البشرية هي معدة مسبقا، إما بطريقة مراتبية يكون بعضها بالفطرة مؤهلا للقيادة، والآخر الخضوع (أفلاطون وأرسطو) أو أنها ملوثة بفعل الخطيئة التي تحدرت إلى تلك الطبائع من آدم، وأن الله اختار بعضها للحياة الأبدية لحكمة لانعرفها (القديس أوغسطين والأكويني ولوثر وكالفن)، أو أنها صيغت بالفطرة أيضا بطريقة يكون كل إنسان ذئباً لأخيه الإنسان. وأن الحاجة تقضي بوجود ذئب أكبر يحق له أن يعض وينهش في شتى الاتجاهات، ويتعين على الجميع الخضوع له لكي يكونوا في مأمن من شر بعضهم البعض (هوبز)، وأن تلك الطبائع تظل على ماهي عليه دونما تغيير، وأن المجتمع ليس سوى حزمة من الأفراد أو الوحدات المغلقة، وسوق لتبادل السلع والحاجيات، وليس أبدا الرحم الذي يتشكل فيه الفرد عقليا وخلقيا وثقافيا واجتماعيا ـ أقول بينما يرى هؤلاء ذلك. تجد أن مفكري الاشتراكية ينحون منحى آخر، ينطلقون فيه من حقيقة أساسية هي أن المجتمع ضرورة جوهرية إما لتحول طبيعة الإنسان من طبيعة صيغة قابلة للنمو إلى طبيعة إنسانية حقيقية، تضفي السمة الأخلاقية على مسلكها، بدلا من الأفعال الغريزية، وتسترشد بنور العقل الواعي المستنير عوضا عن الانصياع الأعمى للنوازع، ويحل صوت الوجدان فيها محل الاندفاع الجسدي، والحق محل الشهوة، والواجب محل الارغام، والحرية محل العبودية، أو لإفساد تلك الطبيعة وانحدارها، وجعلها تكتسب عواطف عدوانية ورذائل أخرى كثيرة، بحيث تصبح حياة البشر ساحة صراع يكون فيها الكل في حرب ضد الكل.

وحقيقة الأمر أن الإنسان، ليس عند أولئك المفكرين، على ماهو عليه منذ البداية وسيظل كذلك الى مالانهاية، وإنما هو يتكون في التاريخ، وأن الشروط الاجتماعية التي يجد نفسه فيها هي التي تلعب الدور الأساسي في تكوينه على هذا النحو أو ذاك، أي أن الإنسان يحمل في طبيعته بذور تحوله، غير أن التحول باتجاه أن يكون كائنا إنسانيا بحق، إنما يتوقف على نوع العلاقات الاجتماعية التاريخية التي يتكون وفقها، والحق أن التاريخ الإنساني هو تاريخ اغتراب الإنسان وقهره وعبوديته، وتجرده من الصفات الإنسانية، بقدر ماهو تاريخ تطوره المتناهي باتجاه تحقيق تلك الصفات.

وقد بين مفكرو الاشتراكية، وهنا يتضح معنى قولنا قبل قليل، أنهم فهموا بعمق حقيقة تكون الإنسان، أن العمل هو القيمة الإنسانية الأساس التي تنبثق منها، وتنتج عنها، كل القيم الأخرى، وأنها مصدر كل تحول إنساني من النوع الذي أشرت إليه.

فالإنسان حين يحول الطبيعة انما يحول في الوقت نفسه ذاته، غير أنه حين يفعل ذلك، إنما يفعله، عبر الناس الأخرين، بواسطة العمل، وهذا يعني أن العمل عملية اجتماعية في المقام الأول، يتم بها تحويل الفرد والمجتمع والطبيعة، سواء بسواء.

ولتوضيح الصورة أقول: إن مفكري الاشتراكية لم ينظروا إلى العمل على أنه مجرد نشاط اقتصادي هدفه الوحيد توفير سبل العيش الطبيعي فحسب كما يفعل المفكرون الآخرون، وإنما نظروا إليه على أنه، في المقام الأول، النشاط الوجودي للإنسان، أي النشاط الذي يتوقف عليه بناء الشخصية الإنسانية من الوجهة العقلية والاجتماعية والاخلاقية والفنية والثقافية وغيرها فبالعمل وحده ينمّي الإنسان قواه البدنية والعقلية ومشاعره، ويعيد إنتاج ذاته الإنسانية، ويعكس تلك الذات في العالم الذي ينتجه.

وبدونه لايمكن لتلك القوى والطاقات وبذور التحول الكامنة في الإنسان، أن تنمو بالفعل وترتقي، وقد أورد أولئك المفكرون نقاطاً كثيرة، نذكر بعضا منها، تبين كيف أن العمل يتحول من كونه أداة أو وسيلة لإنتاج الخيرات المادية إلى أن يكون غاية في ذاته وتتحقق فيه وبه للإنسان ذاته الإنسانية.

فبالعمل يشرع الإنسان في توسيع إدراكاته الحسية، وحواسه، ويبدأ يستخدم قواه العقلية في التفكير، أي في تكوين الأفكار، وإيصالها، وفي تطوير اللغة. ذلك أن البشر يبدأون يميزون أنفسهم عن الحيوانات حالما يشرعون في إنتاج وسائل معيشتهم وهي خطوة يحكمها تنظيمهم الجسدي، وإذ ينتجون وسائل معيشتهم، فإنما ينتجون بشكل غير مباشر حياتهم الفعلية بكاملها.

والحقيقة إنهم حين يفعلون ذلك، إنما يبدأون يتصرفون ككائنات إنسانية، ويطورون تنظيمهم الاجتماعي. وبذلك يبتكرون الأفكار: ويفكرون وينطقون. إذ أنهم بصنعهم للأدوات واستخدامهم لها، وبإجبارهم الموضوعات والقوى الطبيعية على خدمة أغراضهم، إنما يعون تلك الأغراض، وتتكون لديهم أفكار عن النتائج التي يعتزمون تحقيقها، وهذا لم يكن ممكن الحدوث لولا الانخراط في عملية العمل.

كذلك يتجلى دور العمل في خلق الشخصية الإنسانية. إذ أن الإنسان حين يلبي حاجاته الطبيعية الأولى، وينتج وسائل تقنية لتحقيق ذلك، إنما يخلق لنفسه حاجات جديدة على الدوام. وهذا الخلق هو الذي يحدد طابع إنسانيته، ويميزه عن الكائنات الأخرى. إذ بينما تظل دائرة رغبات الحيوان ثابتة على

الدوام، تجد أن حاجات الإنسان تتسع وتنمو بلا توقف. غير أن ذلك لايتأتى إلا في عملية العمل. لكن يجب ألا يفهم من ذلك أن عملية الخلق المتجددة هذه هي خلق حاجات استهلاكية كتلك التي تعج بها أسواقنا العربية، وإنما الحاجات الإنسانية الحقيقة. ونذكر على سبيل المثال، لا الحصر، أن الإنسان حين يسعى إلى الحصول على مايلبي حاجاته العضوية الى الطعام، إنما يخلق حاجة جديدة في هذا المجال، أعني الحاجة الجمالية التي تمثل الصورة الإنسانية للتغذية. وينطبق الأمر نفسه على الحاجات الأخرى من ملبس ومأوى وحياة عاطفية وعقلية وغيرها. ولاشك إنه بذلك يكون ثد طور شخصيته، وارتقى بها، وأرهف أحاسيسه. وبكلمة واحدة جعلها شخصية إنسانية حقيقية. ولولا العمل لما تأتى له تحقيق ذلك.

كذلك فإن خلق الحاجات الجديدة وتزايدها المستمر. يؤديان إلى خلق علاقات اجتماعية جديدة لاتعود تقتصر على نطاق الأسرة وحدها. إذ شيئاً فشيئا تتحول العلاقات الحميمة بين الأفراد داخل الأسرة الى علاقات من التنوع ذاته بين أفراد المجتمع. وبالتدريج تتسع دائرة استخدام تلك العلاقات لتشمل النوع الإنساني كله. وبذلك يسهم العمل في خلق علاقات جديدة بين البشر.

غير أن الذي حدث هو أن السيطرة على الطبيعة تطلبت تقسيما اجتماعيا للعمل. وبمرور الوقت، وبسبب نشوء نظام الملكية الخاصة، اقترن التقسيم المذكور بالانفصال بين العمل اليدوي والعمل الفكري، فأدى ذلك إلى تقسيم الناس إلى طبقات اجتماعية يتحدد وضع كل منها الحقوقي والاجتماعي والسياسي وحتى العقلي بحسب الموقع الذي تشغله في نظام الانتاج، ودورها في التنظيم الاجتماعي للعمل، وبتعبير أدق، علاقتها بوسائل الإنتاج.

فما يحدد وضع الطبقات المنتجة على سبيل المثال إنما هو، قبل كل شيء. واقع أنها ليست مالكة لتلك الوسائل. ومن هنا تنبثق وظيفتها في المجتمع، أعني أنها تنتج «فضل القيمة» ولصالح الطبقات الأخرى مالكة الإنتاج.

والحق إن الشروط والمصالح التي تخضع لها كل طبقة، إنما تستدعي ظهور قيم وعادات و«عقلية» متماثلة بين أفرادها، متميزة عن قيم وعادات و«عقلية» أفراد الطبقة الاخرى. وهكذا يجد الافراد أن شروط وجودهم مقررة سلفا، اي مقررة من قبل الطبقة التي ساقهم موقعهم في عملية إنتاج الحياة بالضرورة إلى ن يكونوا، شاؤوا أم أبوا، من عداد أفرادها. وكذلك يجدون أن مركزهم في الحياة وتطورهم معنيان لهم من قبل تلك اطبقة. وهكذا تجدهم يصنفون في عدادها.

غير أن هذا الخلل في العلاقة بين القوى المنتجة وبين العلاقات الاجتماعية للإنتاج سيؤدي الى حدوث صراع وتناحر بين الطبقات، يظل قائماً إلى أن يتحقق التوافق بينهما. وعندها، ونتيجة لذلك، يحل الإنسان ـ النوع محل الإنسان ـ للطبقة. وهو المثل الأعلى الذي تطمح البشرية الى تحقيقه.

نخلص من كل ماتقدم إلى نتيجة أساسية، هي أن البشر يتكونون في الجماعات التي ينتمون اليها بواسطة العمل. غير أن علاقات العمل القائمة على أسس طبقية، والمحكومة بنظام الملكية الخاصة، والتي حكمت ذلك التشكل للبشر عبر التاريخ، فرضت قيودا في كل حقبة من نوع جديد، جعلت التكون الاجتماعي للبشر يغدو تكونا غير حر، ومقررا من قبل الطبقات التي قاد موقع كل منهم في عملية الإنتاج

بالضرورة إلى الانتساب، رغما عنه، إليها، ومحكوما بقوانينها. ولذا فإن التكوين والتنامي الحرين لكل إنسان لايمكن أن يتحققا إلا بتحطيم الجماعية الطبقية المقاد إلى الانتماء إليها، وإحلال الجماعية الإنسانية الحقيقية غير الطبقية محلها.

لكن ذلك يتوقف على توافر شرط أساسي واحد في هذا المقام، ألا وهو تحطيم علاقات العمل الاجتماعية القائمة على أسس طبقية وتحريرها، وقيام علاقات من نوع جديد تحل فيها الملكية العامة، ملكية الشعب بأسره، لكافة وسائل الإنتاج محل الملكية الخاصة، ويحل العمل التعاوني المشترك محل العمل الفردي، ويكون تبادل النشاط الواعي والمنظم هو الأساس في العلاقة الاجتماعية بين الأفراد والفئات، عوضا عن الخضوع لقوانين السوق العمياء كأساس لتلك العلاقة. إذ أن توافر شرط من هذا النوع يجعل بناء المجتمع وارتقاءه وتطوره الحر مطلباً أساسياً وهدفا يعمل كل فرد، مدفوعا بحاجته الوجودية إلى الارتقاء العقلي والبدني والثقافي والفني، على تحقيقه.

جـ ـ الشرط الانساني

قلنا قبل قليل: إن العمل يسهم في توسيع دائرة قيام العلاقات الاجتماعية بين الناس لتشمل النوع الانساني بأسره. ولذا فإن تحرير العلاقات التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة لايتوقف عند حدود المجتمع المحدود الذي ينتمي اليه مجموعة من الأفراد أو شعب من الشعوب، وإنما يمتد ليشمل المجتمعات والأمم أيضا. ولاشك أن ذلك يعتبر شرطا لاغنى عنه لكي تتحقق الحرية الحقيقية للإنسان، كل إنسان.

ولكي نتلمس أهمية هذا الشرط وضرورته، دعنا نقرأ بروية بعض مقاطع من كتاب التاريخ البشري الحديث المعاصر، وبالذات ذلك الجزء منه الذي يحكي لنا قصة تشكل ظاهرة الاستعمار بشكليه القديم والحديث.

ألم يؤدي عدم ربط تحقيق فكرة الحرية بشرطها الأنساني لدى المفكرين البرجوازيين الى تسويغ اغتيال حريات شعوب ضعيفة من قبل شعوب قوية؟

صحيح أن ظاهرة استعمار الشعوب لاتفسر على أساس أن مفكري الجانب المستعمر نادوا بالحرية دون أن يربطوا تحقيقها بهذا الشرط الإنساني هكذا على نحو ميكانيكي. ومن الخطأ أن يفهم قولي السابق على هذا النحو. لكن ماأقصد هو أن أولئك المفكرين، حين نادوا بالحرية بإطلاق دونما تحديد، إنما سوغوا، وربما من غير قصد، للقوى المتعطشة للثراء استعمارهاالشعوب الأخرى واستغلالها، أي إنهم زودوا تلك القوى بالغطاء الايديولوجي الزائف الذي فهموا على أساسه، أو هكذا أرادوا أن يفهموا، الحرية بأنها حرية أن تفعل ماتشاء.

ألم تجر تجارة الرقيق على هذا الاساس الايديولوجي الزائف من الحرية؟ ثم ألم تسوَّغ إبادة شعب بكامله، الهنود الحمر، على الأساس نفسه؟ ألم يتم باسم الحرية ذاتها، غير مقترنة بشرط تحقيقها الأنساني، كل عهد الأمم الاوربية الاستعمارية السياسي في العصر الحديث، وكذلك عهد الامبريالية المعاصرة؟ أليس

شراء أطفال من الامم الفقيرة الذكور والأناث الذين يقدرون بالملايين، والاتجار بأجسادهم بعد أن يكبروا من قبل أثرياء الأمم الاخرى هو نفسه يتم أيضا بأسم الحرية، حرية أن تشتري وتبيع ماتشاء؟ ثم ألم يكن غزو غرينادا واقتلاع الشعب العربي الفلسطيني من أرضه، باسم الحرية أيضا؟

باختصار أقول إن تحقيق الحرية الأنسانية الحقيقية لايتم او يظل مهدداً أو منقوصا، إلا إذا تحققت لكل إنسان أينما كان حريته، ولاشك أن ذلك يستدعي توافر شرط أساسي في هذا المقام، أعني إحلال التعاون بين الأمم محل الصراع، والأخاء والصداقة الأنسانيين محل التعصب، ولكن ذلك بدوره لايمكن أن يتم إلاَّ بتحطيم علاقات العمل الطبقية وإحلال العمل التعاوني المشترك محلها.

ثانيا: الشروط الذاتية

لم يكن مفكروا الاشتراكية ميكانيكيي الفهم لكي يسلموا أمر تحقق الحرية الحقيقية لفعل الشروط الموضوعية وحدها، أعني أن يروا أن تطور تلك الشروط ذاتها يؤدي آليا الى تحقيق التوافق بين قوى الأنتاج وبين العلاقات الاجتماعية التي تقوم فيها بينها معتمدين على فهم فج وآلي لمفهوم الحتمية التاريخية. ولاهم كانوا لاأدريين لكي يتركوا الأمر المذكور للمصادفة لكي تفعل فعلها في التاريخ، وتحقق للبشر حريتهم. كذلك لم يكونوا ميتافيزيقيين لكي يقفزوا فوق التاريخ، ويقدموا الحلول على أساسٍ واهٍ من الأفكار التي يصوغها العقل المتأمل الحالم وحده.

إن قراءتهم الواقعية الدقيقة لتشكل الأنسان عبر التاريخ، وتسلحهم بمنهج علمي متقدم في تلك القراءة، قادهم الى الاستنتاج بأن قهر ذلك التشكل الطبقي العائق لتحقيق الحرية والمكَّرس لها، لايمكن أن يتم إلا على أساس طبقية، أعني أن تقترن فكرة الحرية بشروط تحققها الذاتية التي تقوم على أساس اضطلاع الطبقات المنتجة بدورها التحرري التاريخي الذي يرتكز على ثلاثة شروط أساسية، أولها الوعي وثانيها الانتماء وثالثها الممارسة.

آ ـ الوعي

ليست مسألة التحرر بالنسبة الى المفكر الاشتراكي هي الحصول على شروط أفضل لبيع قوة العمل من جانب المنتج، وإنما خلق نظام تكف فيه تلك القوة عن أن تُباع وتُشتري وكأنها بضاعة، وليست شرطا للتحقق الأنساني الحر.

غير أن ذلك يستدعي ولاشك الارتقاء بالوعي بحيث يدرك المنتج بعمق مجمل حركة التاريخ التي تعطي النضالات الراهنة للمنتجين دلالالتها، وتجعل منهم وارثين شرعيين لجميع نضالات البشر بدءا من تاريخهم السحيق في القدم، يفتحون للأنسانية آفاق مجتمعات بشرية بلاطبقات وبلاقيود.

إن وعي حركة التشكل الطبقي التاريخي للأنسان، الذي أمعن في قهره وكرس عبوديته، وفي الوقت نفسه القضاء على شروط ذلك التشكل وإحلال شروط البناء الأنساني الحقيقي محلها، إنما يقوم في نظر

المفكرين الاشتراكيين على أربع ركائز لاغنى لواحد منها على الآخر.

١- أن نفهم أن الحرية ليست شيئا فطريا وداخلا في التكوين الطبيعي للأنسان، وإنما هي شيء ينتزع، وينتزع بالتدريج شيئا فشيئا، ويتحقق في مجرى عصور من النشاط الأنساني والاجتماعي.

بمعنى آخر أقول إن الأنسان لم يولد حرا كما يقول المفكرون الآخرون وإنما ولد مخلوقا تحدده ظروف مستقلة عن إرادته. وبفضل حياته الاجتماعية وقوانين تطورها يطور بالتدريج، وفي الممارسة الاجتماعية، قدراته التي تجعله يصبح حرا فيما بعد، وهو يفعل ذلك في صراع مع الطبيعة الخارجية، وفي صراع اجتماعي وطبقي إنه يخلق لنفسه وينتزع لها تلك الحرية التي يتملكها فيما بعد، وهو لايستطيع أن يتملك أكثر مما خلق وانتزع لنفسه.

وكذلك يتعين أن نفهم أن عملية انتزاع الحرية هي عملية تدرجية تاريخية، تخضع في كل مرحلة لقوانين موضوعية خاصة بها، يخرج الناس عبرها، أي عبر هذه التدرجية، من حالة الافتقار الكامل الى الحرية، حيث لايتحدد ما يفعلونه بقرارهم الواعي وإنما بظروفهم، ويكسبون الحرية بالتدريج، ويرتقون في نهاية المطاف الى مرحلة يقرون فيها بوعي مصيرهم على أساس معرفتهم باحتياجاتهم، وسيطرتهم الواعية على طرق تلبيتها.

إن الحرية ليست كما يقول الميتافيزيقيون كل شيء أو لاشيء، أي أن نكون أحرارا أو لانكون. وإنما هي: إننا قد نكون أحرارا في بعض النواحي، وغير أحرار في بعضها الآخر، ونكون أكثرأو أقل حرية. إنها مسألة درجة ولذا فهي عملية تدرجية تاريخية. فطالما أننا لانجعل أنفسنا أحرارا إلا بقدر ما نبين أن قراراتنا الواعية هي التي تحدد مانفعل وما نحقق، فإن زيادة ذلك القدر أو نقصه هي التي تحدد درجة الحرية التي نحققها.

ماأريد أن أقوله هو: إن عملية تحقيق الحرية لاتتم دفعة واحدة والى الأبد، وإنما تتقدم، وبطريقة تدرجية، من مرحلة الى مرحلة أرقى إلى مالانهاية. وتتحقق كل مرحلة نتيجة للصراع ضد القيود التي يفرضها نظام محدد من الحكم على الحرية، وتنتج بدورها قيودها عليها، فقد انتهى الحكم الأقطاعي في اوربا على سبيل المثال نتيجة للصراع الذي قادته البرجوازية ضد القيود الأقطاعية. وكانت هذه خطوة الى الأمام لحرية الأنسان، جلبت معها أشكالا جديدة للاستغلال والقهر، لكنها أيضا حققت ألوان تقدم جديدة، وكسبا لحقوق وحريات سياسية أوسع.

ولاينبغي في هذا المجال أن نكون حالمين فنتصور أن الحرية تتحقق بالكامل بمجرد انتصار الاشتراكية. فهذا النظام له هو أيضا قيوده على الحرية، وبالتالي سيكون للبشر طرقهم في ظله للتخلص من تلك القيود، وإن تكن قيود من نوع مختلف عن القيود التي تفرضها الأنظمة الطبقية. وبكلمة أقول: إن عملية تحقق الحرية لن تتوقف طالما كان للبشر تاريخ.

٢- سيظل هذا الوعي قاصرا، ويعجز عن لعب دوره الفاعل في عملية انتزاع الحرية إن لم يكن في البداية وعيا طبقيا. فقد بيّنا في معرض حديثنا عن التشكل التاريخي للأنسان أن شروط وجود الناس مقررة سلفا من قبل الطبقةالتي ساق موقع كل منهم في عملية إنتاج الحياة بالضرورة إلى أن يكون، شاء أم أبى، من

عدادها وأن مركزه في الحياة وتطوره معينان من قبلها. ولذا فإنه لايجب أن يتوهم أحد أن في مقدوره انتزاع حريته بمفرده أولا، وأن يكون في مقدوره أن يكون حرا كفرد ثانيا.

على العكس من ذلك فإن عملية انتزاع الحرية لاتتم إلا بفعل نضالي جماعي من قبل أفراد تلك الطبقة، وأن تحققها أو ممارستها لاتكون إلا الممارسة الجماعية لها. إذ لاوجود لفرد إلا في جماعة حرة.

إن كل تصور للحرية إنما يعبر عن الوضع الطبقي لمن ينادي به. كل طبقة تطلق اسم الحرية على صياغة امتيازاتها الطبقية. فالحرية بالنسبة الى البرجوازية تعني الحفاظ على «المشروع الحر» أما بالنسبة الى الطبقات المنتجة فهي تدمير ذلك النظام، وإحلال المشروع الجماعي الأنساني محله. وهكذا تنتهي مع مفكري الاشتراكية إلى أن مشكلة الحرية هي مشكلة تاريخية وإجتماعية. أي إنها مشكلة طبقية، ولذا فإن الوعي الطبقي هو شرط ضروري لانتزاعها.

٣- لما كان من غير الممكن تجاوز أوضاع طبيعية واجتماعية معينة والتحرر من قيودها دون معرفة آلية عملها فإن معرفة الضروري والحتمي وشروط تحققها في الطبيعة والمجتمع تغدوا شرطا ضروريا لاغنىٍ للوعي عن التزود بها.

إن السيطرة على الطبيعة التي تشكل، إذا ماعصي على الأنسان فهمها، أحد أهم العوائق في طريق تحقيق الحرية لاتعني أدنى استغلال للأنسان عن القانون الطبيعي والضرورة الطبيعية. على العكس من ذلك، فان ماتعتمد عليه تلك السيطرة ليس هو إلغاء القوانين الطبيعية والضرورة الطبيعية، وإنما هو معرفتها واستخدامها الواعي.

وبالمثل فإن الناس حين يتعلمون أيضا أن يتحكموا في نشاطهم الاجتماعي ويوجهوه الوجهة الصحيحة، لكي يشبعوا احتياجاتهم المادية والثقافية، فإن هذا لايعني أنهم بلغوا الاستقلال عن قوانين المجتمع الموضوعية، أي الاستقلال عن الضرورة الاجتماعية. على العكس من ذلك، فإن مايعتمد عليه ذلك ليس إلغاء قوانين المجتمع الموضوعية، وإنما هو معرفة تلك القوانين واستخدامها الواعي. ليس إنهاء الضرورة في المجتمع. وإنما إدراكها، وتوجيه النشاط الاجتماعي بما يتفق مع ذلك الأدراك.

ومن هنا فإن الناس ليسوا أبدا وفي أي جانب وأي نشاط مستقلين عن القوانين الطبيعية أو الاجتماعية، وعن آثارها الضرورية. وينتج عن ذلك أنه بقدر مايفتقرون الى معرفة هذه القوانين وآثارها. فإنهم مقيدون غير أحرار.

لقد أدرك مفكروا الاشتراكية هذه الحقيقة. ولذا جاء تعريفهم للحرية بأنها «وعي الضرورة» ليعكس ذلك الفهم. غير أنه لايجب أن يفهم من هذا التعريف أن المسألة كانت بالنسبة لاولئك المفكرين مجرد معرفة أو وعي فحسب، وإنما المقصود السيطرة على ظروف النشاط الحياتي الأنساني الطبيعية والاجتماعية، على أساس من المعرفة أي إن المفكرين المذكورين اهتموا بالجانب المعرفي من المسألة بقدر مايستطيع هذا الجانب أن يقدم أساسا نظريا لتحقيق الحرية الأنسانية تحقيقا عمليا، تحقيق سيطرة الناس على القنونات الطبيعية والاجتماعية، والتي لاتكون ممكنة إلا عن طريق تحويل هذه القنونات الى أسس للأفعال الأنسانية، ويدركها الوعي إدراكا عميقا.

لكن لما كانت المعرفة تتوقف على الممارسة، فإن لنموالمعرفة، كذلك تأثيرا تحويليا على الممارسة، إذ إنه بقدر مانعرف خواص الأشياء وقوانينها بقدر مانستطيع السيطرة عليها في الممارسة، أي أن نجعلها خاضعة لنا بدلا من أن نخضع نحن لها، ويسهم نمو المعرفة ـ وهو نتاج لسعي الأنسان الى السيطرة على الطبيعة وتنظيم حياته الاجتماعية ـ في تحقيق هذه السيطرة خطوة خطوة، وإقامة أشكال أرقى من التنظيم الاجتماعي، وتحقيق إمكانية حياة حرة كاملة للجميع.

وهكذا نجد أن كون الوعي شرطا ذاتيا لتحقيق الحرية إنما يتوقف، من جملة ما يتوقف، على أن يكون وعيا بالضرورة، أي بالقنونات التي تسري في الطبيعة والمجتمع على حد سواء. اذ بدون ذلك، أي بدون أن نعرف الضرورة الموضوعية التي تضبط مجرى الأحداث الطبيعية والاجتماعية فإن السيطرة على تلك الأحداث والتحكم بها، وبالتالي التصرف بحرية، تغدوا أمرا متعذرا.

٤ ـ على أن الوعي المذكور يظل قاصرا إذا ما ظل محصورا في إطار فهم الضرورة القائمة في المجتمع في لحظة معينة بالذات. فالعلاقات بين البشر لم يحدث أن استقرت على حالة واحدة تظل على ماهي عليه إلى الأبد. وإنما هي، كالمجتمع، في حركة وتطور دائمين يتعين على الوعي الأحاطة بقوانينها لكي يكون في الأمكان توظيفه لانتزاع المزيد من الحرية الحقيقية. هذا يعني أن إحدى الركائز الأساسية للوعي المذكور هي أن يحيط بقوانين التطور الاجتماعي كشرط لاغنى عنه لتحقيق الحرية.

وفي هذا الصدد. فإن مايتعين الأحاطة به يتحدد في معرفة أن الأساس في جميع حركات التحرز حتى الآن، انما هي قوى منتجة محدودة ماكان إنتاجها يجعل التطور ممكنا إلا إذا لبى بعضهم حاجاته على حساب الآخرين. وهكذا تطور المجتمع حتى الآن في إطار تعارض أساسي، هو التعارض بين الأحرار والعبيد لدى القدامى، وبين النبلاء والأقنان في العصر الوسيط، والتعارض بين البرجوازية والقوى المنتجة في العصور الحديثة.

كذلك ينبغي معرفة أن جدل هذه التناقضات إنما هو محرك التاريخ، وأن هذا التناقض بين القوى المنتجة وشكل العلاقات القائمة لابد في كل مرة من أن ينفجر في ثورة، أخذا في الوقت نفسه أشكالا ثانوية متباينة. . . . صدامات بين طبقات شتى، وتناقضات في الوعي، وصراع ايديولوجي وسياسي، وسيستمر الحال على هذا النحو إلى أن يتحقق التطابق بين حالة القوى المنتجة وعلاقات الأنتاج. وهو القانون الأساسي للتطور التاريخي.

وينبغي أيضا معرفة ليس قوانين التطور الاجتماعي فحسب، وإنما الطريقة التي تعبر به تلك القوانين عن نفسها، وكيف تتأقلم في الظروف المعينة، وكذلك تشخيص العوامل المتعددة التي تؤثر على مسيرة الحوادث، مثل مستوى وعي وتنظيم الطبقات المنتجة وحلفاء تلك الطبقات المؤقتين والدائمين، ووضع حزبها وسياسته، والتأثير الذي تمارسه الأحزاب البرجوازية عليها وعلى المجتمع، ووضع القوى المتصارعه في العالم، وغير ذلك من العوامل.

كذلك يجب معرفة الشروط التي تفعل في إطارها تلك القوانين، بغية التأثير عليها، واستخلاص النتائج المرغوب فيها، وحصر النتائج الضارة لبعض القوانين الأخرى. وتجنب نتائج بعضها بتحريك فعل

القوانين المعاكسة لها.

ويجب أيضا معرفة أنه يتعين مواجهة العملية التاريخية بوصفها ليست العام وحده ولا الخاص وحده، وإنما هي وحدهما معا، فالقوانين العامة التي تقرر اتجاه حركة التاريخ، إنما تختلط مع القوانين التي تطبع سماتها الخاصة على تطور هذا الشعب او ذاك بحسب مستوى تطوره الاقتصادي، ونوع تشكيله الاجتماعي والقومي، ووضعيته الجغرافية، وموقعه في مجال العلاقات الدولية السائدة، إن العلاقة بينهما علاقة جدلية. فالعام لايفصح عن نفسه مطلقا بشكله النقي. وهو يترافق دائما مع الخاص، ويتجلى من خلاله.

وأخيرا نقول ينبغي معرفة أنه من اجل استخدام قوانين التطور الاجتماعي لصالح المجتمع فعليا، لابد من توافر ظروف ذاتية وموضوعية معينة: مثل تواجد قوى اجتماعية معينة قادرة على النهوض بمهمة قلب النظام الاجتماعي السائد، ومستوى معين من التطور الاجتماعي الاقتصادي يهيء لتلك القوى أسباب تلك المهمة.

والحق نقول: إنه بدون المعرفة المذكورة واستخدامها كسلاح تتسلح به قوى التغير الحقيقي، فإن تحقق الحرية يصبح مشكوكا فيه.

ب ـ الانتماء

صحيح، إن المعرفة شرط أساسي لاغنى عنه لبلوغ الحرية كما أسلفنا قبل قليل، لكن تلك المعرفة تظل قاصرة ولاتلبي مطلب الحرية إن لم تكن هادفة، أعني أن توظف في خدمة الأغراض والغايات الأنسانية الحقيقية. ولكن لما كان من العسير تحقيق ذلك من الوجهة العملية إلا من خلال جماعة معينة يكون الأنسان واحدا من أفرادها. فإن الانتماء الى تلك الجماعة والتسلح بأخلاقها يغدوان مندمجين شرطا أساسيا لتحقيق الحرية.

غير أن الذي يجب التنبيه إليه في هذا المقام، هو أنني لاأستخدم لفظ الانتماء بالمعنى المطلق للكلمة، فقد بينت فيما سبق أن الوظيفة التي ينجزها شخص ما إنما تحدد طبيعتها بنوع الجماعة التي تفرض عليه ظروف مادية واجتماعية معينة أن يكون واحدا من أعضائها. ولكي لانساق الى حالة من عدم التحديد يترتب عليها عدم ربط الأفكار الأنسانية بشروط تحقيقها كما يفعل المفكرون البرجوازيون، فإننا نقول: إن الجماعة التي يتعين الانتماء اليها إنما هي بالتحديد تلك التي تتفق مطالبها مع مطلب تحقيق الأنسان الشامل، الذي هو كل إنسان، أي الجماعة التي تنتج شروط كل حياة إنسانية حقيقية.

وفي هذه الحالة فإن الانتماء الذي نقصده إنما هو الذي يوجهه الفصل الرامي الى تحرير الانسان من كافة العلاقات الاجتماعية التي تؤدي الى اغترابه عن شروط الحياة الأنسانية التي ينتجها والأسهام في ارتقائه العقلي والبدني والفني وغيره. وتهيئة الظروف التي تساعد على تفتحه، وإبداعه، وبناء مستقبله على نحو إنساني أصيل.

وللتوضيح أكثر أقول: إن هناك مطالب إنسانية حقيقية شاملة تفرضها طبيعة الأنسان بوصفه

إنسانا، بعضها سلبي والآخر إيجابي، فالمطالب السلبية هي ألا يكون الأنسان مستعبدًا او مستعبد لآخر، ولا مستغلا له أو مستغلاً من قبله، ولاتابعا او متبوعا، ولامزاحما او مزاحما، ولامتصدِقا او متصدَقاً عليه، ولامحتاجا أو لديه ما يفيض عن حاجته. وباختصار أقول يجب ألا تكون هناك حالة اجتماعية تحول دون أن تكون شروط بناء الإنسان الحقيقي المادية والاجتماعية متحققة لكل فرد بشري، على قدم المساواة مع الآخرين.

أما المطالب الأيجابية في أن يكون الأنسان حرا، وتتهيأ له الفرص نفسها التي تتهيأ للآخرين لكي يتزود بالمعرفة والثقافة، ويكتسب المهارات الفنية والعقلية، ويكون في مقدوره التعبير عن طاقاته وقواه الأبداعية الدفينة، واختيار الدور الذي يناسبه لبناء المجتمع الأنساني الحقيقي.

لكن لما كان تحقيق المطالب المذكورة أمرا متعذرا إلا في ظل علاقات اجتماعية لا طبقية، فمن الطبيعي أن يكون الانتماء المذكور انتماء الى الجماعات التي تسعى الى تحقيق تلك المطالب، أي الجماعات التي تعمل على القضاء على كل القيود الطبقية المسؤولة عن قيام الحالات غير الأنسانية عبر التاريخ. ومن الوجهة العملية، فإن الانتماء المذكور هو ممارسة الأفعال والأدوار التي يكون هدفها القضاء على الشروط المادية والاجتماعية التي تحول دون تحقيق إنسانية الأنسان. ولاشك أن أفعال من هذا النوع هي وحدها الافعال التي تمثل الاخلاق الحقيقية.

ج - الممارسة

لما كان من غير الممكن، لتحقيق المطالب المشار اليها في الفقرة السابقة، الركون الى عفوية الجماهير، فإن إيصال الوعي الثوري اليها، وتنظيم فعلها، يغدوان شرطين لاغنى عنهما لتحقيق الحرية.

صحيح، إن الجماهير تتحسس اعتمادا على حسها السليم وفي أغلب الأحيان، الوضع غير الأنساني الذي تجد نفسها فيه، والأزمات المصيرية التي تمر بها، لكن ذلك لايكفي وحده لكي يكون دليلا على أنها تعي قضاياها، فما لم يرتق وعيها الى مستوى الوعي المجمل لحركة التاريخ التي تعطي لنضالها دلالاتها، وتجعل منها وريثة ومتابعة لجميع نضالات الأنسان عبر التاريخ، فإن ذلك الوعي يظل أقل من المستوى المطلوب لكي تضطلع. تلك الجماهير بدورها الرامي الى الوصول الى مجتمع بلا طبقات وبلا اغتراب للأنسان. ولاشك إن من مهمة هذا النوع، أعني إيصال الوعي المذكور الى الطبقات المنتجة، إنما يقع على عاتق أحزاب تلك الطبقات التي هي أداة تحررها الأساسية. فاندماج الطبقات المنتجة ونظرية الأنسان الشامل في هذه الأحزاب، اي وعي دلالة مجمل الحركة التاريخية من قبل القوى الواقعية الوحيدة القادرة على أن تستأصل من الجذور اغتراب الأنسان في المجتمعات الطبقية، إنما يشكل مرحلة حاسمة في انتزاع الحرية، . وبغير ذلك تظل قوى القهر قادرة في كل مرة على خنق حركة الجماهير وتفتيتها وتوجيهها بما يكرس تبعيتها لها، وإجهاضها. ولا أجدني بحاجة الى التوسع في توضيح أهمية الدور الذي يكون لممارسة الجماهير الرامية إلى قلب الأنظمة الاجتماعية الطبقية القائمة من خلال انتظامها في حزب طليعي ثوري فالأدبيات الاشتراكية في هذا المجال أصبحت تشكل الف باء كل ثقافة تقدميةفي العالم.

العرب.. واسرائيل من الصراع المحتوم، إلى التسوية المستحيلة

حسين معلوم*

● مدخل

ليس هناك من شك، في أن سائق الشاحنة العسكرية الاسرائيلية، الذي اجتاح سيارتي ركاب نقلان عمالاً فلسطينيين من أبناء غزة، وقتل أربعة منهم قبل عامين، يتوقع أنه بجريمته العنصرية هذه، التي أرادها ثأراً لمقتل أحد المستوطنين الاسرائيليين، يفتتح عصراً جديداً، ليس فقط في مسار الصراع العربي ـ الصهيوني، ولا في حياة الشعب العربي في فلسطين، بل وفي مصير الدولة الاسرائيلية نفسها. فقد تحول تشييع الشهداء الأربعة، وما رافقه من اشتباكات بين الفلسطينيين العزل والقوات الاسرائيلية المدججة بكل وسائل القمع، إلى بداية لأطول انتفاضة شعبية من العصر الحديث. . . إنها الانتفاضة الفلسطينية الكبرى التي تفجرت على الأرض العربية في فلسطين، في التاسع من ديسمبر/ كانون الأول من العام ١٩٨٧.

* باحث من مصر.

هذه الانتفاضة التي أثبتت قدرتها على الاستمرار والتواصل من ناحية، والتي لم تنفع في إخمادها، من ناحية أخرى، كل أساليب الارهاب الصهيوني داخل فلسطين وخارجها، ولا سياسة «القبضة الحديدية» التي اعتمدتها تل أبيب، ولا حتى مسلسل الاغتيالات الذي مارسته المخابرات الاسرائيلية، والذي كان من حلقاته اغتيال أبو جهاد في تونس، ومن قبله اغتيال مروان كيالي وزميليه أبو حسن وحمدي في قبرص، الذين لعبوا دوراً بارزاً في التهيئة للانتفاضة، وفي تحقيق التواصل الفعال بين الداخل والخارج.

ومع الصدق الكامل، الذي يفرضه الحديث عن واحدة من أنبل ظواهر العصر الحديث، لابد أن نعترف ـ من ناحية أولى ـ بهذه المفارقة المرعبة التي تقوم على الإقرار بتلك المسافة الهائلة بين حيوية الانتفاضة وزخمها وعطاءاتها، وبين جمود الواقع العربي الراهن وسكونيته وتراجعه على غير صعيد. ففي حديث لإذاعة مونت كارلو، في أواخر العام الماضي (١٩٨٩)، قال فيصل عبد القادر الحسيني، أحد الشخصيات الفلسطينية البارزة: إن الانتفاضة قد حققت الكثير من الإنجازات على أربع جبهات: هي الجبهة الفلسطينية والاسرائيلية والعالمية والعربية. وبالرغم من أنه أفاض في الحديث عن الإنجازات الثلاث الأولى، فقد رأيناه يقفز مرتبكاً فوق الحديث عن الإنجازات العربية للانتفاضة، ربما لأنه لم يجد ما يقوله.

فلماذا... لماذا هذا التفاوت المذهل بين ما يجري داخل فلسطين المحتلة وما يجري خارجها، عدا بعض الاستثناءات النادرة كبعض العمليات البطولية في جنوب لبنان، أو الوقفات الباسلة في الجولان، أو ظاهرة ثورة مصر التي تحاصر يوماً بعد يوم داخل أرض الكنانة وخارجها...؟!

ومع الصدق الكامل الذي يفرضه الحديث عن واحدة من أنبل ظواهر العصر الحديث، لابد أن نعترف ـ من ناحية أخرى ـ بأن قرارات المجلس الوطني الفلسطيني التاسع عشر الذي عقد في الجزائر في شتاء العام قبل الماضي (١٩٨٨)، بما تضمنته وانطوت عليه من تنازلات، لم تحقق أياً من طموحات أصحابها، بالرغم من الحفاوة الدولية الكبيرة التي استقبلت بها تلك القرارات. واتضح أن البرنامج السياسي المتساهل الذي تبناه المجلس، وباشرت قيادة م. ت. ف. تنفيذه، لا يزال يصطدم بالعقبات القديمة التي بدت أنها غير قابلة للتجاوز أو التذليل حتى الآن. لقد كان هذا الهجوم الفلسطيني ـ العربي (هجوم السلام بعد قمة الدار البيضاء الطارئة)، مستنداً إلى القوة الضاربة التي وفرتها الانتفاضة الشعبية في الأراضي المحتلة، والتي فتحت الباب (بالتعاون مع تنازلات القيادة الفلسطينية) أمام بدء الحوار الاميركي ـ الفلسطيني، هذا الحوار الذي بدا للبعض انه شكل من أشكال الضغط السياسي الاميركي على الكيان الصهيوني... وهو في الحقيقة محاولة للإيقاع بالانتفاضة، استكملت بعد ذلك بما عرف باسم «مبادرة شامير» الخاصة باجراء انتخابات في الضفة الغربية وقطاع غزة، والتي وافقت عليها قيادة المنظمة وقمة الدار البيضاء، شريطة أن تكون «بعد الانسحاب الاسرائيلي من الأراضي الفلسطينية وبإشراف دولي، وفي إطار عملية السلام الشاملة...». وبينما تصورت قيادة المنظمة (ومعها الأنظمة العربية) أنها رمت بالكرة إلى الملعب الاسرائيلي بنجاح، جاء التأييد الاميركي لخطة شامير، ليعيد الموقف إلى ما كان عليه قبل مجلس الجزائر، وقبل «الهجوم السلمي» للمنظمة، وكذلك قبل خطة شامير، أي تقريباً إلى نقطة الصفر.

كانت خطة شامير مناورة لكسب الوقت اللازم للقضاء على الانتفاضة، ولم تكن استجابة لهجوم المنظمة «السلمي»، كما يتوهم ويزعم البعض. لكن الاحداث أظهرت للخبراء الصهاينة أن الوقت اللازم حقاً للقضاء على الانتفاضة، هو أطول بكثير مما يمكن لآية مناورة أن توفره. وفي رأي البروفيسور أنينا شابيلا (دافار ـ ١٣/٦/٨٩)، أن الانتفاضة تمثل التحدى الأخطر الذي واجهته الصهيونية في تاريخها كله.

فلماذا... لماذا هذه الدعوة المحمومة، من قبل قيادة المنظمة التي تتمتع «حالياً» بحماية الأنظمة العربية، إلى السلام مع العدو الاسرائيلي... ولماذا هذا الإصرار على التوجه إلى حكومة الولايات المتحدة الاميركية... والمراهنة، حسب المنطق الساداتي، على كسب ود هذه الحكومة. ألا يمكننا القول هنا بأن هذا «الهجوم السلامي» إنما هو، في حقيقة الأمر، انهيار استسلامي أكثر منه أسلوباً لكسب الرأي العام الاميركي والعالمي..؟!

ومع الصدق الكامل الذي يفرضه الحديث عنه واحدة من أنبل ظواهر العصر الحديث، لابد أن نعترف ـ من ناحية ثالثة ـ بأن القيادة الفلسطينية التي أرادت من الانتفاضة أن تكون ورقة، مجرد ورقة، في لعبتها السياسية، حرصت على حبسها وعدم السماح بتطورها على أي مستوى من المستويات. وكان كل ما تريده، ولا تزال، هو استمرار هذه الانتفاضة من الحدود التي انطلقت منها، كغطاء لحركة قيادة المنظمة السياسية عربياً ودولياً، وهو ما فعلته الانتفاضة حتى الآن... هذا قطعاً، دون التقليل مما ألحقته الانتفاضة بالكيان الصهيوني وقواه القمعية ومؤسساته السياسية من أضرار مادية ومعنوية.

والواقع أنه منذ أكثر من عام، وصلت الانتفاضة إلى نوع من «التعادل» مع سلطات الاحتلال الاسرائيلي، فلا هي فرضت على قوات الاحتلال الجلاء عن الضفة الغربية والقطاع، ولا قوات الاحتلال استطاعت أن تقضي عليها. وها هي الانتفاضة قد دخلت شهرها السابع والعشرين، ولا يزال الوضع على حاله بالنسبة للموقف السياسي. وقد جاء في محاضرة ألقاها وليم كواندات، الخبير الأمريكي في شؤون الشرق الأوسط، (بدعوة من جمعية الدراسات الدولية في تونس) بتاريخ ٢٧/٦/١٩٨٩، قوله: «لقد غيرت الانتفاضة طبيعة الصراع، كما أنها منحت الفلسطينيين ثقة جديدة بأنفسهم..»، لأن الانتفاضة عبارة عن: «مقاومة شعب للاحتلال، ولكنها لا تضع وجود اسرائيل نفسه في الميزان». هذا التقييم صحيح إلى حد كبير، لكنه ليس دقيقاً، فالانتفاضة لم تضع «وجود اسرائيل نفسه في الميزان»، ليس لأن المقاومة الشعبية للاحتلال غير كافية لتحقيق هذا الغرض، ولكن لأن الانتفاضة نفسها وضعت في إطار حبس إمكانياتها، وحدَّ من آثارها على هذا الوجود الاسرائيلي.

فلماذا... لماذا هذا التعامل مع انتفاضة شعب تُدق عظامه، ويدفن شبابه أحياء، وتجهض نساؤه، وتفقأ أعين أطفاله على مشهد ملون في تليفزيونات العالم بأسره، على أنها ورقة، مجرد ورقة، على منضدة الألاعيب السياسية من أجل تسوية القضية. أليست مفارقة مضحكة مبكية أن يركن عموم الوعي العربي السائد الى المفاوضات والعمل الدبلوماسي بالاستناد إلى معطيات، الانتفاضة، كبديل عن جماع العمل القومي العربي وربما في مواجهته. وكأن انتفاضة الشعب العربي في الأرض المحتلة هي «فرض كفاية»

يؤديها المنتفضون، بينما يكتفي القاعدون بالصمت، صمت العاجز أو المتواطىء سيان، أو بالتهليل والتأييد الكلاميين. . ؟!

فإذا أضفنا هذا التساؤل إلى ذلك إلى ما قبله، يمكننا القول بأنها تساؤلات نسوقها ليس للتقليل من أهمية ما يجري في الأراضي المحتلة، بل للتذكير ببعض مسلمات وأسس الصراع العربي ـ الصهيوني الذي بات بحاجة إلى تذكير في زمن بدأت تنهار فيه المسلمات ضمن مناخ الاختلاط والتشويش السائدين، للوصول، ليس فقط إلى تثبيت بعض دروس الانتفاضة الفلسطينية المجيدة. . . بل أيضاً من أجل استخلاص بعض المهمات القومية الواجبة في إطار واقع التجزئة العربي الراهن.

● الصراع العربي ـ الصهيوني

يتحدد هذا الصراع العربي ـ الصهيوني، مثله في ذلك مثل أي صراع آخر، في ثلاثة مستويات هي: المستوى العقائدي، والمستوى الاستراتيجي، والمستوى التاكتيكي. والمقصود بالعقيدة: مجموعة المبادىء الرئيسية لأية حركة. . . ولها ضرورتان: أولاهما، فهم الواقع الاجتماعي من خلالها. وثانيتهما، الوحدة الموضوعية للمرتبطين بها». أما الاستراتيجية، فهي: «الخط العام الثابت للعمل الذي تقوم به الحركة، والذي يصل بين ما هو كائن، وما يجب أن يكون، خلال مساحة زمنية معينة. . . وعناصرها الثلاث هي: الهدف والخطة والاداة». أما التاكتيك، فيعني: «الموقف الذي يتم على مستواه تحديد العمل الذي تقوم به الحركة خلال مرحلة زمنية معينة، بحيث يكون في خدمة الاستراتيجية وفي نطاق الالتزام بها». أما من حيث العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة، فتتمثل في أن «العقيدة» هي الأصل ولا تتغير، ومنها تنبع الاستراتيجية التي تنبع منها وتتعدد التاكتيكات. هذا يعني أن المستوى العقائدي يضبط ويحكم المستوى الاستراتيجي، الذي يضبط ويحكم بدوره المستويات التاكتيكية. . . لذلك لا يمكن أن تكون هناك استراتيجية تتناقض مع المنطلق العقائدي، أو أن يكون هناك تاكتيك يتناقض مع المستوى الاستراتيجي، وبالطبع العقائدي أيضاً.

والواقع أن ليس لهذه الكلمات المهيبة: العقيدة (المبدأ) والاستراتيجية والتاكتيك أي معنى، إلا إذا كانت منسوبة إلى واقع معين. ومن حسن الحظ أن الواقع المعين في خصوصية الصراع العربي ـ الصهيوني ليس محل خلاف بين العرب. فلسطين أرض مغتصبة من الشعب العربي. فلسطين ليست محتلة أرضاً وبشراً، كما كان الوضع قبل العام ١٩٤٨، بل فلسطين الأرض اغتصبت واخليت من الشعب العربي إلا قليل، ثم استوطنها الصهاينة المغتصبون، وأقاموا عليها دولة اسموها «اسرائيل». . . إن واقعها قريب الشبه بالواقع الاسترالي والأمريكي بعد إبادة البشر (إلا قليل)، وإقامة مجتمعات ودول من المهاجرين عليها. وينحصر الفرق في أن الشعب العربي لم يبد، ولكنه يحيط بأرضه المغتصبه إحاطة كثيفة يريد استردادها.

هذا هو الواقع من وجهة نظر عربية. ولا تختلف الرؤية الصهيونية لهذا الواقع عن الرؤية العربية إلا في التقييم. فلسطين أرض اغتصبها العرب من الشعب اليهودي منذ الفتح الإسلامي. فلسطين لم تكن

محتلة أرضاً وبشراً قبل ١٩٤٨، بل فلسطين الأرض اغتصبت منذ أربعة عشر قرناً، واخليت من الشعب اليهودي الا قليل، ثم استوطنها العرب الغاصبون، وضموها إلى دولة أسموها دولة الخلافة سلمتها للانجليز. إن واقعها كان قريب الشبه بالواقع الاسترالي والأمريكي بعد إبادة البشر وإقامة مجتمعات ودول من المهاجرين إليها. وينحصر الفرق في أن الشعب اليهودي لم يبد، ولكنه تشتت في أقطار الأرض، إلى أن قادته الحركة الصهيونية إلى فلسطين لاستردادها خالية من البشر، فاستردها وأقام دولته عليها، واسماها اسرائيل(*).

لاخلاف إذن أن الصراع العربي ـ الصهيوني يدور حول أرض فلسطين لمن تكون.

ولما كان المبدأ، أو (العقيدة) التي ينطلق منها الصراع، هو الذي يحدد الهدف الاستراتيجي. نعني الهدف النهائي للصراع. ولما كان المبدأ ذاته يتحدد بالواقع الذي يدور حول الصراع، كما هو. . . فقد عرفنا أن الواقع الذي يدور حوله الصراع، كما هو، لاخلاف عليه بين طرفي الصراع العربي ـ الصهيوني: «أرض فلسطين لمن تكون، للعرب أم للصهاينة؟». ويبقى أن نعرف الآن ما هو استراتيجي وما تاكتيكي بالنسبة إلى طرفي الصراع، وذلك في ممارساته المختلفة.

ولنبدأ. . . بالطرف الصهيوني.

● الاستراتيجية. . . الصهيونية

للاستراتيجية عناصر ثلاثة, الهدف ـ الخطة ـ الأداة.

(١) أما الهدف الاستراتيجي الصهيوني، فيتحدد في الاستيلاء على الأرض العربية التي تمتد من نهر النيل إلى نهر الفرات، وإخلاؤها من سكانها، ليقيم فيها كل يهود العالم دولتهم. وهو، كما يتضح، هدف حددته العقيدة الصهيونية على وجه لا يستطيع أي صهيوني أن يحيد عنه، أو يتوقف دونه، ويبقى صهيونياً.

(٢) أما الخطة الاستراتيجية الصهيونية، فتتميز أساساً بأنها هجومية عدوانية. هجومية منسوبة إلى الصهاينة، عدوانية منسوبة إلينا نحن العرب. ذلك لأنها بحكم الفارق بين منشأ القوة وهدفها، لابد من أن تكون هجومية عدوانية.

ويمكن تحديد العناصر الأساسية لهذه الخطة في النقاط التالية:

* سلب الأرض العربية (الفلسطينية. . بداية) بمعنى إجلاء السكان الفلسطينيين العرب باستخدام شتى الوسائل والأساليب، وعلى رأسها الإبادة والعدوان والقمع المتواصل. وقد تلخصت هذه السياسة ـ من ناحية أولى ـ في مثلث «القضم والضم والهضم» لأراضي احتلال عامي ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ وما فيها وما عليها من ثروات. الأمر الذي يخلق تدريجياً أمراً واقعاً لا رجعة فيه. وقد فعل الاحتلال الاسرائيلي ذلم بالفعل، في معظم مناطق احتلال عام ١٩٤٨، ثم نشط لفعل الأمر نفسه في مناطق احتلال عام ١٩٦٧. وفي هذا السياق جرى ضم القدس رسمياً في أعقاب حرب عام ١٩٦٧ مباشرة، ثم ضم الهضبة السورية بتطبيق القانون الاسرائيلي عليها رسمياً في العام ١٩٨١.

كما نفذت السلطات الاسرائيلية مجموعة من السياسات، استطاعت بموجبها ـ من ناحية أخرى ـ

تفريغ الضفة والقطاع من آلاف السكان. وقد تمثلت هذه السياسات، إما في إجبار الفلسطينيين على النزوح القسري، بالإرهاب، أو بالطرد أو الإبعاد للأفراد والمجموعات، وخاصة بالنسبة إلى القيادة السياسية والنقابية والاجتماعية والدينية، أو بتشجيع الفلسطينيين على الهجرة خارج الوطن المحتل. ويكفي أن نعرف أنه كان من جراء هذه السياسات أن نجحت السلطات الاسرائيلية في ألا يتجاوز عدد الفلسطينيين في الضفة والقطاع مليوناً ونصف المليون تقريباً في العام ١٩٨٥، في حين كان تقدير الدراسات العلمية يتجاوز بقليل مليوني نسمة في بداية العام ذاته.

اضف الى ذلك.. من ناحية ثالثة ـ أن سلطات الاحتلال، قد أقامت في الضفة والقطاع عشرات المستوطنات الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، حيث بلغ مجموعها، وفقاً لبعض المصادر، حوالي ٢٠ مستوطنة، يستوطنها حوالي ٢٠٠ ألف مستوطن على امتداد الضفة، علاوة على ٢٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ مستوطن في القطاع.

* إلى جانب السعي الدائم نحو سلب الأرض العربية، وإجلاء سكانها الأصليين، كان هناك مخطط مرادف، غايته تعميق التجزئة في الواقع العربي، وسيلته تخريب مقومات الوجود القومي العربي. وقد بدأ المخطط المرادف، قبل صدور وعد بلفور، وتواصل بعده، ومازال قائماً.

وقد تمثل هذا المخطط ـ من ناحية أولى ـ في اتهام اللغة العربية بالعجز والقصور والتخلف عن متطلبات العصر، بالاضافة إلى المعالجة غير الأمنية لقضايا الآثار والتراث والفولكلور في الارض العربية. تلك المعالجة التي اتسمت بالمبالغة التي تصل إلى حد الخروج على الموضوعية، في ابراز كل ما يتصل بالحضارات التي ازدهرت قبل الفتح الاسلامي بقرون، مع التجاهل المتعمد لكل ما يمت بصلة للماضي المتصل بالحاضر. وكان من نتيجة ذلك أن تولد وعي مزيف لدى البعض بتعدد الموروثات الحضارية لشعوب المنطقة.

كما تمثل هذا المخطط ـ من ناحية أخرى ـ في العمل على فصم العلاقة الجدلية بين العروبة والاسلام، وذلك بمحاولة إسقاط القوانين التي افرزتها التجربة التاريخية الأوروبية من صدام بين الكنيسة والقوميات، على الواقع العربي، برغم اختلاف الظروف دينياً وقومياً. ولقد استغل في هذا المجال جهل الكثيرين بخصائص الاسلام، ومن أبرزها خصوصية عدم وجود مؤسسة كهنوتية ذات قداسة، تيسر لها ادعاء امتلاك السلطة الدينية وممارسة سلطات دينوية.

أضف إلى ذلك.. من ناحية ثالثة ـ الدفع في اتجاه تحويل التعدد الديني إلى حالة من الطائفية، وتصعيدها إلى درجة الفتنة الطائفية، ثم إلى درجة الحرب الاهلية، ثم بالتدخل لصالح الأقليات ومساعدتها للحصول على الاستقلال الذاتي، أو الانفصال بدويلة طائفية، كما حدث في لبنان.. ويحدث الآن في جنوب السودان. ومن العوامل المساعدة في نجاح هذا المخطط الدور الذي تلعبه بعض الجماعات الدينية (بوعي أو دونما وعي) في إفساد العلاقة بين المواطنين العرب ذوي الديانات المختلفة، وتأهيلهم من خلال حالة الاضطهاد المفروضة عليهم، إلى التعاطف مع المخطط الصهيوني.

ومن الجدير ذكره هنا، أن هذا، المخطط الصهيوني المسمى بتفتيت الوطن العربي، المنشور على لسان بعض الكتاب الصهاينة، انما يتحدد صراحه في مشاريع، مثل تقسيم مصر الى دولة قبطية، وأخرى

إسلامية. وثالثة في صحراء سيناء خاصة بالبدو.. وتقسيم الاقطار العربية الأخرى.

* انتزاع الاعتراف بشرعية الدولةالاسرائيلية... وهو ما يتطلب خلق ميزان قوة عسكرية لصالح اسرائيل على طول خط المواجهة مع البلدان العربية. وفي هذا الإطار لابد من ضرب وإجهاض أي مشروع للتنمية، أو التطور، أو الاستقلال لأية دولة عربية، أو أي مشروع وحدوي.. وهو ما يفسر ضربة ١٩٦٧ لمصر، وضرب المفاعل النووي العراقي، واجتياح لبنان ١٩٨٢... بالاضافة إلى العمل على إغراق المنطقة في حالة من الصراع العربي ـ العربي أو العربي الايراني، وذلك لاستنزاف أية مقدرة على المقاومة... مع العمل على دفع وترسيخ حالة التبعية إلى أميركا.

* كل المخططات السابقة وغيرها تستدعي، بالطبع، الاعتماد بشكل خاص على القوى الاستعمارية الكبرى، لتتبنى المشروع الذي يستحيل تنفيذه بقوة إقليمية أو محلية فقط، وإنما لا بد من المساندة الدولية التي توفرها هذه القوى الكبرى، خاصة تلك التي تقترب (أو تتطابق) استراتيجيتها الخاصة مع الاستراتيجية الصهيونية، والتي كانت هي ألمانيا ثم بريطانيا، وأخيراً أميركا.

(٣) أما الاداة الصهيونية، فهي المنظمة الصهيونية العالمية، وليست مؤسستها السياسية المسماة دولة اسرائيل.. إذ إن هذه المنظمة هي التي وجدت قبل اسرائيل وأوجدتها.. وهي التي تقف وراء اسرائيل وتستخدمها كقاعدة انطلاق إلى دولة اسرائيل الكبرى، التي تمثل هدفها النهائي... وهي التي تمارس إلى الآن أكبر دور دولي وعالمي، مثل الضغط على الاتحاد السوفييتي، مثلاً، للسماح لليهود السوفييت بالهجرة إلى «اسرائيل». وبكلمة: إن المنظمة الصهيونية هي الأداة الأم لكل المشروعات الصهيونية، وإن كانت لكل هدف أو مخطط من الاهداف والمخططات المرحلية السابقة أدواته الجزئية المناسبة.

● **والتاكتيك...**

تندرج تحت عنوان التاكتيك الصهيوني كل الممارسات الصهيونية الجزئية واليومية، والتي لم يحدث (إلى الآن) أن تخطت العقيدة والاستراتيجية الصهيونية، مثال على ذلك تلك الحركة الصهيونية المسماة «حركة السلام».. إنها حركة صهيونية العقيدة، صهيونية الاستراتيجية، وإن كانت لها تكتيكاتها ومواقفها الخاصة التي تلعب دوراً متكاملاً مع باقي الأدوار الصهيونية، كأن تخرج في مظاهرات تدين مذابح صبرا وشاتيلا تجنباً للإدانة الدولية لبربرية الحركة الصهيونية و«إسرائيل»... إنها أدوار موزعة ومرسومة.

والواقع أننا قلنا: «لم يحدث (إلى الآن) أن تخطت العقيدة والاستراتيجية الصهيونية»، لأن القائم على تنفيذ هذه الاستراتيجية وتاكتيكاتها المختلفة، هي المنظمة الصهيونية العالمية. فمثلاً، قد تجنح حكومة اسرائيل إلى السلام، وقد تقبل التخلي عن التوسع، ولكن هذا لن يكون، عند المنظمة الصهيونية، إلا استسلاماً أو خيانة من حكام الدولة القاعدة. ولن تلبث الصهيونية أن تغير من تشكيل الحكم في دولتها الصغرى، لتستأنف مسيرتها إلى دولتها الكبرى.

وهكذا....

لقد أصبح من الواضح الآن أن الصهيونية تمارس صراعها معنا وضدنا بأسلوب علمي، منطلقة من رؤية عقائدية محددة وواضحة، استراتيجيتها منسجمة مع هذه الرؤية، وضابطة لكل ممارساتها التاكتيكية، على تلك المعايير العقائدية والاستراتيجية.

من هنا، يثور التساؤل التالي: هل هناك في الوطن العربي أية دولة، أو منظمة، أو أي حزب علني، يمارس صراعه مع العدو الصهيوني بذات الأسلوب (العلمي)... بمعنى أنه ينطلق من رؤية عقائدية صحيحه، وله استراتيجية ثابتة وواضحة، ويمارس تاكتيكاته على أساس من كل ذلك؟

وإذا كانت الإجابة بالنفي... لسبب بسيط، وهو إن فلسطين لم تتحرر حتى الآن، وإننا لم ننجح في تحقيق النصر على العدو الصهيوني حتى الآن.. هنا يصبح التساؤل المشروع:

إذن ما الذي يحدث الآن في الوطن العربي؟

● **الهزيمة والاستسلام**

الهزيمة، هي «التخلي عنوة عن هدف تاكتيكي أو استراتيجي». أما الاستسلام، فهو «قبول التخلي عن هدف تاكتيكي أو استراتيجي بدون صراع». ويبدو الفارق بين الهزيمة والاستسلام دقيقاً على المستوى التاكتيكي، إذ قد يتم الانسحاب بدون قتال من موقع تاكتيكي، نتيجة لتقدير القيادة لموازين القوى، وتجنب خسائر محققة. هذا ليس استسلاماً ولكنه مناورة، واحدة من فنون الصراع التي يجيدها الراسخون في علم الصراع وفنونه. إلا أن الفارق بين الهزيمة والاستسلام يبدو أكثر وضوحاً، عندما تقع الهزيمة على المستوى التاكتيكي، فيتم التراجع على المستوى الاستراتيجي، أو حين تقع الهزيمة على المستوى الاستراتيجي، فيتم قبول وتبني نظرية المعتدين. وهو هنا استسلام، لأنه ليس النتيجة المنطقية أو اللازمة للهزيمة.

وقد هزمتنا الصهيونية عام ١٩٤٨، واحتلت جزءاً من فلسطين، وهزمتنا عام ١٩٥٦ وخرجت من المعركة مستولية على مياهنا الإقليمية في خليج العقبة، وهزمتنا عام ١٩٦٧، واستولت على سيناء والضفة الغربية والمرتفعات السورية. وفي مقابل هذا كنا ندرك أن تلك هزائم تاكتيكية، ونعد العدة لاستئناف المعارك. ففي عام ١٩٦٧ أدرك جمال عبد الناصر مستوى الهزيمة، بالرغم من جسامتها، وقدم مثالاً رائعاً للقائد الذي يعرف طبيعة المعارك التي يخوضها. فبعد شهرين فقط من الهزيمة الجسيمة رفع شعار «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة»، وشعار «لا مفاوضة، لا صلح، لا اعتراف». وفي العام ذاته سئل وزير خارجية الصهاينة، أبا ابيان، عما كانت الصهيونية ستفعل لو نجح العرب في تدمير «اسرائيل» فقال: «كنا سنبدأ من جديد لإقامة دولة اسرائيل». وكان كلاهما يعبران عن السمة التاكتيكية للنصر الصهيوني والهزيمة العربية عام ١٩٦٧.

غير أن الأمور لم تجر على هذا المنوال... فبعد نصر اكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣، الذي كان نصراً في موقعة تاكتيكية، لم يحسم الصراع بين العرب والصهيونية على المستوى الاستراتيجي، ولكنه مهد لحسمه لصالح العرب. وفي المدة من عام ١٩٧٥ إلى عام ١٩٧٩ حلت بالعرب، كل العرب، أبشع هزيمة

رحمه الله في الستينات وهو: «لا صلح، لا اعتراف، لا مفاوضة».. مع هذه الدولة.

فلماذا.. لماذا حدث، إذن، الانتقال من قتال التحرير، إلى أحاديث السلام؟

هل غيّر العدو الصهيوني طبيعته؟... هل تغيرت حكومة الولايات المتحدة الاميركية؟.. هل أصبحت الأمم المتحدة قادرة على احقاق الحقوق؟

إن كل الذين يملأون الأرض صخباً وضجيجاً بالحديث عن «دولة فلسطين»*، يعلمون علم اليقين ـ من ناحية ـ بأننا لم نحرر الضفة أو القطاع، أو حتى جزءاً من فلسطين، لنقيم عليه هذه الدولة. ولم تم شيء من هذا.. ولو في القطاع وحده، ولو في مدينة واحدة من مدن الضفة، وكان نصراً عظيماً... كما إنهم يعلمون علم اليقين ـ من ناحية أخرى ـ أنه لا توجد مؤسسة تستحق اسم «الدولة»، إلا إذا كانت كاملة السيادة. سيادة شعبها على أرضها، واستقلاله بالارض دون غيره... كما إنهم يعلمون علم اليقين ـ من ناحية ثالثة ـ أن أية مؤسسة تفتقد سيادتها جزئياً أو كلياً ليست دولة، لو قامت فيها حكومة تحكم شعباً مقيماً على أرض. إنها بمعنى أو بآخر مستعمرة، وشعبها بمعنى أو بآخر مستعبد، وحكومتها بمعنى أو بآخر عميلة تطيع مكرهة أو راضية ما يصدر إليها من أوامر أو وصايا أو نصائح من خارجها.

فلماذا.. لماذا هذا الضجيج وذلك الصخب عما يسمونه «الدولة الفلسطينية»، وهم يعلمون تماماً، أنها أياً كانت، منقوصة السيادة أو فاقدتها؟.. ولماذا يبشرون الشعب العربي الفلسطيني المشرد، الذي يعاني، الذي يقاتل، بهذه المؤسسة وهم يعلمون تماماً أنه سيعيش فيها منقوص الحرية أو فاقدها؟. ولماذا ذلك التعامل مع انتفاضة شعب تدق عظامه، ويدفن شبابه أحياء، وتجهض نساؤه، وتفقأ أعين أطفاله على مشهد ملون من تليفيزيونات العالم بأسره على أنها ورقة، مجرد ورقة، على منضدة الألاعيب السياسية من أجل تسوية القضية، وهم يعلمون تماماً أن ذلك لن يخدم إلا الأهداف الاستراتيجية الصهيونية؟

وبعد...

إن قادة المنظمة، لابد وأنهم يعرفون تماماً، أن السلم مع «اسرائيل» لا ينهي القتال والعنف ولا يوقف نزيف الدم، بل ينقله إلى ساحة أو ساحات أخرى. وإلا... فما الذي ستفعله الطلائع التي ربتها «ثورة الانتفاضة» وأعدتها للقتال، وما الذي ستفعله الكوادر التي رافقت الشهداء في المعارك الضارية، لا أحد يستطيع أن يشك جدياً في أن إيقاف القتال والعنف ضد العدو الصهيوني، سيؤدي مباشرة إلى حرب أهلية في الشعب العربي الفلسطيني، قد تمتد بنيرانها فتلهب الوطن العربي كله.

فهل هناك ثمة بديل؟

غير أن هذا الحديث، نرجو أن يكون قادماً.. وإنا فيه لمجتهدون.

---

* ولكن مع الفارق الكبير، ففلسطين ارض عربية منذ اقدم الازمان، والدولة العبرية الغابرة مرحلة عابرة في تاريخها، والعبريون الحاليون ليسوا ورثة يهود الامس، ومرور حوالي ثلاثة آلاف سنة على سقوط الدولة العبرية الاولى وتشتت اليهود ليس مثل هجرة الفلسطينيين الذين أجلوا قبل اربعين عاماً.

انجازات الانتفاضة/ الثورة بين الأوهام التسووية والوقائع الثورية

خالد عايد*

لقد اخترت عن عمد موضوعا للمحاضرة هذه، يحمل عنوان: إنجازات الانتفاضة/ الثورة: بين الأوهام التسووية والوقائع الثورية. وهو مرادف لعناوين أخرى تضع هذه الإنجازات في كفتي التفخيم والتقزيم، او التهويل والتهوين. في محاولة للخلوص الى نظرة أعمق في الانتفاضة/ الثورة، والى تقويم موضوعي للإنجازات التي قدمت جماهيرُ المنتفضين تضحياتٍ جساما من أجل تحقيقها.

سأحاول أولا أن أوجز الأطروحة، او الفكرة الرئيسية، التي أدافع عنها في هذه المحاضرة: لقد حققت الانتفاضة/ الثورة فعلا جملة من الإنجازات، على غير صعيد. ويتفاوت حجم هذه إنجازات من صعيد الى آخر، تبعا للشروط الذاتية والموضوعية التي تحكم مسار الانتفاضة. كما تتفاوت أهمية هذه الأنجازات، تبعا لاختلاف منهج دراسة الانتفاضة/ الثورة والتعامل معها. وهكذا، فإن نهج التسوية الفلسطيني - العربي يبالغ في تقدير حجم انعكاسات الانتفاضة الخارجية، خصوصا على الصعيدين الاسرائيلي - الاميركي، مشيعا الأوهام في شأن إمكانية التوصل الى تسوية سلمية مع العدو الصهيوني - الاميركي. هذا، في حين أن القراءة الموضوعية تكشف أن الإنجاز الأعظم للانتفاضة/ الثورة، انما يتمثل في إنجازاتها الداخلية، التي تؤسس لإعادة الصراع العربي - الصهيوني الى نقطة انطلاقه الحقيقية، كصراع على الارض والوجود، لانزاعا على السماء والحدود، كما تؤسس لتحقيق مهمة الانتفاضة الكبرى المتمثلة في إحداث ثورة داخل الثورة الفلسطينية - العربية المعاصرة.

في دفاعي عن هذه الاطروحة، وإزاء تشعب الموضوع وغناه وتعقيداته، سأتحدث عن مجموعتين من إنجازات الانتفاضة/ الثورة، لابغرض التبسيط، وإنما بقصد مواجهة نهج التسوية والتفريط: مجموعة الإنجازات/ الانعكاسات الخارجية، التي غالبا ما يجري تضخيمها، ومجموعة الإنجازات الداخلية التي يتم عادة تقزيمها.

---

* كاتب من فلسطين.

أولا: الانعكاسات الخارجية

لقد حققت الانتفاضة/ الثورة، فعلا، بعض المكتسبات الأعلامية على صعيد الرأي العام العالمي، خصوصا مع التغطية الإعلامية الكثيفة التي رافقت شهورها الأولى. لكن هذه المكتسبات لم ترق الى مستوى حدوث «انتفاضة» في وعي شعوب العالم لحقيقة القضية الفلسطينية. ويعود ذلك الى أسباب أهمها:

طبيعة الإعلام الرأسمالي الغربي من جهة، وعدم امتداد الانتفاضة/ الثورة الى فلسطين المحتلة سنة ٤٨ من جهة ثانية.

في سياق تضخيم الانجازات الأعلامية، يشُار عادة، وخصوصا، الى الانعكاسات الحاصلة في الولايات المتحدة، إن على صعيد الرأي العام فيها، او ما يتعلق بموقف اليهود الاميركيين، او حتى «الإدارة» الاميركية. وسنورد في مايلي بعض الوقائع كأمثلة، في مواجهة الأوهام التي يجري ترويجها على هذا الصعيد:

١ - بعد عامين ونصف العام من الانتفاضة: لم يحصل أي تغيير ملموس في موقف الشعب الاميركي من مسألة إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة. وهذا ما يؤكده آخر استطلاع للرأي في الولايات المتحدة، أجرته مؤسسة «غالوب» بطلب من مؤسسة الدراسات الفلسطينية، حيث أظهر الاستطلاع أن نسبة الأميركيين الذين يؤيدون إقامة الدولة الآن، هي نفسها النسبة التي كانت سنة ١٩٨٢، وهي ظلت ٤٥٪ (انظر الحياة: ١٨ - ١٩/١١/١٩٨٩). (مع ملاحظة مهمة: في هذا الاستطلاع للرأي وغيره، ويكون مفهوم الدولة الفلسطينية غامضا وفضفاضا، ويعني لدى العديدين كيانا أقرب الى الإدارة الذاتية او الدولية المنقوصة السيادة والاستقلال).

٢ - إن موقف اللوبي الصهيوني في اميركا، الذي ينسب اليه ممارسة ضغوطات على «اسرائيل»، إنما يستهدف تحسين صورة «اسرائيل» في العالم. وحتى الذين يجرون لقاءات مع قيادة م. ت. ف من بين زعماء هذا اللوبي، فإنما يرمون، في الدرجة الأولى، الى ابتزاز تنازلات إضافية من قيادة المنظمة. ومثال ذلك الرسالة المفتوحة التي أرسلها رئيس الاتحاد الصهيوني العمالي مناحيم روزنزافت الى ياسر عرفات على صفحات مجلة «النيوزويك» (العدد ٥٠، ١١/١٢/١٩٨٩، ص٤).

٣ - إن «الإنجاز» المتمثل في مايسمى «الحوار الاميركي - الفلسطيني» ليس ثمرة الانتفاضة بحد ذاتها، وإنما هو نتيجة للتنازلات التي قدمتها قيادة المنظمة استجابة للشروط الاميركية لبدء الحوار مع م. ت. ف والتي كان كيسنجر وضعها منذ سنة ١٩٧٤.

ويتضح من خلال جولات هذا الحوار على امتداد عام ونصف العام أن هدف «الإدارة الاميركية منه هو، بالضبط، تبديد إنجازات الانتفاضة بالضغط على قيادة المنظمة واستدراجها الى مسارٍ لا ينتهي من التنازلات.

في سياق التضخيم نفسه، يصار الى المبالغة في تقدير أثر الانتفاضة/ الثورة في الكيان الصهيوني. ففي مجال تناول هذا الأثر في المؤسسة السياسية الاسرائيلية، من حكومة وأحزاب ورأي عام وغير ذلك،

نسمع ونقرأ تقويمات، لقادة وخبراء مفترضين، من العيار الثقيل الآتي: «انهيارات» داخل المؤسسة الصهيونية؛ شقاق و«تصدع» حتى داخل الليكود؛ «بروز تيارات وأحزاب سلمية»؛ زيادة «التقاطب» السياسي . . . الخ . وأقل مايقال في مثل هذه التقويمات أنها تشويه للإنجاز الحقيقي في هذا المجال والمتمثل في أن الانتفاضة/ الثورة بإنجازاتها الداخلية، خصوصا مايتعلق بزحفها الى فلسطين ٤٨ ، وضعت الكيان الصهيوني في مواجهة مأزق وجوده بالذات، وطرحت شرعية هذا الوجود من أساسه (وليس فقط «شرعية» احتلال الضفة والقطاع، المنقوضة أصلاً). وهنا تحديدا يقع جذر الجدل الدائر (الصاخب أحيانا) على سطح الحياة السياسية الاسرائيلية، والذي ينبغي ألاّ يحجب عن أعيننا الوحدة الراسخة والمترسبة في الأعماق إزاء قضية الوجود والمصير الصهيونيين.

إن فعل الانتفاضة/ الثورة خلال عامين ونصف العام لم يؤد الى حصول «تقاطب» داخل الكيان الصهيوني، أي انقسام هذا الكيان الى قطبين متنافرين، يدعو أحدهما مثلا الى ضم الأراضي المحتلة، في حين يدعو الآخر الى الانسحاب الكامل منها. فالذي حصل فعلا هو استقطاب، او انزياح الكيان بكامله يمينا، في اتجاه موقعه «الطبيعي» ككيان استيطاني توسعي عنصري بالضرورة، ماسحا كل يوم المزيد من المساحيق الديمقراطية والليبرالية والإنسانية والسلمية المزعومة. وهنالك الكثير من الشواهد الدامغة على ذلك منذ انطلاقة الانتفاضة، نذكر منها: نتائج انتخابات الكنيست الثانية عشرة، خصوصا صعود القوى الدينية اليمينية، وتمثل قائمة «موليدت»، المسماة قائمة «الترانسفير»، في الكنيست؛ تكون أغلبية في الرأي العام تدعو الى طرد الفلسطينيين، تقدرها آخر الاستقصاءات بنحو ٥٢٪؛ تأليف «جبهة أرض اسرائيل الكبرى» التي تضم حتى الآن نحو ثلاثين من بين اعضاء الكنيست، «تلكّد» حزب العمل بتحوله الى مايشبه الجناح اليساري في الليكود، من حيث مواقفه من الانتفاضة والشعب الفلسطيني، خصوصا مع صعود نجم رابين وزير قمع الانتفاضة، ثم مع تأليف تكتل داخل الحزب في أواسط كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٩ يعارض «الحل الوسط الاقليمي» الذي يتبناه العماليون منذ بداية الاحتلال. ثم أخيرا، الإجماع الكامل على قضايا الهجرة والاستيطان، وهما اللذان يشكلان جوهر الصهيونية.

على الصعيد السياسي، هناك ثمة مجالات أخرى يجري تضخيم إنجازات الانتفاضة/ الثورة فيها.

ففي المجال الاقتصادي، غالبا ماتقرأ الكلفة التي تكبدها الانتفاضة للعدو الاسرائيلي بعين واحدة فقط. ولا نقصد هنا المبالغة التي تتم أحيانا في تقدير أرقام هذه الكلفة، إذ من الطبيعي أن تختلف التقديرات الرقمية تبعا لاختلاف طريقة احتساب الكلفة. لكن مانقصده بقراءة «العين الواحدة» هو التغاضي عن طرف المعادلة الآخر، والمتمثل في:

١- ان حجم الكلفة الذي يتحمله الفلسطينيون لا يقل، وربما يزيد، على الحجم الاسرائيلي المقابل. فقد انخفض متوسط دخل الفرد بنسبة ٣٠ - ٥٠٪ في الضفة، و٥٠ - ٦٠٪ في القطاع. كما تقدر الغرامات الشهرية فقط بنحو ٢٠٠ الف دولار، اي نحو ٢,٥ مليار دولار في العام . . . الخ. (بحسب فرانس برس، انظر الدستور ٩/ ١٢/ ١٩٨٩).

٢- إن الكلفة الاقتصادية تحتل مرتبة ثانوية بالنسبة للعدو قياسا بالكلفة البشرية، وإن هاتين الكلفتين

تحتلان مرتبة شبيهة لدى الفلسطينيين قياسا بمردودهما المتمثل في الوطن.

٣- إن الاقتصاد الاسرائيلي، في ظروف انخفاض عدد العمال الفلسطينيين فيه، يحقق «إنجاز» قد تكون له نتائج بعيدة المدى، وذلك بتحوله تدريجيا من الصناعات الكثيفة العمل الى الكثيفة العلوم والرأسمال، كالالكترونيات والتكنولوجيا المتقدمة.

يمكن أن نمضي في إيراد الأمثلة على التضخيم الحاصل لإنجازات الانتفاضة/ الثورة على غير صعيد خارجي، خصوصا داخل الكيان الصهيوني (مثلا: امتناع نحو ٧٠ جنديا فقط يشكلون نسبة ضئيلة جدا من الجيش الاسرائيلي عن الخدمة في الأراضي المنتفضة يتحول بالتضخيم الى «ظاهرة»؛ والحديث عن ارتفاع نسبة الجريمة والأمراض النفسية وانتحار الجنود وتعاطي المخدرات بين الاسرائيليين . . . الخ الخ). لكننا سنكتفي الآن بالاشارة الى وجود خيط واحد ينظم هذه الرؤية، ويمثل نهجا متكاملا في التعاطي مع الانتفاضة/ الثورة . واذا كان هذا النهج ينثر زهور الأوهام الصفراء على الإنجازات الانعكاسية الخارجية، فانه في الوقت ذاته، يلقي بظلال قاتمة سوداء عن التعتيم على الإنجازات الأساسية التي حققتها الانتفاضة في أبعادها ومكوناتها الداخلية.

ثانياً: الانجازات الداخلية: نحو ثورة في الثورة

نقصد بهذه الانجازات، تلك التي تحققت على صعيد المجتمع الفلسطيني في الأراضي المنتفضة، بمختلف أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتي سنحاول في مايلي الاشارة الى أبرزها، دون ادعاء الاحاطة الشاملة بكل ماتنطوي عليه هذه الأبعاد من غنى وتفرد.

١ - على الصعيد الاجتماعي:

يقوم إنجاز الانتفاضة/ الثورة على هذا الصعيد، في أنها أطلقت ثورة اجتماعية، مرافقة للثورة الوطنية التي فجرتها في وجه الاحتلال. ونقول: «أطلقت»، لاأكثر، حتى لانقع نحن بدورنا، في فخ المبالغة الذي حذرنا منه، ونسارع إلى التأكيد أن مسار التغير في المجتمع الفلسطيني المنتفض لايزال في بداياته. ومع ذلك، ثمة مغزى عميق لهذا المسار يتعلق بالزخم الاضافي الذي يمكنه أن يرفد به الثورة الوطنية ضد الوجود الصهيوني من جهة، وبما يمكن أن يسفر عنه هذا المسار من تثوير لبنية المجتمع وأنماط سلوكه وقيمه وتقاليده، من جهة ثانية.

تمظهر مسار التغير الاجتماعي الذي أطلقته الانتفاضة/ الثورة، حتى الآن، في العناوين الرئيسية التالية:

أ - حدوث تغير في ميزان القوى الطبقي الداخلي لمصلحة الطبقات الشعبية الفلسطينية. وتجسد هذا التغير في: نشوء أطر تنظيمية قاعدية ذات وزن، تمثل الطبقات الشعبية أساساً، (اللجان الشعبية خصوصاً)، وانبثاق قيادات ميدانية شابة من صفوف هذه الطبقات، وتمركز الانتفاضة/ الثورة في المخيمات والأحياء الشعبية والقرى الفقيرة.

ب ـ ولادة قيم وعـادات وتقـاليد وأنماط سلوك جديدة: التكافل الاجتماعي، تأكيد أهمية العمل المنتج والاعتماد على الذات، عقلنة الاستهلاك، ظاهرة «زيجات الانتفاضة». . الخ .
ج ـ تحسن مكانة المرأة بعامة، والمرأة «الشعبية العادية» بخاصة .

تكمن أهمية هذه التغيرات، في أنها، في حين جاءت نتيجة لفعل الانتفاضة/ الثورة على صعيد الجبهة الداخلية للمجتمع الفلسطيني، فإنها ـ بدورها ـ تمارس فعل تمتين هذه الجبهة وتعزيزها واعدادها لخوض حرب تحرير شعبية طويلة الأمد على الجبهة الخارجية مع العدو الصهيوني . وهي (أي : التغيرات) تمارس هذا الفعل، بنقلها لواء قيادة الكفاح الوطني من أيدي الشرائح البرجوازية، القصيرة النفس وذات النزوع الأصيل نحو المهادنة والمساومة والوقوف في منتصف الطريق والمغامرة بالوحدة الوطنية والتفريط بالوطن، إلى أيدي الطبقات الشعبية الطويلة النفس، الجذرية حتى النهاية، وذات النزوع الديمقراطي الأصيل نحو بناء جبهة شعبية متحدة من أوسع الطبقات والشرائح، تنصاع البرجوازية في إطارها للبرنامج الوطني العام، أو تختار لها مكاناً خارج الخندق الوطني .

٢ ـ على الصعيد الاقتصادي :

لقد حدثت في سياق الانتفاضة/ الثورة، ولا تزال تحدث، عمليةُ تَحَوُّل من «الاقتصاد الأسير» الى مايمكن تسميتـه بـ «اقتصـاد الانتفـاضـة» . قبل الانتفاضة جاء الاقتصاد الأسير تتويجاً لآليات الاتباع والالحاق الاقتصادية الصهيونية المعروفة، في مختلف المجالات (التشغيل، أو العمالة، التبادل التجاري، الأراضي والمياه، القطاعات الانتاجية الزراعية والصناعية، والقطاع المصرفي) . لقد كنا إزاء اقتصاد تابع للاقتصاد الاسرائيلي، وتتفاقم تبعيته في اتجاه الالحاق الكامل، مما كان يعني ـ ببساطة ـ توفير الشروط المادية الضرورية لضم الأراضي المحتلة إلى الكيان الصهيوني .

لكن الانتفاضة/ الثورة عملت، وتعمل، على تغيير حركة مسار الدمج هذا، مُطلقة بذلك مساراً جديداً من فك عرى التبعية الاقتصادية، وبالتالي، توفير أحد شروط الاستقلال الاقتصادي . وفيما يلي بعض المؤشرات على المسار الجديد :
أ ـ الانخفاض الملموس في حجم العمالة العربية داخل الكيان الصهيوني : فعلى رغم المد والجزر الحاصل في هذا المجال، يمكننا بصورة تقريبية، وبناء على معطيات نسبة البطالة وانخفاض الدخول، أن نضع نسبة الانخفاض هذه في حدود ٤٠٪ تقريباً . وتشير «حرب البطاقات الممغنطة»، التي شنتها سلطات الاحتلال في قطاع غزة في صيف ١٩٨٩، الى تسليم هذه السلطات بواقع مسار الانفصال الجديد . ذلك أنها تعني، عملياً، منع ٩٠٪ من سكان القطاع من عبور «الخط الأخضر»، وحصر هذا «الامتياز» بنحو ٦٠ ألف شخص فقط يحملون تلك البطاقات .
ب ـ الإنخفاض الملحوظ في حجم التبادل التجاري : فبحسب التقرير السنوي للبنك المركزي الاسرائيلي لسنة ١٩٨٨، مثلاً، انخفضت الصادرات الاسرائيلية الى الأراضي المنتفضة بما قيمته ٦٠٠ مليون دولار، أي بنسبة ٤٠٪ مقارنـة بالعام السابق للانتفاضة، في حين بلغت نسبة انخفاض المستوردات ٤٨٪ .

وبالاجمال، انخفض فائض الميزان التجاري الاسرائيلي مع الضفة والقطاع بنسبة ٧٦٪، وبلغ ٤٣ مليون دولار فقط .

لكن، في الـواقـع، ماتزال ثمة عقبات جدية تعترض نجاح مقاطعة البضائع الاسرائيلية بالكامل . وتتعلق هذه العقبات، أساساً، بعدم توافر بديل فلسطيني محلي من منتجات اسرائيلية معينة، وتتراوح بين الكهـربـاء ومواد غذائية أساسية كالطحين . كما تتعلق بصعوبة توفير هذه البدائل مستقبلاً، إن بسبب الضعف البنيوي للاقتصـاد الفلسـطيني، أو بسبب الجدار القانوني الحديدي الذي تضعه التشريعات الاحتلالية في وجه إمكانيات الاستثمار في مجالات المنتجات البديلة .
ج ـ زيادة إنتاج بعض القطاعات الانتاجية، وحصول بعض التغيير في بنيتها : فقد حصلت، مثلاً، زيادة هائلة في الانتاج الزراعي الصغير النطاق الموجه لأغراض الاستهلاك المحلي (الدواجن، والأبقار الحلوبة، والحبوب) . وطرأت تعديلات في عمل أكثر من ١١٠٠ من الصناعات الصغيرة والمتوسطة الحجم في الضفة الغربية . ففي قطاع النسيج، مثلاً، يلاحظ اتجاه نحو تلبية احتياجات السوق المحلية، وفي المقابل تقليص أو إلغاء أعمال كان يقوم بها هذا القطاع لحساب المصانع الاسرائيلية، بموجب عقود من الباطن معها . كما نشأ عدد من المشاريع الانتاجية على أسس جماعية أو تعاونية (في منطقة رام الله مثلاً، مزرعة جماعية على ٢٠ دونماً، ومشروع تعاوني لتربية الدواجن) . ويلاحظ في هذا المجال أيضاً، ظاهرة «العودة الى الأرض» وتنشيط القطاع الزراعي وتنشيط القطاع الزراعي (مثلاً، زراعة ربع مليون غرسة زيتون في موسم واحد فقط) .

هنـا، أيضـاً، ينبغي عدم الـوقـوع في مطب المبالغة، ويجب إدراك السقف الموضوعي لمثل هذه التطورات، فيما يتعلق بالتحول من الإنتاج المرتبط بالاقتصاد الاسرائيلي إلى الإنتاج الموجَّه محلياً . وسأسوق هنا، مثالاً على ذلك، معمل الأجهزة الكهربائية في الخليل، الذي يُعَدّ من بين كبرى شركات الضفة . إذ رغم الجهود المبذولة في سبيل هذا التحول، لايزال المعمل يستورد من الكيان الصهيوني ٩٢٪ من احتياجاته التي لايمكن توفيرها محلياً، كالزجاج والفيبر غلاس والمواد البلاستيكية وغيرها .

إلى جانب هذه المؤشرات الثلاثة إلى المسار الاقتصادي الانتفاضي الجديد، يمكن للمرء أن يشير إلى مؤشرات أخرى على صعيد قطاع المال . فقد أجبرت الانتفاضة/ الثورة المصارف الاسرائيلية كلها (ربما، باستثنـاء فرع بنك هَبوعاليم في غزة) على إغلاق الفروع التي كانت فتحتها تدريجاً منذ احتلال الضفة والقطاع . كما أسفرت «معركة الضرائب» عن عدد من النتائج، من بينها انخفاض الدخل المتأتي عن الجباية الضريبية بمقدار الربع تقريباً .

٣ ـ على الصعيد السياسي :

في مجال الصراع على السيطرة (أو على السلطة، ان شئتم)، استطاعت الانتفاضة/ الثورة تحقيق شكل فريد من أشكال «ازدواج السلطة» في الأراضي المنتفضة : سلطة الجماهير الشعبية المنتفضة من جهة، وسلطة الاحتلال من جهة ثانية . وكان هذا الازدواج يحتدّ أحياناً، ويخفت احيانا اخرى، يبرز في منطقة

معينة او موقع محدد أو أكثر. ومع ذلك فإنه ظل سمة دائمة من سمات الوضع الانتفاضي، تتجسد فيما يلي:

أ ـ تآكل نظام السيطرة الاسرائيلي، بمكوناته المختلفة، من أجهزة «الادارة المدنية» خصوصاً الشرطة والضريبية، الى المجالس البلدية والقروية والمخاتير المعينين، وصولاً إلى شبكة العملاء والمتعاونين مع العدو. ورافق ذلك انكماش نطاق السيطرة الاسرائيلية، بما فيها السيطرة العسكرية المباشرة، التي أصبحت تقتصر على محاور المواصلات الرئيسية، والمواقع ونقاط المراقبة العسكرية.

ب ـ نشوء أطر سلطة شعبية وطنية بديلة، بدءاً باللجان الشعبية والوطنية، التي تشكل نواة السلطة المحلية، مروراً باللجان القطاعية المختلفة، التي أخذت تتولى قسطاً متزايداً من وظائف «الادارة المدنية» وصولاً إلى التشكيلات المسلحة، التي هي التطور المنطقي «للجان الضاربة»، ونواة جيش الشعب المسلح («النسر الأحمر»، «الفهد الأسود» في نابلس، ثم مؤخراً «الثعبان الأسود» في صوباهر/ القدس). (من الضروري هنا التمييز بين مجموع هذه الأطر الانتفاضية، وبعض الأجهزة القمعية التي يراد لها ضبط إيقاع الانتفاضة تحت سقف اللعبة السياسية في الخارج، مثل «جهاز الأمن» و«الشرطة العسكرية» اللذين شُكّلا مؤخراً لانهاء ظاهرة ماسمي «فوضى الفهود السود»).

ج ـ نشوء «مناطق محررة»، خصوصاً في القرى النائية، وإلى درجة أقل، في المخيمات وفي بعض الأحياء الشعبية من المدن (خصوصاً حي القصبة في نابلس). ومع أن هذه المناطق «محررة» بالمعنى النسبي والجزئي فقط، وينبغي أن تُفْهَم على هذا الأساس، فإن الظاهرة بحد ذاتها تعبر بشكل ملموس عن توجه الفلسطينيين الى الانفصال عن الاحتلال، حتى في ظل الاحتلال نفسه، وهي تشكل مَعْلَماً بارزاً من معالم فرادة ازدواج السلطة، التي أشرنا اليها.

الى جانب هذه التطورات، حققت الانتفاضة/ الثورة تحولاتٍ بعيدة المدى في الخريطة السياسية داخل فلسطين المحتلة، نوجزها في ثلاثة:

أ ـ اجتذاب قواعد التيارات الاسلامية وكوادرها الشابة الى معمعان النضال الوطني، على قاعدة موقف آخذ بالتجذر، بعد أعوام من العزوف عن مقاومة الاحتلال بحجة أو بأخرى. وذلك على الرغم من التفاوت القائم حتى الآن في مواقف هذه التيارات، بدءاً بالتيار الجهادي الذي تمثله حركة «الجهاد الاسلامي» بامتياز، مروراً بالموقف الملتبس لحركة «حماس»، وصولاً إلى موقف «القعود» عن الجهاد الذي يمثله حزب التحرير الاسلامي.

ب ـ الاتجاه نحو التجذر لدى بعض القوى أو الأجنحة تحت قيادة م. ت. ف. الراهنة. والمثال الأبرز هنا تنظيم الجبهة الشعبية في الداخل، بممارساته الفعلية ومواقفه المعلنة، التي تتعارض، بل وتتناقض أحياناً، مع الموقف الرسمي لقيادة المنظمة، وحتى لقيادة الجبهة في الخارج؛ كما أن هذا الاتجاه نحو التجذر يشمل أيضاً بعض مجموعات فتح ـ عرفات، خصوصاً في منطقة نابلس.

ج ـ تسريع مسار الفلسطنة لدى عرب فلسطين ٤٨، الذي تعود أهميته إلى أنه يسهم في التأسيس لاعادة توحيد الشعب الفلسطيني في الداخل. وقد تجلى هذا المسار في: نشوء أحزاب عربية محضة للمرة الأولى منذ سنة ٤٨ (الحزب الديمقراطي العربي، ومؤخراً الحزب التقدمي الاشتراكي)، ونتائج انتخابات

الكنيست الأخيرة (ارتفاع نسبة المقاطعة، انخفاض نسبة الاقتراع للأحزاب الصهيونية. الخ)، والأزمة الأخيرة داخل حزب «راكح»، والتي نشبت، كغيرها من الأزمات الخمس السابقة في الحزب، على قاعدة تركيبه المزدوج العربي ـ اليهودي. ويمكن النظر إلى صعود الحركة الإسلامية مؤخراً، في جزء منه، بوصفه مؤشراً إلى تسريع مسار الفلسطنة المذكور، على اعتبار أن الحركة «فلسطينية» صرفة، أو أنها حركة للفلسطينيين تحديداً.

قبل إنهاء حديثي، اسمحوا لي أن أكرر، مؤكداً ماسبق أن قلته في هذه المحاضرة، وغيرها: إن تركيز نهج التسوية الفلسطيني ـ العربي على الانعكاسات الخارجية للانتفاضة/ الثورة والتغاضي ـ في المقابل ـ عن فعلها الداخلي، ليسا من قبيل الصدفة بتاتاً. فالتركيز على الانعكاسات الخارجية ينطلق من رؤية نهج التسوية للانتفاضة/ الثورة بوصفها «فرصة استثنائية» ينبغي الاستعجال في «استثمارها» قبل «فوات الأوان» كورقة في اللعبة الدبلوماسية التسووية. فيصار، بالتالي، الى إشاعة الأوهام القاتلة في شأن تحولات مفترضة تجري في معسكر العدو الصهيوني ـ الاميركي، لمصلحة مايسمى «هجوم السلام» الفلسطيني ـ العربي. وتقوم هذه الأوهام، بدورها، بمحاولة للتغطية على التنازلات المتواصلة، التي هي الثمرة المُرة الحقيقية الوحيدة للعبة السلام. وبقدرة الوهم، تصبح «الدولة الفلسطينية على مرمى حجر». وتمر الأعوام، والرهان قائم على خمود الانتفاضة، ويظل منظرو التسوية ينبحون ولا يَنْبحّون: انه ربع الساعة الأخير وفي هذه الأثناء، يُقذف كل كلام على طبيعة الكيان الصهيوني ودوره في المنطقة، وبالتالي على استحالة السلام والتعايش معه، بأنه كلام يصدر عن نظرة مغامرة، ومثالية، ولا واقعية، وعدمية. . الى ماهنالك من مفردات في قاموس التسوية البائس.

أما التغاضي عن فعل الانتفاضة الداخلي، فهو الوجه الآخر لعملة التسوية الزائفة. وهو ينطلق من العداء الأصيل لجوهر الانتفاضة/ الثورة، بما هي عملية ثورية يتناقض منطقها الخاص مع منطق التسوية السلمية. إذ إن تناول الانجازات الداخلية الحقيقية لهذه العملية، إنما يعني، بداهة، لفتَ النظر إلى أهميتها، ويستلزم، منطقياً، تطوير هذه الانجازات، وتجذير تلك العملية ـ وهذا حديث يبعث لدى المحكومين بالتسوية مايبعثه الحديث عن حبل المشنقة لدى المحكومين بالاعدام.

ومن الضروري التأكيد هنا، على أن تحجيم إنجازات الانتفاضة الداخلية من قبل رموز التسوية السلمية ومنظريها، لايتم على المستوى النظري فقط: بل إنه يتعدى ذلك الى ممارسات فعلية، ترمي إلى تحجيم الانتفاضة/ الثورة نفسها، وحصرها، وخفض سقفها، وضبطها على إيقاع الرقصة الدبلوماسية الهادئة. ومثل هذه الممارسات أكثر من أن تحصى، لأنها بمجموعها تؤلف قوام السياسة اليومية التي يحاول نهجُ التسوية «قيادة» الانتفاضة في ضوئها. واليكم الأمثلة:

ـ العمل على تهدئة الانتفاضة في مناسبات معينة (مثلاً، عشية انتخابات الكنيست الأخيرة، بهدف تعزيز فرص مايسمى معسكر السلام في النجاح).

ـ محاولة السيطرة على اللجان الشعبية بصورة بيروقراطية فوقية وتفريغها من مضمونها الشعبي الديمقراطي، بدلاً من تعميق هذا المضمون.

ـ اعتبار القدس، التي هي أكبر مدينة فلسطينية، والتي هي صلة الوصل الواقعية بين الـ ٦٧ و٤٨، مركزاً للنشاط الدبلوماسي والاتصالات مع المسؤولين والمبعوثين والقناصل. بدلاً من العمل على تصعيد الانتفاضة فيها.

ـ المحاولات المحمومة المتكررة (دون جدوى) لوقف انهيار شبكة العملاء في الأراضي المنتفضة.

ـ الوقوف في وجه تيار انفصال الأراضي المنتفضة عن سلطات الاحتلال، وإعادة الصلة من خلال شبكة «الشخصيات» المحسوبة على نهج التسوية.

ـ قمع محاولات بناء تشكيلات نضالية مسلحة، كالتي برزت في قصبة نابلس.

ـ الانهماك في وضع استراتيجية سلمية مزعومة، على حساب التركيز على صياغة برنامج لتطوير الانتفاضة/ الثورة في مختلف المجالات.

ـ التخلي عن خيار «اسناد الانتفاضة بالنار»، منذ قرار المجلس العسكري المركزي لمنظمة التحرير في كانون الثاني ١٩٨٨.

ـ حتى في مجال الدعم/ التضامن المالي: تخصيص أقل من ٥٪ فقط من مجموع ميزانية المنظمة لدعم الانتفاضة، تذهب بمعظمها الى جيوب المحاسيب، فيما تذهب الـ ٩٥٪ الباقية في اتجاه مانعرفه من دعم.. للفساد الاداري والافساد الاعلامي والسياسي في الخارج (أنظر المقابلة مع جاويد الغصين، الدستور ١٨/١/٩٠).

لكن، لعل المثال الأبرز على محاولات تحجيم الانتفاضة/ الثورة هو في السعي إلى حصرها في الضفة والقطاع. ذلك أن امتدادها الى فلسطين ٤٨ ينسف الأساس الذي يرتكز اليه منطق التسوية، ويجعل شعار «تحرير فلسطين» واقعياً. كما أن امتدادها الى الخارج، بالتأثير، يعني أولاً قيام انتفاضة في الوضع الفلسطيني، تهدد أول ماتهدد كافة المؤسسات البيروقراطية الطفيلية في حركة المقاومة الفلسطينية، خصوصاً في م.ت.ف. وهي المؤسسات التي تشكل قاعدة مادية يقوم عليها ـ جزئياً ـ نهج التسوية.

ينطبق الأمر نفسه، الى حد ما، على الخارج العربي. ففي ظل الأزمة العامة التي يعيشها النظام العربي، يمكن للانتفاضة/ الثورة أن تلعب دور المحرض اليومي على التغيير، وأن تكون رافعة من روافعه، باعتبارها تمثل النموذج الحي والقدوة المجسدة. وقد برز هذا الدور حتى الآن في انتفاضتين عربيتين، إحداهما في الجزائر في تشرين الثاني/ اكتوبر ١٩٨٨، والثانية في الأردن في نيسان/ ابريل ١٩٨٩. وهذا الدور مرشح للازدياد والتوسع، في ظل تفاقم الأزمة العامة للأنظمة، شريطة استمرار الانتفاضة وتصاعدها وتجذرها.

قد يكون لهذا الأثر، المنقوص حتى الآن، والانجاز الذي لم يتم بعد، نتائج بعيدة المدى فعلاً في المستقبل، إنْ على صعيد الصراع العربي ـ الصهيوني، أو على صعيد التغيير الاجتماعي في المنطقة. من دونه، تظل الانتفاضة «أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام» اما معه، وبقدر ماتقترب منه، فإنها تقترب من وعدها التاريخي العظيم: وعد إنجاز الثورة داخل الثورة على طريق النهوض العظيم الجديد.

١٣ أيار/ مايو ١٩٩٠

اشكالية الارهاب في العلاقات الدولية بين النظرية والتطبيق*

د. عبد الحسين شعبان**

لقد كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن موضوع «الارهاب» و«الارهاب الدولي» وتباينت التفسيرات والآراء ووجهات النظر حوله، بتباين واختلاف الجهات التي تقف خلفها، الأمر الذي يستوجب الوقوف على أسبابه ومعرفة جذوره، خصوصا وان استخدامه أصبح أكثر شيوعاً في العلاقات الدولية، سواء كان إرهاباً فردياً أو جماعيا (جماعة، منظمة) أو دوليا (حكومة، جيش، غزو)، متخذا شكل عمليات خطف أو احتجاز أو تهديد أو اغتيال شخصي أو جماعي، أو اقترن بابتزاز سياسي أو ضغط اقتصادي أو تهديد باستخدام القوة المسلحة أو احتلال عسكري أو عدوان مسلح أو وجود عسكري (قواعد أو امتيازات) أو ابادة عنصرية أو غيرها.

---

* عن دراسة القيت في الندوة العلمية ـ السياسية حول الارهاب الدولي المنعقدة في طرابلس في الفترة من ١٦ ـ ١٧/٤/١٩٨٨.

** حقوقي وكاتب من العراق.

■ مفهوم الارهاب ■

لا توجد صيغة واحدة محددة تشكل قاسما لتعريف «الارهاب» و «الارهاب الدولي». فالامبريالية والصهيونية تصرّان على ان ما يعنيانه بالارهاب، هو عمليات الخطف والقنص وإحداث الرعب والتهديد والاغتيال وغيرها، وتصفان أي فعل ثوري لأية منظمة أو حزب أو شعب يناضل من أجل حقوقه المشروعة وفي المقدمة منها حقه في تقرير مصيره بأنه عمل ارهابي. وعلى هذا الأساس فان كل عمل من أجل نيل الاستقلال والسيادة والتحرر والافلات من هيمنة الامبريالية سواء كان فرديا أو جماعيا أو دوليا يعتبر عملا ارهابيا في نظر واشنطن وحليفاتها، اضافة الى ان كل مساعدة أو دعم أو تأييد لمثل هذه الاعمال يعتبر مشاركة في الارهاب وتشجعا له، ووفق المنطق الأمريكي ـ الصهيوني تعتبر حركات التحرر الوطني، حركات ارهابية بغض النظر عن الهدف من العنف المسلح أو المقاومة المسلحة التي تستخدمها.

لقد اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً برقم ٣٠٣٤ بتاريخ ١٨/ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٢، فرقت فيه بين الأعمال الارهابية والنضال العادل للشعوب. ومما جاء في القرار المذكور ان الجمعية العامة «تؤكد من جديد الحق الراسخ لجميع الشعوب التي لا تزال رازحة تحت نير الأنظمة الاستعمارية أو العنصرية والأشكال الاخرى للسيطرة الأجنبية في تقرير المصير وفي الاستقلال، وتؤيد الطابع الشرعي لنضالها، وعلى الأخص النضال الذي تخوضه حركات التحرر الوطني وفق منطوق أهداف ومبادىء ميثاق الأمم المتحدة وقرارات هيئاتها بهذا الشأن»(١).

وقد صوتت الولايات المتحدة وحلفاؤها ضد هذا القرار الذي يفرق بين الارهاب ونضال الشعوب، كما صوتت كذلك ضد الاعلان الخاص بعدم جواز غزو الأراضي والتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، الذي اتخذته الجمعية العامة في ٩ كانون الأول (ديسمبر) في العام ١٩٨١ طبقا للقرار ١٠٣ (الدورة السادسة والثلاثون) حيث حاز على تأييد ١٢٠ دولة.

ويؤكـد هذا الإعلان على التزام الدول بـ «الامتناع عن اللجوء الى ممارسة الإرهاب كسياسة للدول ضد الدول الأخرى، أو ضد شعوب ترزح تحت السيطرة الاستعمارية أو الاحتلال الاجنبي أو تحت نير أنظمة عنصرية، وعدم السماح بمنح أية مساعدة أو استخدام أو ابداء التساهل حيال جماعات ارهابية أو مخربين أو أشخاص يقومون بنشاط هدام ضد دولة ثالثة».

ودعا الاعلان الدول الى: الامتناع عن الغزو المسلح والنشاط الهدام والاحتلال العسكري أو أي شكل آخر للغزو والتدخل، سواء كان سافراً (مباشراً) أو مستتراً موجها ضد دولة أخرى أو مجموعة من الـدول، عسكرياً أو سياسياً أو اقتصادياً أو عن طريق التدخل في الشؤون الداخلية واستخدام أعمال التنكيل بما فيها القوة المسلحة.

وفي آخر اعلان صدر عن الأمم المتحدة (الدورة الثانية والاربعون) أيلول ـ ١٩٨٧ اتخذت الجمعية العامة قراراً يدين أعمال الارهاب الدولي التي يمكن أن «تشكل خطراً على السلام والأمن والعلاقات الودية بين الـدول» ودعت الجمعية العامة جميع الدول الى الامتناع عن تنظيم الأعمال الإرهابية في الدول الاخرى

أو المشاركة فيها أو دعمها مما يشكل خطرا على السلم والأمن الدوليين. ولم تعارض اتخاذ هذا القرار سوى الولايات المتحدة والكيان الصهيوني(٢).

■ الإرهاب الدولي وتعريف العدوان

ماذا نعني بالعدوان في العلاقات الدولية وما هي علاقته بالإرهاب الدولي؟ ذلك سؤال بحاجة إلى إجابة. فقد كانت إشكالية تعريف ماهية العدوان مسألة خلاف سياسي وفقهي (قانوني) على صعيد العلاقات الدولية، مثلما هي إشكالية تعريف الإرهاب الدولي حاليا.

ومنذ العام ١٩٣٣ طرحت اشكالية تعريف ماهية العدوان على عصبة الأمم، وفي العديد من المؤتمرات الدولية، وأعيد طرحها خلال مناقشة الأمم المتحدة وفيما بعد في العام ١٩٥٣ على نطاق واسع. إلّا انه لم يجر التوصل الى اتفاق محدد لتعريف العدوان إلّا في العام ١٩٧٤ حيث صادقت الامم المتحدة بعد مناقشات حامية على صيغة قرار للجمعية العامة برقم ٣٣١٤ في ١٤/١٢/١٩٧٤ (الدورة التاسعة والعشرون) حول تعريف ما هية العدوان، الذي جاء في مادته الأولى: ان العدوان هو «استخدام القوة المسلحة من جانب دولة ضد سيادة دولة أخرى وحرمة أراضيها واستقلالها السياسي أو بأي شكل آخر يتنافى وميثاق الامم المتحدة»(٣).

وأجاز التعريف المذكور للشعوب الحق في النضال بجميع أشكاله بما فيها «الكفاح المسلح من أجل حريتها واستقلالها وحقها في تقرير مصيرها». وبذلك فرّقت الأمم المتحدة في تعريفها للعدوان بين «الارهاب» ونضال الشعوب أو بين ما يمكن أن نطلق عليه «العنف الثوري» الذي تستخدمه الشعوب ضد أعدائها وضد الغزاة والمحتلين، وبين الإرهاب الدولي وبين الكفاح المسلح الذي تقوم به الجماعات والمنظمات عن الإرهاب الفردي والجماعي الذي يستهدف مكاسب خاصة (غنائم، أموال، قضايا شخصية.... الخ).

ووفقاً لتعريف ماهية العدوان، يعتبر عملاً إرهابياً دولياً كل ما من شأنه أن يؤدي إلى:

١ ـ اجتياح أو مهاجمة إحدى الدول من قبل القوات المسلحة لدولة أخرى، أو لأي احتلال عسكري (دائم أو مؤقت) ناتج عن الاجتياح أو الهجوم، أو أي ضم لأراضي دولة أخرى أو لجزء من أراضيها.

٢ ـ قصف القوات المسلحة لاحدى الدول، لأراضي دولة أخرى أو استعمال أي سلاح من قبل دولة ضد دولة أخرى.

٣ ـ محاصرة مرافىء أو شواطىء دولة ما من قبل القوات المسلحة لدولة أخرى.

٤ ـ الهجوم الذي تقوم به القوات المسلحة لدولة ما، ضد القوات المسلحة البرية أو البحرية أو الجوية لدولة أخرى وضد أساطيلها البحرية أو الجوية(٤).

ويمكن تطبيق ذلك على جميع الأعمال العدوانية والارهابية التي قامت بها الامبريالية وبخاصة الامريكية والكيان الصهيوني والأمثلة كثيرة على ذلك، حسبنا أن نشير الى التاريخ القريب مثل عملية طبس الامريكية ضد الثورة الايرانية الفتية عام ١٩٨٠ وغزو جزيرة غرينادا ١٩٨٣، ومساعدة قوى الثورة المضادة

في نيكاراغوا «الكونترا» وقصف بنغازي وطرابلس في ١٤ ـ ١٦ نيسان ١٩٨٦ والتدخل في لبنان والتهديدات الموجهة ضد سوريا وانزال الطائرة المصرية وتشجيع الحروب المحلية والنزاعات الاقليمية اضافة الى سياسة الضغط والابتزاز واثارة المشاكل الحدودية وتسخين بؤر التوتر.

كما تشكل «اسرائيل» قاعدة عدوانية أولى في المنطقة، مارست الارهاب على نطاق دولي حيث شنت أربع حروب كبرى ضد الشعوب العربية، اضافة إلى مئات الأعمال الإرهابية واجتياح لبنان ومحاصرة العاصمة بيروت وقصف المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١ وقصف مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس ١٩٨٥، والأهم من ذلك كلّه التنكر للحقوق الوطنية الثابتة وغير القابلة للتصرف للشعب العربي الفلسطيني وحرمانه من حقه في العودة الى وطنه وتقرير مصيره بنفسه واقامة دولته الوطنية المستقلة، إضافة الى ممارسة الإرهاب على نحو منظم ضد المواطنين العرب في الأراضي المحتلة. ويأتي موقف الكيان الصهيوني من الانتفاضة الشعبية العارمة المندلعة والتي شملت سكان مناطق الـ١٩٤٨ وسكان الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، لتؤكد من جديد الطبيعة الإرهابية العدوانية «لإسرائيل» ونظامها العنصري. كما أكدت استخفاف الكيان الصهيوني بجميع القرارات والأعراف والمواثيق الدولية وبخاصة لأهداف ومبادىء ميثاق الأمم المتحدة وقواعد القانون الدولي المعاصر.

■ ايديولوجيا الإرهاب الامريكي ■

صاغت الولايات المتحدة منظومة أفكارها حول الإرهاب من شعار ديماغوجي أخذ يتردد في السبعينات حتى انتشر وتعمم في الثمانينات، وهو الشعار الذي رفعه الرئيس الأمريكي السابق رونالد ريغان ونعني به «مكافحة الإرهاب الدولي».

لقد تبلور هذا الشعار بعد تحضيرات آيديولوجية وتنظيرات «لمفكرين» و «علماء» وأساتذة جامعة ومعاهد متخصصة في الأيديولوجيا والدعاية. وكانت السيدة Claire Sterling (كلير سترلينغ) السبّاقة في هذا الميدان، حيث نشرت كتابها الموسوم The Terrorist net work في العام ١٩٧٧ والذي كان بمثابة مقدمة للسيناريو الامريكي حول «الإرهاب الدولي» والإعلان الرسمي عن بدء التحضيرات للمخطط الآيديولوجي والدعائي الواسع النطاق.

وبموجب «فلسفة» مكافحة الارهاب الدولي ان صحّ التعبير، شهد العالم استراتيجية أمريكية إرهابية جديدة لعبت فيها المخابرات المركزية الامريكية CIA دوراً كبيراً كما لعبت مخابرات دول حلف شمالي الأطلسي NATO دوراً في بلورة واختيار الاهداف المحددة، سواء لالصاق تهمة الارهاب الدولي أو لممارسة الارهاب، واضطلعت «الموساد» الصهيونية بمهمة خاصة في تنفيذ الستراتيجية الارهابية الجديدة، ضمن السياسة العالمية الجديدة «النيوغوبالزم» وبخاصة ضد شعوب المنطقة وبالأخص ضد الشعب العربي الفلسطيني وممثله الشرعي والوحيد منظمة التحرير الفلسطينية مرددة النغمة الديماغوجية الأمريكية «جميع الحركات الارهابية في العالم كانت متصلة ببيروت وان العاصمة اللبنانية نفسها متصلة بموسكو»، كما جاء

على لسان شارون لدى مقابلته لمجلة السياسة الدولية الصادرة في باريس ١٩٨٣(٥).

وصاغ مؤتمرا معهد جاناتان المنعقدان في تموز ١٩٧٩ وحزيران ١٩٨٤ في القدس المحتلة وواشنطن واللذان خصصا للارهاب الدولي، الأساليب الجديدة لخوض الصراع على النطاق الدولي تحت راية «مكافحة الإرهاب الدولي» وذلك بتجديد الوسائل اللازمة لاستخدام الإرهاب الدولي ضد «الإرهاب الدولي» الأحمر أو الأسود أو غيره. وقد شارك في هذين المؤتمرين، اضافة الى الآيديولوجيين الغربيين عدد من كبار الساسة بينهم هنري كيسنجر وهنري جاكسون وروبرت موس (رئيس تحرير الايكونومست البريطانية) والأخير هو مؤلف كتاب «كتلة الجليد»(٦) بالتعاون مع آرنودي بوتشغرمف وبراين كروزير مؤسس ومدير المعهد الخاص بدراسة النزاعات الدولية في لندن.

ووفقاً للأيديولوجيين الغربيين فان «موسكو تقف وراء جميع المنظمات «الارهابية» ابتداء من منظمة «فدائي المدن» ومرورا بـ«منظمة بايدرماينهوف» الالمانيتين الغربيتين ومنظمة «الألوية الحمراء» الايطالية، وربما الجيش الأحمر الياباني والخضر والجيش الأرمني السري الى منظمة التحرير الفلسطينية بل وجميع الحركات التحررية، وقد حاولت الكاتبة الأمريكية سترلينغ أن «تبرهن» وعبر «اثباتات» وافرة العدد: ان الاتحاد السوفييتي وحلفاءه «خلال السنوات العشر الأخيرة دربوا وزودوا بالسلاح، وقدموا مأوى لارهابيّي العالم بأسره، الذين هدفهم اشاعة البلبلة في المجتمع الغربي الديمقراطي . . . وان موسكو تقف وراء ١٤٠ مجموعة ارهابية مترابطة في ٥٠ بلداً وتتوزع على أربع قارات»(٧).

■ الارهاب «الفلسفة» الى السياسة ■ ! ■

لم تتورع واشنطن أن تعلن تحت ذريعة «مكافحة الارهاب الدولي»، الارهاب كسياسة رسمية لها بعد أن أصبح جزءاً من منظومة أفكارها الراهنة. وقد عبر ريغان أمام البرلمان البريطاني في ١٩٨٢/٦/٨ عن عزم حكومته على شن حملة صليبية، وكانت تلك الصيحة بمثابة مانفستو السياسة الأمريكية الجديدة والصرعة المستحدثة بعد موضة «حقوق الانسان» التي حمل لواءها الرئيس جيمي كارتر.

وكانت تلك السياسة تعني على نطاق العلاقات الدولية وفي التطبيق العملي، توسيع نطاق العمليات الارهابية للولايات المتحدة وحلفائها على نطاق عالمي واشعال الضوء الأخضر لعمليات التدخل وشن الحروب واعمال الغزو والقرصنة وارسال «قوات الانتشار السريع» الى أرجاء المعمورة للاطاحة بالحكومات والنظم التي لا تروق لواشنطن والتي لا تقع تحت الهيمنة الأمريكية.

وقد حاول جورج شولتز وزير الخارجية الامريكي الحالي التنظير لتلك العمليات الارهابية التي يغلفها بركام الدعاية والتضليل الاعلامي، بالقول: «ان البعض سوف ينعتنا عند أي محاولة ردع أو ثأر نتخذها، بأن قواتنا المسلحة وصانعي القرار (الأمريكي) هم أكثر إرهابية من «الإرهابيين» بل وهم المجرمون»(٨).

وكان الكسندر هيغ وزير الخارجية الأمريكي الأسبق قد اتهم في مؤتمره الصحفي ١٩٨١/١/٢٨

موسكو بتقديم الأسلحة الى منظمة التحرير الفلسطينية «للنشاط الارهابي» واستغلال بلدان كوبا والجماهيرية الليبية لدعم الإرهاب الدولي(٩).

وقد أعلن ريغان بتهور أمام رابطة الحقوقيين الامريكية في ١٩٨٥/١/٧ عن القائمة السوداء للدول المتهمة بالإرهاب، باعتبار حكوماتها «غير شرعية» وتمارس ما أسماه بالأرهاب الدولي. والبلدان التي ضمتها «القائمة السوداء» شملت الجماهيرية وكوبا ونيكاراغوا وكوريا الديمقراطية، وقبلها كانت ايران بعد سقوط الشاه وفيما بعد بلغاريا واليمن الديمقراطية وسوريا وبالطبع فان للاتحاد السوفييتي حصة الأسد من الاتهامات لممارسة وتشجيع «الإرهاب الدولي».

لقد ادعت واشنطن ان حملة «مكافحة الإرهاب الدولي» تسعى لحماية «العالم الحر» و«إنقاذ الديمقراطية» ثم قررت الادارة الأمريكية في عهد ريغان الرد بأعمال إرهابية ضد البلدان التي تعتبرها مصدراً للإرهاب أو شريكة فيه(١٠).

■ أهداف الستراتيجية الأمريكية من حملة مكافحة الارهاب الدولي! ■

ماذا استهدفت واشنطن من حملة مكافحة الإرهاب الدولي؟ سؤال يطرح نفسه خصوصاً إذا ما أدركنا ان الولايات المتحدة التي رفعت هذه اللافتة أفصحت عن نواياها في ممارسة سياسة إرهابية رداً على الإرهاب المزعوم.

لقد استهدفت واشنطن الصاق تهمة «الإرهاب الدولي» بخصومها وبخاصة الاتحاد السوفييتي وبحركة التحرر الوطني دولاً ومنظمات وأحزاباً، وذلك بهدف الحط من سمعتها أمام الرأي العام العالمي وشن حرب نفسية ضدهم وتشويه الجوهر الانساني لنضال الشعوب وبالتالي صرف أنظار الجماهير الشعبية الواسعة عن التأثر بالامثلة الملهمة التي تقدمها القيم الاشتراكية والوطنية المناوئة للامبريالية.

واستهدفت واشنطن أيضاً، الافتراء على حركة التحرر الوطني التي تناضل من أجل التحرر الوطني والاجتماعي ووفقاً لظروفها الداخلية وللقضاء على الفقر والجهل والتبعية. فقد صوّرت واشنطن ان «مصدر الشر هو واحد»، وان النضال من أجل مطالب الشعوب ودعمها هو «خروج على القانون» ويحمل طابعاً إرهابياً «وليست المساعدات التي يقدمها الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية للمناضلين من أجل الحرية والاستقلال وحق تقرير المصير إلا «تأييدا للإرهاب» وتهديدا للمصالح الحيوية للولايات المتحدة.

واستهدفت الحملة الأيديولوجية والدعائية للامبريالية، تبرير وتعليل النهج الذي تمارسه الادارة الامريكية، بشأن التخلي عن الانفراج الدولي والعودة الى سياسة الحرب الباردة الثانية (رغم التحسن الذي طرأ على الوضع الدولي بعد التوقيع على اتفاقية ازالة الصواريخ القصيرة والمتوسطة المدى في أوربا الامريكية ـ السوفييتية في قمة واشنطن ١٩٨٧) وذلك بهدف استمالة الرأي العام العالمي، كيلا يستخف بخطر «التهديد السوفييتي» و«الإرهاب الدولي».

ان الامبريالية بعامة والامريكية بخاصة، بدت عاجزة عن تقديم أية قيم سياسية أو آيديولوجية أو

فلسفية أو روحية للشعوب لارغامها على الخنوع والتبعية لمشيئتها وبالتالي فان مثل الحرية والاستقلال والتقدم الاجتماعي والاشتراكية، تلهم الشعوب وتستثير جماهير غفيرة للانخراط في النضال من أجلها، ولذلك عمدت الامبريالية الى العنف والإرهاب لفرض وبسط نفوذها، سواء بواسطة التخريب الداخلي والانقلابات العسكرية والاغتيالات السياسية والضغط والحصار الاقتصادي وأساليب الابتزاز والحرب النفسية، كما لم تتورع من القيام بغزو واحتلال الأراضي وقصف المناطق المدنية وتشجيع المرتزقة على نحو سافر مهما كانت المبررات والذرائع.

■ الارهاب الدولي وحركة التحرر الوطني ■

كان الكسندر هيغ الأكثر افصاحاً ووضوحاً في التعبير عن استراتيجية الولايات المتحدة التي تتعكز على «مكافحة الارهاب الدولي» في عدائها وحقدها ضد حركة التحرر الوطني وذلك في حديثه المنشور في مجلة اكسبريس الفرنسية (شباط ١٩٨١) حين قال «ليس بوسعي أن أتصور حالات يمكن أن تحبّذ فيها الحكومة الامريكية أو حتى أن تطيق ما يسمى بحركات التحرر الوطني». ولذلك ليس مستغرباً أن تمتشق واشنطن سلاح الإرهاب ضد حركات التحرر الوطني ودولها الوطنية والتقدمية. وهكذا تسقط جميع الحجج والأسانيد التي تحاول واشنطن تدعيم وجهات نظرها لتبرير عملياتها الارهابية.

فحسب واشنطن فان جميع حركات التحرر الوطني التي تناضل من أجل الحرية والاستقلال وحق تقرير المصير هي متهمة بالارهاب الدولي. حيث تعتبر جميع حركات التحرر الوطني حركات ارهابية، ولكنها في الوقت نفسه لا تخفي تأييدها للارهاب الدولي، بل تشجع عليه وتدعمه، اذا كان يستهدف تخريب ونسف التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلدان النامية ذات الوجهة التقدمية. ففي رسالة وجهها الرئيس ريغان الى مؤتمر «إرهابي» للمرتزقة في احدى الزوايا المنقطعة في الأدغال الافريقية، أعرب فيها عن دعمه «للإرهاب» وعن تأييده لحكومة جنوب افريقيا العنصرية.

ولم يعد خافيا الدعم المادي والعسكري والمعنوي الذي تقدمه الولايات المتحدة لنظام بريتوريا العنصري وامتناعها عن انزال عقوبات دولية بحقه بسبب سياسته العنصرية، كما يوضح موقف الولايات المتحدة من حليفتها الستراتيجية «اسرائيل» موقفها من الإرهاب الدولي الرسمي. فهي لم تكتفِ بمشاركة وتشجيع السياسة الصهيونية العدوانية وممارستها والإرهاب بل كانت ومازالت تشكل ضمانة أساسية لوجودها ومدافعا رئيسيا عنها في المحافل الدولية.

ان ادراج واشنطن جميع المناضلين في سبيل التحرر الوطني والاستقلال لبلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية في قائمة الارهاب التي تطول لتمتد من كوبا ونيكاراغوا الى كمبوديا ولاووس ولتشمل أفغانستان وأثيوبيا وانغولا واليمن الديمقراطية وسوريا وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية حتى لتغطي جميع حركات التحرر الوطني وكل النظم التي أفلتت من قبضة الامبريالية، يستهدف تشويه نضال الشعوب والحط من سمعة قادتها، فقد سبق وأن أدرج ضمن ضجة الارهاب والعنف جميع الحركات الاجتماعية في التاريخ

باعتبارها حركات «شغب» وفوضى واتهم قادتها بالارهابيين، فلومومبا كان ارهابيا حسب واشنطن، أما تشومبي فانه زعيم للكونغو. والسلال كان ارهابيا أما البدر فانه الحاكم الشرعي لليمن الشمالي. وهكذا تطول قائمة الارهابيين لتشمل تشي غيفارا وعبد الفتاح اسماعيل وهوشي منه وعبد الناصر وكاسترو والأسد وياسر عرفات والقذافي وشفيق حنظل ونجيب الله وأورتيغا وغيرهم.

وحركة التحرر الوطني في ناميبيا والسلفادور اللتان تناضلان من أجل حقوقهما الوطنية المشروعة وتحررهما ليستا سوى حركتين ارهابيتين حسب واشنطن. كتبت المجلة الامريكية US News and world Re-port تقول: ان أراضي افريقيا الواقعة الى الجنوب من الصحراء الكبرى هي مكان يقدم فيه الاتحاد السوفييتي على المكشوف المساندة للعنف السياسي الذي يسميه الكرملين «نضال التحرر الوطني»(١١).

وهكذا فإن واشنطن تضع في كفتي ميزان واحد مساعدة الشعوب التي تناضل في سبيل حقوقها في الحرية والاستقلال والديمقراطية والتقدم الاجتماعي، بمصاف إسناد وتشجيع وتمويل «الإرهاب الدولي» الذي تقف خلفه موسكو وتدعم الحكومات التي تصفها باللاشرعية.

وعليه فان الإدارة الامريكية تعتبر مهمة أكثر من نصف مليون جندي أمريكي في فيتنام لقتل الشعب الفيتنامي وسحقه بواسطة النابالم والاسلحة الكيمياوية، هو دفاع عن «الديمقراطية» و«قيم العالم الحر» و«الحضارة الانسانية» ولكن مساعدة الشعوب في نضالها ضد العدوان والارهاب الامريكي، إنما هو عمل من أعمال الإرهاب الدولي.

وهكذا فان مهمة الاجتياح والاحتلال الصهيوني للبنان حسب وجهة النظر الامبريالية ـ الصهيونية، ليس عملاً إرهابياً بل هو دفاع عن النفس، فمن أجل «سلامة الجليل» اجتاحت القوات الصهيونية لبنان وقتلت ودمرت وأحرقت البشر والمزروعات والمباني وداست بالدبابات والبلدوزرات اللبنانيين والفلسطينيين، الذين لا تعتبر مقاومتهم قوات الاحتلال والغزو وتصديهم الشجاع، سوى ارهاب وعنف طائش يضر بالسكان العزل حسب المنطق الصهيوني ـ الامريكي. ومجازر صبرا وشاتيلا أيلول ١٩٨٢ ليست عملاً إرهابياً، أما قتل جندي صهيوني محتل فانه عمل إرهابي يستحق العقاب الجماعي.

ان الولايات المتحدة التي رفعت الإرهاب الى مستوى الدولة حرصت على تنسيق عملياتها الإرهابية في الشرق الأوسط مع الكيان الصهيوني، سواء عبر اتفاق «التحالف الستراتيجي» الذي نقل العلاقة بينهما الى مستوى تحالفي وتعاضدي متين، أو بين الـ CIA والموساد فضلا عن الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري وغيره. وان السعي لمطابقة حركات التحرر الوطني مع الاعمال الارهابية الدولية، هو أسلوب يهدف الى الانتقاص من حق الشعوب في خوض النضال من أجل حقوقها ومصالحها الوطنية والقومية المشروعة وفي سبيل سيادتها وحقها في تقرير مصيرها.

■ الارهاب الدولي والصهيونية

ان إدانة الجمعية العامة للأمم المتحدة بقرارها ٣٣٧٩ الصادر في ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٥ (الدورة

الثلاثون) للصهيونية باعتبارها «شكلا من أشكال العنصرية والتمييز العنصري» هو وثيقة اتهام دامغة لا ضد الصهيونية حسب، بل ضد سياسة وممارسات «اسرائيل» الإرهابية، التي تقوم على أساس التوسع والقوة واحتلال الأراضي والعدوان والبطش الجماعي والإبادة، وهذه قلما ينطبق عليها صفة «صفة الإرهاب الدولي»(١٢). وهي تتعارض مع مبادىء القانون الدولي المعاصر وميثاق الأمم المتحدة الذي وضع هدف صيانة السلم والأمن الدوليين باعتبارها هدفاً سياسياً للمنظمة الدولية، وأكد على احترام السيادة وحق تقرير المصير وحرّم استخدام القوة أو التهديد بها وعدم التدخل بالشؤون الداخلية والمساواة والتكافؤ واللجوء الى الوسائل السلمية لحل المنازعات الدولية(١٣).

ان قرار إدانة الصهيونية جاء بعد التطور الذي حصل تجاه منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني وذلك بإقرار الأمم المتحدة بعضويتها (بصفة مراقب دائم) وحقها في الاشتراك والمناقشة في جميع القرارات المتعلقة بقضية الشرق الأوسط. ولذلك فان موقف الولايات المتحدة والكيان الصهيوني وفيما بعد من تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية انما هو تحد للأمم المتحدة وتجاوز على قراراتها وعدم احترام الشرعية الدولية وتشجيع للإرهاب الدولي على نحو سافر. وقد شنت واشنطن وتل أبيب حملة ظالمة ضد القرار ٣٣٧٩ متهمة الأمم المتحدة باللاسامية، وتنشط منذ العام ١٩٨٥ الامبريالية والصهيونية على نطاق واسع وقوى وجهات غربية مختلفة للتنديد بالقرار والعمل على الغائه، وقد حددت الولايات المتحدة والصهيونية العام ١٩٩٠ كحد أقصى لاعدام القرار الذي دمغ الصهيونية بالعنصرية، لذلك يتطلب المزيد من الجهد وبخاصة في ظل تصاعد الانتفاضة ورفضها للاحتلال الصهيوني والإصرار على كنسه، لدعم القرار والدفاع عنه في المحافل الدولية والحيلولة دون الغائه وهي قضية تهم المعنيين بمكافحة الارهاب الدولي الذي هو مظهر من مظاهر العنصرية وعنصر بنيوي في العقيدة الصهيونية.

■ خاتمة ومحاولة لتعريف الارهاب الدولي

اذا كانت قضية الارهاب الدولي قد حظيت باهتمام الرأي العام العالمي منذ زمن بعيد نسبيا فهي اليوم تحظى باهتمام أكبر نظراً لتوسع وانتشار نطاق العمليات الإرهابية على نحو فردي وجماعي ودولي، خصوصا في ظل الثورة العلمية ـ التقنية وزيادة وسائل الاتصال وتطور أسلحة الفتك والدمار، مما يلقي على عاتق جميع الوطنيين والثوريين والاشتراكيين مهمات كبيرة في هذا المجال الذي يستوجب ادانة الارهاب بجميع اشكاله ومظاهره سواء كان فردياً أم جماعياً أم دولياً، والتفريق بين الارهاب ونضال حركات التحرر الوطني.

ان الذي يقف حائلا أمام إيجاد تعريف للإرهاب الدولي والعمل على تنفيذه هو الامبريالية وبخاصة الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، اللذان يرفضان اية محاولة جادة للتوصل الى اتفاق بشأن تحديد ماهية الارهاب وبالتالي العمل على وضع السبل الكفيلة للحيلولة دون انتشاره وتوسيعه ومن ثم القضاء عليه كظاهرة غير حضارية. ورغم زعيق الولايات المتحدة وصراخ أجهزتها الدعائية ووسائل الإعلام الغربية

والصهيونية، فانها وقفت وتقف ضد أية محاولة تقضي بتحديد جوهر الإرهاب الدولي ووضع السبل الناجعة لاجتثائه وتوقيع اتفاقية دولية بهذا الخصوص.

ومنذ العام ١٩٧٣ زقفت الولايات المتحدة والدول الغربية ضد أية اتفاقية تقضي بإدانة الإرهاب الدولي بشكل واضح وصريح، ولم تدخل اتفاقية جنيف التي وقع عليها ٢٤ دولة «لمنع الإرهاب الدولي والقضاء عليه» حيز التنفيذ ولم يسر مفعولها لحد الآن، في حين نصت على احترام كل دولة مبادىء القانون الدولي والتعهد بمنع أي نشاط إرهابي ضد دولة أخرى. وتعهدت الدولة الموقعة على الاتفاقية بانزال العقوبة بالذين يقومون بممارسة النشاط الإرهابي.

وكانت الولايات المتحدة تحاول على الدوام مطابقةالإرهاب الدولي بالنضال المشروع للشعوب من أجل تحررها الوطني، كما حصل في الدورة السابعة والعشرين للجمعية العامة للأمم المتحدة ١٩٧٢، حيث كشفت عن موقفها بسطوع عند معارضتها لمشروع قرار للدول غير المنحازة حول «اجراءات منع الإرهاب الدولي»[١٤] وفي امتناعها عن التصويت (اضافة الى دول الناتو) على القرار الذي اتخذته الجمعية العامة باغلبية ١١٧ صوتا في ١٧ كانون الأول ١٩٨٤ القاضي «بعدم جواز سياسة الارهاب الدولي الرسمي وأية ممارسات للدول موجهة الى تقويض النظام الاجتماعي ـ السياسي في الدول الأخرى ذات السيادة»[١٥].

وتأسيسا على ذلك فيمكن القول ان الإرهاب الدولي «المنظم» أصبح جزءاً لا يتجزأ من الستراتيجية الامريكية منذ أواخر عهد الرئيس كارتر ومبدئه المعروف «التدخل السريع والمباشر» استمرارا لمبدأ ايزنهاور حول «المصالح الحيوية» ومنذ بداية ادارة ريغان التي قامت على تطوير التدخل السريع والمباشر بادخال «مبدأ التوافق الستراتيجي» مع الحلفاء لتحقيق أفضل النتائج لحماية المصالح الحيوية، وتحقيقا لأهداف المجمع الصناعي ـ الحربي.

كما ارتبط موضوع الإرهاب الدولي بالوجود العسكري الامبريالي وبخاصة الامريكي في المنطقة العربية والشرق الأوسط والخليج العربي، اضافة الى حوض البحر الأبيض المتوسط ومناطق أخرى من العالم. قد لعبت الحرب العراقية ـ الايرانية التي اندلعت في أيلول ١٩٨٠ دوراً مهما في تكثيف الوجود العسكري الامريكي في المنطقة ووفرت لها فرصة ذهبية كانت تحلم بها منذ حوالي ربع قرن. وتوجد في هذه وحدها أكثر من ٣٦ قاعدة عسكرية أمريكية، فضلا عن الاتفاقيات والمعاهدات التي تمنح الولايات المتحدة امتيازات عسكرية وسياسية واقتصادية على حساب شعوب المنطقة إضافة الى التسهيلات الممنوحة لقواتها التي ترقى أحيانا الى صيغة القواعد العسكرية المتحركة[١٦].

وهذه القواعد العسكرية إضافة إلى القاعدة الإرهابية والعدوانية الأولى في المنطقة «اسرائيل» تشكل نقاط ارتكاز لتنظيم عدوان الولايات المتحدة ضد حركة التحرر الوطني والأنظمة الوطنية والتقدمية وتشكل تهديداً خطيراً لسلم وأمن بلدان حوض البحر المتوسط.

ويستفاد من تقديرات معهد بروكنغس ان الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية وحتى العام ١٩٧٥ لجأت ٢١٥ مرة الى «استخدام القوات المسلحة لأجل بلوغ اهداف سياسية» وخلال السنوات الأخيرة استخدمت واشنطن قواتها وأساطيلها وقواعدها العسكرية عدة مرات ولوحت باستخدامها عشرات

المرات لإرهاب شعوب المنطقة.

ان «الإرهاب الدولي» حسب تقديرنا، هو جميع الاعمال العدوانية والإجرامية سواء كانت فردية أو جماعية أو دولية التي تستخدم ضد الشعوب وتهدد السلم والأمن الدوليين وتتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة وقواعد القانون الدولي المعاصر. وهو ما ينبغي أن يدان مهما كان شكله ولونه ومبرراته، وهو بذلك يختلف عن نضال الشعوب وحركات التحرر الوطني التي تناضل من أجل حقوقها، سواء استخدمت العنف والسلاح أو لم تستخدمه، لانه يجوز لها حسب القانون الدولي، استخدام جميع أساليب الكفاح لتحقيق أهدافها بما فيها الكفاح المسلح.

ولذلك ينبغي وضع حدّ للارهاب الدولي واجتثاث جذوره ووضع السبل الكفيلة للحد منه بتوقيع اتفاقية دولية في اطار الأمم المتحدة للقضاء عليه سواء اتخذ ذريعة منافقة باسم «مكافحة الارهاب» أو «ضرب الارهابيين قبل قيامهم بعمل وشيك الوقوع» على حد تعبير شمعون بيريز أو افشال مخططاتهم أو تلك التي تفصح عن نية في الهيمنة والسيطرة على مقدرات الشعوب، سواء كانت «الحفاظ على المصالح الحيوية» أو تدعيم نظام رجعي أو ترميم نظام حليف مهدد بالانهيار[١٧].

---

* المصادر والمراجع

١ ـ انظر Official Record of the GA -U.N 27 Session, Annexes, Aganda 92, doc. A/8969

٢ ـ أيدت هذا القرار ١٥٣ دولة، وهو ما يؤكد سعي ورغبة الاغلبية الساحقة من أعضاء الاسرة الدولية لتوحيد الجهود من أجل وضع حد للارهاب الدولي وقطع دابر الاعمال الارهابية سواء كانت فردية أم جماعية.

انظر: جريدة أنباء موسكو، العدد ٥٣، ١٩٨٧.

٣ ـ انظر Starke, J.G.- Introductionto International Low', LONDON, 1977, P56g.

٤ ـ قارن Koznetov-International Affairs, Moscow No. 3, 1975

راجع: كتابنا «القضايا الجديدة في الصراع العربي ـ الاسرائيلي».

ـ دار الكتبي، بيروت ١٩٨٧، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

٥ ـ راجع بحثنا المرسوم: نظرة في مفاهيم وآيديولوجيا الارهاب الامريكي والصهيوني، المقدم الى ندوة اثينا ٥ ـ ٧ كانون الأول ١٩٨٦.

٦ ـ «كتلة الجليد» هو رواية وثائقية، غايتها الايحاء بأن الـ KGB «لجنة أمن الدولة في الاتحاد السوفييتي» أو «دائرة المخابرات العسكرية السوفيتية» كما يسمونها في الغرب هي التي توجه الارهاب في العالم.

وهذا الكتاب هو شبيه برواية بعنوان انهيار العام ٧٩ «Crash 79» لمؤلفها بول ايردمان والمنشورة في اواخر العام ١٩٧٦ حيث أوحت تلك «الرواية» بطريقة «تنبؤية» باندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية، التي اندلعت فعلا في العام ١٩٨٠ بصورة مأساوية لا مبرر لها على الاطلاق.

٧ ـ Sterling, Claire- The Terrorist network N.Y.1977

٨ ـ من خطاب مطول لجورج شولتز في المعهد اليهودي مانهاتان بارك في نيويورك بتأريخ ٢٥/ ١٠/ ١٩٨٤، كرسه للحديث عن المخططات الامريكية والغربية والاعمال المزمع تنفيذها في مواجهة ما أسماه بـ«الارهاب» والتي اتضحت وخصوصا ازاء منطقة الشرق الاوسط والمنطقة العربية بشكل سافر خلال العام ١٩٨٦، حيث تم العدوان على الجماهيرية ١٤ـ ١٥ نيسان والتهديدات التي أطلقها ريغان وشمعون بيريز ضد سوريا في العام ذاته، ومن ثم القرارات التي اتخذتها بريطانيا بقطع العلاقات الدبلوماسية مع سوريا وموقف حلف شمالي الاطلسي المتعاطف مع واشنطن ولندن، وفيما بعد اجتماع الدول الصناعية الكبرى في طوكيو وتبعها الاجراءات المتخذة بحق المواطنين العرب في ايطاليا

وفرنسا والمانيا الغربية وغيرها بحجة مكافحة الارهاب الدولي المنبعث من المنطقة العربية.

٩ ـ سيروكومسكي، فيتالي ـ من وراء الارهاب الدولي، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٣، ص ٦ و ٨.

١٠ ـ تعتبر بعض المصادر ان شولتز يمثل دور «الصقر» في السياسة الامريكية فهو من أنصار العمليات الصغيرة، بينما كاسبار واينبرغر فهو يمثل دور «الحمامة» رغم انه من أنصار العمليات الكبيرة، ورغم عدم وجود خلاف حول نظرية التدخل العسكري الامريكي في الخارج التي يتبناها كل منهما، الا ان واينبرغر يميل الى استنفاد كل الاساليب بما فيها الدبلوماسية وصولا لتحقيق الهدف، بينما يذهب شولتز الى تغطية مساحة واسعة من عمليات التدخل «التي يمكن ان تقوم بها مجموعات صغيرة قادرة على العمل بحيث لا يكتشفها أحد».

أنظر: الحسيني، مصطفى، جريدة السفير اللبنانية. «امريكا ١٩٨٥ ـ ١٩٨٨» سياسة للحروب الصغيرة... وللعمليات الصغيرة...

١١ ـ U.N- News and world report, May, 1981 Potocny, M.- Mezinaroni parva , Praha, 1973

١٢ ـ بتوجني، م ـ القانون الدولي، براغ، ١٩٧٣.

١٣ ـ انظر: مجلة الحرية (الفلسطينية)، العدد ٢٥٣ (١٣٢٨) ١٣ ـ ١٨ آذار (مارس) ١٩٨٨.

١٤ ـ جرى التوقيع على اتفاقية المقر في ٢٦/٦/١٩٤٧ بين الامم المتحدة والولايات المتحدة، وهي الاتفاقية التي تنظم العلاقة بين المنظمة الدولية والدولة المضيفة (الولايات المتحدة) مهمات البعثات الدبلوماسية، حيث تعتبر الولايات المتحدة ملزمة بالسماح للعاملين في البعثة الدبلوماسية لأية دولة بالدخول الى الولايات المتحدة والبقاء فيها والاضطلاع بمهماتهم واعمالهم الرسمية ولبعثتهم الدبلوماسية في المنظمة الدولية حسب اتفاقية المقر.

١٥ ـ انظر: القراعين، يوسف ـ حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير المصير، دار الجليل، عمان، ١٩٨٣، ص ١٥٧ ـ ١٦٩.

١٦ ـ صوت لصالح القرار ١٤٣ دولة، ولم تشارك الولايات المتحدة في التصويت وعارضة الكيان الصهيوني وحده.

١٧ ـ عقدت الدورة الاستثنائية للجمعية العامة في ٢/٢٩ وصدر القراران في نهاية أعمالها، ولكن الولايات المتحدة أصرت على موقفها وأقدمت على اغلاق مكتب المنظمة.

١٨ ـ استخدمت الولايات المتحدة «حق» الفيتو لاسقاط مشروع قرار في مجلس الأمن وصف بأنه «شديد الاعتدال» يدين الممارسات الاسرائيلية ضد الشعب العربي الفلسطيني وانتفاضة الحجارة وفي الواقع فأن مثل هذا «الفيتو» الذي حاول تبرئة «اسرائيل» ومنع اصدار قرار يشجب اعمالها الارهابية، انما هو «فيتو» ضد الاجماع الدولي وضد مجلس الأمن والامم المتحدة!

١٩ ـ انظر ميثاق الامم المتحدة والنظام الاساسي لمحكمة العدل الدولية، القاهرة ١٩٦٨، الطبعة العربية.

٢٠ ـ U.N.G A- 27 Session, doc A/8969

٢١ ـ سيروكومسكي ـ من وراء الارهاب الدولي، مصدر سابق، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

٢٢ ـ حتى اواخر العام ١٩٨٣ كان يوجد في ٣٢ بلدا حوالي ١٥٠٠ قاعدة عسكرية امريكية فيها نحو ٤، ٥٤٢ ألف جندي أمريكي.

انظر: بولشاكوف، فلاديمير ـ الارهاب على الطريقة الامريكية، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦، ص ٢٩ ـ ٣٠.

٢٣ ـ سبق وان قدمت بتواضع هذا المقترح في ندوة اثينا حول «الارهاب والارهاب الدولي» التي نظمتها الامانة الدولية للتضامن مع الشعب العربي وقضيته المركزية فلسطين وعدد من الجهات التقدمية اليونانية وبعض المنظمات الدولية.

في ذكرى مئويته الأولى

هوشي منه وتجربة الجبهة الوطنية

علي فياض*

تمر هذا العام الذكرى المئوية الاولى لميلاد الزعيم الفيتنامي هوشي منه، حيث يحتفل بها ـ الى جانب الشعب الفيتنامي ـ كل الشعوب المناضلة، والقوى التقدمية والديمقراطية في العالم، والتي كان هوشي منه، أحد ابرز رموزها الثورية.

لقد قاد هذا الرجل شعبه في مسيرة نضالية طويلة وشاقة، استطاع عبرها ـ وبتطبيق خلاق لقوانين الحرب الثورية ـ أن يلحق الهزيمة تلو الهزيمة بالمستعمرين الفرنسيين والامبرياليين الامريكيين.

وخلال هذه المسيرة، سجلت الثورة الفيتنامية سلسلة من الانجازات العسكرية والسياسية والتنظيمية، وراكمت عدداً هائلاً من الخبرات والدروس النضالية الثمينة، كان من أغناها تجربة الجبهة الوطنية التي شكلت أحد الشروط الأساسية الذاتية لتحقيق النصر.

---

* كاتب من فلسطين.

من المعروف أن هوشي منه، يعتبر أحد الروّاد الأوائل للحركة الشيوعية في جنوب شرقي آسيا، بل يعود اليه الفضل في نشر الفكر الماركسي، وتأسيس ورعاية أول تنظيم شيوعي في الهند الصينية[١]. لكن حرص هوشي منه على إيجاد التنظيم الطليعي للطبقة العاملة، القادر على قيادتها في المعركة الوطنية والطبقية، لم يكن يوازيه الاّ حرصه الشديد على بناء الوحدة الوطنية للشعب الفيتنامي، لذلك لم يكن غريباً أن أكثر شعارات الزعيم الفيتنامي شيوعاً، كانت «وحدة، وحدة، وحدة أعظم، نصر، نصر، نصر أعظم» وأن أهم الصفات التي أطلقت عليه، إنه «رجل الوحدة الوطنية» أو «أبو الوحدة الوطنية».

هوشي منه نفسه، لم يكن يجد تعارضاً بين كونه «الشيوعي الأول» و «الوطني الأول»، بل كان يرى أن الثانية تكمّل الأولى، وتعطيها مصداقيتها وفاعليتها. فالثورة الفيتنامية ـ كما كان يراها ـ هي قضية الجماهير، وليست قضية فئة واحدة. لذلك أخذ على عاتقه ـ منذ ولادة الحزب الشيوعي ـ العمل على توحيد كل القوى الوطنية والتقدمية في جبهة واحدة للنضال، ضد العدو المشترك، ولتحقيق الأهداف المشتركة.

● الاساس الطبقي للوحدة الوطنية:

صحيح، إن للحزب دوراً أساسياً ورائداً، باعتباره يمثل أوسع الطبقات الاجتماعية، وأكثرها تعرضا للظلم والاستغلال. لكن المجتمع الفيتنامي، ضم إلى جانب العمال والفلاحين، فئاتٍ وشرائحَ اجتماعية برجوازية هامة ومؤثرة في الحياة السياسية للبلاد، لايستطيع الحزب أن يمثلها، أو يحشدها ضمن إطاراته. لأن لها أحزابها وتنظيماتها السياسية المعبرة عن مصالحها وطموحاتها.

لقد تواجدت نويات البرجوازية على الأرض الفيتنامية، منذ قرون عبر مجموعات الحرفيين المتفرقة، ثم توسعت من خلال الأعمال الحرفية، والمعدنية، والطباعية، والتجارة بين المناطق الداخلية. إلاّ أن النمو الحقيقي للبرجوازية كطبقة متميزة، لم يتم إلاّ في ظل الحركة الصناعية والتجارية الاستعمارية. وقد ظهرت البرجوازية الصغيرة، الى جانب الكومبرادورية، عبر النشاطات الاقتصادية والمهن الجديدة في المجتمع، وعبرت عن نفسها في مرحلة لاحقة بأحزابها وتنظيماتها التي كان للمثقفين والمتعلمين دورٌ رئيسيٌ في قيادتها وتوجيهها.

صحيح، أن عدداً من هؤلاء المثقفين والبرجوازيين، قد سلك طريقاً أكثر جذرية في العشرينات من القرن الحالي، فانضم أو أسهم في تأسيس التنظيمات والمجموعات الشيوعية التي توحدت في إطار الحزب الشيوعي الفيتنامي عام ١٩٣٠. إلاّ أن الجزء الأكبر من تلك القوى الاجتماعية، احتفظ بتشكيلاته وتنظيماته، من هنا جاءت الحاجة الى الإطار التنظيمي الأوسع لحشد هذه القوى الوطنية، والاستفادة من جهودها وخبراتها في المعركة الوطنية ضد العدو القومي، لإنجاز مهمة مرحلة التحرر الوطني، لذلك وجدنا الحزب الشيوعي في أدبياته المبكرة، يؤكد على أنه بالإضافة إلى تحالف العمال والفلاحين (بقيادة الطبقة العاملة)، فإنه يعتمد في نضاله على جبهة وطنية متحدة[٢]. وعندما حاول ترجمة هذا الشعار في

أول ممارسة عملية له، عبر انتفاضته «نجهي ـ تينه» عامي ١٩٣٠ ـ ١٩٣١، خرجت إلى الوجود جبهة الإنقاذ الوطني بروابطها الاجتماعية المختلفة[٤].. لكن فشل التجربة بكاملها، جعلته يولي اهتماماً أكبر وأكثر جدية بمسألة الوحدة الوطنية في التجارب اللاحقة.

● الجبهة بين الشكل والمضمون:

نظرة هوشي منه إلى مسألة الجبهة الوطنية، لم تكن جامدة اومتزمتة. فهي لم تكن بالنسبة له عبارة عن إطار ثابت أو مقدس لايمكن المساس به، كما إنها لم تكن مجرد أداة ثانوية في العمل الثوري، بل تعامل معها، على أساس أنها من أكثر الأطر مرونة، وكذلك من أكثرها أهمية في الوقت نفسه.

من هنا يمكننا القول: إن الجبهة الوطنية، أخذت خلال المسيرة الثورية الفيتنامية أشكالاً متعددة، اعتمدت برامج مختلفة، رفعت شعارات متنوعة، حملت أسماء متبدلة، كل ذلك تبعاً لتغير الظروف المحلية والمحيطة. ورغم انتقال موقع العدو الرئيسي، وتبدل خارطة التحالفات في كل مرحلة نضالية، فان «وحدة القوى الوطنية» بقيت هي المحتوى ـ القاسم المشترك الذي لم يتخل عنه هوشي منه.

سنلاحظ أن المؤتمر الوطني الأول للحزب الشيوعي (١٩٣٥)، قد اعتمد القرارات التي كانت قيادة الحزب قد اتخذتها تجاه مختلف الطبقات الاجتماعية ـ في أعقاب فشل تجربة الانتفاضة الأولى ـ والداعية إلى التحرك النشط بين مختلف طبقات الشعب، ووضع برنامج تحرك خاص بكل طبقة وفئة، إلى جانب برنامج العمل السياسي والتنظيمي العام، وأكدّ على شعاري «الاستقلال الوطني» و «الارض لمن يفلحها». إلاّ أن قيادة الحزب تراجعت بعد فترة قصيرة عن تلك القرارات، نتيجة لأسباب خارجية وليست ذاتية.

فقد قرر مؤتمر الشيوعية الدولية (يوليو ١٩٣٥)، أن المهمة المباشرة للحركة الشيوعية والعمالية، ليس النضال ضد الراسمالية (والامبريالية)، بل ضد الفاشية، وليس من أجل الاستقلال الوطني، بل من أجل الديمقراطية والسلام. ودعا إلى إقامة جبهات شعبية واسعة ضد العدو الرئيس، أي ضد الفاشية، فانعكس هذا التوجه على الهند الصينية، حيث دخل الحزب الشيوعي الفرنسي الجبهة الشعبية التي شكلت حكومتها في باريس، فقررت القيادة الشيوعية الفيتنامية ـ المرتبطة بالكومنترن، عبر الحزب الشيوعي الفرنسي ـ أن مهمة الثورة في الهند الصينية الاشتراك في الجبهة العالمية، من أجل الديمقراطية والسلام، والنضال ضد الفاشية والحرب العدوانية. فأوقفت العمل بشعاري طرد الامبريالية الفرنسية، ومصادرة الأرض وتوزيعها على الفلاحين.

واستتبع هذا تغيير الإطار الجبهوي، فأقيمت «الجبهة الشعبية المعادية للامبريالية في الهند الصينية».. إلاّ أن آمال القيادة الفيتنامية في تغييرات وإصلاحات ديمقراطية تقوم بها السلطات الفرنسية الجديدة تبخرت، أمام موقف الفرنسيين في الهند الصينية الذين لم يتعاونوا معها. وإزاء فشل هذه التجربة، أقام الفيتناميون في العام التالي (١٩٣٦)، إطاراً جبهوياً جديداً، تحت اسم «الجبهة

الديمقراطية» المعادية للفاشيين والمستعمرين الرجعيين بين الفرنسيين، ورفعت لها شعارات «تحقيق الحريات الديمقراطية، وتحسين ظروف الشعب الحياتية»، وهنا تقرر عدم الاكتفاء بالوسائل العلنية الشرعية في النضال، بل واستخدمت أيضاً وسائل شبه شرعية وسرية، وعززت المنظمات الجماهيرية للجبهة الوطنية الى جانب الحزبية. ولم تعمر طويلاً حالة الانتعاش السياسي في الهند الصينية، لكنها أسفرت عن ظهور عدد من التنظيمات والأحزاب القومية واليسارية، فقررت قيادة الحزب الشيوعي إقامة تحالف وطني مع التروتسكيين(٥)، تحت اسم مؤتمر الهند الصينية، ضم عدداً من الزعماء الوطنيين والاشتراكيين أيضاً. إلّا أن هذه التجربة لم تعمر طويلاً هي الأخرى، نتيجة الاختلاف في الموقف من سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي تجاه المستعمرات، فانفرط عقدها عام ١٩٣٧.. وظل هوشي منه محافظاً على الإطار الجبهوي الأوسع الذي يشمل الديمقراطيين والتقدميين - غير الفاشيين - بين الفرنسيين في الهند الصينية. حتى قام الفرنسيون أنفسهم بإجهاض التجربة - إثر الخلاف بين الشيوعيين الفرنسيين وحكومتهم في باريس - عندما شنوا حملة معادية للشيوعيين والتقدميين في الهند الصينية في أواخر ١٩٣٩، فاضطُرَّت قيادة الحزب إلى الانتقال للنضال السري. وهذا استتبع بدوره إقامة تشكيل جبهوي جديد: باسم «الجبهة الوطنية المتحدة المعادية للامبريالية في الهند الصينية»، ورُفع شعار جديد، هو إقامة حكومة اتحادية لجمهوريات الهند الصينية الديمقراطية.

● المهمة الوطنية.. أولاً

احتلال الألمان لفرنسا، واحتلال اليابان للهند الصينية، خلق واقعاً جديداً أمام القيادة الفيتنامية التي اعتبرت أن الخطر المباشر، يتمثل في الفاشيَّين اليابانيين والفرنسيين، وبأن المعركة الوطنية أصبحت لها الأولوية على النضال الطبقي. ومن هنا فإن خصوصية العمل الوطني في كل قطر من أقطار الهند الصينية تفرض نفسها. وبالتالي فإن الجبهة الوطنية المتحدة على مستوى الهند الصينية، لم تعد إطاراً نضالياً مناسباً، فاستبدلت بإطار جبهوي وطني (قطري) تحت اسم رابطة استقلال فيتنام «فيت مينه».

اللجنة المركزية للحزب(٦)، قررت أن المهمة العاجلة للجبهة الجديدة هي قيادة الشعب الفيتنامي في الانتفاضة الشاملة للاستيلاء على السلطة، وبالتالي فإن كل البنادق والجهود يجب توجيهها نحو العدو الياباني والفرنسي، وقد استتبع ذلك إنشاء روابط الإنقاذ الوطني (العمالية والفلاحية والشبيبية والنسوية والعسكرية) التابعة «للفيت مينه»، لتعبئة وتنظيم كل فئات الشعب لمقاتلة الفاشيين اليابانيين والسمتعمرين الفرنسيين.

ظلت جبهة «الفيت مينه» منه هي الإطار الجبهوي الرئيسي الفاعل، طوال مرحلة التحرر الوطني (١٩٤٠ - ١٩٤٥) التي تكللت بنجاح انتفاضة اغسطس الشاملة، والاستيلاء على السلطة، وإقامة الجمهورية الديمقراطية في ٢ سبتمبر ١٩٤٥. لكن على هامش هذه التجربة الرئيسية الناجحة ظهرت بعض الأشكال الجبهوية المؤقتة، لأغراض تكتيكية نذكر منها:

- الرابطة الثورية الفيتنامية التي تشكلت أساساً من الأحزاب القومية والموالية للصين كالحزب الوطني، ورابطة استعادة فيتنام، وحزب فيتنام الكبرى، وقد شارك هوشي منه فيها، وتولى رئاستها مؤقتاً، لاتقاء شر الصينيين من ناحية، وللحصول على بعض مساعداتهم من ناحية ثانية.
- جبهة التحالف الصيني - الفيتنامي لطمأنة السلطات الصينية على نوايا الفيتناميين الطيبة، تجاه العلاقات الخاصة بين البلدين، ولتوفير الحماية والوقت الكافي للاستعدادات العسكرية الفيتنامية في الشمال الفيتنامي تحضيراً للانتفاضة.

وهكذا يمكننا القول: إن تأسيس «الفيت مينه» شكل علاقة بارزة في تاريخ هوشي منه الجبهوي، واستمر منذ ذلك الحين محافظاً على وتيرة عالية من العمل الوطني الجبهوي، يحث فيه كل أبناء الشعب من الشيوخ والشخصيات الوطنية، الى المفكرين الى الفلاحين والعمال والتجار والجنود على النضال، ويتعمد استثارة الحس القومي لديهم للمشاركة في الثورة.

سنلاحظ أنه بعد الانقلاب الياباني على الفرنسيين في الهند الصينية (مارس ١٩٤٥) طرأ بعض التغيير على الشعار، فأصبح «اطردوا الفاشيين اليابانيين». لكن الأداة الجبهوية بقيت سالمة، وفتحت إمكانيات توسيع التحالف، بحيث يشمل كل القوى التي من مصلحتها أن تتجه وتناضل ضد القوات اليابانية. وجاء برنامج النقاط العشر للجبهة، الذي أقره المؤتمر الوطني العام في أواسط اغسطس، ليحصر «مصادرة الاملاك» بما يخص الامبرياليين والخونة فقط، مما سمح بمشاركة واسعة من مختلف الطبقات والفئات الوطنية في الانتفاضة الشاملة.

سنلاحظ هنا أيضاً أن الأوضاع في الجنوب لم تكن مريحة لقيادة الثورة، كما في الشمال، فقد ظهرت التنظيمات المعادية للفيت مينه في تشكيلات جبهوية موازية، ضمت الى جانب التروتسكيين والقوميين أحزاباً دينية، مثل هوا هاو، كاو داي، كان أبرزها عام ١٩٤٥ الجبهة الوطنية المتحدة التي سيطرت على قيادة الحركة الوطنية، حتى تمكنت الفيت منه من اختراقها والسيطرة عليها، في أجواء انتفاضة اغسطس. وفي شهر سبتمبر، تحولت الجبهة من تنظيم جنوبي مستقل إلى فرع جنوبي للفيت منه، تقوده اللجنة الإدارية المؤقتة، ثم اللجنة التنفيذية التي قادت المقاومة الوطنية، بعد سقوط مدينة سايجون في يد الفرنسيين، بينما عادت القوى السياسية القومية والدينية (المعادية للشيوعيين) تتجمع من جديد في تحالفين منفصلين، هما جبهة كوشين شينا، والاتحاد الوطني الفيتنامي(٧).

● الوحدة الوطنية والعنف الثوري

في مرحلة حرب المقاومة الوطنية ضد الفرنسيين، التي استمرت تسع سنوات (١٩٤٦ - ١٩٥٤)، لعبت الوحدة الوطنية الدور الرئيسي في جبهتين،

الجبهة السياسية لمواجهة التشكيلات السياسية والدينية والعرقية التي لجأ اليها الفرنسيون لتشكل بدائل لحكومة هوشي منه، والتي كان آخرها إعادة تأسيس السلطة الامبراطورية لسحب البساط الشعبي

والوطني.

الجبهة العسكرية لتعبئة القطاعات الشعبية، وحشدها في خدمة استراتيجية حرب الشعب، التي اعتمدتها قيادة الثورة لمواجهة الاستراتيجية العسكرية الفرنسية لإعادة السيطرة على كامل الأراضي الفيتنامية.

وهنا سنلاحظ: ١ ـ أن «الفيت منه» بقيت هي الإطار الوطني الأول، منذ إعلان الجمهورية، وتكفلت بمهمات تثبيت السلطة الوطنية والدفاع عنها ـ إلى جانب جيش التحرير ووحدات الدفاع الذاتي ـ في مواجهة التحديات الداخلية (الأحزاب القومية التابعة للصين والقوى الرجعية المعادية للثورة) والتحديات الخارجية (القوات الصينية واليابانية والفرنسية).

٢ ـ إن التنظيم الحزبي (الشيوعي) قد تراجع في مرحلة تثبيت السلطة الوطنية الى الخلف، لمصلحة تقديم وتعزيز التنظيم الجبهوي (فيت منه)، ولضرورات المصلحة الوطنية العليا، أعلن في أواخر ١٩٤٥ عن حل الحزب الشيوعي رسمياً[٨]، وتكرست فيت منه كإطار قيادي رئيسي.

٣ ـ بعد تمكن الفرنسيين من تصفية مواقع الثورة في العاصمة والمدن الرئيسية، ظهر إطار جبهوي جديد أوسع باسم رابطة الاتحاد الشعبي «لين فيت»، ليعمل بشكل رئيسي داخل المناطق المسيطر عليها فرنسياً، بينما انتقلت مهمات «فيت منه» إلى المناطق المسيطر عليها فيتنامياً.

٤ ـ بعد خروج الثورة من مرحلة الخطر «عنق الزجاجة» من خلال النجاح في بناء القاعدة الثورية الآمنة في المناطق الثورية، وتعزيز عوامل القوة والصمود الذاتية، وبروز العامل الصيني الجديد (الشيوعي) في ظهر الثورة، انتقلت القيادة الفيتنامية الى مرحلة التوازن مع العدو، حيث أعيد الاعتبار للقيادة الحزبية الطليعية، بعقد المؤتمر الثاني للحزب، الذي أسفر عن استقلال التشكيلات الحزبية في بلدان الهند الصينية الثلاثة، فخرج الى الوجود حزب العمال الفيتنامي، ليقود المرحلة الحاسمة من حرب المقاومة الوطنية ضد الفرنسيين. وهذا التطور استدعى إعادة تنظيم الإطار الجبهوي من جديد.

في مارس ١٩٥١، عقد مؤتمر وطني عام ضم جبهتي فيت منه ولين فيت، والتنظيمات الشعبية والمهنية التابعة لها، تحت شعار تعزيز الوحدة الوطنية. وقد اكد هوشي منه في خطابه الافتتاحي في المؤتمر، على أن «الوحدة الوطنية» هي المسألة التي ناضل من أجل تحقيقها طوال عمره، وأنه بدون تلك الوحدة الوطنية لايمكن إنجاز النصر، وتحقيق البناء الوطني، والاسهام في الدفاع عن السلام والديمقراطية في العالم.

خرج المؤتمر بإعلان تشكيل جبهوي جديد باسم الجبهة الوطنية المتحدة وهنا نلاحظ:

١ ـ إن المؤتمر قد أقر صراحة وعلانية هذه المرة قيادة الشيوعيين للجبهة، عبر مشاركة حزب العمال الفيتنامي.

٢ ـ إن مهمة الجبهة حددت تبعية وتركيز وتكثيف قوى الشعب الكاملة لمقاومة العدو، وبناء الوطن، وتحقيق النصر النهائي.

٣ ـ إن مضمون الجبهة تحدد من اسمها، فقد أطلق عليها جبهة وطنية وليست شعبية، كما يقول لي

ذوان، لأنها تضم أربع طبقات من المجتمع، هم العمال والفلاحون والبرجوازية الصغيرة والوطنية.

٤ ـ إنه في عهد هذه الجبهة، قامت القيادة بتنفيذ مشروع الإصلاح الزراعي. وكذلك حصلت حكومة هوشي منه على اعتراف كل الدول الاشتراكية بها.

● الجبهة والنضال السلمي:

بعد إنجاز النصر العسكري على الفرنسيين، وتوقيع اتفاقيات جنيف (١٩٥٤)، أصبحت جمهورية فيتنام الديمقراطية واقعاً سياسياً معترفاً به دولياً، فانتقلت الأولوية بين المهام الاستراتيجية، من مهمة التحرر الوطني إلى مهمة انجاز البناء الوطني والتحول الاشتراكي.

المهمة الجديدة استدعت قيام إطار جبهوي جديد، فأعلنت جبهة الوطن الفيتنامي ١٩٥٥، بديلاً للجبهة الوطنية المتحدة، ورفعت شعار توحيد كل القوى الوطنية والديمقراطية لبناء فيتنام المسالمة والموحدة والمستقلة والديمقراطية، لكنها لم تغفل المهمة الوطنية في برنامجها.

يقول فام فان دونغ[٩] أمام الجمعية الوطنية: إن الجبهة أُقيمت لإكمال النضال من أجل التحرر الوطني، ومن أجل عزل وطرد الامبرياليين الأمريكيين وعملائهم، والتقدم نحو بناء فيتنام القوية والموحدة والمستقلة.. عبر الوسائل السلمية.

كما في التشكيل الجبهوي السابق، أشرف هوشي منه شخصياً على الإطار الجبهوي الجديد، وعلى صياغة برنامجها الوطني الذي وصفه بالعملي والعريض والحازم.. لماذا؟[١٠]

ـ عملي: لأنه يتوافق مع الآمال العريضة لكل الشعب الفيتنامي.. باستثناء قلة باعوا ضمائرهم للامريكيين.

ـ عريض: لأنه يفسح المجال لكل المعارضين لحكومة دييم والامريكيين، ولكل المؤيدين للوحدة الوطنية بصرف النظر عن تياراتهم الدينية والسياسية.

ـ حازم: لأنه قام على أساس تحالف عمالي ـ فلاحي، يشكل الاغلبية في المجتمع.

لكن هل استطاع الإطار الجبهوي الجديد أن يقوم بكامل مهماته؟

في الحقيقة فشلت الجبهة في تحقيق أي انجاز يذكر، فيما يتعلق باستكمال مهمة التحرر الوطني، فلا أمكن تحرير الوطن بالوسائل السياسية. ولا أمكن توحيده سلمياً، ولم تنفذ من اتفاقيات جنيف المواد المتعلقة بإجراء الانتخابات العامة، وضمان حق تقرير المصير للشعب الجنوبي، وعلى العكس تكرّس الانقسام، وتعززت جمهورية دييم الجنوبية، واستبدل النفوذ الفرنسي بهيمنة امريكية، حاولت تصفية الثورة في الشمال.

اما فيما يتعلق بالمهمات الوطنية الأخرى، فقد حققت الجبهة نجاحات كبيرة، فهي قد أسهمت في تثبيت السلطة الثورية، وإزالة آثار الحرب، وتثبيت واستقرار الانتصار في الشمال، وفي إطار مهمة التحول الاشتراكي، قامت بدورها ـ مع القوى الاجتماعية المعنية ـ في مجالات الزراعة والصناعة

الحرفية والتجارة المحدودة، وفي مهمة حق الشعب في السيادة الجماعية، عملت على تحريض المواطنين على المشاركة في انتخابات الجمعية الوطنية والمجالس الشعبية على مختلف المستويات، وفي مهمة تعزيز السلطة الثورية، قامت بالمشاركة في بناء الأدوات الثورية على جميع المستويات الاقتصادية والاجتماعية، وفي الدفاع عن السلطة ضد محاولات التخريب الامريكية والرجعية، حتى نهاية الخمسينات.

شكل عام ١٩٥٩ نقطة تحول كبرى في مسيرة الثورة الفيتنامية، حيث تقرر العودة الى الخيار المسلح لإنجاز مهمة التحرر الوطني في الجنوب، بعد خمس سنوات من النضال السلمي، السياسي، والدبلوماسي. وهذا القرار ترك أثره في التشكيلات الجبهوية، فلم يعد ممكناً الاعتماد على الشكل السابق لاختلاف المهمات الرئيسية بين الشمال والجنوب، فتقرر الاحتفاظ بجبهة الوطن الفيتنامي والقيام بمهمات بناء القاعدة الاشتراكية في الشمال، والدفاع عنها، والاسهام في دعم النضال الجنوبي، بينما اعتمدت أدوات نضالية مستقلة للساحة الجنوبية.. المهمات الرئيسية لجبهة الوطن الفيتنامي بقيت ثابتة بشكل عام، لكن مع تطور الظروف النضالية في الجنوب، وتصاعد التدخل الامريكي عبر استراتيجية الحرب الخاصة (١٩٦١ ـ ١٩٦٤)، وشن الحرب العدوانية ضد الشمال، عبر الحرب المحدودة (١٩٦٥ ـ ١٩٦٨) ومحاولات فتنمة الحرب (١٩٦٩ ـ ١٩٧٢)، تطورت مهمات الجبهة، واتسعت أشكال عملها وشعاراتها.

● الجبهة تقود العنف الثوري:

لإنجاز مهمة التحرر الوطني في الجنوب الفيتنامي، حرصت القيادة الفيتنامية على خلق ثلاث أدوات نضالية رئيسية، أشرف هوشي منه شخصياً على التجهيز لها[١١]، فكان حزب الشعب الثوري هو الأداة الطليعية القيادية (فرع الحزب الشيوعي). وكان جيش التحرير الشعبي، هو أداة العنف الثوري أو الذراع العسكري. وكانت جبهة التحرير الوطني، هي الإطار الجبهوي الوطني المباشر.

من حيث التوقيت، كانت الجبهة هي أول الإطارات والأدوات النضالية التي «أعلنت» في ختام مؤتمر وطني عام، كإطار سياسي موحد يجمع مختلف القوى والتنظيمات والشخصيات التقدمية والوطنية، خلف برنامج سياسي، وخطة عمل واحدة[١٢].

ـ من حيث أهدافها حددها برنامج النقاط العشر بإنشاء حكومة ائتلافية وطنية، وتحقيق الديمقراطية، وتنمية الاقتصاد الوطني، وتحقيق الإصلاح الزراعي، وإقامة ثقافة وطنية ديمقراطية، وتطوير القوات المسلحة الوطنية، وحماية حقوق الأقليات والجاليات الأجنبية، واعتماد سياسة عدم الانحياز، والعمل على إعادة توحيد فيتنام، والدفاع عن السلم العالمي.

ـ من حيث المهمات النضالية، قامت الجبهة بداية بتعزيز البناء التنظيمي، ومنظمات الجبهة، بحيث وصلت قواعدها السياسية في العام الأول إلى معظم الأرياف الجنوبية، ثم انطلقت للعمل على اضعاف السيطرة الحكومية، في تلك المناطق، وإقامة القواعد الثورية والقرى المقاتلة. أما العمل العسكري فكان

دوره ثانوياً في المرحلة الأولى، بحيث اقتصر على حماية السكان من رجالات السلطة وأجهزتها.. أما في المرحلة الثانية، فقد أنجزت خطة التعبئة والتنظيم، على طريق تحطيم الإدارات العميلة في الأرياف، وإطلاق الانتفاضات المحلية تحضيراً للانتفاضة الشاملة.

ـ من حيث القواعد التنظيمية اعتمدت الجبهة على شكلين رئيسيين:

آ ـ روابط التحرير الوظيفية: وهي منظمات اجتماعية ـ سياسية، تعنى بتعبئة وتنظيم الفئات الشعبية داخل القرى، على أساس الوظيفة أو الجنس، بهدف حشد الامكانيات الشعبية المادية والمعنوية. وكان أكبر تلك المنظمات رابطة الفلاحين، ثم المرأة فالعمال، تليها رابطة الشباب، ثم الطلبة فالمثقفين. وقد وضعت قيادة الجبهة برامج خاصة بكل رابطة، تكفل تصعيد نضالها، وتنسيقه على المستويين الفئوي والوطني العام.

ب ـ روابط الجبهة الادارية: وهي منظمات تعنى بتوجيه وتسيير النشاطات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لسكان القرية عبر المنظمات والروابط الشعبية والمهنية المختلفة.

ـ من حيث البناء التنظيمي، اعتمدت الجبهة تنظيماً هرمياً، تكون القرى قاعدته. حيث تبدأ بالخلايا التنظيمية، ومجموعة من الخلايا تشكل الفرع في القرية الكبيرة، ثم تأتي لجنة الاقليم او الناحية وتتشكل من مجموعة فروع. تليها لجنة المحافظة التي تشكل الحلقة الوسيطة بين اللجان القاعدية والمركزية، ثم لجنة المنطقة التي تشمل مجموعة محافظات، ولجنة عبر المناطق التي تشمل عدة مناطق، وأخيراً اللجنة المركزية للجبهة[١٣].

لم تتوقف برامج الجبهة وتكتيكاتها النضالية عند نصوص محدودة، بل كانت متطورة ومرنة، نتيجة للتطورات الكبيرة التي تلاحقت على الساحة الجنوبية، ففي ضوء الحرب الخاصة المضادة التي شنها دييم بمساعدة الامريكيين، عقدت الجبهة مؤتمرها الوطني الأول (١٩٦٢) ومؤتمرها العسكري (١٩٦٣) لتصعيد المجابهة السياسية والعسكرية. وفي ضوء التدخل الامريكي المباشر في أواسط الستينات، عقدت الجبهة مؤتمراً استثنائياً، وأقرت البرنامج السياسي الجديد الملائم، ووسعت إطارها الوطني.

لقد ظلت جبهة التحرير الوطني (بقيادة الحزب) متفردة في قيادة النضال الجنوبي، حتى عام ١٩٦٨، عندما فتح هجوم الربيع الاستراتيجي للثورة آفاقاً جديدة في جبهة المدن، فاستدعى ذلك إقامة إطار جبهوي آخر، أكثر مرونة، إلى جانب الجبهة، فأقيم التحالف الوطني للقوى الوطنية والديمقراطية والسلمية لتولي مهمات النضال السياسي والسلمي في العاصمة والمدن الرئيسية[١٤].

أما الحكومة الثورية المؤقتة التي أنشئت في حزيران ١٩٦٩، فكانت أداة جبهوية سياسية تكتيكية، اقتضتها ضرورات النضال الدبلوماسي ـ بعد موافقة الإدارة الامريكية على المفاوضات الرباعية ـ ولم تكن بديلاً عن الجبهة الوطنية التي واصلت مهماتها العسكرية والتنظيمية والسياسية في الجنوب ـ حتى بعد انسحاب القوات الامريكية من الجنوب عام ١٩٧٣ ـ الى أن انجزت مهمة التحرر الوطني. او استكمال الاستقلال الوطني لكل فيتنام في ابريل ١٩٧٥، محققة حلم الزعيم الفيتنامي الذي كان قد رحل عام ١٩٦٩.

بانتهاء مهمة تحرير الجنوب ١٩٧٥، وإعادة توحيد الوطن ١٩٧٦، لم يعد للأشكال الجبهوية الموحدة أية مبررات، خاصة وأن المهمة المركزية أصبحت بناء الوطن الاشتراكي الموحد. لذلك كان لابد من توحيد الأداة الجبهوية من جديد، فعقد مؤتمر تأسيسي في فبراير ١٩٧٧، شاركت فيها الجبهات الثلاثة، وأسفر عن قيام جبهة الوطن الفيتنامي، تحت شعار توحيد الشعب الفيتنامي بأسره، من أجل بناء فيتنام مسالمة ومستقلة وموحدة واشتراكية.

وتحددت للجبهة الجديدة مهماتها الرئيسية، المتمثلة في بناء نظام السيادة الجماعية للاشتراكية، والانتاج الاشتراكي المتكامل. والثقافة والإنسان الاشتراكيين الجديدين، والعناية بحياة الشعب المادية والروحية وتدعيم الدفاع الوطني وتحقيق المساواة بين المواطنين.

● من الخبرات الفيتنامية الجبهوية:

- يؤكد القادة الفيتناميون على أن مسألة الجبهة الوطنية هي علم التوفيق بين المصلحة الوطنية العامة والمصلحة الخاصة بكل طبقة أو فئة وطنية. ومن هنا فإن أول شروط نجاح الجبهة، هو وجود برنامج سياسي محدد تقبله كل القوى الوطنية في المرحلة المحددة، ووجود خطة عمل محددة لاستثمار إمكانيات تلك القوى.

- وبما أن التناقض الرئيسي في مرحلة التحرر الوطني، هو بين الشعب (الفيتنامي) والاحتلال أو الغزو الاجنبي (فرنسي - أمريكي)، فإن مهمة الجبهة الوطنية الأساسية تظل حشد كل القوى الوطنية الممكنة، وتعبئة كل الطاقات الوطنية المتوفرة في مواجهة العدو الأجنبي (وعملائه المحليين) مهما كانت قوته.

- وفي كل مراحل الحرب الوطنية، يظل المطلوب حشد الحد الأقصى من القوى الوطنية الفاعلة، وفي نفس الوقت البحث عن الأطر المناسبة، لتحييد ماأمكن من القوى المتواجدة في جبهة العدو، من أجل إضعافها، تمهيداً لعزل العدو الرئيسي، وتكثيف النضال ضده. وهنا يظل هاماً تحديد العدو الرئيسي بدقة في كل مرحلة، وكذلك الأعداء الثانويين أو الأقل خطورة.

- وبما أن العدو ليس بغافل عن حركة الثورة، بل له سياسته الثابتة وأدواته المتحركة لضرب الوحدة الوطنية، فإن أبرز شروط الجبهة عدم جمودها، بل قدرتها على التفاعل الداخلي، وتحصين نفسها، والنضال الدؤوب للحفاظ على وحدتها السياسية والتنظيمية. وهنا يلعب التنظيم القائد دوره التاريخي المتميز.

- للقوى الجذرية داخل الثورة دورها الدائم في الحفاظ على وحدة الطبقات والشرائح الرئيسية داخل الإطار الجبهوي (كالعمال والفلاحين والكادحين والمثقفين الثوريين). وهؤلاء غالباً مايظل تحالفهم استراتيجياً داخل الجبهة، لكن هذا لايعني إطلاقاً التفريط في العلاقة مع القوى الأخرى، بل خلق الأطر المرنة القادرة على استقبال الحلفاء المؤقتين، الذين يؤدون دوراً محدداً لفترة زمنية معينة، أو أولئك الحلفاء الذين يدخلون التحالف الوطني تحت شروط معينة، ومقابل تنازلات معينة.

- وفي كل ذلك تبقى مهمة القوى الطليعية الأكثر ثورية (الشيوعيون في فيتنام) الحرص على اختيار التكتيكات المؤقتة، والشعارات المرحلية، والأشكال النضالية المرنة، بما لايتعارض مع المبادىء الأساسية والأهداف الاستراتيجية للثورة، بل يصب في خدمتها حتى تحقيق النصر.

الملاحظات والهوامش

١ - تاريخ ميلاد هوشي منه بالتحديد هو ١٩/ ٥/ ١٨٩٠. وقد قررت منظمة اليونسكو اعتباره يوماً عالمياً، حيث أقامت الاحتفالات الخاصة بهذه المناسبة.

٢ - بدأ هوشي منه رحلته مع الفكر الماركسي بين باريس ولندن (١٩١٥ - ١٩١٩) أما تأسيس المنظمات الثورية المحلية، فقد بدأ منذ أواسط العشرينات (١٩٢٥ - ١٩٣٠).

٣ - أطلق عليها اسم الجبهة الوطنية المتحدة المعادية للامبريالية في الهند الصينية، وفي مصادر أخرى ذكرت باسم «الرابطة» وليس «الجبهة» للمزيد عن تلك المرحلة انظر:
An Outline History of V. N Workers, Party (1930 - 1945) - Hanoi 1978

٤ - إلى جانب روابط العمال والفلاحين ظهرت روابط للمرأة والشباب، بعضها كان يطلق عليها الروابط الحمراء، تولى الأمانة العامة للحزب آنذاك تران فو Tran Phu

٥ - كان التروتسكيون من أكثر اليساريين حيوية، وقد أوجدوا عدداً من التنظيمات، كان أبرزها في تلك السنوات جماعة النضال، جماعة أكتوبر، الرابطة الشيوعية.

٦ - يولي الفيتناميون اهتماماً خاصاً بتلك الدورة «الثامنة» للجنة المركزية التي ترأسها لأول مرة منذ سنوات هوشي منه بعد عودته من الصين، والتي صادقت على اختيار ترونغ تشنه أميناً عاماً جديداً للحزب (Truong Thinh) خلفا للامين العام الثاني نجوين فان كو Ng. Van Cu

٧ - الجبهة الأولى سيكون لها دور كبير في الحركة الانفصالية الجنوبية لاحقاً بينما الجهة الثانية ستتوزع قواها بين التيارين الامبراطوري والوطني خلال الحرب الوطنية الأولى.

٨ - لقد جرى حل الحزب رسمياً وعلنياً، لكن على أرض الواقع ظلت التشكيلات الحزبية قائمة بقيادة مركزية حملت اسم «لجنة دراسة الماركسية» التي ترأسها الأمين العام ترونغ تشنه.

٩ - من خطاب فام دونغ في ١٥/ ٩/ ١٩٥٥ المصدر:
Pham Van Dong: Selecked Writings - Hanai 1977 P. 25 - 28

١٠ - من خطاب هوشي منه في الجلسة الختامية للمؤتمر ١٠/ ٩/ ١٩٥٥ المصدر:
Ho Chi Minh: Selecked Writing s- Hanoi 1977 P. 188 - 191

١١ - كلف هوشي منه، السيد لي ذان، الأمين العام الأسبق للحزب بالإشراف الميداني على تلك التحضيرات داخل المناطق المحتلة عام ١٩٥٩.

١٢ - وثائق المؤتمر التأسيسي للجبهة وبرنامج النقاط العشر - انظر:
South V. N: From N. F. L to P. R. G - V. Studies No 23 - Hanoi 1970

١٣ - للمزيد من التفاصيل حول البناء التنظيمي للجبهة، يراجع كتاب «الفيتكونغ» تأليف دوغلاس بايك، دار الطليعة بيروت، كتاب «الحرب الثورية في فيتنام» تأليف غابريل بونيه. دار الطليعة بيروت.

١٤ - التحالف الجديد ضم مزيداً من الحركات الطلابية، والمثقفين ورجال الدين، ورجال الأعمال والصناعة، والشخصيات الديمقراطية.

البيريسترويكا..
العالم الثالث جدل الأزمتين

موفق محادين*

كيف حدثت المفارقة وأخذ العالم يستعيد في نهاية هذا القرن صورته التي كانت قائمة في مطلعه، عندما كان البلاشفة أقلية صغيرة، وعندما كانت الكاوتسكيه العنوان البارز لنشاطات الأممية الثانية، وعندما كانت المراكز الرأسمالية تشدد من استغلالها للمناطق المتخلفة، دون أن توفر لها أدنى فرصة لتحسين شروط تبعيتها للنظام الرأسمالي العالمي..

---

* باحث من الاردن.

إذا كانت الحرب العالمية الأولى قد أسهمت في إنجاح ثورة اكتوبر الروسية ١٩١٧ إثر الهزيمة الخارجية للنظام القيصري، وإذا كانت الحرب العالمية الثانية قد أسهمت هي الأخرى في إخراج أوروبا الشرقية من هيمنة المراكز الرأسمالية العالمية، وفي «استقلال» العشرات من بلدان «العالم الثالث» إثر هزيمة المانيا الهتلرية . . . فإن أبرز النتائج التي ترتبت على ذلك في المرتين هي الإشكالية التي ترتبت بدورها على اندلاع الثورة في أضعف الحلقات الرأسمالية وليس في أكثرها تطوراً كما أراد ماركس، وتوظيف الايديولوجيا كمعادل سياسي للشروط الموضوعية الملائمة.

لقد نجح البلاشفة في اقتناص السلطة في اكتوبر ١٩١٧، وقام ستالين انطلاقا من هذا الإنجاز ومن التقاليد البيروقراطية السابقة التي أرساها بطرس الأكبر، ببناء نمط توليتاري سياسي ـ اجتماعي انطوى على المفارقة أكثر مما انطوى على الوحدة بين الايديولوجيا والسياسة، وبين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، وبين المجتمع المدني والمجتمع السياسي . . ولم تكن الستالينية في كل هذا مسؤولة عن ذلك بوصفها نهجاً مستقلاً بل تعبيراً سياسياً ـ اجتماعياً نشأ عن ظروف موضوعية قائمة ومحددة.

صحيح، إن الايديولوجيا، كل ايديولوجيا تتخلف عن السياسة بهذا المستوى أو ذاك، وترتد إلى الجدران الفقهية الكلاسيكية المغلقة (المجمع المسيحي المسكوني، الأزهر الاسلامي، الكومنترن الشيوعي) إلا أن الوحدة كمظهر رئيسي في العلاقة بين الايديولوجيا الماركسية والدولة السوفياتية غابت فعلاً، حيث احتل الصراع المظهر الرئيسي في هذه العلاقة من خلال تغييب السياسة للايديولوجيا واستحضار الضرورة بأشكال قسرية.

وكذلك الحال في مواقع الوحدة والصراع داخل العلاقة بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج في الدولة السوفياتية، حيث كانت رأسمالية الدولة موجودة موضوعيا في غياب الاعتراف بقوانين السوق نظريا، مما عطل آلية الصراع الإيجابية وغيب آلية الوحدة عملياً.

إن قانون التطور اللامتكافىء كمناخ دولي إيجابي يفترض بالمقابل نقيضه المتمثل بقانون التبادل اللامتكافىء كمناخ دولي سلبي، مما سمح بالقول: إن أية تشكيلة اجتماعية لايمكن أن تسود إلا على المستوى العالمي، وإن التشكيلة الاشتراكية لم تكن قائمة طالما أنها لم تصمد . . فليس ثمة إمكانية نظرية، وليس ثمة أمثلة حية على تراجع تشكيلة اجتماعية متقدمة، متحققة لصالح أخرى أقل تقدما (كان تصبح البلدان الرأسمالية المتطورة بلدانا إقطاعية من جديد).

هل يعني ذلك تأجيل الصراع حتى تنتصر الثورة في أكثر الحلقات الرأسمالية تطورا؟ وما هي الطبيعة الاجتماعية للأنظمة التي قامت شرق أوروبا والاتحاد السوفياتي، وما هو مصير العالم الثالث الذي قام في جو النهوض السوفياتي نفسه بعد الحربين العالميتين؟؟

إذا كان من الصعب الحديث عن اشتراكية ماقامت في شرق أوروبا والاتحاد السوفياتي بدليل التراجع عنها، فمن الصعب الحديث عن قدرة البلدان المذكورة وبلدان العالم الثالث على الانخراط في النظام الرأسمالي بشروط مواتية.

وإذا كان من الممكن القول: إن الشكل الاجتماعي ـ السياسي الذي قام في شرق أوروبا هو شكل

رأسمالية الدولة التي يحكمها أو يسيطر عليها حزب واحد، وإن مثل هذا الشكل وفر فعلا مايكفي من المقومات لتطوير نموذج خاص من نماذج الاشتراكية الديمقراطية التقليدية الذي يوفق بين لينين وكاوتسكي وغرامشي وميتران معا، وبين النظام الاجتماعي الشامل وقوة أداء الضمانات الاجتماعية وملكية الدولة لمعظم وسائل الانتاج، واستبدال الرتابة الاقتصادية لرأسمالية الدولة باقتصاد سوق أكثر حيوية . . فلا يمكن رؤية حال البلدان الكولونيالية أو تلك التي كانت توصف ببلدان التوجه الاشتراكي، بالمنظار ذاته.

إن الكثير من هذه البلدان نشأت وتطورت على هامش الاقتسام العالمي المتجدد في المراكز الرأسمالية، دون أن تتمكن معظمها من إنتاج أو إعادة إنتاج المقومات الموضوعية للاستجابة مع قوانين تشكل الدولة القومية البرجوازية.

إنها بلدان ميليشيا أكثر منها حالات حراك اجتماعي ـ باتجاه بلورة مجتمعات مكتملة على الصعيدين المدني والسياسي.

فليس ثمة مواطنون في إطار الطبقة أو الوطن الذي يغيب سريعا في الطائفة والعشيرة، أو العائلة أو المظاهر المشوهة للبناء الفوقي في الهواء (النشيد، العلم، المراسيم، وحالات سلطوية كاريكاتورية).

ورغم أن هذه البلدان غير مواتية كأسواق لنظام التجارة الدولي، وتبدو أعجز فأعجز عن خدمة هذا النظام من خلال أنظمة ادخار واستثمار واقتصاد ومدفوعات خارجية ذات قيمة، إلا أنها مثقلة بالديون من جهة، وبعلاقات السوق الاستهلاكية، من جهة أخرى، إلى الدرجة التي تدفع سكانها، تحت وطأة الضرائب والقمع، إلى أقصى درجات التوتر الاجتماعي التي تعيد إنتاج نفسها في دائرة الازمة نفسها كل مرة، دون أن تتلمس المخرج الصائب للتعامل مع هذه الأزمات.

وكما أن العامل بالكاد، يحصل على مايلزمه لإعادة إنتاج قواه المطلوبة، في المستويات المختلفة، وكما أن الشرطي يحصل، بالكاد أيضا، على مايجسد حاجته، تبدو البلدان المذكورة في وضع مماثل مع السيد الامبريالي مقابل أهمية سياسية أو أمنية ما.

الحالة العربية:

في بلادنا، ولنقل في معظم بلادنا تتشكل الدول كاستجابة موضوعية لقوانين التطور الداخلية بقدر ماجاءت كحالة من حالات المصادفة التاريخية (وليس الضرورة التاريخية) التي أنتجتها الحرب العالمية الأولى واتفاقات سايكس بيكو وسان ريمو لإعادة اقتسام المنطقة بين الامبرياليات المنتصرة، وكذلك التي أنتجتها الحرب العالمية الثانية التي سمحت باستقلال العديد من البلدان على أرضية التعارضات التي كانت قائمة بين الامبريالية الاميركية والامبرياليات الاوروبية، وعلى أرضية التعارضات بين المعسكرات العالمية التي نشأت في أعقاب الحرب المذكورة.

وقد تم تسويغ كل ذلك ايديولوجيا، بالمستوى نفسه تقريبا وبروح المصادفة ذاتها من خلال

مصدرين:

ـ النخبة المسيحية المتنورة بفعل البعثات التبشيرية لا بفعل الحراك الاجتماعي الداخلي، كحاملة للفكر القومي مرتين: في الحرب الأولى عن طريق المنتديات القومية في باريس ولندن، وفي الحرب الثانية عن طريق المنتديات القومية في برلين وروما.

ـ أما الفكر الماركسي، وحيث لم تكن هناك طبقات متبلورة بذاتها ناهيك عن طبقات لذاتها، فقد جاءنا أيضا عبر البعثات التبشيرية لمندوبي الأممية الثالثة من الأرمن والأكراد واليهود.

وحيث لم تفلح عمليات الرسملة في إعادة إنتاج التكوينات والقوى الاجتماعية خارج الكولونيالية الجديدة، وفقا لاجتهادات مهدي عامل، وسمير أمين، ظل التأثير الملموس للبنى والقوى والتشكيلات السابقة للرأسمالية حاضراً وظلت هذه البنى قادرة على إعادة إنتاج شروطها في مناخ العلاقات الكولونيالية مع المركز الامبريالي، وظلت محاولات التوفيق التي قام بها حسين مروة بين الواقع الذي يتنفس الماضي والايديولوجيا الماركسية، من جهة، وكذلك محاولات الشيخ فضل الله للتوفيق بين ايديولوجيا الماضي والجدل الهيغلي محاولات في التجريد أكثر منها محاولات في الواقع. ولم يقترب أحد بعد، من النقطة التي رحل عندها ياسين الحافظ وأهملها الجابري. . فظل التشوش الايديولوجي ذاته، وظل العجز عن «التفاعل الايجابي» مع التطورات من حولنا، كحالة من حالات المجتمع المدني المعاصر، وكقوى وعلاقات إنتاج اجتماعية تنقصها الحيوية في وحدتها أو تناقضها مع قوانين التطور في المراكز الرأسمالية العالمية.

إنها الأزمة، التي تولدت عن الاحتلال الغربي الرأسمالي، وعن التحرر المبكر عنه في الوقت نفسه.

لقد أدخلتنا الضرورة التاريخية، على الصعيد العالمي تحت هذا الاحتلال (حيث كانت الرأسمالية قد توطدت كنظام عالمي اجتماعي جديد في أوروبا، فيما كان الركود ونمط الانتاج الآسيوي يحافظ علينا في الماضي)، ولكن المصادفة التاريخية هي التي أخرجتنا من النظام الرأسمالي العالمي الى هامشه، كنتيجة من نتائج الحرب العظمى الثانية التي غدت الأوهام شرقا وفي نظام المتروبولات نفسه.

وإذا كانت أوروبا الشرقية قادرة على التواصل من خلال الاشتراكية الديمقراطية والكاوتسكية على خلفية ماحققته خلال العقود الماضية من تصفية للملكية الخاصة لوسائل الانتاج الكبرى، ورفع مستويات ووتائر العمل والضمان الاجتماعي، وتحويل الأفراد إلى أفراد مجتمع لا أفراد طائفة أو قبيلة. . فما هو البديل الفعلي لنظام الانتداب العالمي الذي ينتظر العالم الثالث ومنه الوطن العربي؟ وهل بوسع البنى والتشكيلات الاقتصادية ـ الاجتماعية القائمة التعايش أو التجاوب مع المراكز الرأسمالية العالمية بشروط أفضل من شروط بلد يجاور الولايات المتحدة الامريكية، وتنغل فيه العلاقات الرأسمالية منذ أواخر القرن الماضي، كالمكسيك؟؟

ليس ثمة جوابٌ جاهزٌ محدد، لكن طرح مثل هذا السؤال مسألة اشكالية وملحة وضرورية بقدر الجواب المفقود نفسه الذي قد يعيد إنتاج الحاجة للعلاقة بين البلدان المتخلفة، وبلدان شرق أوروبا، والاتحاد السوفياتي في صورتها الاشتراكية الديمقراطية التي لم تستقر بعد.

حول التشابه والتطابق بين العنصرية والصهيونية في النظرية والتطبيق وموقف المجتمع الدولي منهما

د. خالد محمود الكومي*

مقدمة :

حينما نشر (البروفيسور سيرجي نيلوس)[1] (Prof. Sergyei Nilus) - في عام ١٩٠٥ - مايعرف بـ (بروتوكولات حكماء صهيون)[2] والتي تمسى أحياناً بـ (خطة السيطرة على العالم من قبل اليهود) قامت حملة صهيونية ضخمة - وقتذاك - تزعم أن هذه البروتوكولات مزورة، وليس لها أساس من الصحة. بلغت ضراوة تلك الحملة الصهيونية - بهذا الصدد - درجة القتل، فيما يقول مؤلف كتاب (الحكومة الخفية) الشهير (كرياغ سكوت J. Creagh Scott

* باحث من مصر

الذي تساءل عن تفسير الذي كان يحدث مثلاً في ظل نظام (كيرنسكي Kerensky في روسيا من الاعدام رمياً بالرصاص لكل من يشاهد ومعه نسخة من (الخطة) أو (البروتوكولات)، إذا كانت حقاً مزورة ولا أساس لها من الصحة؟)[3] كما درجت الصهيونية العالمية في حملتها تلك - وقتذاك - على اتهام كل من يثير موضوع (البروتوكولات)، بتهمة العداء للسامية ومعاداة اليهود.

وتذكرنا تلك الحملة الصهيونية في بدايات هذا القرن، في شراستها وضراوتها، بما حدث في أعقاب صدور (قرار)[4] الجمعية العامة للأمم المتحدة، باعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري (الأبارتهيد)، في ٢١ نوفمبر ١٩٧٥، فقد فقدت الصهيونية العالمية ودوائرها، أعصابها، وهاجت في ثورة غضب عارمة، ولم تهدأ حتى هذه اللحظة، من جراء صدور ذلك القرار التاريخي الشهير. والحقيقة أن للصهيونية العالمية، بعض مايبرر هذا الموقف العنيف من جانبها، تجاه ذلك القرار الدولي، ذلك أنها درجت طوال معظم تاريخها السياسي، على قيامها بتوجيه حملات الدعاية الهجومية المكثفة، ضد خصومها حملات أجادت تخطيطها مسبقاً، وتنفيذ برامجها وإخراجها بإحكام ونجاح من الصعب تجاهلها. ولكنها إزاء هذا القرار الدولي، الذي أصابها في مقتل ووضع النقاط على الحروف، بدون مواربة أو تلاعب في الألفاظ، قد وجدت نفسها، ولعلها من المرات القليلة، في مواجهة مباشرة وصريحة مع القرار والأمم المتحدة نفسها، بعد أن كان القرار بمثابة إعلان عن حالة من حالات الضبط بالتلبس. فضلاً عن أن القرار قد كشف القناع عن الوجه القبيح للصهيونية، ليظهره على حقيقته، بدون أي رتوش أو أقنعة. لذلك فقد اعتبرته بمثابة إعلان للحرب السياسية على الصهيونية، بعد تعريتها من كل ماكانت تستتر خلفه من ذرائع وأردية. ولأن الصهيونية العالمية، كانت قد اعتادت في السابق على الاعتماد على التستر خلف عدد لايحصى من المتاريس، في شكل عملاء وجماعات ضغط وكواليس، في كل التجمعات الدولية والاقليمية شرقاً وغرباً، تلك التي كانت تكفل لها إجهاض صدور أي قرار يتعارض ومصالحها، فإن كل هذه المتاريس قد فشلت هذه المرة، فشلاً ذريعاً، بشأن إجهاض صدور هذا القرار الذي نحن بصدده، وهذا - بحد ذاته - يعتبر سبباً آخر يشرح لنا، مدى العصبية والهياج اللذين اتسم بهما رد الفعل الصهيوني، بخصوص ذلك القرار. من المنطقي أن نتوقع أن ثائرة الصهيونية العالمية لن تهدأ، حتى تقضي على آثار ذلك القرار، ومحاولة إبطال مفعوله وتبرئة نفسها من هذه الوصمة، وصمة العنصرية. ومن ناحية أخرى، فإن على الطرف الآخر المناوىء للصهيونية والعنصرية - خاصة الطرف العربي والافريقي - أن يجدد يقظته ويضاعف جهوده، ليس فقط من أجل الحفاظ على مفعول القرار، وآثاره في مواجهة الصهيونية العالمية والنظم العنصرية، بل أيضاً من أجل العمل على مزيد من كشف الوجه الحقيقي للصهيونية العالمية وممارساتها العنصرية، وتحالفاتها الوثيقة

مع النظم العنصرية في العالم، وخاصة في جنوب افريقيا، من أجل مزيد من تنوير الرأي العام العالمي، وفضح حقيقة الصهيونية والعنصرية، في كافة المحافل والمنظمات والمؤتمرات الدولية، الرسمية وغير الرسمية. هي إذن حرب لاهوادة فيها بين طرفي المعادلة: سالب الحق ومسلوبه.

لقد امتلأت الصحافة ووسائل الاعلام الصهيونية والمشايعة لها، بسيل غير منقطع من المقالات والكتابات وردود الفعل، تحاول كلها الدفاع عن الفكر الصهيوني، وتنفي عنه صفة (العنصرية) وتبرئته من هذه الوصمة. وأخذت تتحدث عن المعاناة التاريخية والعذاب الانساني لما تسميه (الشعب اليهودي)، وماتعرض له من اضطهادات (هولوكوست) على يد النازية وغيرها، وأن الصهيونية هي التعبير السياسي والأدبي عن تطلعات اليهود نحو مستقبل أفضل من ماضيهم المأساوي.. الخ.

كما رددت الأبواق الصهيونية - في أعقاب صدور القرار ولازالت - مقولات وشعارات تدور حول أن (الصهيونية) - كعقيدة وأيديولوجية وحركة للعمل السياسي - ليست سوى التعبير (الحقيقي) عما يسمونه (إرادة الشعب اليهودي)، أو (شعب الله المختار)، ذي الرسالة (العالمية) الخالدة(٥)، وبحثه الدؤوب عن (الانعتاق الذاتي)، وغير ذلك من مقولات وشعارات، تحفل بها أدبيات وكتابات الفكر الصهيوني وأوراقه السياسية، منذ القرن التاسع عشر، وحتى هذه اللحظة. وهكذا عملت هذه الدوائر الصهيونية ذاتها وتلك المشايعة لها، ومازالت تعمل بأقصى ماتطيق من جهد، من أجل استصدار قرار دولي يلغي آثار قرار الجمعية العامة، السالف الاشارة إليه.

ومما زاد من قلق وحفيظة الصهيونية العالمية من جراء صدور ذلك القرار، أنه لم يأت من فراغ، عندما أدان صراحة وبغير مواربة الصهيونية، معتبراً إياها شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري (الأبارتهيد)، لكنه جاء تعبيراً عن جماع ضمير وإرادة - شبه كاملة - (لأخلاق) الجماعة الدولية المعاصرة. كما أنه جاء بمثابة (رفض) لاستمرار السكوت على الممارسات القمعية الهمجية، التي تقوم بها الدولة الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني المغلوب على أمره، مع أنه صاحب الحق والأرض في فلسطين المحتلة، حيث تحاول الصهيونية العالمية ودولتها العنصرية، بشتى السبل، اسكات صوته وقتل إرادته في التحرر، وحق تقرير المصير. وتبغى الصهيونية العالمية، تكريس العمل على اعتبار القضية الفلسطينية، مجرد قضية لاجئين (لاجئين من أين ياترى.. هل من الفضاء الخارجي؟)، تمهيداً لابادة الشعب الفلسطيني بأكمله وسحقه للأبد.

من هنا لاتختلف الممارسات الصهيونية تجاه الفلسطينيين - كثيراً - عن ممارسات نظام (إيان سميث) العنصري السابق في روديسيا (قبل استقلال زيمبابوي عام ١٩٨٠) ولا عن ممارسات القمع العنصري الوحشي، للأقلية البيضاء العنصرية الحاكمة بقيادة (بيتربوتا

حالياً في جنوب افريقيا، ضد الشعوب الافريقية الشقيقة هناك حتى الآن، كما سنرى بشيء من التفصيل في سياق هذه الورقة.

قرار الأمم المتحدة: الأسانيد الموضوعية:

فلقد استند قرار الجمعية العامة في نوفمبر ١٩٧٥، بشأن اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري، إلى عدد من القرارات والتوصيات الدولية السابقة، التي عبرت عن ضرورة التزام المجتمع الدولي المعاصر بالقضاء على كافة أشكال العنصرية والتمييز العنصري أياً كانت صور التعبير عنها.

من ذلك مثلاً:

أ - قرار الجمعية العامة رقم ١٩٠٤ (د - ١٨) في ١٩٦٣/١١/٢٠ الذي أصدرت الجمعية بموجبه إعلان الأمم المتحدة للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري، والذي أكدت فيه مشدداً على (أن أي مذهب يقوم على التفرقة العنصرية أو التفوق العنصري، مذهب خاطىء علمياً، ومشجوب أدبياً، وظالم وخطر اجتماعياً. كما أعربت فيه عن (القلق الشديد) إزاء مظاهر التمييز العنصري، التي لاتزال ملحوظة في بعض مناطق العالم، وبعضها مفروض من بعض الحكومات من خلال تدابير تشريعية أو إدارية أو غيرها.

ب - قرار الجمعية العامة رقم ٣١٥ زاي - (د - ٢٨) في ١٩٧٣/١٢/١٤ بشأن جملة أمور، من بينها التحالف الآثم، بين العنصرية في افريقية الجنوبية (جنوب افريقيا) والصهيونية.

ج - إعلان المكسيك لعام ١٩٧٥ بشأن مساواة المرأة وإسهامها في الإنماء والسلم، وهو الاعلان الصادر عن المؤتمر العالمي للعام الدولي للمرأة، (المكسيك ٥/١٩ - ١٩٧٥/٧/٢)، وهو الاعلان الذي تضمن أن (التعاون والسلم الدوليين يتطلبان تحقيق التحرر والاستقلال القوميين، وإزالة الاستعمار والاستعمار الجديد، والاحتلال الأجنبي، والصهيونية، والفعل العنصري، والتمييز العنصري بجميع أشكاله، وكذلك الاعتراف بكرامة الشعوب وحقها في تقرير المصير).

د - القرار رقم ٧٧ (د - ١٢) الصادر عن مجلس رؤساء دول وحكومات منظمة الوحدة الافريقية في دورته العادية الثانية عشر التي انعقدت في كمبالا (٧/٢٨ - ١٩٧٥/٨/١) والذي جاء فيه (أن النظام العنصري الحاكم في فلسطين المحتلة والنظامين العنصريين الحاكمين في زيمبابوي(١) وافريقيا الجنوبية (جنوب افريقيا) ترجع إلى أصل استعماري مشترك، وتشكل كياناً كلياً، ولها هيكل عنصري واحد، وترتبط ارتباطاً عضوياً، في سياساتها الرامية إلى اهدار كرامة الانسان وحريته).

هـ - الاعلان السياسي، والاستراتجية الرامية الى تعزيز السلم والأمن الدوليين، وتوطيد

التضامن والمساعدة المتبادلة بين البلدان غير المنحازة، اللذين تم اعتمادهما في مؤتمر وزراء خارجية البلدان غير المنحازة المنعقد بليما (بيرو) في الفترة بين ٢٥ - ٣٠ أغسطس ١٩٧٥، وهو المؤتمر الذي أدان الصهيونية بأقصى شدة، بوصفها تهديداً للسلم والأمن العالميين، وطالب جميع البلدان مقاومة هذه الايديولوجية العنصرية والامبريالية. .

إدانة العنصرية الصهيونية دولياً ومن قبل رجال الفكر والسياسية والقانون:

لم تكن الجمعية العامة للأمم المتحدة وحدها - بموجب قرارها التاريخي الذي أدان الصهيونية صراحة، باعتبارها شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري، مثلما سلفت الاشارة - هي وحدها التي أبرزت هذه الحقيقة الجوهرية والموضوعية، على ذلك النحو. ولكن هناك مؤتمرات وندوات، وحلقات بحث رسمية وشبه رسمية وغير رسمية، على كافة المستويات العالمية والاقليمية والمحلية، في عديد من العواصم والبقاع في العالم، قد تدارست وناقشت الطبيعة العنصرية للصهيونية، ورفضتها وطالبت الجماعة الدولية بضرورة نبذها، والقضاء عليها، لتعارضها مع نصوص وروح القانون الدولي والمواثيق الدولية، ومبادىء حقوق الانسان، والاعلان العالمي لحقوق الانسان وغيره من المواثيق الدولية التي تطالب باحترام حقوق الانسان، وصيانتها، ونبذ أي دعوى تقوم على أساس (التفوق العرقي أو التمييز العنصري)، باعتبار ذلك مجرد (خرافة) وأكذوبة كبرى.

كذلك فعل عدد كبير من رجال الفكر والقانون والسياسة، ورجالات الدولة في العالم قبل وبعد، صدور قرار الجمعية العامة. لم يأبه أولئك للحملات الدعائية الظالمة التي شنتها ضدهم أجهزة وأبواق الدعاية الصهيونية والاسرائيلية، ومحاولة دمغهم بـ (اكلشيه) تهمتها التقليدية المعتادة في مثل هذه الأحوال، وهي تهمة، معاداة السامية وعداء اليهود، والنازية. . وما الى ذلك.

ومازالت هذه الأجهزة والأبواق وعملاء الصهيونية العالمية، يلاحقون رجلاً مثل رئيس النمسا الحالي (كورت فالدهايم) - كما يعرف الجميع - لأنها - ببساطة - لاتغتفر للرجل حقيقة أن القرار التاريخي للجمعية العامة للأمم المتحدة، بشأن إدانة عنصرية الصهيونية، كان قد صدر في عهد توليه منصب الأمانة العامة للأمم المتحدة.

ومازالت تلك الأجهزة الصهيونية - وبعض المشايعين لها في العالم - يجتهدون في محاولة إلصاق تهمة تعاونه مع قوات الاحتلال النازي في النمسا، إبان الحرب العالمية الثانية في إبادة اليهود. ومازال المشهد حياً.

ويؤكد فالدهايم - مراراً وتكراراً - أن تهمته الحقيقية، ليست سوى أنه أظهر تعاطفه مع بعض القضايا العربية، والقضية الفلسطينية.

ومن رجالات الفكر والسياسة الذين وقفوا في حزم ضد عنصرية الصهيونية، ورفضوها شكلاً ومضموناً، وبكافة عناصر التعبير عنها، دون خوف أو وجل من أبواق دعاياتها، رجل مثل المستشار النمساوي السابق الدكتور برونو كرايسكي (نائب رئيس رابطة الدولية الاشتراكية). فقد فرّق الدكتور كرايسكي - بوضوح - بين اليهودية والصهيونية، وهو اليهودي المنتمي لأحد العائلات اليهودية المعروفة في النمسا، معتبراً (اليهودية) أحد الديانات التوحيدية الثلاث، بينما رأى - وبصراحة شديدة - أن الصهيونية (إنما تمثل عنصرية ونوعاً من التصرف الانثروبولوجي لست مستعداً لقبولها. . .)[٧].

فالكدتور كرايكسي حدد بوضوح موقفه الثابت - كاشتراكي - برفض مطلق للفكر العنصري بكل صوره ومظاهر التعبير عنه جملة وتفصيلاً، ولكل مايترتب من نتائج على نظريات التفوق العرقي أو العنصري، بدعوى تميز عرق على عرق أو عنصر على آخر، ذلك أنه يرفض المقدمات والأسس التي قد شيدت عليها مثل تلك النظريات[٨].

أعلن كرايسكي موقفه الصريح من العنصرية والصهيونية في أكثر من مناسبة، وفي كتابه (النمسا بين الشرق والغرب) المنشور في باريس عام ١٩٧٩.

ولم تستطيع أبواق الدعاية الصهيونية - بطبيعة الحال - وصمه بالعداء للسامية، لسبب بسيط، أنه يهودي، لكنها قد كالت له أقذع الشتائم والسباب والتوبيخ. وتهكم عليه رئيس تحرير (الجيروساليم بوست) الاسرائيلية ذات مرة - بسبب رفضه للصهيونية، بأن وصفه بأنه (يهودي رغم أنفه Juif Malgre Lui مستخدماً التعبير الفرنسي المشابه لعنوان مسرحية موليير الكوميدية الساخرة المعروفة (طبيب رغم أنفه Medecin Malgre Lui)[٩].

لكن مثل هذه الحملات، لم تزد الرجل إلا مزيداً من الصلابة في موقفه السياسي. ولم تتوقف اسرائيل يوماً عن ممارساتها القمعية ضد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، تلك الممارسات التي لاتختلف عن ممارسات النظام العنصري في جنوب افريقيا ضد الأفارقة هناك من شعب جنوب افريقيا وناميبيا.

ولم تستوعب الدرس الذي تضمنه قرار الجمعية العامة، باعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري، فجاءت تصرفاتها وممارساتها ضد الشعب الفلسطيني لكي تؤكد المعنى، ولاتنفيه.

وقبل مضي عامين على صدور ذلك القرار، قامت بعثة مكونة من عشرة أعضاء من النقابة الوطنية للمحامين الامريكيين[١٠] National Lawyers Guild برئاسة المستر/جون كويجلي[١١] John Quigley، بجولة في يوليو ١٩٧٧ استغرقت ثلاثة أسابيع في البلاد العربية واسرائيل. أكدت البعثة في تقريرها، أن رجال الأمن الاسرائيليين عادة مايستخدمون التعذيب لإجبار المسجونين الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، على الاعتراف. وأعلن المستر / كويجلي (إننا تأكدنا أن الحكومة الاسرائيلية تنتهج سياسة التعذيب (ضد سكان الأراضي

العربية المحتلة) من أجل تحقيق ضم المناطق المحتلة). وفي الثاني من أغسطس ١٩٧٧، أعلن المستر / كويجلي ـ في مؤتمر صحفي ـ أن (الحكومة الاسرائيلية تخرق ـ أيضاً ـ حقوق الانسان الفلسطيني، من خلال طرد قيادات المجتمع الفلسطيني، ومن خلال هدم المنازل، ومن خلال إفساد (وسائل) الرعاية الطبية). وأكد رئيس البعثة، أن البعثة قد استقت معلوماتها من خلال المقابلات التي أجرتها مع المسجونين السابقين، ومع الاسرائيليين، أثناء زيارتها للأردن ولبنان واسرائيل.

وكان من الطبيعي أن تنفي الحكومة الاسرائيلية ارتكابها لتلك التهم، معترفة فقط بحدوث حالات من (الوحشية). كما سارع متحدث باسم البعثة الاسرائيلية لدى الأمم المتحدة، بنفي التهم التي جاءت بتقرير بعثة النقابة عن التعذيب، ولكنه ذكر بأن بعض العرب، تم طردهم لتورطهم في نشاطات تخريبية(١٢).

ويظل من الضروري الاشادة بشجاعة رجال بعثة النقابة الوطنية للمحامين الامريكيين وبرئيس تلك البعثة، حيث استطاعوا جميعاً أن يعبروا ـ بدون مواربة ـ عن صوت ضميرهم الحي، الذي أملى عليهم أن يذكروا بصراحة، حقائق الموقف في الأراضي العربية المحتلة، وممارسات القمع الاسرائيلي ضد الفلسطينيين. والمسألة ليست بالأمر الهين، لأن جماعات الضغط الصهيوني، واللوبي الصهيوني القوي في الولايات المتحدة، تقف جميعاً بالمرصاد وبسيف مسلط على رقاب كل من يجرؤ على أن يقول كلمة حق عن القضية الفلسطينية. ومادام ذلك يمس ـ من قريب أو بعيد ـ سمعة ومصالح الدولة الصهيونية. فإن النفوذ الصهيوني المتسلط على كافة الأجهزة الحساسة، وعلى معظم أجهزة صنع القرار في الولايات المتحدة، يجعل الأمر عسيراً أمام أي صاحب رأي، أو وجهة نظر تخالف وجهة النظر الاسرائيلية والصهيونية، فيما يتعلق بقضايا الشرق الاوسط والمشكلة الفلسطينية.

وليس في الأمر أي مبالغة أو تهويل، فقد قال (مرفين دايملي)(١٣) عضو الكونجرس الامريكي ـ يوماً ـ (إن انتقاد اسرائيل في الكنيست (البرلمان الاسرائيلي) أسهل من انتقادها في الكونجرس الامريكي، هنا في بلاد حرية الكلام)(١٤).

فانظر إلى أي مدى بلغ عنفوان نفوذ وتأثير اللوبي الصهيوني على توجيه القرار الأمريكي، في عقر الدار الأمريكية.

بيد أنه مع تصاعد حملات القمع الاسرائيلي الهمجية ضد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، لم تستطع (الواشنطن بوست) ـ مثلاً ـ إلا أن تقر حقيقة التطابق بين صورتي اسرائيل وجنوب افريقيا من حيث أسلوب البطش والعنف اللاانساني، في تعاملها الوحشي مع الوطنيين العرب والأفارقة، كل في الأراضي التي تحتلها وتسيطر عليها.

أشارت (الواشنطن بوست) إلى أن لدى اسرائيل من القوة العسكرية الكافية،

مايمكنها من الاحتفاظ بالأراضي العربية المحتلة فترة غير محدودة من الزمن برغم المقاومة العربية (الفلسطينية)، غير أنها إذا اختارت بالفعل أن تفعل ذلك، فانها (سوف) تواجه خلال الخمسة عشر عاماً القادمة، ما قد واجهته وتواجهه منذ عدة سنوات في الضفة (الغربية) وقطاع (غزة)، وأنه بحلول العام ألفين (فإن اسرائيل سوف ترى عندما تقف أمام المرآة نفسها صورة مطابقة لجنوب افريقيا (العنصرية)، وعندئذ فإن بعض معالم هذه الصورة (سوف) تكون قد بدأت بالفعل تظهر في شوارع غزة حيث يتحدى الجيل الجديد من الشباب الفلسطيني قوة جيش مدجج بالسلاح، يتحداها بالحجارة والزجاجات الفارغة، وتضيف (الواشنطن بوست) أن استخدام الذخيرة الحية، والضرب بالهراوات ومنع الصحفيين من تغطية الأحداث، كل ذلك تكرار مخيف، لنفس الأحداث التي تشاهد في شوارع المدن والقرى التي يسكنها الأفارقة في جمهورية جنوب افريقيا(١٥).

وقد لايحتاج هذا الكلام للواشنطن بوست من جانبنا لمزيد من التعليق، سوى أن اسرائيل التي تزعم ـ من خلال أجهزتها وأبواق دعاياتها ـ أنها واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط، وسط فيافي التخلف والرجعية والديكتاتورية في العالم العربي، قد انكشفت صورتها الحقيقية أمام الجميع، وبان وجهها القبيح أمام الصديق قبل غيره. ويبدو ـ لكي تتعدل المعادلة ويزول التناقض بين الشكل والمضمون ـ أن تختفي نجمة داوود من فوق العلم الاسرائيلي لتحل محلها (هراوة) غليظة، فوق العلم، وربما صليباً معقوفاً، رمزاً لأمة الروح المقدسة، وشعب الله المختار.

وفي الأسبوع الأول من يناير ١٩٨٨ زار المستر / دايفيد ميلر وزير الدولة البريطاني للشئون الخارجية، اسرائيل والأراضي المحتلة، وأمام بشاعة القمع الاسرائيلي والمعاملة اللاانسانية لقوات الاحتلال الاسرائيلي لسكان المخيمات، لم يستطع إلا أن ينتقد علانية وبشكل حاد، الأوضاع السيئة للفلسطينيين الخاضعين للاحتلال الاسرائيلي، واصفاً ما رآه في مخيم (جباليا) بقطاع غزة بأنه (مهين ومتناف مع القيم الحضارية) مشيراً الى ضرورة قيام اسرائيل بإجراء عاجل إزاء تلك الأحوال السيئة.(١٦) بل إن تتبع الممارسات القمعية لجيش الاحتلال الاسرائيلي في الأراضي المحتلة، ومن ورائه جيش المستوطنين اليهود مع الفلسطينيين في غزة والضفة، يدل على أن الصهاينة قد تفوقوا في صنوف الاضطهاد والتعذيب والقتل على النازيين.

الصهيونية والعنصرية: التلاقي على مستوى الفكر والحركة:

عندما يرد تعبير أو دعوى (التفوق العرقي أو العنصري) ـ في التاريخ السياسي المعاصر ـ تقفز إلى الذهن مباشرة (صورة منطبعة ثابتة Stereotype) أو صورة نمطية عن

ثلاث تجارب تاريخية لثلاثة من نظم الحكم السياسية، المتشابهة والمتداخلة، والمتشابكة، في صفاتها العامة: وهي:

(١) النازية (حكم هتلر في ألمانيا من ١٩٣٢ حتى ١٩٤٥).

(٢) الدولة اليهودية في فلسطين القائمة على العنصرية (منذ عام ١٩٤٨).

(٣) ونظام الحكم العنصري للأقلية البيضاء الحاكمة في جنوب افريقيا (منذ قيام دولة جمهورية اتحاد جنوب افريقيا رسمياً منذ عام ١٩١٠، وكذلك نظام إيان سميث السابق في روديسيا الشمالية، والذي انتهى هناك في عام ١٩٨٠ بتحرر زيمبابوي من النظام العنصري).

بالنسبة للدولة النازية، التي استندت على نظرية تفوق الجنس الآري على من عداه من أجناس، فقد انتهت في ألمانيا، بانهزامها ومصرع الزعيم النازي هتلر عام ١٩٤٥ والاحتلال ألمانيا وتقسيمها إلى ألمانيتين.

أما بالنسبة للصهيونية التي قامت اسرائيل في عام ١٩٤٨ على أساس أفكارها ومعتقداتها وفلسفتها العامة، فإن التحليل الموضوعي المتأني لمقولاتها السياسية ومرتكزاتها الفكرية ومزاعمها التاريخية، إنما يقود إلى عديد من المؤشرات والنتائج، التي لابد من تناولها، من أجل التعرف على حقيقتها وسبر غورها.

فإن الصهيونية السياسية - في التحليل النهائي وبعيداً عن شعاراتها الذاتية - قد قامت منذ نشأتها على أيدي آبائها الأوائل، على دعامتين رئيسيتين:

(١) العنصرية.

(٢) الاستعمار الاستيطاني المتعاون دائماً مع قوى الاستعمار العالمي بشكله الكلاسيكي المعروف.

فقد كتب (تيودور هرتزل) - المعروف بنبي الصهيونية السياسية - في كتابه الشهير (دولة اليهود Der Judenstaadt) في عام ١٨٩٦، يقول بأنه (يجب أن نقيم (في فلسطين) جزءاً من السور الأوروبي العادي لآسيا، مركزاً متقدماً للحضارة، مناهضاً للبربرية (الآسيوية)، بمعنى أنه قد دعا أوروبا إلى تأييد قيام الدولة اليهودية في فلسطين، في مقابل (الثمن) الذي هو، أن قيام مثل هذه (الدولة) سيكون بمثابة (خط دفاع أمامي لأوروبا في مواجهة (البرابرة الآسيويين).

(وحاييم وايزمان) - الذي صار فيما بعد أول رئيس لدولة اليهود في فلسطين - قد أيقظ في عام ١٩١٧ المصالح البريطانية في الشرق الاوسط، رغم أنها لم تكن نائمة في ذلك الوقت - إذ جاء في خطابه إلى الحكومة البريطانية (إذا ماأيدت الحكومة (البريطانية) الهجرة اليهودية (الى فلسطين) فلن نلبث أن يكون لدينا مليون أو أكثر من المستعمرين هناك، (الذين) سوف يكونون بمثابة حامية Garisson فعالة جداً لقناة السويس). ولم تكن ثمة مصادفة -

إذن - أن يصبح هو نفسه - فيما بعد - أول رئيس لدولة اسرائيل: الدولة الحامية Garisson State.

وجاء في المذكرات الكاملة (لتيودور هرتزل) أنه كان يتصور أن (دولة اليهود) - أو الدولة اليهودية - إن هي إلا تحقيق جزئي، لمحاولة الرجل الأبيض ادخال حضارته الغربية على الشرق (المتخلف). فانظر كيف وضع الأساس للدولة اليهودية، من خلال محتوى عنصري مركب (الدولة اليهودية من خلال تواجد الرجل الابيض).

وفي خطاب ارسله الى (دوق بادن) في عام ١٨٩٦ جاء فيه قوله (إذا كانت مشيئة الله أن نعود الى أرض آبائنا التاريخية، فإننا نود أن نعود كممثلين للحضارة الغربية وسندخل النظافة والنظام وعادات الغرب الأصيلة، الى هذه البقعة الفاسدة من الشرق التي تفترسها الأوبئة)(١٧). (لاحظ هنا استمرار الالحاح الهرتزلي على مفهوم ومعنى المحتوى العنصري المركب، مع الاحتقار الكامل لكل ماهو شرقي).

بيد أن نبي الصهيونية السياسية كان يعلم جيداً - وربما قبل غيره - أنه لم يكن في ذلك - في حقيقة الأمر - أكثر من (سمسار) لايملك سلعة حقيقة يبيعها. وأنه لم يكن يملك سوى (خدمات) يمكن أن يقدمها - مقابل الثمن - لأسياده من المستعمرين. ومن ثم فقد كانت يعلن بغير حياء، أن الحركة الصهيونية ستحوّل يهود العالم أو (أمة الروح المقدسة) إلى عشرة ملايين عميل لانجلترا، بصفتها القوة الاستعمارية المسيطرة على المنطقة وقتذاك - إذا ماهي ساعدتهم على تحقيق حلمهم الصهيوني. وكان هذا السمسار السياسي العتيد، قد حاول في الفترة السابقة على انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بال بسويسرا، (١٨٩٧) إقناع الامبراطورية العثمانية والسلطان في الآستانة بمدى الفوائد والمصالح الجمة التي يمكن أن تعود على العثمانيين، حال حصول اليهود على فلسطين (كبلد مستقل) لهم، وأن اليهود مستعدون لتقديم العون المالي للامبراطورية العثمانية، حتى تتمكن من اجتياز ضائقتها المالية وأزمتها الاقتصادية، ولكن خاب مسعاه. ومن هنا كتب يقول لأحد أعوانه (انهم (يقصد الأتراك العثمانيين) لن يعطونا فلسطين كدولة مستقلة بأي ثمن). ولذلك ولى وجهه شطر التاج البريطاني، مثلما سلفت الاشارة آنفاً.

حتى الدولة اليهودية - التي كان يحلم بها (هرتزل) - التي سوف تضم (الشعب المقدس) أو (شعب الله المختار)، يمكن أن تقوم هي الأخرى بدور العميل والسمسار. وحينما رأى (هرتزل) - بثاقب نظره العملي - أن شعب مصر كان على وشك أن يثور على مستعمريه من البريطانيين، وأن الانجليز سوف يحتاجون الى قاعدة أخرى في الشرق نتيجة لذلك، وأن هذا الوضع سوف يفيد الدولة الصهيونية كثيراً، فقد كتب يقول: (إنه مما يفيدنا أن يضطر الانجليز إلى مغادرة مصر، فانهم سوف يضطرون آنذاك أن يبحثوا عن طريق آخر الى الهند بدلاً من قناة السويس، التي سوف تضيع منهم، أو على الأقل سوف تصبح غير

مأمونة . . وآنذاك تصبح فلسطين اليهودية الحديثة مناسبة لهم ـ الطريق من يافا الى الخليج الفارسي)(١٨).

ولم يكن مثل هذا التصور الهرتزلي للدولة اليهودية مجرد فكرة عابرة، بل فكرة أساسية تتكرر في كتابات (هرتزل) وغيره من الصهاينة. بن جوريون كان يصرح حينما كان عضواً في المؤتمر الصهيوني العالمي، أن انجلترا (سوف تتمكن من أن تحصل على قواعد دفاعية في البر والبحر في الدولة اليهودية)، وحاييم وايزمان سبق أن أبلغ أحد كبار موظفي الخارجية البريطانية أن (فلسطين اليهودية سوف تكون خير حماية لانجلترا، خاصة بالنسبة لمصالحها في قناة السويس)(١٩).

ولم يزل هذا هو نهج الدولة الصهيونية حتى هذه اللحظة، ولكن مع اختلاف في لغة الخطاب وفي بعض التفاصيل، والرتوش، حسب السيد الجديد، أو القوى الدولية المتعاقبة على مركز الصدارة في السياسة الدولية وفي الشرق الأوسط.

وتجلت دعامتا بنية الصهيونية السياسية: العنصرية والاستعمار الاستيطاني، في رفعها ـ منذ قيامها المبكر ـ لذلك الشعار التارخي المغلوط (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، متجاهلة بذلك تجاهلاً تاماً للعرب الفلسطينيين. فمع قيام الصهيونية السياسية النظامية في أواخر القرن الماضي، استمر رفع الشعار (ومازال)، يعبر ذلك الشعار عن صميم الرؤية الصهيونية للتاريخ، ولما يسمى بروح الشعب اليهودي. وحينما رفع (هرتزل) هذا الشعار، فإنه كان يجسد حرفياً تلك الرؤية الصهيونية.

وفي كتابه: نهاية التاريخ (انظر حاشية رقم ١٧) قدم الدكتور عبد الوهاب المسيري تحليلاً فلسفياً للمنظور الصهيوني في تأصيل هذا الشعار. فقد رأى ـ ونحن نتفق معه في ذلك ـ أن الصهاينة ـ في رؤيتهم للتاريخ والواقع المادي ـ لايرون شيئاً سوى فكرتهم الثابتة المتعلقة بالعودة إلى أرض الميعاد، لتأسيس الدولة اليهودية فيها، بحيث يصير التاريخ اليهودي عندهم ليس إلا تعبيراً عن الرغبة العارمة في العودة، وأن التاريخ اليهودي ليس إلا تعبيراً عن هذا المطلق الذي لايقبل النقاش (لأن الحق في العودة يستند إما الى وعد أسطوري تلقاه اليهود في أول الأيام، أو إلى رغبة سيكولوجية تعتمل في نفوسهم، وكلاهما حينما يتحولان الى برنامج سياسي، لايمكن مناقشتها بشكل عقلاني). لذلك فحينما يشير اليهود إلى حقوقهم (التاريخية) أو إلى حدود اسرائيل (التاريخية)، فيجب أن نضع في اعتبارنا دائماً أنهم لايشيرون إلى أي واقع تاريخي محسوس، وإنما يشيرون الى تصوراتهم المشيحانية بخصوص هذه الحدود. فالحقوق والحدود (التاريخية) ـ فيما يذهب الدكتور المسيري ـ هي حقوق وحدود مقدسة ومطلقة، أو حقوق وحدود (ذاتية) لايمكن لأحد تقريرها، أو التعرف عليها سوى الصهاينة أنفسهم. فالرؤية الصهيونية قد تجاهلت كل ماهو نسبي وتاريخي وعيني . . فقد تجاهلت وجود شعب كامل على أرضه هو الشعب الفلسطيني، واعتبرت

فلسطين أرضاً غير مأهولة، وافترضت أن الأقليات اليهودية في (الدياسبورا) ـ التي تسميها الشعب اليهودي ـ هي في حالة بؤس شديد ودائم، وفي حالة تطلع لايتوقف ورغبة عارمة للعودة إلى أرض الميعاد، مع أن الهجرة اليهودية في القرن الماضي، كانت متجهة من روسيا وشرق أوروبا إلى العالم الجديد، كما أن مالايقل عن نصف يهود العالم، يعيشون في أرض الميعاد الأمريكية، ولايريدون التزحزح عنها(٢٠).

كما تجاهلت هذه الرؤية الصهيونية رؤية قطاعات لايستهان بها من اليهود ـ من بينهم يهود العصبة اليهودية أو البوند في شرق أوروبا، التي كانت تناوىء الصهيونية ذاتها، وتعتبرها بمثابة (قومية البورجوازية الصغيرة)، وترى أن اليهود أينما عاشوا، فهم يشكلون جماعة سكانية معينة، كنها (أي الصهيونية) لايجوز لها بأي حال أن تتحدث باسم جميع اليهود(٢١).

ومن المؤكد أن الحركة الصهيونية قد نجحت ـ ومنذ وقت مبكر ـ في أن تجعل أتباعها يؤمنون إيماناً أعمى، بشعارات تتحدى الواقع الحي والمتنوع في فلسطين، ومما يساق في هذا الصدد للتدليل على هذا المعنى واقعة (ماكس نوردو) الزعيم الصهيوني وصديق (هرتزل) الذي لم يكن قد سمع قط عن وجود الفلسطينيين إلا في المؤتمر الصهيوني الأول، وعندئذ اندفع (نوردو) الى صديقه (هرتزل)، يعلن اليه استنكاره لعدم اخباره بهذه الحقيقة من قبل.

وقد توحي النظرة العامة السريعة الى مجمل بنيان الفكر الصهيوني، بوجود جدلية مثالية متكاملة ثلاثية العناصر قوامها: الشعب ـ الله ـ الأرض. غير أن النظرة النقدية المدققة، لاتلبث أن تكشف عن زيف تلك الجدلية، وانطوائها على نظرة رجعية متخلفة، تقدس الذات اليهودية من منطلق عنصري محض، ربما كان أشد وأعتى من منطلق النازية نفسها. ذلك أنها تضفي طابعاً دينياً مقدساً على منطلقها وأساسها العنصري، ولايعدو قوام الجدلية الصهيونية كونه مجرد مجموعة من الأفكار والمبادىء اللاعقلانية (المصاغة بطريقة هندسية دائرية) كفكرة (الأمة المقدسة) و (شعب الله المختار) و (وحدة الوجود اليهودية أو البانثيزم Pantheism) الى ماغير ذلك من أفكار هي أقرب ماتكون الى الافكار القبلية، التي حاولت الصهيونية إضفاء صفة التقديس الديني عليها(٢٢). فبنية الفكر الصهيوني مستمدة ـ في واقع الأمر ـ من بعض الأساطير اليهودية الدينية القومية، مثل أسطورة الأمة المختارة وشعب الكهنة وأرض الميعاد . . الخ.

وهكذا، ينقلب الاستعمار الاستيطاني لأرض فلسطين ـ في المنظور الصهيوني ـ الى مجرد عودة للشعب (اليهودي) إلى أرض الميعاد، حيث جبل صهيون، كما أن المهاجرين اليهود ـ في نفس المنظور الصهيوني ـ والحال كذلك، ليسوا بمستعمرين استيطانيين لأرض غيرهم. ولكنهم مجرد (معفيليم) أي (مجاهـدين في سبيل العـودة إلى أرض اسرائيل

(التاريخية) صبقاً لتصورهم عما وعدهم به العهد القديم أو التوراة أو التلمود. وفي نفس المنظور الصهيوني لاتصير العنصرية الصهيونية عنصرية على الاطلاق، لكنها مجرد تعبير (طبيعي) عن ارادة (الشعب المختار) (ذي الرسالة الخالدة). أما الفلسطينيون فيجب أن يذوبوا في هذا البنيان الفكري الصهيوني المجرد، ويصبروا مجرد كنعانيين لا فلسطينيين: مجرد سكان مؤقتين في الأرض المقدسة و (لاجئين) ـ لابد من إبادتهم ليتسنى تحقيق الوعد الالهي، ونبؤة التوراة[٢٣].

ولم يتوقف أتباع الصهيونية عن الاستغراق في أحلام التلمود ـ الذي كان من وضع آبائهم الأولين ـ فصدقوا ماوضعه في أذهانهم من أنهم جنس متميز عنْ بقية الأجناس، وأنهم شعب الله المختار، وأن اليهودي وحده هو الذي قد خلق على صورة الله، رغم أن غير اليهود قد خلقوا على نفس الشكل، لكنهم (في اعتقادهم المريض) حيوانات، ولكنهم (صوروا بهذه الصورة لكي يؤنسوك في هذه الدنيا)[٢٤]. فالصهيونية السياسية قد أوجدت أجيالاً من المتهوسين السياسيين ـ من خلال الحقن المذهبي المنظم والمتصل بالأفكار الصهيونية ـ انقلبوا الى ارهابيين في الدولة اليهودية في فلسطين، مثل المستوطنين الذين أصبحوا يتربصون بالفلسطينيين، ويتحرشون بهم من أجل إبادتهم والقضاء عليهم، باسم المبادىء الصهيونية. وليست جماعة الحاخام مائير كاهانا، ونشاطها الارهابي المنظم، إلا مثلاً واحداً.

ونحن نعلم مسبقاً بأن اسرائيل والصهيونية العالمية، وأجهزتها السياسية والدعائية المنتشرة في أرجاء كثيرة من العالم ـ تحت مسميات وأقنعة عديدة ومتنوعة ـ سوف تبادر على الفور، الى اعتبار كل مايكشف حقيقتها ويفضح وجهها القبيح، على أنه نوع مما درجت على تسميته (الدعاية العربية). فكل معلومة أو حقيقة أو موقف، أو تحرك من أي نوع مادام يتعارض مع أهدافها ومصالحها، ويكشف حقيقة طبيعتها العنصرية، لابد وأن يكون في زعمها داخلاً تحت بند الدعاية العربية. هذا بعد أن قامت هي نفسها بأوسع وأكبر عملية تشويه في التاريخ ـ في المجتمعات الغربية أساساً ـ لكل ما هو عربي أو يمت للعرب بأية صلة، حتى صار للعرب ـ بعد عملية التشويه المتعمد هذه لصورتهم وللانطباع عن طابعهم القومي عند تلك المجتمعات، على أيدي الصهاينة وعملائهم ومشايعيهم ـ صورة منطبعة ثابتة غاية في السوء والسلبية[٢٥]. تماماً مثلما استطاعت أن ترهب غير العرب، وتطاردهم بأن تدمغهم بتهم تلفيقية إذا وقفوا مع الحق والحقيقة، فيما لايتمشى وهوى الصهاينة أو يتعارض مع مصالحها أو مواقفها. من بين هذه التهم والاتهامات التلفيقية والتي أصبحت تقليدية ومبتذلة (عداء السامية)[٢٦]، و (المكارثية) حيناً آخر، والنازية في معظم الأحيان، بل قد تطارد الصهيونية وأجهزتها أي خصم أو مناوىء لها أو حتى مخالف للرأي حتى التصفية النهائية والقضاء المبرم عليه، والأمثلة كثيرة وعديدة ومتنوعة[٢٧].

ورغم أن الصهيونية هي التي قد أقامت الدنيا ـ ولم تقعدها بعد ولن تقعدها ـ ضد النازية والممارسات الهتلرية ضد اليهود، إلا أن الممارسات الاسرائيلية الصهيونية ـ اليوم ـ تدل على أن هؤلاء الذين يقولون بأنهم كانوا ضحايا النازية بالأمس، وجلدوا واضطهدوا على أيديها، قد صاروا ـ في ممارساتهم اليومية والعملية ضد الفلسطينيين في الاراضي المحتلة، لايختلفون عن أولئك الذين جلد بالأمس، بحيث صار الذي قد جُلد بالأمس هو جلاد اليوم، بل أكثر شراسة وعنفاً ولا انسانية من جلاديه. بل أضافوا الى أساليب الجلد والاضطهاد والقمع، أساليب لم تكن معروفة لجلادي الأمس، ولاينافسهم فيها سوى الجلادين العنصريين البيض في جنوب افريقيا، في الوقت الحاضر.

فها هي ذات أمة الروح المقدسة، ذات الرسالة الخالدة بشعبها المختار، تقيم دولتها التوراتية / التلمودية الموعودة حيث جبل صهيون، في أرض الميعاد، على أشلاء الكنعانيين الجدد (الفلسطينيين) وعلى أنقاض أمة كاملة، في حرب إبادة معلنة.. ومن الغريب أن أتباع الصهيونية ومعتنقي فكرها، يعتبرون ذلك نوعاً من الجهاد المقدس، فكل شيء عند الصهيونية صار مقدساً، وكل الوسائل صارت مقدسة، مادامت تحقق الغايات الصهيونية المقدسة، حتى لو كان ذلك إبادة شعب بأكمله، من أجل بقاء واستمرار شعب الله المختار في أرض الميعاد. وصار مفهوم حقوق الانسان عند الصهاينة، مرتبطاً أساساً بحقوق اليهود، كحقهم في الهجرة وفي الانتقال أينما أرادوا ووقتما شاءوا. أما غيرهم ـ وبينهم الفلسطينيون ـ فهم بالمعايير الصهيونية لايدخلون تحت بند الانسان.

من ثم كان طبيعياً ومنطقياً أن يخرج الارهاب المنظم ـ فكرياً وحركياً ـ من تحت عباءة الصهيونية. ابتداء من فلاديمير جابوتنكسي وانتهاء بالحاخام كاهانا، وأن يتحول الارهاب المنظم من ارهاب العصابات، إلى ارهاب الدولة بعد قيامها عام ١٩٤٨. فلم تقم الدولة اليهودية إلا على أكتاف الارهاب وعصابات الارهابيين. ولم يتوقف الارهاب بعد قيام الدولة، بل استمر واتخذ أشكالاً أكثر تعقيداً وتعدداً وتنظيماً، بحكم استناده إلى امكانيات دولة قائمة بالفعل وتساندها قوى دولية عديدة، فضلاً عن حركة الصهيونية العالمية ذاتها. وليس من المنتظر أن يتوقف الارهاب الصهيوني، ماظلت الصهيونية باقية، لأنها المصدر الفكري والحركي الذي يغذيه ويحرص عليه، ويقدم له المبرر الفلسفي وسند الشرعية، باعتباره الوسيلة التي تحقق الغاية المنشودة: اسرائيل الكبرى بعد قيام الدولة اليهودية من خلال التوسع بكل الطرق، على أشلاء كل من يقف في طريق الغاية الصهيونية.

مايجري الآن في الأراضي المحتلة، ليس إلا ترجمة لحقيقة اقتران الحركة الصهيونية بالارهاب كأحد أهم الوسائل المحققة للغايات الصهيونية.

والغريب أن الارهاب الصهيوني ليس أمراً مشروعاً فحسب، طبقاً للعقيدة الصهيونية بل نوعاً من الجهاد الصهيوني المقدس، مثلما قد سلفت الاشارة.

بين الدولة الصهيونية في فلسطين والدولة العنصرية في جنوب افريقيا:

بين فلسطين وجنوب افريقيا بون شاسع، بمعايير البعد الجغرافي أو المسافة المكانية، بينما الأمر ليس كذلك، من ناحية تشابه النشأة التاريخية وتشابه الظروف والملابسات، وطبيعة الفكر العنصري، وغير ذلك من أوجه التشابه والتطابق بين النظامين الحاكمين في كل من تل أبيب وبريتوريا.

فكما جاء آباء الصهيونية الأوائل الى فلسطين لاستعمارها، رافعين شعار (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) وغير ذلك من شعارات صهيونية، مثلما سبقت الاشارة، فقد جاء المستعمرون الهولنديون، الى بعض مناطق جنوب افريقيا - في البداية - مع شركة الهند الشرقية عام ١٩٥٢، وبدأوا في استعمار هذه المناطق معتبرين أنفسهم (الرواد الأوائل هؤلاء هم (البوير الرحل)، الذين زعموا بأن تلك الأراضي (لاصاحب لها). متغافلين عن أصحاب الأرض الأصليين من الأفارقة مثل قبائل (البانتو). وأخذ أحفاد البوير الذين يسمون أنفسهم اليوم (الافريكانز) أو (الافريكانيين)، في تعميق عملية استعمارهم الاستيطاني لجنوب افريقيا. عُرف هؤلاء بنزعتهم الفردية الشديدة وعقيدتهم الكالفينية (نسبة الى المصلح الديني الألماني كالفن) التي نشأت في القرن السابع عشر، والتي استوحوا منها اعتقاداً راسخاً عندهم، نما من ظروف نشأتهم، بأنهم (شعب اختاره الله) لرسالة تمدين هذه المنطقة المتخلفة من العالم، وأن السود الوثنيين (أصحاب الأرض الأصليين) ليس لهم حق طبيعي قبلهم، ولاحق لهم في امتلاك الأرض التي بدأ أولئك البيض العنصريون في اغتصابها - بكافة السبل - من أصحابها الأصليين. فقد شنوا ضدهم حروباً امتدت على مدى مائة عام عرفت باسم (حرب الكافير) أو حرب الكفار)[٢٨].

وقد وجد الأفريكانيون - أحفاد البوير - في الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد مايدعم حملهم السلاح كأمر يرضي (رب الجنود)، ومايوجب على العبد السمع والطاعة أمراً واجب التنفيذ. وصارت أمثال هذه الاشارات مبرراً لاخضاع الأفارقة في المزارع والمناجم[٢٩].

وقد اعتبر هؤلاء البيض - أحفاد البوير - أنفسهم أبناء الله، بعد أن تمكنوا من الهجرة من مستعمرة الرأس (الكاب) عام ١٨٣٦ هرباً من الحكم البريطاني، وعقدوا مقارنة بين خروجهم هذا وخروج بني اسرائيل من مصر، ومثلما أن اليهود خرجوا بقيادة موسى عليه السلام، هرباً من فرعون، فانهم خرجوا من مستعمرة الرأس بقيادة (بيتر ربتيف) الى الناتال والترنسفال. هرباً من البريطانيين، وهكذا صارت بريطانيا في نظرهم، فرعون، وصارت بلاد المهجر أرض الميعاد، وصاروا هم أنفسهم شعباً مختاراً[٣٠].

وبينما صارت كتب المطالعة في دولتي الاورانج والترنسفال، تعلم التلاميذ باستفاضة

أن للرجل الأبيض الكالفني، رسالة ومهمة مقدسة باعتباره ابن الله في هذه الأرض الأفريقية، وأنهم قد انبعثوا فيها لحمل هدايته والمحافظة على نقائهم، فإن القادة العسكريين لهاتين الدولتين كانوا لايتورعون مطلقاً عن تدمير القرى الافريقية، ونقل قبائل بأكملها، من أجل أن تتوفر لأبناء الله أرض تشبع نهمهم، وهكذا صارت المبادىء البروتستانتية، ولاسيما الكالفينية منها، محدداً آخر من محددات العلاقات بين الطرفين الافريقي، والاوروبي، ومنطلقا هاماً لفكر العنصرية في الجنوب، ونقطة التقاء مع الفكر الصهيوني المعاصر[٣١].

كذلك فقد تدعمت العنصرية البيضاء في الجنوب (الافريقي)، بنظريات التفوق الأوروبي التي سادت في الحضارة الأوروبية، وانتجت الداروينية، والآرية، والنازية، والانجلوسكسونية، بل والصهيونية بشقيها المسيحي واليهودي، الى غير ذلك من الفضائل العنصرية الأوروبية، إبان فترة تفوقها الحضاري وسيطرتها على المستعمرات[٣٢].

وهكذا يبين التشابه والتطابق بين منطلقات الفكر والحركة، بين الدولة الصهيونية ودولة الاقلية العنصرية البيضاء في جنوب افريقيا. فكلاهما ليست سوى حقيقة استعمارية استيطانية، قامت على اغتصاب أرض الغير من أصحابها الأصليين والشرعيين، تحت زعم أنها (أرض بلا صاحب). كما أن الجماعة البشرية العنصرية، التي تسيطر اليوم في فلسطين وفي جنوب أفريقيا، تقيم عقيدتها السياسية على أساس من التفوق العرقي والتفوق، من منطلق كهنوتي تلفيقي باعتبار أنها (شعب الله المختار)، وأن كلا من الجماعتين، قد جاءت الى أرض الميعاد لتحقيق رسالة خالدة.

كذلك فإن هناك تشابهاً بين محاولة أحفاد البوير، صياغة صفة للتمايز بينهم وبين غيرهم من الأفارقة في جنوب افريقيا، باعتبارهم - أحفاد البوير - جيل متميز يتسم بالصلابة وقوة الارادة، لتبرير أيديولوجيتهم العنصرية، من ناحية، وبين مايطلقه أحفاد الصهاينة الأوائل الذين ولدوا وعاشوا في فلسطين / أرض الميعاد، على أنفسهم في مواجهة الأغيار / (الجوييم) من الفلسطينيين بأنهم (جيل الصابرا)، كناية عن الجَلَد والتّحمل والجهاد، وانهم مثل الصبار في مرارة المذاق، ومن حيث ظروف النمو في أصعب الظروف[٣٣].

وهكذا لم تكن صدفة أو مصادفة - والحال كذلك - أن تقوم بين كل من تل أبيب وبريتوريا، منذ أمد طويل، أوثق وأعمق العلاقات، يحدوها أن كليهما يستلهم نفس مبادىء الفكر والعقيدة تقريباً من منطلق العنصرية والتفوق العُرقي المزعوم، في اطار من تشابه النشأة في ظل ظاهرة الاستعمار الاستيطاني، يضاف الى كل ذلك أن كلا من النظامين مكروه من جيرانه، فضلاً عن أصحاب الأرض الأصليين. وترتب على ذلك - كسبب ونتيجة في آن معا - ان لجأ كلا النظامين الى تقوية نفسه بالتسلح لدرجة التفوق الضخم في السلاح، لضمان استمرارية بقائه بقوة حد السلاح، لابحكم التعايش السلمي والاندماج.

وفضلاً عن كل ماسبق، ورغم اختلاف الموقع الجغرافي للنظامين، فإن كليهما يشعران بالانتماء الفعلي للغرب، حضارياً ونفسياً، وفكرياً، وأيديولوجياً، ويزعمان بأنهما أصحاب رسالة لتمدين وتحضير (البرابرة) كل في منطقته، فضلاً عن أنهما امتداد استراتيجي للغرب وفي الدفاع عن مصالحه، الى حد كبير (فكرة الحامية المتقدمة للمصالح الغربية في الشرق الأوسط وافريقيا)(٢٤).

بل إن المفهوم الاسرائيلي للحكم الذاتي / الحكم الاداري المزعوم للفلسطينيين في الأراضي المحتلة، مأخوذ ومستعار من مفهوم السلطات العنصرية البيضاء في جنوب افريقيا، لنظام البانتوستانات أو المعازل المطبق حالياً بالفعل، على المناطق ذات الأغلبية الافريقية السوداء في جنوب افريقيا، وهو نظام يتيح امكانية السيطرة الكاملة، تحت سيطرة غطرسة القوة، للسلطات الاستعمارية المتحكمة، بغض النظر عن أي تعارض لذلك مع مفاهيم حقوق الانسان، أو مراعاة أي مبدأ من مباديء حرية الانتقال، باعتباره حقاً أساسياً من حقوق المواطنة(٢٥).

اسرائيل وجنوب افريقيا: والمستقبل العنصري:

وأخيراً، شهد شاهد من أهلها، كما يقولون. فقد اعترف بالحقيقة ـ بعد طول مراء ـ بعض المعلقين في الصحافة الامريكية، بمناسبة إذاعة برنامج (واجه الصحافة Face the Press) في التلفزيون الامريكي، صباح الاحد ١٩٨٧/١٢/٢٧، مع وزير الدفاع الاسرائيلي (اسحق رابين)، الذي لم يستطع النجاح في الدفاع عن نفسه وعن سياسة حكومته تجاه الانتفاضة الفلسطينية (منذ ديسمبر ١٩٨٧). فقد وصف بعض أولئك المعلقين اسرائيل بأنها تستخدم أسلوب اطلاق النار، وتقتل الفلسطينيين، بحيث أصبحت صورتها لدى الرأي العام الامريكي مثل حكومة جنوب افريقيا العنصرية. وفي داخل اسرائيل ذاتها، اتهمت محامية اسرائيلية تدافع عن الفلسطينيين، السلطات الاسرائيلية بأنها قد حولت اسرائيل، إلى دولة تماثل جنوب افريقيا العنصرية، وأنها في الطريق الى أن تكون مثل الارجنتين، حيث تخفي السلطات الاسرائيلية المعتقلين، مثلما كان يحدث في الأرجنتين. وقالت نفس المحامية الاسرائيلية، ان ثلاثة من موكليها اختفوا لمدة ثمانية أيام، قبل أن تعرف أماكن وجودهم.

وفي الحقيقة ليس في هذا أي جديد، فإن اكتشاف أوجه التشابه، بل والتطابق في أمور ونواح كثيرة بين اسرائيل وجنوب افريقيا، ليس وليد انتفاضة الفلسطينيين في الأراضي المحتلة منذ ديسمبر ١٩٨٧، بل يرجع الى ماقبل ذلك بكثير. لكن لعل الجديد في الأمر، أن يأتي مثل هذا الاعتراف بهذا الاكتشاف السياسي، من قبل بعض دوائر المعلقين

الأمريكيين، وبعض الاسرائيليين الذين استطاعوا التحرر من رقبة سيطرة المؤسسة العسكرية الحاكمة في تل أبيب.

وتستأهل هذه الظاهرة منا كل الاهتمام والتشجيع، لأن الاعتراف بالحقيقة القائمة، ولو من قبل بعض وليس كل أو معظم فصائل الطرف الآخر في القضية، ربما يكون خطوة أساسية أو على الأقل خطوة مهمة، في طريق الحل العادل أو المقبول والمعقول للمشكلة الفلسطينية، التي هي ـ دون أدنى مبالغة، لب وقلب الصراع العربي الاسرائيلي. وهذه الحقيقة قد أكدتها من جديد انتفاضة الفلسطينيين منذ ديسمبر ١٩٨٧، والتي نبهت الى أن مفتاح السلام في الشرق الاوسط، بيد الفلسطينيين أساساً. ولم تكن الحجارة بأيدي ثوار الأرض المحتلة، الا قطعاً صلبة من ارادة شعبية أشد صلابة، تبحث عن تقرير المصير الفلسطيني.

ومثلما يحدث الآن في فلسطين المحتلة من انتفاضة شعبية عارمة، فقد شهدت جنوب افريقيا وناميبيا ـ في أغسطس ١٩٨٧، أي قبل أربعة شهور فقط من الانتفاضة الفلسطينية تجسيداً للارادة السياسية للمقهورين من الأفارقة السود هناك، ضد غطرسة جلاديهم من العنصريين البيض. فقد نظم العمال الأفارقة ـ من خلال الاتحاد العام لعمال المناجم في جنوب افريقيا ـ اضراباً عاماً اشترك فيه ـ في وقت واحد ـ حوالي ٣٥٠ ألف من عمال المناجم الأفارقة استمر لمدة ثلاثة أسابيع كاملة (٩ ـ ١٩٨٧/٨/٣١)، اتخذ في الظاهر شكل المطالب العمالية، لكنه قد انطوى بغير شك على معنى المواجهة السياسية، تعبيراً عن الشعور الوطني الافريقي ضد استبداد العنصريين البيض هناك. وقد شهد المراقبون بأن هذه هي المرة الأولى في تاريخ جنوب افريقيا، أن تحدث مثل هذه المواجهة وبذلك الحجم الضخم.

فقد كانت نذيراً وانذاراً موجهاً بالدرجة الأولى الى النظام العنصري ورموزه وممارساته القمعية الهمجية ضد الوطنيين الأفارقة. وقد هدد الاضراب العمالي الافريقي في جنوب افريقيا. نظام التمييز العنصري في الصميم، وأصابه بخسائر جسيمة، ليس فقط لمصالح الأقلية البيضاء، ولكن لكل الشركات المتعددة الجنسية العاملة هناك، ولكل المصالح الغربية المتواجدة على أرض جنوب افريقيا وناميبيا.

فإذا كان التحالف الوثيق بين النظام العنصري في جنوب افريقيا، والنظام الصهيوني في فلسطين المحتلة ليس صدفة أو مصادفة، كذلك فإن الربط بين المواجهة الافريقية ضد النظام العنصري في جنوب افريقيا، وانتفاضة الفلسطينيين ضد نظام الاحتلال الاسرائيلي في الأراضي العربية، ليس ـ بدوره ـ مجرد صدفة أو مصادفة.

ولا تستطيع اسرائيل ـ ومن ورائها الصهيونية العالمية ـ اليوم وصف المقارنة بينها، وبين النظام العنصري في جنوب افريقيا، خاصة بعد تفجر الانتفاضة الفلسطينية منذ

الثامن من ديسمبر ١٩٨٧، مثلما درجت من قبل، بأنها من قبيل عمل الدعاية العربية. فهذا شرف لا يمكن أن تدعيه الدعاية العربية، بعد أن صار بعض الاسرائيليين أنفسهم، وبينهم أساتذة جامعيين في داخل اسرائيل، يطرحون هذه المقارنة بين اسرائيل وجنوب افريقيا على الملأ وعلى المفتوح، في الآونة الأخيرة. فهذا هو الاستاذ شلومو آفنيري ـ أستاذ السياسة بالجامعة العبرية ـ فيما أوردت (الهيرالد تربيون) الذي وصفته بأنه قريب من السيد شمعون بيريز وزير الخارجية وزعيم حزب العمل الاسرائيلي، يناقش (آفنيري) انتفاضة الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، حيث أطلق (شبحاً) ـ فيما تصف الصحيفة ـ يهز كيان كثير من يهود اسرائيل، وقرر شلومو آفنيري أن اسرائيل قوية عسكرياً بما يكفي لاحتفاظها الى أجل غير مسمى، بقبضتها على الأراضي المحتلة، ولكنها لو اختارت ذلك، فإن الخمسة عشر عاماً المقبلة، سوف تكون مليئة بالاضطرابات تماماً مثل هذه الأسابيع الأخيرة، ثم (بقدوم عام ٢٠٠٠ سوف تكون صورتنا مطابقة لجنوب افريقيا العنصرية)[٢٦].

ومثلما ترفض سلطات جنوب افريقيا العنصرية، الاعتراف بمنظمة المؤتمر الوطني الافريقي[٢٧] ANC أو التعامل معه وتعتبره منظمة ارهابية، فإن السلطات الاسرائيلية تفعل نفس الشيء وتتخذ نفس الموقف من منظمة التحرير الفلسطينية، وتعتبرها منظمة ارهابية، وتحاربها بشتى الطرق، ولا تعترف بها ممثلاً شرعياً للشعب الفلسطيني.

إذن، فلتفعل جنوب افريقيا العنصرية ما تريد، ولتفعل اسرائيل ما شاءت، لكن إرادة الشعوب في الحرية وحقها في تقرير مصيرها ـ في جنوب افريقيا وناميبيا وفلسطين ـ لابد أن تنتصر في النهاية، مهما طال الزمن، ومهما كانت المصاعب، ومهما استبدت غطرسة القوة، فإن إرادة الشعوب ـ بكل تأكيد ـ أقوى من كل مزاعم العنصرية والصهيونية مهما كانت ترسانات السلاح في أيديهما.

وأخيراً: توصيات الورقة:

في ضوء ما جاء آنفاً في هذه الورقة، يمكن أن نقترح عدداً من التوصيات التي ربما كان الأخذ بها ـ أو ببعضها ـ مفيداً في التحرك العربي والفلسطيني، بالنسبة لقضيتي الصهيونية والعنصرية، في ارتباطها بالقضية العربية الرئيسية على المستوى السياسي.

أولاً: ضرورة الاستمرار في ملاحقة الصهيونية وكشف عناصر عنصريتها. وهنا لا يجب على الاعلام العربي والفلسطيني ـ بصفة خاصة ـ الاقتصار على النواحي الدفاعية، وردود الفعل اللاهثة وراء الحملات الدعائية الصهيونية، بل لابد من أخذ زمام المبادرة من خلال وضع الخطط الاعلامية المناسبة، من أجل تنوير الرأي العام المحلي والعربي والدولي،

بالطبيعة العدوانية للصهيونية، وما في الفكر الصهيوني من عناصر الاستعلاء وعقد التفوق العرقي، في مواجهة (الأغيار/ أو الجوييم) أو غير اليهود وخاصة ضد العرب والفلسطينيين.

ثانياً: العمل بكل الطرق، من أجل دعم قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الصادر عام ١٩٧٥، باعتبار الصهيونية نوعاً من العنصرية والتمييز العنصري، والحفاظ على قوة الدفع فيه وتطويره بمزيد من القرارات الدولية المكملة، حتى يمكن محاصرة الصهيونية وحصر دورها العنصري، حتى تتوقف الصهيونية عن عدائها السافر للعرب والفلسطينيين وتبريرها لكل أعمال القمع الاسرائيلي ضدهم، من منطلق شعارات كهنوتية تلفيقية وغير موضوعية، كل همها تقديم التنظير الايديولوجي الذي يبرر الحقيقية الاستعمارية الاستيطانية في فلسطين والأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة.

ثالثاً: ضرورة الاسراع في عملية تطوير شامل، لأجهزة الاعلام العربية والفلسطينية في الخارج، فكرياً وتقنياً، ومن حيث الامكانات التي يجب أن تتاح لها، حتى تستطيع القيام بالأعباء الملقاة على عاتقها، من أجل كسب الرأي العام الاجنبي لصالح قضايا العرب، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية في مواجهة افتراءات ومزاعم الصهيونية العالمية، ومشايعيها في تشويه الصورة النمطية العربية في أذهان العالم الخارجي. على أن يكون واضحاً لدى المخطط (أو المخططين) للاعلام العربي الخارجي، ضرورة مخاطبة قطاعات الرأي العام الدولي ـ على تنوعها ـ باللغة التي تفهمها، واللغة هنا بأوسع معانيها الحضارية والثقافية والفكرية والاجتماعية. . . الخ

لا يكفي أن يكون العرب (والفلسطينيون) أصحاب حق، لكي يكسبوا الرأي العام الاجنبي الى صفهم، ولكن لابد أن يتسلحوا بمقومات الاعلام العصري والحديث، بكل ما يعنيه ذلك، لأن للخصوم في ذلك باعاً طويلة وخبرة متراكمة عبر سنوات طويلة. والاعلام الحديث ـ كما هو معروف ـ ليس مجرد كم بغير نوعية، ولكنه توعية جيدة ومؤثرة قبل الكم.

رابعاً: ضرورة تركيز الاعلام العربي الخارجي على الربط المستمر ـ في رسالته الموجهة ـ بين المشروع الصهيوني الاستعماري الاستيطاني في فلسطين، وإبراز عنصريته، من جهة، والمشروع العنصري الاستعماري الاستيطاني في جنوب افريقيا وناميبيا من ناحية أخرى، وكشف مختلف أوجه عناصر الحلف العضوي، بين طرفي محور تل أبيب/ بريتوريا. والهدف الرئيسي المشروع من وراء ذلك، تذكير أشقائنا في القارة الافريقية، باستمرار أهمية العلاقة الارتباطية بين قضيتي التحرير وتقرير المصير، في كل من فلسطين

وجنوب افريقيا وناميبيا. وكذلك قطع الطريق أمام التغلغل الصهيوني في افريقيا، الذي يعمل على تكثيف تواجده السياسي والدبلوماسي فيها، تحت شعارات ومقولات زائفة بهدف خداع الأفارقة بمثل تلك الشعارات والمقولات، ودعاوى التعاون الافريقي الصهيوني، مع أن حقائق العلاقات الوثيقة بين تل أبيب وبريتوريا، لا يمكن إلا أن تكون ضد مصلحة الشعوب الافريقية، وضد قضايا التحرر والاستقلال فيها.

خامساً: تشجيع وشحذ عزيمة رجالات الفكر، والأخلاق والسياسة والقانون المناهضين للصهيونية والعنصرية، والرافضين لمقولاتها ونظرياتها، من خلال تنظيم الندوات والمحاضرات والمؤتمرات التي يدعو اليها هؤلاء، من أجل مزيد من تنوير الرأي العام الدولي. وهؤلاء كثيرون في جميع أنحاء العالم. وقد ينظر في إمكانية تشكل محكمة عالمية، لمحاكمة مجرمي الممارسات العنصرية القمعية في العالم يختار قضاتها من بين هؤلاء. وهنا يجب أن نذكر أن أشقاءنا الأفارقة قد سبقونا حينما نجحوا في التوصل الى تشكيل محكمة عالمية، لمحاكمة العنصرية في جنوب افريقيا، فحددوا تشكيل المحكمة، ومكان انعقادها ليكون في جزيرة (جوريه Goreé) بالسنغال، والتي تحدد موعدها في الشهور الثلاثة الأولى في العام ١٩٨٩.

سادساً: التصدي بطريقة علمية ومتعمقة لحملات المد الصهيوني، وكشف أساليب التهديد والابتزاز الصهيوني في مواجهة كل من يجرؤ على أن يقف ضد مزاعم الصهيونية العالمية، بأسلحة مثل أكذوبة عداء السامية وغيرها من الأكاذيب، وكيف أن الصهيونية من خلال ممارستها الحقيقية للعداء للعرب والفلسطينيين، قد أصبحت هي التي تمارس فعلاً العداء للسامية، إذ كان هناك اليوم ما يسمى بالعداء للسامية حقاً.

سابعاً: العمل من خلال الاعلام العربي والفلسطيني الموجه، على مداومة إثارة تحدي الديمقراطية المزعومة في اسرائيل، بالاستمرار في مطالبتها بأن تنفي ـ عملياً الطابع العنصري للدولة اليهودية، وكيف تحل اشكالية استحالة التزاوج بين الديمقراطية والعنصرية، اللتين لا يمكن التقاؤهما إلا في الخيال الصهيوني، دون غيره.

ثامناً: ضرورة الاهتمام بشكل جدي ـ وبصفة خاصة ـ بمدى فعالية الاعلام العربي والفلسطيني، وتحديث وسائل التحرك السياسي الاعلامي في المجتمع الامريكي، باعتباره المعقل التقليدي لجماعات الضغط الصهيوني.

قد تكون المهمة صعبة في البداية، لكن النجاح النسبي الملموس في هذا الصدد ليس

بالامر المستحيل.

وقد يكون من المهم هنا، إعطاء مزيد من الجهد والتمويل، لتنظيم جماعات ضغط عربية وفلسطينية، أكثر قوة في المجتمع الأمريكي، الأمر الذي يعتبر مشروعاً في إطار الدستور والقانون في الولايات المتحدة، من خلال استخدام عناصر واعية ومثقفة وعلى درجة عالية في الكفاءة، من الأمريكيين ذوي الأصول العربية، لموازنة قوة اللوبي الصهيوني هناك، مع تشجيع وتقوية القائم منها فعلاً، ودعوتها الى نبذ ما بينها من خلافات.

الحواشي

(١) كان (نيلوس) يعمل بالمخابرات القيصرية الروسية.

(٢) Protocols of the Learned Elders of Zion.

ووصلت نسخة من البروتوكولات باللغة الروسية، الى المتحف البريطاني ووضع عليها خاتم الاستلام العاشر في أغسطس (آب) ١٩٠٦، ولازالت النسخة محفوظة في ذلك المتحف، ومتحفظ عليها تحفظاً يحيطه قدر كبير من السرية والتكتم.

(٣) انظر: Lieut. colonel J. Creagh Scott, Hidden Goverment (London, Britons Publishing Society, 1969) P. 12.

وانظراً أيضاً:

Protocols of the Learned Elders of Zion, Translated from the Russian of prof. Milus by Victor E. Marsden, Pup-lished by Christian Educational Assn, New Jersey, U.S.A. (n.d.), P.4.

ولمزيد من التفصيلات حول موضوع البروتوكولات)، راجع: (للباحث) خالد محمود الكومي: (الوظيفة الدبلوماسية والدعاية الخارجية في ضوء التحدي الصهيوني)، رسالة الحصول على درجة الماجستير في العلوم السياسية من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، غير منشورة، القاهرة ١٩٧٧، من ص ٢٠٧ الى ص ٢١٠.

(٤) درج معظم الكتاب على استخدام تعبير: (قرار) الجمعية العامة (هكذا)، مع أنه من المعروف أن ما يصدر عن الجمعية العامة هي توصيات فقط، أما القرارات، فتصدر عن مجلس الأمن وحده في هيئة الأمم المتحدة. لذا لزم هذا التنويه، وإن كنا سوف نستخدم في هذه الورقة نفس تعبير: قرار الجمعية العامة، جرياً على ما درج عليه معظم الذين تحدثوا عن هذا الموضوع.

(٥) انظر: خالد محمود الكومي، (الوظيفة الدبلوماسية والدعاية الخارجية في ضوء التحدي الصهيوني)، م.س.ذ، ص٢٢٤ وما بعدها.

(٦) استقلت زيمبابوي (روديسيا الشمالية سابقاً) عام ١٩٨٠ وتحررت من الاستعمار الاستيطاني، وحكم الأقلية العنصرية البيضاء بزعامة إيان سميث، حيث نجحت القوى الوطنية (موجابي/ نكومو) في تحالفها في انتخابات عام ١٩٨٠ في مواجهة الاب موزيريوا ـ الذي كان عميلاً للقوى الاستعمارية ولجنوب افريقيا، والذي كان حصانها الذي راهنت عليه من أجل الابقاء على الأمر الواقع في روديسيا الشمالية، على ما هو عليه، في حالة نجاحه، الأمر الذي لم يتحقق.

(٧) انظر في تفصيل ذلك:

Bruno Kreisky' LÁutriche entre LÉst et LÓuest (paris: Editions Stock, 1979), PP. 79 - 90.

(٨) انظر للباحث: دكتور خالد محمود الكومي، (الاشتراكية الصهيونية بين الحقيقة والخيال والتزييف: دراسة نقدية

لتجربة الكيبوتز الاسرائيلي)، مجلة العلوم الاجتماعية (جامعة الكويت)، العدد الثاني، السنة الحادية عشر، يونيو ١٩٨٣ ص١٠٩.

وراجع في موقف كرايسكي من الصهيونية والمشكلة الفلسطينية، تفصيلاً: للباحث: خالد محمود الكومي، الدولة الاشتراكية والصراع العربي الاسرائيلي ١٩٥١ - ١٩٨٠، رسالة غير منشورة للحصول على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - ١٩٨٢، من ص٢٤١ الى ص٣١٨.

(٩) المرجع السابق مباشرة، ص٢٦٠.

(١٠) هذه النقابة أنشئت عام ١٩٢٧ كبديل لجمعية المحامين الامريكيين American Bar Association ويبلغ عدد أعضائها حوالي ٥ آلاف عضواً في الولايات المتحدة، وقد عرف عنها نشاطها في مجال الحقوق المدنية، وفي مجال التحرك ضد الحروب. وهناك بعض الذين يعتبرونها ضمن الجناح اليساري المتطرف في الولايات المتحدة.

(١١) أستاذ القانون الدولي بجامعة ولاية أوهايو.

(١٢) المصدر: Malta News, Wednesday, August 3, 1977.

(١٣) Mervyn M. Dymally ديمقراطي - عضو اللجنة الفرعية للشؤون الخارجية، وكان أول أمريكي أسود يزور اسرائيل عقب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣. وكان يشغل من قبل، منصب المساعد السابق لحاكم كاليفورنيا. كان معروفاً - في السابق - بموالاته لاسرائيل في الكونجرس، غير أن اللوبي الصهيوني انقلب عليه لسببين أولهما، ما لوحظ عليه من أنه كان يطرح أسئلة اعتراضية في لجنة الشؤون الخارجية بشأن المساعدات لاسرائيل، وثانيهما: أنه قابل السيد ياسر عرفات، مرتين، وهذا السبب الثاني، كان في نظر اللوبي الصهيوني هو الأسوأ الذي لا يمكن اغتفاره.

انظر في تفصيل ذلك:

بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، اللوبي الصهيوني وسياسات أمريكا الداخلية والخارجية، الطبعة العربية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦، ص١٢٢ وما بعدها.

(١٤) بول فندلي، المرجع السابق مباشرة، ص١٢٢.

ومع ذلك، يعتقد دايملي، أن الجو السياسي في الولايات المتحدة، يمكن أن يتحسن إذا أصبح المواطنون المنحدرون من أصل عربي، مفاتيح ضغط أكثر فاعلية، واقتنعوا بضرورة بذل الاموال في سبيل قضيتهم. ويقول أن مشاكلهم أنهم لا يعرفون كيف يطرحون مصالحهم على الكابيتول هيل (الكونجرس)... (فالجاليات العرقية الاجنبية لا تفهم أهمية اللوبي، ولا يبدو أنهم يعرفون الاحسان السياسي).

راجع: بول فندلي، المرجع الاسبق، ص١٢٢ - ١٢٣.

(١٥) انظر: الأهرام، ٢/٢/١٩٨٨.

(١٦) عبد المجيد فريد، (الانتفاضة الشعبية الفلسطينية - دروس وآفاق، حسابات جديدة للاجماع البريطاني)، الاهرام، ٣/٢/١٩٨٨.

(١٧) تيودور هرتزل، المذكرات الكاملة لتيودور هرتزل، ترجمة هاري دون، وتحرير روفائيل باتاي (نيويورك، هرتزل برس وتوماس يوسلوف، ١٩٦٠) الجزء الاول ص ٣٤٣.

نقلاً عن: دكتور عبد الوهاب المسيري، نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني، (القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الاهرام ١٩٧٣)، ص ١٠١ - ١٠٢.

(١٨) يوميات هرتزل، اعداد أنيس صايغ وترجمة هلدا صايغ (بيروت، مركز الابحاث الفلسطينية، ١٩٦٨)، ص ٢٥٠.

نقلاً عن: د. عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق مباشر، ص ١٠٢.

(١٩) الفريد ليلنتال، ثمن اسرائيل (شيكاغو، هنري رجنري كومباني، ١٩٥٣)، ص ٢٢

نقلاً عن: الدكتور المسيري، المرجع السابق، ص ١٠٢.

وانظر أيضاً: خالد محمود الكومي، الوظيفة الدبلوماسية والدعاية الخارجية، م. س. ذ. ص ١٣١ ومابعدها.

(٢٠) راجع في ذلك تفصيلا: د. عبد الوهاب المسيري، م. س. ذ. ص ٧٠ ومابعدها.

(٢١) دكتور خالد محمود الكومي، (الاشتراكية الصهيونية بين الحقيقة والخيال والتزييف دراسة نقدية لتجربة الكيبوتز الاسرائيلي) م. س. ذ. ص ١٠٠.

(٢٢) د. عبد الوهاب المسيري، م. س. ذ. من ص٩٧ الى ص ١٠٠.

(٢٣) المرجع السابق مباشرة، ص٨ - ٩.

(٢٤) السفير / عبد الحميد عبد الغني، التسامح الديني وحقوق الانسان، وليم سليمان قلاده وحسين أحمد أمين ومحمد المسيهاري وآخرين، التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات (القاهرة: سلسلة حوار الشهر، اتحاد المحامين العرب، ١٩٨٦)، ص ٨٤.

(٢٥) انظر في ذلك تفصيلا:

خالد محمود الكومي، الوظيفة الدبلوماسية والدعاية الخارجية في ضوء التحدي الصهيوني م. س. ذ، ص ٤٤ ومابعدها.

(٢٦) عن تهمة العداء للسامية، يقول بولي فندلي في كتابه: من يجرؤ على الكلام: (وتهمة العداء للسامية مزعجة، لاسيما وأن استخدامها يزداد اتساعاً، فهذا بن ميد، رئيس التجمع الامريكي، لليهود الناجين من محرقة النازية يقول (قبل سنوات كانوا يقولون انه عداء للسامية. أما اليوم فيقولون انه عداء للصهيونية، والواقع أن العبارتين مترادفتان. وبعبارة أخرى، وحسب تعريفه، فانك إذا كنت ضد اسرائيل فأنت ضد اليهود جميعاً.

وعبارة معاداة السامية، حسب استعمالها الأخير، لاتمت بصلة إلى الأصل العرقي أو الديني، ولاتدل على شيء أكثر من رفض المصادقة على كل قرار سياسي تتخذه حكومة اسرائيل، لذلك فهي لم تعد تعني تلك الظاهرة الاجتماعية الحسية - أي اللا سامية الكلاسيكية - بل أصبحت تهمة يستخدمها المؤيدون لاسرائيل كسلاح. ومع أنها لم تعد تستعمل كوصف للتعصب العرقي أو الديني، الذي أضفى عليها أصلاً معناها، فقد تبين أكثر مؤيدي اسرائيل حماسة أن مجرد الاتهام باللاسامية يكفي لاسكات المنتقدين، وكانت هذه التهمة عاملاً قوياً في خنق مناقشة النزاع العربي الاسرائيلي، وحملت الكثيرين في الولايات المتحدة، من دينيين وعلمانيين، على مراقبة خطبهم ليس على أساس الحقيقة وإنما على كيفية تأويل ملاحظاتهم من جانب فريق معين له مصلحة قوية في إسكات المنتقدين - أي اللوبي المؤيد لاسرائيل.

راجع: بولي فندلي، م. س. ذ، ص٥١٢

(٢٧) كتاب بولي فندلي، من يجرؤ على الكلام، مليء بأمثلة عديدة، من ضحايا عديدين من أعضاء الكونجرس السابقين الـذين حاربتهم الصهيونية، حتى بعد خروجهم من الكونجرس، لمجرد أنهم وقفوا الى جانب المصالح الأمريكية، وحذروا من مغبة الاندفاع وراء اسرائيل في الشرق الاوسط، وتقديم المعونات والمساعدات لها بغير حدود.

(٢٨) انظر في تفصيلات ذلك:

د. خالد محمود الكومي، مصر وقضايا الجنوب الافريقي، (كتاب تحت الطبع) في سلسلة تاريخ المصريين - القاهرة (من المنتظر صدوره هذا العام ١٩٨٨).

النزعات الاقليمية في ندوة سوفييتية - أمريكية

ترجمة: ع . ف

نشرت مجلة «شؤون دولية سوفييتية» في عدد نوفمبر ١٩٨٩، نص الندوة التي شاركت فيها المجلة ومعهد نيويورك، لدراسات أمن الشرق والغرب، حول موضوع النزعات الاقليمية، في اطار المؤتمر الدولي الموسع، الذي عقد في واشنطن في الصيف الماضي، لمناقشة المسائل الضاغطة المتعلقة بتعزيز الاستقرار العالمي، في عالم متعدد الاقطاب.

وقد شارك في الندوة كل من:

- لي هاملتون:

عضو الكونجرس، رئيس لجنة أوربا والشرق الأوسط الفرعية، بمجلس النواب الامريكي.

- روبرت ماكنمارا:

رئيس سابق للبنك الدولي، وزير دفاع امريكي سابق.

- لوريس بياديشيف:

رئيس تحرير مجلة شؤون دولية السوفييتية.

- جون مروز:

مدير معهد نيويورك لدراسات امن الشرق والغرب.

- لنكولن بلومفيلد:

استاذ العلوم السياسية بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا.

وهيئة تحرير الكاتب الفلسطيني، إذ تقدر اهمية الافكار المطروحة، تقوم بنشرها إنطلاقاً من الفائدة التي تعود على المهتمين بالموضوع المطروح.

انتقال مركز الخطر الى العالم الثالث

● بياديشيف: لماذا النزاعات الإقليمية؟

على الرغم من إحتفاظ أوربا بأهميتها الرئيسية، في الإهتمامات السياسية والإستراتيجية لكل من الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، الا أن العالم الثالث فعلياً هو المسرح الوحيد للحروب والأزمات الحادة، وبالرغم من وقوع بعض الأحداث، التي أخذت في بعض الأحيان، تطورات دراماتيكية في أوربا، الا أنها لم تعرف خلال عقود مابعد الحرب العالمية، أية نزاعات مسلحة، بينما استمرت الأزمات في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية، في كامل قوتها ولم تفقد حدتها.

أريد أن أشير إلى تقرير عام ١٩٨٨، الصادر عن معهد واشنطن للأولويات العالمية، الذي يبين وقوع ٢٥ حرباً في تلك الفترة (١٩٨٨)، وهذا أكثر من أي وقت سابق، لقد فقد في هذه الحروب، ثلاثة ملايين شخص معظمهم من المدنيين، وبذلك يكون اجمالي خسائر مابعد الحرب العالمية الثانية، حوالي ١٧ مليونا شخص، قضوا في نزاعات عسكرية، وقعت كلها في العالم الثالث، الذي كان مركز الخطر ينتقل إليه.

لقد أشارت مجلة شؤون دولية مراراً في مقالاتها، إلى أن الشرق والغرب قد أرسيا خلال العقود الأخيرة، آلية للتفاعل بينهما، قللت كثيراً احتمال قيام مواجهة عسكرية

مباشرة، أو أزمة غير مسيطر عليها بينهما.

وفي هذا الإطار، وجدت عدة عوامل كابحة، مثل، توازن الأسلحة، نظام تحالفات يصون الأمن، شبكة مفاوضات متنوعة لنزع السلاح، مشاورات سياسية.. الخ. ان التكهن بالأحداث في العالم الثالث، مسألة ذات عوامل كامنة عديدة.

● **مكنمارا**: في اعتقادي أن لدى الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتي الآن، أعظم فرصة منذ أربعين سنة، لنقل الأساس الذي يحكم سياستها الخارجية والدفاعية من فكرة «الحرب الباردة»، إلى نظرة جديدة لعلاقات الدول العظمى، ان تلك الفرصة، موجودة في عمل «التفكير الجديد»، الذي أدخله غورباتشيف، والذي يحدد على الأقل، ثلاثة مفاهيم تتعارض بقوة مع المفاهيم الماركسية، اللينينية، والسوفييتية التقليدية وهي:

١ ـ إن مصالح أمن دولة ما، يجب أن تتأمن عبر الدبلوماسية، وليس بواسطة التهديد العسكري أو إستخدام القوة.

٢ ـ إن أمن دولة ما، لايمكن ضمانه على حساب أمن الآخرين، وبالتالي فإن الأمن لايمكن تحقيقه من طرف واحد، بل يجب تعزيزه بالتعاون مع الدول الأخرى.

٣ ـ إن المنظمات الدولية، والجهود الثنائية، تستطيع أن تساعد في حل المشكلات الإقليمية والعالمية.

كيف علينا أن نطبق «التفكير الجديد» في عالم الغد؟

لانستطيع أن نتوقع أننا سنعيش في عالم بلا صراع، فسوف يظل هناك صراع، بين الجماعات المختلفة داخل الدول، والصراع سوف يمتد عبر الحدود الوطنية.

إن الإختلافات العنصرية والعرقية سوف تبقى، والثورات السياسية سوف تتفجر كلما تقدمت العلوم، والنزاعات التاريخية حول الحدود السياسية سوف تستمر، والفوارق الإقتصادية سوف تزداد بين الدول، مع الثورة التكنولوجية المنتشرة بتفاوت في القرن ٢١.

● **هاملتون**: لقد أدى الوفاق الأمريكي السوفييتي، ومتطلبات إعادة البناء للإقتصاد السوفييتي، إلى تخفيض حدة التوتر بين القوى العظمى، وإلى تخفيف في السياسة الخارجية السوفييتية، حيث أظهر السوفييت، قدراً كبيراً من التحفظ في دعمهم للعملاء الإقليميين، وأصبحوا أقل استعداداً، لإستثمار الأوضاع الإقليمية غير المستقرة لمصلحتهم الخاصة:

ـ هذه الإتجاهات في العلاقات الأمريكية السوفييتية، أدت مع النمو الحالي في نفوذ وسمعة الأمم المتحدة، إلى آثار إيجابية في أوضاع النزاعات الإقليمية.

ـ خلال العامين الماضيين، أمكن تسوية نزاعات إقليمية مزمنة، في كل من جنوب إفريقيا وأفغانستان.

ـ هناك نزاعات إقليمية أخرى، تتجه الآن نحو التفاوض، وبعض التسوية كما في الحرب العراقية ـ الإيرانية، ونزاعات الهند وأمريكا الوسطى.

● **بلومفيلد**: لم يكن صحيحاً أبداً، مازعمه رونالد ريغان عام ١٩٨٠ من أنه «لو لم يكن هناك الإتحاد السوفييتي، لما كانت هناك نقاط ساخنة حول العالم» فالنزاعات الإقليمية مازالت مستمرة في التصاعد، وعدم الإستقرار الأصلي، والإقتتال المحلي سوف يتأثر في حدود، بإتفاقيات الدول العظمى حول مراقبة التسلح ونزع الأسلحة.

ويمكن القول، أن النصف الثاني من القرن العشرين قد تميز بأربعة أنماط من الصراعات:

الصراعات الإستعمارية، الصراعات الثنائية، الصراعات الداخلية الصرفة، الصراعات الداخلية مع تورط خارجي كاف.

● **بيادشيف** إن التوسع في التعامل السوفييتي الجديد، مع المسائل الدولية، وبضمنها مسألة التعامل مع النزاعات الإقليمية، في عالم متعدد الأقطاب، يتجاوب مع عمليات البيريسترويكا، الجارية عميقاً في المجتمع السوفييتي الآن.

نحن مقتنعون أن عملية «الدمقرطة»، و«علنية» صناعة القرار في السياسة الخارجية، سوف تتطور على نحو أبعد، وعلى شركائنا أن يعلموا، أن الدبلوماسية الوطنية، إنما تنمو وتعمل في محيط محلي جديد، في ظل نظام ديمقراطي وشرعي جديد.. فالقيادة السوفييتية اتخذت، موقفاً نهائياً في إقامة علاقات داخلية غير مؤدجلة.

إن التغييرات نحو الأفضل، الناتجة عن التفكير السياسي الجديد، قد وجدت طريقها في السنوات الأخيرة، في العالم ككل وفي المناطق الإقليمية المنفردة، فلا يوجد تهديد مباشر بالحرب النووية، وقد بدأ الأوروبيون يقلصون إمكانية المواجهة النووية، الأكثر خطورة في العالم، ونحن جاهزون للعمل مع الولايات المتحدة، على أساس متفق عليه وثابت، وأن نتحرك إلى الأمام بإستمرارية مفعمة بأفكار جديدة.

لقد سحب الإتحاد السوفييتي قواته من أفغانستان، وبدأ بسحب قواته من أراضي حلفائنا، وسوف لن نتراجع عن سياسة فلاديفستوك تجاه منطقة الباسيفيك الآسيوية، لقد طابقنا بين البرنامج والأسلوب في علاقاتنا مع بلدان عديدة.

إنها النوايا الطيبة، والبنائية، والإحترام المتبادل.

● **مروز**: بينما كانت أوربا، تتمتع بأطول فترة من السلام المتواصل في التاريخ المعاصر، فإن التنافس الشرقي ـ الغربي، كان يجري في ساحات العالم النامي، وبالرغم من اللغة الرنانة التي استخدمها الجانبان (الشرق والغرب)، فإنهما كانا معنيين أكثر، بحسابات التوازن بين الإنتصارات والهزائم في مواجهة بعضهما البعض، أكثر من العمل على حل الأسباب الجذرية، للنزاعات أو تخفيض مستوى العنف وتعزيز العدل الإجتماعي.

لقد كان القادة (في الجانبين) يفتخرون بالتصديات والإنجازات، وبتبدلات إرتباط القوى المعنية، وكان العالم الثالث، عبارة عن «لوحة تهديف» للتنافس بين القوتين

العظميين، وعقائدهما المتعاقبة.

يقول مثلٌ سواحيلي «عندما يتصارع فيلان فإن الأعشاب تتألم» وهذا وصف مناسب لصراعات عديدة جرت في الشرق الأوسط وأمريكا الوسطى وأفريقيا وآسيا خلال الـ ٤٥ سنة الماضية.

بيد أن معظم هذه النزاعات كانت طبيعية في البداية إلّا أن القوى العظمى كانت قادرة على إستغلالها، وتحقيق فوائد سريعة منها، عبر مساعدة هذا الطرف أو ذاك.

لقد وجدت حالات، كانت القوى العظمى فيها تدير العملاء المحليين كالصراع الأثيوبي ـ الصومالي، وفي حالات أخرى، كانت القوى العظمى قادرة على تنظيم إنقلابات عسكرية.

ورغم أن الأدب الحالي، غنيٌ في دراساته، إلّا أن أبناء العالم النامي مازالوا الأكثر فقراً.

إن الأسئلة الهامة، التي نحتاج أن نسألها لأنفسنا هي:

ماذا تعلمنا ـ في الشرق والغرب ـ من تجربتنا؟

وماذا ننوي عمله، لتغيير سياساتنا والتزاماتنا؟

إن الدولتين العظميين، تستطيعان التأثير على بعض النجاحات المحدودة، أو المؤقتة في سياق المنافسة الصريحة بينهما، عبر مساندة هذا الجانب أو ذاك، في نزاعات العالم الثالث، إلّا أن النتائج الإجمالية لكل منهما، كانت ذات حصيلة عكسية على المدى الطويل، وبالتدريج، فإن الدول العظمى، ستجد نفسها غير قادرة على التأثير، والسيطرة المطلقة على الأحداث في الصراعات الإقليمية.

إن التكاليف التي دفعها الجانبين، (لهذا التورط) خاصة تلك التي دفعها الإتحاد السوفييتي، نتيجة ممارسة ماقبل «التفكير الجديد» في سياسته الخارجية، ـ قد فاقت إلى حد بعيد المكاسب السياسية والإستراتيجية.

● **بلومفيلد**: إن الأكثر إثارة، كان مراجعة السياسة السوفييتية المتبعة منذ زمن، والتي جرى تفصيلها في بيانات غورباتشيف غير العادية، في الأمم المتحدة عامي ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨، لقد تجلت بلاغة هذا «التفكير الجديد»، ليس فقط في دعم قوات حفظ السلام الدولية، بل أيضاً في إعادة الحياة إلى جهاز الأمم المتحدة، للتعامل بصلاحية، مع القضايا الذرية والإقتصادية والبيئية.

● **بياديشيف**: إن كل ذلك أخبار طيبة، لكن مازالت هناك أخبار سيئة أيضاً، وسوف يبدو، أن درجة عدم الثقة المتبادلة في عالم اليوم، هي أقل مما كانت عليه في ذروة الحرب الباردة، لكن مخازن الأسلحة التدميرية في الحاضر، مازالت تتجاوز كثيراً، كمية الأسلحة المتوفرة في الفترة السابقة.

الحوار

. للأسف ليس كلنا قد تخلى عن إدعاءاته، بأنه القاضي والحكم، ويُعتقد أن إدعاء البعض، بأن بلده هي «مثال الديمقراطية»، يعطيه الحق، في أن يفرض بفروسية إحتكاره لصياغة أو تشريع التوصيات، بكيفية إدارة البلدان الأخرى لشؤونها الداخلية، وبأي أنماط التطور السياسي والإجتماعي والإقتصادي، عليها أن تختار.

● **مكنمارا**: في سنوات مابعد الحرب العالمية، إمتلكت الولايات المتحدة القوة، (وإلى درجة معقولة مارستها) لتشكل العالم كما تريده، من الواضح، أن العلاقات بين الدول في القرن ٢١ ـ، وبصرف النظر عن أعمال السوفييت والأمريكيين ـ سوف تختلف دراماتيكياً، عما كانت عليه في عقود مابعد الحرب.

إن الصراعات داخل الدول وبينها لن تختفي، لكن كم سيكون هذا العالم مختلفاً، فيما لو وافقت القوى العظمى على نقطتين:

الأولى: ألا تسعى هذه القوى العظمى، إلى الإستفادة من تلك الصراعات لكي تزيد أو توسع قوتها السياسية والعسكرية خلف حدودها.

الثانية: أن تكون علاقاتها الثنائية، خاضعة لقواعد السلوك التي تحول دون إستخدام القوة.

في القرن القادم، إذا إنتهت الحرب الباردة أم لم تنته، فإننا سنعيش في عالم متعدد الأقطاب، وسياستنا الخارجية، وبرامجنا الدفاعية يجب أن تعدَّل، وفقاً لتلك الحقيقة. لقد رأينا صعود اليابان، وعلينا أن نتوقع منها، أن تلعب دوراً أكبر وأكبر على المسرح العالمي، تمارس قوة سياسية أعظم، وتتحمل مسؤولية سياسية وإقتصادية أكبر، ونفس الشيء بخصوص أوربا الغربية، التي ستقفز خطوة عملاقة نحو إندماجها الإقتصادي عام ١٩٩٢، مما يجعلها مهيئة لتحقيق وحدة سياسية أعظم، ستقوي بدورها سلطة أوربا في سياسات العالم.

في أواسط القرن القادم هناك بلدان عديدة ـ نعتبرها اليوم كعالم ثالث ـ سوف تزداد حجماً وقوة إقتصادية، لكي تصبح شريكة رئيسي في إتخاذ القرارات المؤثرة في العلاقات بين البلدان: فالهند سيصبح عدد سكانها ١,٦ مليار، ونيجيريا ٤٠٠ مليون والبرازيل ٣٠٠ مليون. والصين إذا إستطاعت أن تحقق أهدافها الإقتصادية لعام ٢٠٠٠ وإذا تحركت إلى الأمام في الخمسين سنة التالية، ضمن معدلات نمو مُرضية وليست إستعراضية، فإن معدل دخل الفرد من سكانها الـ ١,٧ مليار، سيكون عام ٢٠٥٠ مساوياً لما في بريطانيا عام ١٩٦٥، كما أن إجمالي إنتاجها الوطني، ربما سيقارب مالدى الولايات المتحدة أو أوربا الغربية أو اليابان، وسيفوق مالدى السوفييت على الأغلب.

هذه الأرقام بالطبع تدعو للتأمل كثيراً، وقد أشرت إليها ببساطة، لأؤكد على إتجاه التغييرات المنتظرة، وإلى الحاجة إلى البدء حالاً في تعديل أهدافنا وسياساتنا ومؤسساتنا لكي تتلائم معها.

في عالم متعدد الأقطاب كهذا، لا الولايات المتحدة، ولا الإتحاد السوفييتي، سوف يكونان قادرين على السيطرة تماماً على مجالاتها الحيوية كما الآن، ولن تكون المكاسب متجاوزة للتكاليف، حتى فيما لوكانت ممكنة.

مع أو بدون التغييرات في العلاقات بين الشرق والغرب، فإن على الأمريكيين والسوفييت، الإستعداد لإعادة موضعة أنفسهم، سياسياً للأدوار الجديدة في عالم جديد.

● مروز: إننا نشاهد اليوم ولأول مرة، منذ سنوات عديدة، قدراً كبيراً من الواقعية في إدارة كل من الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، للصراعات الإقليمية وفي التعامل مع العالم النامي.

على الأغلب، نستطيع أن نسمي الفترة الراهنة، «فترة الإنتقال» من المواجهة إلى التعاون، وعلينا ألاّ نخدع أنفسنا بالإعتقاد، إن هذه الفترة الإنتقالية ستكون سهلة لأي من البلدين، لأن مخلفات أكثر من أربعة عقود من التنافس، لن تختفي بسرعة، لا من خريطة العالم النامي، ولا من ذكريات الكثيرين في الشرق والغرب والعالم النامي. وسيكون صعباً أكثر على الطرفين، تعديل سياستهما التقليدية، وتغيير السلوك العزيزي، الذي إعتاد عليه قادة البلدين، في رد فعلهم على الأحداث التي تقع في العالم الثالث، وسيجد الأمريكيون والسوفييت، إن تغيير تصرفهم تجاه الصراعات الإقليمية، أكثر صعوبة في الممارسة منه في القول.

لقد أعلن الرئيس جورج بوش، في وقت مبكر من هذا العام، نهاية «سياسة الكبح» الأمريكية، التي حكمت - إلى حد كبير- أفعال الولايات المتحدة ونظرتها، في التعامل مع نزاعات العالم الثالث، لأكثر من أربعة عقود.

لقد دعا السيد بوش المرحلة الجديدة بمرحلة «مابعد الكبح»، وليس من الواضح حتى الآن ماذا تعني «مرحلة مابعد الكبح» في القاموس السياسي.

إن كبار موظفي ومستشاري الإدارة، يبدون - بشكل شخصي -، حذرهم تجاه مراجعة السياسة الأمريكية في العالم الثالث، ورغم أنهم يرحبون بصدق بالإصلاحات الراديكالية في السياسة الخارجية والداخلية، التي أقدم عليها السوفييت، الاّ أنهم قلقون من عملية المراجعة الأمريكية، إنهم يشعرون بعدم الإرتياح في اتخاذ القرارات، التي تعكس الإنتقال الدراماتيكي، في طريقة دفاع الولايات المتحدة عن مصالحها التقليدية في العالم الثالث، إنهم حذرون من التغييرات، خصوصاً عندما لايكونون مقتنعين، بأن النضال العسكري الإيديولوجي في النزاعات الإقليمية قد انتهى بالفعل.

هؤلاء الموظفون أنفسهم أظهروا ميلاً لطلب الحوار، ولعلاقة أكثر تعاونية مع الإتحاد السوفييتي، لكن ليس إلى الحد الذي يسمح للمرء أن يدعو الفترة الحالية، بمرحلة التعاون في التعامل مع النزاعات الإقليمية.

● بياديشيف: مع استمرار النقاش، فإننا ندخل الآن إلى جذور النزاعات الإقليمية، وإلى حاضر الأزمات ومستقبلها.. إن السبب التقليدي للنزاعات والحروب، قد عُرف إلى حد كاف، مشاكل التطور الإقتصادي، بما فيها الظروف الإجتماعية في العالم الثالث، المتمثلة بالجوع، وبإتساع الهوة بين العالم المتقدم والعالم النامي، إضافة إلى المسائل البنيوية والمالية.. وغيرها التي ليست أقل أهمية، وما إذا كان هناك ماهو أكثر خطورة، على الإستقرار العام ومستقبل البشرية، من العمليات السياسية العسكرية.

وعلى كلٍ، فإن تجربة التطور السريع والناجح في عدد من بلدان آسيا وأمريكا اللاتينية وحتى افريقيا، بما فيها من تقدم ملحوظ في حل مشاكل التغذية، في بلدان مكتظة السكان كالهند والصين، يبطل التقديرات التنبؤية، التي قدمها الكثيرون، لكن الموقف على كلٍ يبقى معقداً على أقل تقدير.

● هاملتون: المصادر الطبيعية، ستكون أيضاً سبباً في نزاعات المستقبل الإقليمية، فنقص المصادر (النفط المستخرج، والمعادن الإستراتيجية النادرة، والمصادر المائية في الشرق الأوسط، والأخشاب في جنوب أمريكا وجنوب شرق آسيا) سوف تستثير نزاعات جديدة، وكلما جعل التقدم التكنولوجي ممكناً استثمار المصادر الأخرى (كالمعادن في قاع البحار) فإن بلداناً ستجد نفسها متورطة في نزاعات الوصول إليه، والسيطرة عليها.

إن اللاجئين كذلك، وترحيل السكان يمكن أن يسبب النزاع، فالتدفق الجماعي للسكان نتيجة للإضطهاد السياسي أو الحرب أو الضغط الإقتصادي، سيجلب عدم الإستقرار في جنوب شرق آسيا، وجنوب افريقيا، والقرن الإفريقي.. إن أسباب هذه الهجرات الجماعية مازالت مستعرة.

● بلومفيلد: إن النزاع ملازم لكل عمليات التحول الإقتصادي والإجتماعي والسياسي، ويمكن قراءة الإشارات التحذيرية، في أكثر من مكان، في جهود إيران العاصفة لمراجعة عمليات التحديث والتغريب والتصنيع.

وفي الأخير، فإن مقولة دانتون، بأن الثورة تلتهم أولادها، قد أثبتت صحتها في عدد من الأقطار، ليس أقل مما كانت عليه عند روبسبير(*)، مع ضحايا مستقبلية أخرى، ليس صعباً التكهن بها.

● بياديشيف: إن حالة مجال البيئة في البلدان النامية، ستخلق وهي تخلق تأثيراً كبيراً في المجموعة العالمية.. فقد بدأ العالم الثالث يبدي إهتماماً حول حالة البيئة، لكنه غالباً ماتعوزه المهارات الضرورية، وكذلك المصادر لتطبيق الإجراءات البيئية، وهذا الوضع كثيراً مايدفع (هذه الأقطار - حيث الغابات المدارية تدمر، والتكنولوجيا القذرة تتوالد -، للركون

إلى تفسيرات طبقية وإتهامية للموضوعات البيئية.

إن البيئة مجال حديث نسبياً للتعاون الدولي، ولذا فهو يعاني قليلاً من ثقل الإتجاهات التصادمية، مما سيكون عاملاً مساعداً، فالرقابة البيئية يجب أن تكون أمراً عالمياً، وبالرغم من تعقيداتها، فإن التعاون البناء والفعال، يمكن أن يشكل مثلاً لكل المجموعات الدولية، ومن الأهمية بمكان، منع هذا الحقل من أن يصبح ميداناً للمضاربات السياسية والإيديولوجية.

● **هاملتون**: إن مشكلات البيئة المتسبب بها الإنسان، تنتشر الآن بإنتظام عبر الحدود الوطنية، وإن الخوف الشديد من أخطار التلوث البيئي، جعل أخطاراً بيئية محددة، قادرة على إثارة النزاعات الثنائية والإقليمية.

لقد جرى التعامل بوعي كبير بين الولايات المتحدة وكندا، لتسوية مشكلة تدفق الأحماض في شمال أمريكا، لكن من المتخيل، إن إنفجار نزاع مماثل، بين بلدان أقل صداقة، يمكن أن يسبب مواجهة أكبر. كما أن الحوادث الصناعية، كتلك التي وقعت في فوبال ـ الهند يمكن أن تقود إلى توترات ثنائية، في حالة لوكانت الدول المتورطة في الإستثمارات متجاورة، كذلك فإن حوادث المعامل النووي، كذاك الذي وقع في تشيرنوبل، لو كان وقع في دول أصغر من الإتحاد السوفييتي، لسبب تسرباً قاتلاً عبر الحدود الوطنية مثيراً رداً غاضباً.

● **بياديشيف**: لازال العالم الثالث يشكل حتى اليوم، المصدر الرئيسي لمأساة أخرى، هي الإرهاب، إن الحل العملي والصحيح الوحيد، الذي تستطيع المجموعة الدولية أن تقدمه، لمنع الأحداث الإرهابية من أن تصبح كابوساً يومياً، هو أن تطور سياسة «عدم التسامح الفورية» تجاه الإرهاب، وخاصة تجاه السياسات الرسمية المحامية له.

ان الصمت او ردود الفعل الباردة، الصبورة على مظاهر الارهاب، واكثر من ذلك الدعوات الصريحة، للجوء اليه على المستوى الرسمي، لايمكن ان يفسر من قبل الذين يمارسون الارهاب، وهؤلاء الذين يعانون منه، الاّ تشجيعاً للسياسة التي تعترف للارهاب بشرعيته.

ان حقوق الانسان والديمقراطية السياسية، تشكل واحدة من اكثر المشاكل تعقيداً في العالم الثالث، فبدون سيطرة الديمقراطية الداخلية على الحكومة، وبدون الحريات الاساسية كحرية الاعلام وحرية التعبير، وبدون الانتخابات التي تجري تحت الاجراءات التي لايستطيع احد التشكيك فيها، سيكون من الصعوبة بمكان، التوصل الى تسوية صادقة للنزاعات الاقليمية، ووقف سباق التسلح الاقليمي وبناء الحد الأدنى من الثقة بين الدول.

إن بلداناً عديدة في العالم الثالث، تتجنب النقاش التفصيلي لهذه الموضوعات بحجة

أنها، أما تدخلٌ في الشؤون الداخلية أو عمل تجسسي، ومن الطبيعي، لايمكن تحويل مجتمعات تلك الدول إلى ديمقراطية أو مفتوحة بالقوة، وسوف يكون من الخطورة الشديدة بمكان محاولة فعل ذلك، ومع ذلك فإن موقفنا السياسي والأدبي تجاه هذا الموضوع، يجب أن يكون واضحاً ومتماسكاً.

إن الديمقراطية والإنفتاح ليسا أمراً لايمكن تحاشيه، لكنها أساس للتطور والأمن الإقليمي والعالمي.

● **هاملتون**: إن الدعوة الإيديولوجية ـ الدينية ذات الصفة «عبر الدولية»، كالأصولية الإسلامية، يمكن أن تشكل قلقاً للحكومات القائمة، إن كيفية التعاطي الحكومي، مع المسائل العابرة للحدود الوطنية، سوف يؤثر على النزاعات الإقليمية.

● **بياديشيف**: من الصعب على المرء الاّ يوافق على ذلك إن صعود الأصولية الإسلامية، كما إنبثاق القومية «المقاتلة» في أماكن مختلفة من العالم الثالث، تظهر إن تلك ليست بحوادث منفصلة، وإنما هي تعبير صارخ عن ظاهرة منتشرة على نطاق واسع، تتمثل بمعارضة قيم أوربا وشمال أمريكا حول مسائل الخير والشر، وحتى رغم التطور الإقتصادي الملحوظ، لبعض الدول فإن «تغريبها» لايمنع إنبثاق الأحاسيس الشرقية «القرو ـ وسيطة»، المستندة إلى التقاليد الثقافية للمجتمع.

● **مروز**: لقد عبر بعض الزعماء المحللين في العالم النامي، كذلك العديد من المعلقين الأوربيين عن مخاوفهم من خلق تحالف جديد، بين أكبر قوتين عسكريتين في العالم، تجاه المناطق الإقليمية.

لقد قيل أنه «عندما يمارس فيلان الحب فإن الأعشاب تعاني أيضاً».

إن زملاءنا في العالم الثالث، بحاجة إلى الاّ يفقدوا القدرة على النوم بسبب هذه الإمكانية، لكن المصالح السياسية والإقتصادية والجيواستراتيجية لكل من الإتحاد السوفييتي وأمريكا، مازالت مختلفة إلى حد بعيد، كما أن درجة عدم الثقة مازالت عالية، لضمان أي حديث حول «يالطا جديدة». . إضافة إلى ذلك فإن نمو نظام دولي معقد ومتعدد الأقطاب، لم يعد يسمح بهكذا تحالف.

إن مبيعات السلاح الحديث أصبحت الآن مشكلة جنوبية ـ جنوبية (الصين، الهند، البرازيل، اسرائيل، جنوب افريقيا)، كما هي شرقية ـ غربية، وشمالية ـ جنوبية.

● **بلومفيلد**: من الممكن أن تصبح النزاعات المحلية هامشية التأثير على السلام والأمن الدولي، لكن ذلك الإتجاه يمكن أن يتراجع، إذا ماقرر أحد الأطراف المتحاربة، اللجوء لإستخدام الأسلحة النووية، ومن بين المتحاربين الحاليين يعتقد أن الهند وإسرائيل وجنوب إفريقيا، هي التي تمتلك تلك الإمكانية الآن، أما غداً فربما تضم القائمة، كلاّ من باكستان والعراق وليبيا وسوريا وإيران والبرازيل وكوريا (وذات يوم نتخيل ألمانيا ومالذلك من تأثيراته

غير المتوقعة على أمن أوربا).

إن القادة المصممين، وبقليل من الخبرة في شؤون الحرب الحديثة أو بخبرة محدودة في تأثيرات الحرب النووية، ربما لايسعون فقط لإمتلاك أسلحة نووية، بل أيضاً لديهم الرغبة في استخدامها، كما النزاعات المحلية، سوف تصبح أكثر سوءاً بإدخال صواريخ أرض ـ أرض، من القصيرة حتى المتوسطة المدى، والمتوفرة بشكل ملحوظ في الشرق الأوسط وجنوب آسيا.

● **هاملتون**: هناك إنذار حاد وأخير، ومصدر قوي لعدم الإستقرار الإقليمي، يتمثل في تكاثر الأسلحة المهلكة الحديثة. إن الأكثر إثارة في هذا الشأن، الصواريخ ذاتية الدفع «البالستية». والأسلحة البيولوجية والكيماوية والذرية التي تستطيع حملها. والتي انتشرت كثيراً على وجه الخصوص، في الشرق الأوسط، وامتلكها بلدان تشكو المظالم الطويلة أو النزاعات المتواصلة مع جيرانها.

إن إمتلاك المزيد من هذه الأسلحة في حد ذاته، أمر مثير لعدم الإستقرار، وكما رأينا في الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيرة، فإن الدول تلجأ دائماً إلى تجاوز قوى خصومها الإقليميين، مسببة في سباق تسلح غير مستقر.

إن تكاثر هذه الأسلحة الجديدة، والممانعة الضعيفة لإستخدامها، تضيف عنصراً كارثياً قوياً إلى الصراعات ذات الأصول المختلفة، وقد كان استخدام الصواريخ والأسلحة الكيماوية خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، ومن قبل العراق ضد الأكراد، تأكيداً على أن المتخاصمين الإقليميين ربما لايمارسون الحذر الإستراتيجي، والإمتناع الذاتي الذي يميز المواقف السوفييتية والأمريكية النووية.

● **مكنمارا**: لقد شكل برنامج المساعدة الخارجية الأمريكية، (يصل إلى ١٣ مليار سنوياً) برنامجاً للمساعدة العسكرية ودعم الدفاع، لأن أقل من ٢٥٪ من إجمالي المبلغ فقط يذهب إلى البلدان الأفقر في العالم على شكل مساعدة تنموية، وبرنامج المساعدة السوفييتية ذو إتجاه مشابه.

في المستقبل وفي إطار «ميثاق الشرف» فإن البلدين سوف يوقفان تسليم الأسلحة الهجومية لدول العالم الثالث، وسوف يقللان إلى حد كبير من تدفق الأشكال الأخرى من المساعدة العسكرية.

● **مروز**: لقد تحسنت العلاقات السوفييتية ـ الأمريكية كثيراً منذ عام ١٩٨٥، حيث تناقصت مبيعات وإرساليات الأسلحة من البلدين إلى العالم النامي، وهناك نتيجة جيدة، وهي أن مايجري في أوروبا من إتفاقيات خفض التسلح، سوف تنفذ حتى لو استدعى ذلك ضغط أكثر على الصناعات الدفاعية في الشرق والغرب، بحيث تصدر أسلحة أكثر إلى الخارج، للحفاظ على حالة التوازن بين تكاليف الإنتاج والتنمية.

«الأبارتيد»، بنفس القوة التي تتطلبها تقاليدنا الوطنية، لقد ترددنا بسبب خوفنا من أن يؤدي هكذا عمل إلى إضعاف الحكومة «الأمريكانية» ومن أن يصب في صالح السوفييت نحن متفردين، عارضنا العقوبات الإقتصادية التي ثبت أنها ليست فعالة تماماً، لكن في المستقبل وإنسجاماً مع «ميثاق الشرف» فإننا سنسعى إلى الوصول إلى الإجماع في الأمم المتحدة، للتعامل بفاعلية مع المشكلة على أساس جماعي.

وفي الخليج الفارس، ربما نواجه إحتمالاً بتعطيل تدفق النفط عبره هل سيطلب ذلك مساندة إنشاء قوة للأمم المتحدة، لضمان سلامة مرور الشحنات النفطية، بدلاً من إرسال القوات المسلحة من طرف واحد كما فعلت الولايات المتحدة عام ١٩٨٧.

● **بلومفيلد**: في تصنيف ماهر «ثنائي» من النزاعات فإن القائمة تضم ازواجاً متقابلة منذ زمن وبقوة مثل، اليونان وتركيا، فيتنام والصين، تايلند ولاوس، بوركينافاسو ومالي، البحرين، وقطر، كمبوتشيا وفيتنام، السوفييت والصين، أفغانستان وباكستان، بنما وأمريكا.

أما الهند وباكستان، فإنهما يتعاطيان معاً بشكوك تُسعرها احتمال قدرة باكستان النووية، وكذلك النزاع المزمن على كشمير الذي سبب في ثلاثة حروب، وبقي بلا تسوية لأكثر من أربعين سنة، منذ دعت الأمم المتحدة إلى إجراء الإستفتاء.

وأفغانستان المتحررة من الغزاة السوفييت، ربما تكتب فصلاً إسلامياً أصولياً جديداً في «المباراة الكبرى» التي سببت الضحايا والصراع الكبير على السلطة.

وفي قبرص فإن القبارصة الأتراك واليونانيين، قد أطلقوا بعض الإشارات المحدودة على إمكانية تسوية نزاعهم القديم.

من ناحية أخرى فإن غياب «ترسيم» واضح للحدود يبقى مصدراً أولياً للصراع، كما بين الجزائر والمغرب، وبين المغرب وموريتانيا، وبين إثيوبيا والصومال، وهناك نزاعات حدودية في العالم العربي أيضاً بين السعودية واليمن وبين اليمن الشمالي والجنوبي، بين العراق والكويت، ثم ان الهند لم تحل نزاعاتها الحدودية مع الصين في مرتفعات الهيمالايا والتي سببت في إحدى الفترات العصيبة، وهناك النزاع المزمن بين الصين وفيتنام ربما ينفجر مرة أخرى حول جزر «اسبارتلي» الغنية بالنفط، وفي مناطق أخرى من الهند الصينية فإن التوترات تستقر بين الفيتناميين والكمبوتشيين، وبين الصينيين والملايويين.

● **مروز**: لن يجد السوفييت والأمريكان سهلاً عليهما، الإعتراف بحقيقة: أننا نعيش الآن في مرحلة إنتقالية، في السياسات العالمية وفي علاقاتنا الخاصة، وخلال هذه المرحلة فإن لكل منهما الحق في أن يطلب شواهد إضافية من الطرف الآخر، على أن التطلعات ـ المتحمس لها والمعترف بها ـ في علاقات جديدة قد اختبرتها الأفعال، إن سلوك السوفييت والأمريكيين تجاه النزاعات الإقليمية، وكذلك حلفائهم الرئيسيين كفرنسا وبريطانيا وألمانيا الديمقراطية

له من الأهمية بمكان، كأي مؤشر على التغييرات الحقيقية، التي على العلاقات الأساسية بين الشرق والغرب.

امكانيات وحدود التفاعل الأمريكي ـ السوفييتي

● **هاملتون**: ماتشهده العلاقات الأمريكية السوفييتية، من روابط تشير إلى أن هناك إمكانيات طيبة، لإستمرارية التورط الأقل في النزاعات الإقليمية خلال العقد القادم، فلا الولايات المتحدة، ولا الإتحاد السوفييتي، يبديان التزاماً بمواصلة تقديم دعم مالي وعسكري عظيم الشأن، إلى عملاء أو وكلاء أو حكومات ليست ضمن حلفائها الحاليين، إن ماقدمه السوفييت لكوبا لن يقدموه إلى نيكاراغوا، ومافعلته أمريكا لمصر، لن تقدمه اليوم لأصدقاء جدد في افريقيا وآسيا. لكن بالرغم من أن درجة تورط القوى العظمى سوف تنخفض، الّا أن كثيراً من العوامل التاريخية والجغرافية والإقتصادية، التي سببت النزاعات السابقة، سوف تستمر إضافة لذلك فإن تطورات جديدة أخرى، سوف تشعل نزاعات جديدة، أو تزيد من أخطار النزاعات التي مازالت مستمرة.

إن الولاءات الأصلية للقوميات العرقية والعنصرية، مازالت تكمن في جذور صراع القوى والحركات الإنفصالية في مناطق عديدة، إن الولاءات «مادون القومية» التي تختفي لبعض الأجيال، يمكن أن تعود مجدداً للمطالبة بالإحترام والإعتبار، وكثيراً من هذه المجموعات ذات الأصول القومية، يمكن أن توسع مطالبها في ليلة وضحاها وتمتد إلى بلدان أخرى.

● **بلومفيلد**: إن إعتماد إستراتيجية جديدة، والتزام جديد أكثر جدية ـ هو المطلوب:

ـ الإلتزام بعمل وقائي، يهدف إلى إمتصاص أفضل، للنزاعات الأولية، بدلاً من ممارسة العادة المتأصلة، بإعطاء الإهتمام للأمور، بعد أن تخرج من اليد.

ـ الإستراتيجية الهادفة إلى حصر تلك النزاعات وعزلها عن التدخل الخارجي التي يمكن أن تتطور بفضله إلى حروب أوسع.

أبعد من الآلية الجديدة، فإن المطلوب هو تصور أرحب للأمن القومي، يوضح الصلة بين «مراقبة السلام» الجماعية، وبين تحقيق الإستقرار الإقليمي والتحول السلمي، على قاعدة التدقيق في حسابات التكاليف المؤلمة، والأرباح المشكوك فيها، لبعض التدخلات الإنفرادية، في الأقاليم الصراعية ذات المصلحة الحدّية.

إن سياسة متجاوبة، مع هذا التصور الذي أسميه «مجالات الإمتناع» سوف تكون بديلاً لـ «مجالات النفوذ» والتدخلات التقليدية.

إن نظام حل النـزاع، قد جرى تركيزه سابقاً على «العنف» عندما يكون وشيك

الوقوع، أو عندما ينفجر فعلياً، لكن المطلوب هو إستخدام قوة سياسية، ودبلوماسية كافية لإمتصاص النزاع، والتحذير والمنع المبكر له قبل أن تتحول النزاعات إلى صراعات وحروب.

لقد شهدنا في حربين أخيرين ـ الفوكلاند والعراقية الإيرانية، التعاطي البليد للمجموعة الدولية، إزاء الدبلوماسية الوقائية، ولم يتوفر جهد كبير لتعزيز الإتفاقيات التي جرى التوصل إليها، ولم يوجد الإطار المناسب لكبح وضبط الحرب بين الجانبين، ولم يصبح النشاط الدولي في حرب الفوكلاند حدياً، إلّا عندما غزت الأرجنتين الجزر وعندما شنت بريطانيا الحرب عليها.

لقد كان هجوم العراق على إيران ١٩٨٠ لم تتأثر حالة الشلل التقليدية، تجاه دولة عربية ومن العالم الثالث، هي الطرف المهاجم، وظل مجلس الأمن لسنوات عديدة يتجاهل المشكلة، حتى عندما كان يسقط عشرات الآلاف من البشر.

● **مكنمارا**: هناك مسألة الحاجة إلى تطوير علاقة جديدة بين الشمال والعالم الثالث وبالحد الأدنى فإن تلك العلاقة تشمل:

١ ـ ضمان الحيادية العسكرية للعالم الثالث.

٢ ـ إلتزام القوى العظمى بتخفيض شديد في ـ وإن أمكن الغاء ـ الدعم العسكري للنزاعات بين بلدان العالم الثالث، والنزاعات بين الأطراف السياسية المعارضة داخل هذه البلدان.

٣ ـ ضمان دعم نظام للأمن الجماعي لدول الجنوب مع آلية لحل النزاعات الإقليمية بدون تورط القوى العظمى فيها.

٤ ـ زيادة المساعدة التقنية والمالية للبلدان النامية لمساعدتها على رفع نموها الإقتصادي والإجتماعي.

إن إتفاق الشرق والغرب، على تأييد هكذا برنامج كهذا سوف يساعد ليس فقط على ضبط فعلي للتغيير السياسي والإقتصادي في العالم الثالث فحسب، بل وسيكون متوافقاً مع التحركات الهادفة إلى إضعاف ـ وفي النهاية إلغاء ـ الحرب الباردة.

إن في ذلك عودة إلى التصور القديم، لروزفلت وتشرشل حول عالم مابعد الحرب، ذلك التصور، الذي تبلور أولاً في ميثاق الأطلسي عام ١٩٤١ ثم توسع إلى خطة تأسيس الأمم المتحدة، لكنه أفسد لاحقاً بايدلوجية الحرب الباردة.

إن آمال روزفلت، في منظمة موحدة وقوية قادرة على الدفاع، فهم واحد لنظام مابعد الحرب لم يجد تحقيقها بالطبع، فقد تأسست الأمم المتحدة، وحولها الصراع الشرقي الغربي إلى هيئة بلا صلاحية.

● **بلومفيلد**: من المؤكد أن المستقبل سوف يدهشنا، فإلى جانب الأشكال الجديدة من

الإرهاب والتكاثر النووي، ربما يحمل المستقبل معه الصراعات الإقليمية والكوارث البيئية، خالقة الفوضى الإجتماعية، التي تؤدي بالتالي إلى إعادة التفكير في ميثاق الأمم المتحدة، المادة الثانية الفقرة السابقة، التي تحرم التدخل في الشؤون الداخلية للدول.

إن كبار المسؤولين المعنيين، يتزايد خوفهم من هذه الإحتمالات. إن الأمر يتطلب منا أن نتجاوز الأمنية التقليدية، التي دعاها هارلان كليفلاند(*) بـ «عادة تصعيب الخيارات». فالتعاون الدولي، ليس بالضرورة تشكيل لعرفٍ، إن المطلوب أكثر، هو القناعة الصلبة بأنه لتحقيق أهداف الأمن القومي لكل واحد منا، فلا مفر من مراهنة محدودة على «سلطة عليا» Soverign power دون أن «نسميها كذلك بالضرورة.

وحتى في هذه الحالة، فإن النظام التعاون الجماعي الضعيف الحالي، يجب الأ يطلب منه أن يتحمل أكثر مما يحتمل ولتطبيق نظام جديد لجهود كبح الصراع الوطنية والدولية، قبل أن يتحول النزاع الصغير فعلياً إلى حرب، فإن «عملية إختراق» كبرى مطلوب تحقيقها، وإن استثمار الطاقة السياسية الجادة لابطال المرحلة المبكرة من النزاع، سيكون بمثابة انتصار للعقل على العادة.

إن خطوات كهذه، لابد أن تكون على رأس جدول أعمال صانعي السياسة، باعتبارها تعبيرات عن المصلحة الوطنية المستنيرة.

● مروز: يتركز معظم النقاش الدائر حول مسألة الدور، الذي تلعب الايدلوجية في السياسة الخارجية، لقد فسَّر وزير الخارجية شيفاردنادزه بوضوح، أفكار «التفكير الجديد» للرئيس ميخائيل غورباتشيف، وكانت خطاباته إلى أعضاء وزارة الخارجية في الصيفين الماضيين، موضع دراسة في الغرب، على أساس أنها كانت عرضاً هاماً لمصاعب التطبيق للاجراءات والسياسات الجديدة المستندة إلى «التفكير الجديد» من ناحية، والتزام من القيادة السوفييتية، بتنفيذ التغيرات في سياساتها وأفعالها، كما أقوالها من ناحية ثانية.

إن وضع القيم والمصالح العالمية - قيم البقاء الإنساني - فوق النضال الطبقي، لايعكس فقط حرصاً على التغيرات التي وقعت في المجتمعات الغربية، خلال السبعين سنة الماضية بل أيضاً وعياً للحقائق في عالمنا الذي نعيش اليوم.

إن قدرتنا على التعاطي بنجاح مع هذه التحديات، سوف تعتمد على قدرتنا على تصفية السباق العسكري الايديولوجي، الذي طبع العلاقات السوفييتية الأمريكية طوال أيام حياتي، وأنا لاأعتقد أن هذه مهمة مستحيلة، أو أن إنجازها يتطلب عدة عقود، إنها تتطلب الصبر والمساعدة المتبادلة، من قبل الجانبين، في الأ يتسببوا في مشاكل جديدة كل للآخر، وتتطلب إرادة سياسية صادقة، للتصرف بطريقة مختلفة تجاه النزاعات الإقليمية.

في هذا التوازن، تكمن حيوات جديدة، وتطلعات جديدة بمستقبل أفضلَ لغالبية سكان كوكبنا، إن ذلك سيساعد أيضاً، في التحقق من أن الحرب الباردة والصراع الغربي -

الشرقي، يمكن أن يرسلا أخيراً إلى مزبلة التاريخ.

● بياديشيف: إن التمييز الواضح بين الأسباب الداخلية والخارجية لحالات النزاع، يجعل في الإمكان التوصل إلى تسويتها بطريقة أكثر واقعية، وفي وقتنا الراهن فإن فكرة «المصالحة الوطنية»، كوسيلة لازالة أو تحييد الجذور الداخلية للصراعات الإقليمية، قد اختبرت بالممارسة لأول مرة، وقد سارت كل من أفغانستان وكمبوتشيا ونيكاراغوا على طريق المصالحة الوطنية، قد يوجد قليل من الحالات التاريخية النظيرة، وربما لايوجد - التي تنتهي الحرب الأهلية فيها، عبر مصالحة وطنية، متبوعة بإقامة هيئة ائتلافية لحكم البلاد، ولهذا السبب - على وجه التحديد - فإن عدداً من السياسيين، يرون هذا النوع من السياسية غير فعال وميئوساً منه، ومع ذلك فإن الحجج اللاحقة، يمكن أن تساق لصالح سياسة المصالحة الوطنية، كطريقة لتحييد الأسباب الأصلية في الصراع الإقليمي.

لقد مضى وقت طويل، منذ كان هناك حرب أهلية خالصة في أي مكان من العالم، واليوم لم يكن ذلك ممكناً على الاطلاق، والجدلية هنا، تقول أنه عندما ينتفي العنصر الأجنبي من الصراع الداخلي، - حيث يعني أن التأثير السلبي الخارجي قد أصبح محيداً - فإن الظروف تتوفر، لكي يصبح الطريق مفتوحاً لتحقيق المصالحة الوطنية بين الأطراف المحلية.

يبدو أن المصالحة الوطنية، هي الطريقة الوحيدة المقبولة، التي تجعل البلدان المجاورة قادرة على المشاركة في أعمال مشتركة، لوقف الصراعات الإقليمية. وقد تمثل ذلك بوضوح في أمريكا الوسطى عندما أصبح هدف المصالحة الوطنية في نيكاراغوا، فكرة موحدة لبلدان أمريكا اللاتينية، جعلتها توحد جهودها وتتفق على برنامج لتسوية النزاع الإقليمي.

● مكنمارا: لكن ألم يحن الوقت للعودة إلى تصور لعالم يحافظ على النظام فيه عبر التعاون الدولي، وعبر دعم جهاز من المؤسسات الجماعية كالأمم المتحدة والمنظمات الدولية؟

وللتحرك لتحقيق هذا التصور أليس مطلوباً من الشرق والغرب الموافقة على «ميثاق شرف»، ليغطي العلاقات بينهما من ناحية، وبينهما وبين البلدان الأخرى من ناحية ثانية؟

إن محاولة سابقة لإنشاء «ميثاق شرف» سوفييتي أمريكي تمثلت في إتفاقية بريجينيف - نيكسون حول المبادىء الأساسية عام ١٩٧٢ لم تكن ناجحة، وفشلها يعود إلى حد ما، إلى النشاط السوفييتي المتزايد في العالم الثالث، في النصف الثاني من السبعينات.

لقد كان إتفاق المبادىء الأساسية ١٩٧٢ ببساطة، متناقضاً مع مصالح طرف واحد على الأقل، من الموقعين عليه، وعملياً لم يتوقع أحد أن يجري تنفيذ بنوده، لكن الأوضاع الآن اختلفت، وميثاق جديد للشرف، مشترك الفائدة، يمكن التفاوض بشأنه.

لقد كتب الكسندر جورج(*) بتوسع، عن الفوائد التي يمكن الحصول عليها، وكذلك القيود - من وضع القواعد غير المتحفظة على سلوك القوة العظمى، وقد بيَّن أن

القوتين العظميين ستجدان، عبر النقاشات المكثفة والمناسبة، في تطوير سلسلة من المفاهيم الإنفرادية الخاصة، حول كيفية الحد من تنافسها، وتورطها في بلد أو إقليم معين «ويرى جورج بأنه لو أدت الجهود لاشتراع القواعد إلى الإجهاض، أو حتى النجاح الجزئي فإن التفاعل الكامن في الجهود ذاتها، يستطيع المساعدة على إيضاح البواعث والأهداف، والمدارك.

ربما سيكون أكثر أهمية، أن يقوم كل من الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، بتقليص عدد من إلتزاماته للعالم الثالث، تلك الإلتزامات التي أدت بإتفاقية ١٩٧٢ إلى الفشل، وقد اقترح غورباتشيف نفسه «القواعد الجديدة للتعايش» المطلوب صياغتها.

مثل هذه القواعد يمكن أن تتضمن:

أولاً: إن المصالح السياسية لكل كتلة، يمكن تأمينها عبر الدبلوماسية، وليس بالتهديدات العسكرية أو استخدام القوة

ثانياً: استناداً على «أولاً» يعاد بناء القوة العسكرية لكل كتلة، بهدف دفاعي. وتخفض إلى توازن الحد الأدنى الفعلي.

ثالثاً: امتناع القوى العظمى عن التورط في النزاعات الإقليمية.

رابعاً: تستخدم الدول الشرقية والغربية، خاصة القوى العظمى، المنظمات الدولية، لحل المسائل العالمية والإقليمية بما فيها الصراعات، داخل دول العالم الثالث وبينها.

● بياديشيف: بصرف النظر عن الإسم الذي يعطى لها، فإن أكثر الجهود الواعدة من وجهة نظري، هي التي تخرج لن قيوداً مناسبة، في النوعية والدرجة، على التدخل الخارجي في النزاعات الإقليمية، وكذلك الجهود الواعدة المشتركة، لحل النزاعات والأزمات المحلية في مناطق العالم الثالث.

هناك أوضاعٌ محددة ذات طبيعة تصادمية، وسيكون من مصلحة الطرفين أن تبقى تلك الأوضاع تحت السيطرة، وإلاّ ندعها تتحول إلى أوضاع خطيرة، إن الآفاق حالياً مفتوحة لبعض التفاعل في الأزمات الإقليمية.

لقد لمست عملية هذا الإتجاه في الفترة الأخيرة من إدارة ريغان، حيث بدأت في الظهور بعد عام ١٩٨٥ آلية، من «الدبلوماسية الهادئة» على مستويات مختلفة، فقد جرت مناقشة وتقييم للمشكلات الرئيسية الإقليمية، في خمس اجتماعات قمة، وحوالي أربعن لقاء لوزيري خارجية الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، وفي العديد من مشاورات الخبراء في وزارتي الخارجية، من أجل تخفيف التوترات، والتوصل إلى طرق تسوية تكون مفيدة لكل جانب، وقد استمر هذا العمل في إدارة جورج بوش.

لقد كان اجتماع سبتمبر (أيلول)، بين شيفاردنادزه وجيمس بيكر مثمراً تماماً، ويمكن للمرء أني قول: إن الدبلوماسية السوفييتية والأمريكية، قد جنت خبرات إيجابية، في

إتصالاتها حول مشكلات جنوب إفريقيا، والشرق الأوسط وكمبوتشيا والمسألة الأفغانية، وقضايا أمريكا الوسطى، رغم أن الإدارة الأمريكية قد اتخذت في القضية الأخيرة، موقفاً متصلباً.

● هاملتون: من الواضح أن للولايات المتحدة والإتحاد السوفييتي، مصلحة مشتركة متزايدة في الحفاظ على الإستقرار العالمي، فقد بدأت البلدان في مناقشة طرق التعاون في حل المشكلات الإقليمية القائمة، وطرق منع توريطها في نزاعات جديدة في المستقبل، إضافة إلى مناقشة قضايا محددة، وإستراتيجيات تجنب الصراع فإن المناقشات الثنائية المستقبلية، ستكون مهمتها أيضاً، البحث في المصادر القديمة والحالية للنزاعات الإقليمية وسيكون الحوار السوفييتي الأمريكي، ميداناً مناسباً يتم فيه الوصول إلى فهم مشترك، لبعض أسباب الصراع التي تحدثنا عنها.

إن أسباب الصراعات الإقليمية يمكن مناقشتها في محادثات ثنائية، لكن في حالات كثيرة لايمكن حلها نهائياً، الاّ في أطر جماعية.

---

* روبسبير (مكسيميليان) من أبرز قادة الثورة الفرنسية، استخدم العنف للقضاء على خصومه السياسيين، أما دانتون (جورج) فقد كان أحد قادة الثورة الفرنسية الذين أعدموا بالمقصلة ـ المترجم
* عالم سياسي أمريكي معروف تقلد عدة مسؤوليات في بعثات أمريكية ودولية يكتب في مسائل السياسة الدولية.
* عالم سياسي أمريكي، أستاذ، ألف وشارك في تأليف عدة أعمال حول العلاقات الدولية.

الهجرة اليهودية واسرائيل الكبرى

د. غازي حسين*

مقدمة

تثير هجرة اليهود السوفييت الى الكيان الصهيوني قلقاً متصاعداً ومشروعاً لدى المواطنين العرب وبشكل خاص في الضفة والقطاع لما تحمله في طياتها من أخطار هائلة على قضية فلسطين ومجمل الصراع العربي ـ الصهيوني.

ويشعر أبطال الحجارة بالخطر الذي يتهددهم من جراء الهجرة، لأنها ستؤثر على وجودهم في وطنهم وعلى عروبة القدس وستمكن العدو من تحقيق هدفه الاستراتجي بإقامة اسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات.

---

* باحث من فلسطين.

وبالمقابل يشعر العدو الصهيوني بالسرور والارتياح والغطرسة من جراء هجرة اليهود الجماعية من الاتحاد السوفييتي.

ووصفها الرئيس الصهيوني حاييم هيرتسوغ بأنها «المعجزة الكبرى» وقال عنها الارهابي شامير أمام أعضاء حزبه في ١٤ كانون الثاني ١٩٩٠ مايلي:

«ان الهجرة الجماعية تتطلب أيضاً اسرائيل كبرى، وهي تشبه كل المعجزات التي أنقذت دائماً الشعب اليهودي، وفي غضون خمسة أعوام لن نستطيع التعرف على هذه البلاد، كل شيء سيتغير، الناس وأسلوب العيش، كل شيء سيكون أكبر وأقوى، العرب من حولنا في حالة يأس وذعر، يجتاحهم شعور بالفشل، لأنهم يرون أن الانتفاضة لاتساعدهم، إنهم لايستطيعون وقف التدفق الطبيعي للشعب اليهودي نحو أرضه، وفي النهاية، فإن هذا هو جوهر الصراع».[١]

ان شامير يؤكد أن جوهر الصراع موجات متتالية من الهجرة والاستيطان، والاعتماد على القوة والاحتلال والعجز واليأس العربي، ودعم يهود العالم لاقامة اسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، لاسيما وأن الكيان الصهيوني قد تأسس بفضل موجات الهجرة الى فلسطين وأنه لايزال يسعى لتحقيق حلم الصهيونية الامبراطورية الاسرائيلية من النيل إلى الفرات.

وتأتي موجة الهجرة الحالية بعد أن أفصح العدو الصهيوني عن حل المشكلة الديمغرافية عن طريق الترانسفير، أي ترحيل العرب خارج فلسطين، وتكثيف الاستعمار الاستيطاني في الضفة والقطاع، والقضاء على حق الفلسطينيين في العودة الى وطنهم وتوطينهم في أماكن تواجدهم وتحويل الاردن كوطن بديل لهم، أي تحقيق سياسته في الاستيطان والتوطين والوطن البديل. ويحلم الارهابي شامير بأن يصبح عدد سكان الكيان الصهيوني خمسة ملايين يهودي خلال عشر سنوات وباسرائيل كبرى تتسع لهجرة كبيرة.[٢]

يقول بن غوريون عن أهمية الهجرة مايلي:

«ان انتصار اسرائيل النهائي سيتحقق عن طريق الهجرة اليهودية الكثيفة، وان بقاء اسرائيل يعتمد فقط على توفر عامل هام واحد وهو الهجرة الواسعة الى اسرائيل».[٣]

وأكد اشكول رئيس وزراء العدو السابق أهمية الهجرة وقال:

«يبقى موضوع الهجرة مشكلة اسرائيل الأولى»[٤]

وورد في النداء العالمي المشترك الموجه من الحكومة الاسرائيلية والادارة التنفيذية للحركة الصهيونية خلال تموز ١٩٦٧ لحث اليهود على الهجرة مايلي:

«من القدس العاصمة الابدية لاسرائيل ها نحن ندعوكم، هبوا هاجروا وابنوا البلاد.. والواجب المقدس الذي يقف الشعب اليهودي أمامه هو بناء وطنه بسرعة لضمان مستقبل دولة اليهود والدعوة الكبرى والضرورية للهجرة: هجرة الشعب اليهودي وشبيبه إلى

بيت الشعب (اسرائيل)». وقال ابا ايبان عن دور الهجرة في تعزيز تقرير مكاسب الحرب والاستيطان بعد عدوان حزيران مايلي: «لو كنا أربعة ملايين يهودي في اسرائيل اليوم لكان في مطالبنا في الصراع السياسي القائم وزن أكبر، كما وأن تنشيط الهجرة اليهودية من شأنه أن يعزز مكانة مكاسبنا في الحرب وان احتلال الأراضي وحده ليس كافياً فنحن بحاجة الى استيطان هذه الأراضي». (٥)

وقال ناحوم غولدمان زعيم المنظمة الصهيونية العالمية عن الهجرة مايلي: «اذا حلت مشكلة الهجرة وهي المشكلة الثانية، فإنه لن يكون هناك مشكلة أولى وهي مشكلة الأمن.. ان مستقبل الصهيونية العالمية يتوقف على سياسة الهجرة اليهودية إلى اسرائيل خلال العشر سنوات القادمة». (٦)

وأفصحت غولدامائير عن أهمية الهجرة في تحقيق الحلم الصهيوني وقالت: «مانحتاج اليه في الوقت الحاضر أكثر من أي شيء هو الهجرة: توجد أمور كثيرة نحلم بها، ولكن لقلة الرجال وبسبب الحروب المفروضة علينا لانستطيع أن ننجزها إلا إذا أتى المزيد من الرجال». (٧)

إن تصريحات الزعماء الصهاينة تظهر بجلاء أهمية الهجرة بالنسبة للكيان الصهيوني لتحقيق الحلم الصهيوني بإقامة اسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، ومنعكساتها الخطيرة على الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني، ونيته الاحتفاظ بالأراضي العربية وتهويدها وتعزيز الاستيطان فيها. إن موجة الهجرة الحالية تشكل تطوراً خطيراً على الصراع العربي الصهيوني لصالح العدو، لأن وصول نصف مليون مستعمر يهودي خلال ثلاث سنوات إلى الضفة والقطاع ستقود إلى تخليد الاحتلال وستشكل خطورة كبرى ليس فقط على الضفة والقطاع والجولان، وإنما أيضاً على البلدان العربية المحيطة بفلسطين، وبشكل خاص على الأردن وجنوب لبنان.

اسرائيل الكبرى

تعتبر فكرة «اسرائيل الكبرى» من النيل إلى الفرات، من فلسطين بأسرها وأجزاء من الأردن وسورية ولبنان ومصر والسعودية والعراق الهدف الاستراتيجي للصهيونية كأيديولوجية ومنظمات ومؤسسات عسكرية وسياسية، ويعمل الكيان الصهيوني لتحقيق هذا الهدف الاستراتيجي عن طريق الهجرة وسلسلة من الحروب التوسعية، وعن طريق الاحتلال والضم والاستيطان (الاستعمار) والانطلاق من الامر الواقع المفروض بالقوة وتأييد الولايات المتحدة ويهود العالم لسياسته الاستعمارية لاقامة «اسرائيل الكبرى» على مراحل زمنية مختلفة وباستغلال الظروف والأوضاع المحلية والعربية والدولية الملائمة للوصول إلى هذا الهدف،

ذلك لفرض هيمنته على كامل الوطن العربي.

ومنذ ظهور الصهيونية كايديولوجية وحركة سياسية منظمة وهي تعلن صراحة عن مطامعها التوسعية في فلسطين وبقية الاقطار العربية واستخدمت عدة مزاعم منها «شعب الله المختار» وعلاقته المزعومة بفلسطين العربية «أرض الميعاد»، والادعاء بأن اليهودية قومية وبأن اليهود يشكلون شعبنا عالمياً واحداً وعزلهم ومقاومة اندماجهم ودفعهم إلى الهجرة، واحتلال الأرض العربية والاستيطان فيها. ولتحقيق التوسع الصهيوني على حساب الأرض العربية تعاونت الحركة الصهيونية تعاوناً وثيقاً مع الدول الاستعمارية وتعهدت بخدمة مصالحها في المنطقة العربية لقاء مساعدتها على تأسيس «دولة اليهود» في فلسطين كمقدمة لتأسيس اسرائيل الكبرى. وفي منتصف القرن التاسع عشر وقبل ظهور الحركة الصهيونية كحركة سياسية عالمية منظمة أعلنت بريطانيا أن لدى اليهود المال والرجال لاستعمار فلسطين وجعلها قاعدة للامبراطورية البريطانية في الشرق الاوسط، وذلك لحماية المصالح البريطانية في قناة السويس، وبعد هذه الدعوة البريطانية أسس ناتان بيرنباوم عام ١٨٨٢ جمعية قديمة للطلاب اليهود في جامعة فيينا وتضمن برنامجها الاساسي - «محاربة الاندماج ودعاته، بلورة الشعور القومي اليهودي وتقويته واستيطان فلسطين واستعمارها». (٨)

وكان بيرنباوم أول من أطلق لفظ «صهيونية» على «القومية اليهودية» وذلك في كراس صدر له عام ١٨٩٣ بعنوان «البعث القومي للشعب اليهودي في أرضه، كوسيلة لحل المسألة اليهودية. وتبنى بعد ذلك تيودور هرتزل الصحفي النمساوي ومؤلف كتاب «دولة اليهود» عام ١٨٩٦ ومؤسس الصهيونية كحركة سياسية عالمية منظمة عام ١٨٩٧ فكرة تأسيس «اسرائيل الكبرى» وذلك في الرسالة التي بعث بها الى اللورد روتشيلد بتاريخ ١٩٠٢/٧/٤ وأطلق فيها على صحراء سيناء لقب «فلسطين المصرية».

وجرى في المؤتمر الصهيوني السابع الذي انعقد في أوائل آب ١٩٠٥ تعديل قانون صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار بحيث أصبحت الفقرة المتعلقة بتفضيل فلسطين وسورية لاستعمارهما تنص على مايلي:

«في فلسطين، وسورية وأي قسم آخر من تركية الاسيوية، وفي شبه جزيرة سيناء وجزيرة قبرص». (٩)

وكتب الزعيم الصهيوني كريتش إلى هرتسل مطالباً إياه بتضمين برنامج بازل العبارة التالية: «فلسطين الكبرى أو فلسطين والبلدان المجاورة لها».

وأصر الصهاينة الالمان والنمساويون على عبارة «فلسطين والاراضي المجاورة»، ولذلك عندما ذهب كريتش كمندوب عن برلين إلى المؤتمر الصهيوني الخامس واقترح مايلي: «تسعى الصهيونية إلى إيجاد وطن في فلسطين والبلدان المجاورة لها بضم أكثرية اليهود، ويكون مضمون من جميع النواحي» (١٠)

ويتضمن دليل فلسطين الذي ظهر بالعبرية في القدس عام ١٩٠٦ وبالألمانية في برلين عام ١٩٠٧ والانكليزية في لندن عام ١٩٠٧ تحت عنوان «تعريف فلسطين» الاشارة الى أن تسمية فلسطين تعني منطقة جرى تحديدها في أوقات متفرقة ومن مصادر متعددة بصورة مختلفة. وجاء على ذكر أرض كنعان بتخومها التي يرد ذكرها في سفر التكوين (١٥ ـ ١٨ ـ ٢٠) إبان الكلام عن الميثاق الذي قطعه الرب مع ابراهيم: «من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»(١١) ويتضمن «دليل فلسطين» على أن أرض اسرائيل لاتدل على فلسطين، بل على أرض السبي أو الأسر التي تعني تلك المقاطعات المعينة لسكن اليهود في بابل»(١٢)

ويقول بن غوريون وبن زفي عن حدود فلسطين مايلي: «تضم فلسطين النقب برمته اليهودية والسامرة والخليل وسنجق حوران وسنجق الكرك بما في ذلك معان والعقبة وجزء من سنجق دمشق والقنيطرة ووادي عنجر وحاصبيا». (٣)

وعندما انعقد مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٩ عرضت المنظمة الصهيونية العالمية على المؤتمر مذكرة بتاريخ ٣ شباط ١٩١٩ تحت عنوان «تصريح المنظمة الصهيونية بصدد فلسطين» تضمنت مطامعها التوسعية في الوطن العربي وجاء فيها حول حدود الوطن اليهودي مايلي: «ان حدود فلسطين يجب أن تسير وفقاً للخطوط العامة المذكورة أدناه: تبدأ في الشمال عند نقطة على شاطىء البحر الأبيض بجوار مدينة صيدا وتتبع مفارق المياه عند تلال سلسلة جبال لبنان حتى تصل إلى جسر القرعون، فتتجه منه إلى البيرة، متبعة الخط الفاصل بين حوضي وادي القرن ووادي التيم، ثم تسير في خط جنوبي متبعة الخط الفارق بين المنحدرات الشرقية والغربية لجبل الشيخ (حرمون) حتى جوار بيت جن، وتتجه شرقاً متبعة مفارق المياه الشمالية لنهر مغنية حتى تقترب من الخط الحديدي الحجازي إلى الغرب منه.

وفي الشرق يحدها خط يسير بمحاذاة الخط الحديدي الحجازي وإلى الغرب منه حتى ينتهي في خليج العقبة. وفي الجنوب حدود سيجري الاتفاق عليها مع الحكومة المصرية وفي الغرب البحر الابيض المتوسط.. إن الحدود المرسومة أعلاه هي مانعتبره جوهرياً الاساس الاقتصادي الضروري للبلاد. وفلسطين يجب أن يكون لها منافذها الطبيعية للبحار والسيطرة على أنهارها وعلى منابع تلك الأنهار.. كما يجب على هذه اللجنة جعل المساحة الجغرافية لفلسطين أكبر مايمكن بحيث نستطيع فيها بعد استيعاب عدد كبير من السكان ينعمون بالرخاء.. وتعتمد الحياة الاقتصادية لفلسطين كشأن أي بلد نصف جاف آخر على كميات المياه المتوفرة، لذلك يصبح من الأهمية الجوهرية بمكان، ليس فقط تأمين جميع موارد المياه التي تغذي البلاد حتى الآن، بل القدرة للمحافظة والسيطرة عليها عند منابعها، إن جبل الشيخ هو «أب المياه» الحقيقي لفلسطين، ولايمكن فصله عنها دون توجيه ضربة قاصمة الى جذور حياتها الاقتصادية بالذات، كما يجب التوصل إلى اتفاق دولي يحمي حقوق

المياه للشعب القاطن جنوبي نهر الليطاني (أي اليهود في اسرائيل الكبرى) حماية تامة.

إن السهول الخصبة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن كانت منذ أقدم أيام التوراة مرتبطة اقتصادياً وسياسياً بالأرض الواقعة غربي نهر الأردن.. ويمكنها أن تصبح الآن بصورة مدهشة حقلاً للاستعمار الاستيطاني على نطاق واسع.(١٤) هذا بعض ماتضمنته المذكرة الصهيونية الرسمية التي قدمت إلى الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى وجرى الاتفاق بشأنها مع وزارة الخارجية البريطانية، ولكنها لاقت انتقادات من أوساط صهيونية لأنها أغفلت بعض المطالب الصهيونية.

ولكن الصهيوني ارثر روبين رسم في عام ١٩١٩ حدود فلسطين وضم إلى مساحتها قضاء صور وقضاءي الكرك والسلط وقضاء عجلون وقضاء القنيطرة.(١٥) وهكذا نستنتج من القرارات والمذكرات والكتابات الصهيونية ان فكرة «اسرائيل الكبرى» لاتنحصر في فلسطين، بل تمتد لتشمل الأراضي العربية من النيل إلى الفرات أي فلسطين وأراضي واسعة من الأردن وسورية ولبنان ومصر والعراق والسعودية. ويدل هذا الهدف الاستراتيجي للصهيونية دلالة واضحة ليس اليوم أو بالأمس بل منذ قيام الصهيونية كحركة سياسية عالمية منظمة أن كل بلد عربي مهدد بالهجرة والعدوان والاحتلال والضم والاستيطان، وأما البلدان العربية الأخرى التي لم تشملها اسرائيل الكبرى ستصبح مهددة من جراء الوضع الجديد وسيعمل العدو الصهيوني على استغلال مواردها وثرواتها واخضاعها لسيطرته.

الاطماع الصهيونية في شرق الأردن

عندما أعلنت بريطانيا في أواخر عام ١٩١٨ فصل شرق الأردن عن فلسطين احتجت مجلة «فلسطين الصهيونية» التي كان يصدرها بن غوريون وكتبت تقول: «يتمتع شرق الأردن بأهمية حيوية من النواحي الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية لفلسطين اليهودية، وأن مستقبل فلسطين اليهودية برمته يتوقف على شرق الأردن، فلا أمن لفلسطين إلا إذا كانت شرق الأردن قطعة منها، وشرق الأردن هي مفتاح البحبوحة الاقتصادية لفلسطين».(١٦)

وتضمنت المذكرة الصهيونية الرسمية التي قدمتها الحركة الصهيونية الى مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٩ الاطماع الصهيونية في شرق الاردن واعتبرتها مرتبطة بالاراضي الواقعة غرب نهر الاردن منذ أقدم أيام التوراة.

ونشر الارهابي جابوتنسكي في آذار ١٩٢٤ النقاط الاساسية في برنامجه الصهيوني على الشكل التالي:

١ ـ هدف الصهيونية ـ الدولة اليهودية.

٢ ـ مساحة الدولة على ضفتي الاردن.

٣ ـ الاسلوب ـ الاستعمار الجماعي.

٤ ـ النظام المالي ـ القرض القومي[١٧].

وشكل رابطة تصحيح السياسة الصهيونية وعقد الاجتماع الاول للرابطة في ٢٥ نيسان ١٩٢٥ في باريس تحت عنوان «مؤتمر رابطة الصهيونيين التصحيحية» وتقرر الاشتراك في المؤتمر الصهيوني الرابع عشر في فيينا عام ١٩٢٥، وطرحت الحركة الصهيونية التصحيحية برنامجها الذي أدخل تعديلاً على برنامج بازل الصهيوني وأصبح كما يلي:ـ

«ان غاية الصهيونية هي تحويل فلسطين تدريجياً مع شرق الاردن الى كومنولث يهودي، أي الى كومنولث يحكم نفسه في ظل أكثرية يهودية قائمة»[١٨].

وحدد جابوتنسكي مساحة فلسطين في المؤتمر الصهيوني السادس عشر في زوريخ عام ١٩٢٩ بما يلي «انها المساحة من الارض ميزتها الجغرافية الاساسية هي أن نهر الاردن لا يجري على حدودها بل في وسطها»[١٩].

وأصبح الشعار الصهيوني الذي يفهمه جابوتنسكي ما يلي: ـ

«ايجاد مجال حيوي للملايين اليهودية على ضفتي الاردن».

ونظم نشيد منظمة بيطار عام ١٩٣٢ ليصبح النشيد الرسمي لمنظمات الشباب الصهيونية العسكرية: ـ

«مجال حيوي للملايين، على ضفتي الاردن، الاردن له ضفتان واحدة لنا وكذلك الاخرى»[٢٠].

وتقدم جابوتنسكي الى المؤتمر الصهيوني السابع عشر الذي انعقد في بازل ١٩٣١ بالاقتراح التالي:

«ان غاية الصهيونية، كما تعبر عنها ألفاظ مثل الوطن القومي والدولة اليهودية ووطن يضمنه القانون العام هي ايجاد أكثرية يهودية على ضفتي الاردن»[٢١].

وأخذت صحيفة ذي جوش ستادود الناطقة بلسان الحركة الصهيونية التصحيحية في لندن تنشر باستمرار الدعوة لاقامة الوطن اليهودي على ضفتي الاردن. ونشرت تحت الشباب الصهيوني الاعلان التالي: ـ

«انخرطوا في سلك المنظمة الصهيونية الجديدة وأيدوا برنامجها لحل المسألة اليهودية باقامة دولة يهودية في فلسطين على ضفتي الاردن»[٢٢].

وبعد وفاة الارهابي جابوتنسكي انشق ابراهام شيترن عن عصابة الارغون وشكل عصابة شيترن، الا أن العصابتين توحدتا ثانية بعد عام واحد، وأعلنت سياسة المنظمة الصهيونية التصحيحية في خمس نقاط كانت النقطة الثالثة حول الهجرة والرابعة حول اقامة الدولة اليهودية على ضفتي الاردن وتنص على: «تبني خطة للهجرة الطوعية والمنظمة على

نطاق جماعي من بلدان أوروبا بقصد اعادة التوطين في فلسطين، اعلان هدف الصهيونية بأنه اقامة الدولة اليهودية على ضفتي الاردن»[٢٣]. وعندما أدلى ارينست بيغن وزير خارجية بريطانيا في ١٧ كانون ثاني ١٩٤٦ بتصريحه حول شرق الاردن امام الجمعية العامة للامم المتحدة ثار الصهاينة عليه لسلخه بحسب زعمهم شرق الاردن عن فلسطين، وأعلن أحد التصحيحيين أن انشاء امارة شرق الاردن كدولة مستقلة دون الحصول على موافقة الشعب اليهودي خرقاً للقانون الدولي، لانه بحسب زعمه أن السيد الاوحد على فلسطين التاريخية هو الشعب اليهودي بلا منازع. وأخذت صحيفة الحركة التصحيحية تتحدث في صفحاتها عن أردننا ووصف البروفسور الصهيوني كلاوسنر الموقف البريطاني بالسرقة لانه اعتداء على كرامة الشعب اليهودي.

واتخذ حزب مزراحي والمنظمة الصهيونية التحريصية والصهيونيون العامون القرار التالي: ـ

«ان الامة اليهودية لن توافق مطلقا على سلخ شرق الاردن عن جسد فلسطين الذي تربطهابه صلات تاريخية وجغرافية واقتصادية. ولايستطيع اي تصريح ان يغير من اعتقاد كل فرد يهودي بأن الارض الواقعة شرقي نهر الاردن تؤلف جزءا لايتجزء من وطنه الام ودولة المستقبل.»[٢٤] وعندما شرعت الجمعية للامم المتحدة مناقشة قضية فلسطين وطرحت فكرة التقسيم قدمت عصابة الاراغون في ايلول عام ١٩٤٧ مذكرة انتقدت فيها التقسيم واكدت على حق الصهيونية في شرقي الاردن ورد فيها مايلي: ـ

«ان ارض اسرائيل لايمكن تقسيمها، وشرقي الاردن تؤلف جزءا لايتجزء من وطننا الام، واننا نعلن ان كل اتفاق يوقعه افراد او مؤسسات على اي مشروع للتقسيم غير ملزم لشعبنا، فتوقيعهم لاغ لائح وكل معاهدة يجري توقيعها على اساس التقسيم تنقصها صفة الشرعية ويصبح من حق شعبنا وواجبه ان يبادر الى الغائها».

واعلن حاييم وايزمن زعيم المنظمة الصهيونية العالمية بعد تأسيس امارة شرقي الاردن «ان تدفق اليهود وزيادة اعدادهم في فلسطين هي الوسيلة الوحيدة للتوسع في شرق الاردن. وبالفعل حاولت الصهيونية تأسيس مشاريع كهربائية في شرق الاردن واقامة مستعمرات يهوديه بالقرب من السلط وتكوين جاليات يهودية هناك لكنها فشلت في مساعيها، لرفض الشعب الاردني القاطع لها.

الاطماع الصهيونية في سورية ولبنان

نشرت مجلة فلسطين الصهيونية مقالا عن سهل حوران يظهر اهميته القصوى للصهيونية ورد فيه «مامن منطقة مقدر لها أن تكون أكثر تأثيرا على تطوير فلسطين جديدة

أكثر من حوران». (٢٥)

ونشرت المجلة المذكورة مقالا بقلم بن زفي وبن غوريون جاء فيه ان فلسطين تضم أجزاء عديدة منها سهل حوران وجزء من سنجق دمشق واقضية القنيطرة ووادي عنجر وحاصبيا. (٢٦) واكدت مذكرة المنظمة الصهيونية العالمية التي قدمت الى مؤتمر الصلح في باريس عام **١٩١٩** الاطماع الصهيونية في جبل الشيخ اذ ورد فيها:

«ان جبل الشيخ هو ابو مياه فلسطين الحقيقي ولايمكن فصله عن فلسطين دون تعريض حياتها الاقتصادية للخطر.

وتضمنت المذكرة الصهيونية الاطماع اليهودية في جنوب لبنان اذ طالبت بادخال نهر الليطاني والحد الشمالي الاعلى لمنابع نهر الاردن قرب راشيا الفخار ضمن حدود الوطن القومي اليهودي.

وعندما اتفقت بريطانيا وفرنسا على حدود فلسطين مع لبنان احتجت الحركة الصهيونية لفصل جنوب لبنان وطالبت بضمه الى فلسطين.

الاطماع الصهيونية في سيناء

يعتبر هرتسل مؤسس الحركة الصهيونية أول صهيوني تعرض الى استعمار سيناء من قبل اليهود، وذلك في الرسالة التي بعثها الى اللورد روتشيلد في **١٩٠٢/٧/٤** وتبنى فيها فكرة فلسطين الكبرى، واطلق على صحراء سيناء لقب «فلسطين المصرية»، وشرح له فيها مخططاته لتأسيس مستعمرات يهودية في سيناء على ان تكون العريش نقطة الانطلاق الى فلسطين.

وكانت مصر انذاك تخضع للسيطرة البريطانية، فتوجه هرتسل الى لندن وقابل هناك وزير المستعمرات البريطاني وعرض له مشروع استعمار اليهود لسيناء، وفي نهاية المقابلة وجه له هرتسل السؤال التالي:

هل توافق على تأسيس مستعمرات يهودية في شبه جزيرة سيناء، فأجاب وزير المستعمرات البريطاني قائلا. نعم اذا وافق اللورد كرومر على ذلك.

وقابل هرتسل في اليوم التالي وزير الخارجية البريطاني، واظهر له الوزير تأييده لاقامة جاليات ومستعمرات يهودية في وادي العريش وسيناء، واخبره بانه سيكتب فورا رسالة الى كرومر الحاكم البريطاني في مصر بخصوص تسهيل زيارة المبعوث الصهيوني جرينبورغ.

وكتب هرتسل في مذكراته حول زيارة جرينبورغ الى مصر مايلي:

«عاد جرينبورغ من القاهرة وقد احرز نجاحا تاما، اذ كسب الى جانب قضيتنا اللورد كرومر، كما كسب رئيس وزراء مصر بطرس غالي، واستمال بعرض كبار الموظفين البريطانيين

هناك.

الكيان الصهيوني والتوسع

تأسس الكيان الصهيوني في **١٥** ايار **١٩٤٨** في جزء من فلسطين باستخدام القوة وارتكاب المجازر والترحيل الجماعي للشعب العربي الفلسطيني. ولم يكتف الارهابيون الصهاينة بالحدود التي رسمها قرار التقسيم، فشنوا الحرب على العرب الفلسطينيين واحتلوا اجزاء كبيرة من اراضي الدول العربية التي نص قرار التقسيم على اقامتها وعلى اثر تأسيسها.

افصح حاييم وايزمن اول رئيس للكيان الصهيوني عن الاطماع الصهيونية وقال: اليوم تحقق الصهيونية اول خطوة في برنامجها. وخطب بن غوريون اول رئيس حكومة للكيان الصهيوني وقال: «هذه ليست نهاية كفاحنا وعلينا ان نمضي لتحقيق قيام الدولة التي جاهدنا في سبيلها من النيل الى الفرات». وقال بن غوريون في بداية العام الدراسي لعام **١٩٥٠** مايلي:-

«ان هذه الخريطة (يقصد خريطة فلسطين) ليست خريطة دولتنا بل لنا خريطة اخرى عليكم انتم مسؤولية تصميمها، خريطة الوطن الاسرائيلي الممتد من النيل الى الفرات».

واعلن يهوذا مينون وزير الشؤون الدينية في حديث له امام اجتماع الكرين كيميت بتاريخ ٨ اب **١٩٥١** «ان حدود الدولة اليهودية تمتد من الفرات الى النيل»(٢٧)

وحاول ابا ايبان التنصل من الاهداف التوسعية للصهيونية فقال بمناسبة مرور ثلاثة اعوام على تأسيس الكيان الصهيوني مايلي:- «لسنا من المهتمين بالنيل والفرات، لكننا نولي الاردن ومنابعه كل اهتمام»(٢٨).

وكتب بن غوريون في مقدمة الكتاب القومي لحكومة اسرائيل عام **١٩٥٢** بأن «دولة اسرائيل قد قامت فوق جزء من أرض اسرائيل»(٢٩).

واعتبر بن غوريون حدود الوضع الراهن الذي انبثق عن اتفاقيات الهدنة اشبه بالحدود الانتقالية والمؤقتة طالما ان حدود دولته لم تأت مطابقة للحدود التاريخية التي تعيد امجاد داوود وسليمان في مساحة تمتد من النيل الى الفرات.

طالب التحريضيون بالحدود التاريخية لفلسطين لتضم شرق الاردن، باعتبار ان نهر الاردن يمر في وسط فلسطين. واجمعت كافة الاتجاهات الصهيونية ان دولتها قامت فوق جزء من ارض اسرائيل التاريخية.

وسن الكيان الصهيوني قانون العودة لتسهيل هجرة يهود العالم الى فلسطين وتجميعهم فيها، فالمادة الاولى من القانون تمنح كل يهودي في العالم حق المجيء بصفة مهاجر عائد.

يقول بن غوريون عن قانون العودة مايلي:-

«ان قانون العودة ليس مثل قوانين الهجرة السارية المفعول في البلدان الاخرى، اذ تنص تلك القوانين على الشروط التي تقبل الدولة بموجبها بعض طبقات المهاجرين من الخارج بل ان قانون العودة هو قانون الديمومة التاريخية والاستمرار للصلة القائمة بين شعبنا وارض اسرائيل، وهو يضع المبدأ الاساسي الذي تم بفضله احياء دولة اسرائيل، كما سيعود اليه الفضل في بقائها ونموها وتحقيق رسالتها في الخلاص القومي»[٣٠].

واخذت المنظمات الصهيونية العالمية والكيان الصهيوني بأجهزته المختلفة حمل اليهود على الهجرة الى فلسطين، بعد ان اجبروا مليون عربي على الرحيل من وطنهم فلسطين.

وجاء في احدى النشرات التي وزعتها منظمة الشباب الصهيوني بيتار في الولايات المتحدة عام ١٩٥٣ مايلي: «لقد فشل التقسيم وقد اخطأنا خطأ مميتا بقبوله منذ البداية . . . ان واجبنا المباشر هو اعادة توحيد القدس، القديمة والجديدة والقضاء على اضحوكة الدعاية المسماة المملكة الاردنية الهاشمية واعادة الحكم اليهودي الى اسرائيل الكبرى بكاملها على ضفتي الاردن، ان اسرائيل الكبرى بحدودها التاريخية هي وحدها التي تقدم الحل الدائم»[٣١].

وعندما اعلن انطوني ايدن مقترحات لتسوية الصراع بين الكيان الصهيوني والدول العربية وقال ان من الخطأ تجاهل قرارات الامم المتحدة ادلى بن غوريون في منتصف تشرين الثاني عام ١٩٥٥ بتصريح امام الكنيست رفض فيه المقترحات البريطانية، وزعم ان دولته هي الدولة الوحيدة التي يحق لها المطالبة بالتعويض عن العدوان الذي شنه العرب عام ١٩٤٨ وقال: «اذن يجب على مصر مغادرة قطاع غزة في الحال، وعلى الاردن اخلاء فلسطين الغربية بكاملها»[٣٢].

وعندما اممت مصر قناة السويس، اشترك العدو الصهيوني مع فرنسا وبريطانيا في الهجوم عليها وبدأ حرب السويس العدوانية في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٦ واحتل قطاع غزة وسيناء. وورد في كتاب جغرافية اسرائيل الصادر عن برنامج الترجمات العلمية في القدس المحتلة «ان ارض اسرائيل هي الارض التي وعد بها ابراهيم فيذكر مملكة داوود وسليمان التي امتدت من النهر الكبير ـ نهر الفرات الى نهر مصر»[٣٣].

وتابع الكيان الصهيوني سياسته العدوانية، فقام في مطلع الستينات بتحويل نهر الاردن، النهر العربي في منبعه ومجراه ومصبه.

وفي نهاية ١٩٦٦ قام العدو الصهيوني بتدمير قرية السموع الفلسطينية وقتل العشرات من نساء واطفال القرية.

وفي السابع من نيسان ١٩٦٧ قام بعدوان جوي كبير على منشآت تحويل اليرموك ودمر قسما منها داخل الاراضي السورية.

وفي الخامس من حزيران ١٩٦٧ قام بحرب حزيران العدوانية لتحقيق اهدافه

التوسعية في الاراضي العربية لاقامة اسرائيل الكبرى وخدمة المصالح الامريكية وتدمير القدرات العربية العسكرية والاقتصادية لفرض هيمنته والهيمنة الاميركية على الوطن العربي.

لقد خطط العدو الصهيوني لعدوان حزيران بالتنسيق والتعاون الكاملين مع الولايات المتحدة الاميركية والتي قدمت له مايحتاجه من معلومات واسلحة ومعدات عسكرية مكنته من تحقيق انتصاره العسكري واحتلال الضفة والقطاع وسيناء والجولان.

وضمنت له الولايات المتحدة تفوقه العسكري على جميع البلدان العربية وحافظت داخل الامم المتحدة وخارجها على استمراره في احتلال الاراضي العربية، والدفاع عن سياسته التوسعية، يقول مجرم الحرب موشي دايان في ٨ اب ١٩٦٧ معربا عن اطماع حكومته التوسعية بعد عدوان حزيران «ولما كان عندنا كتاب التوراة، ونحن اهل الكتاب يصبح لدينا ايضا ارض التوراة، ارض القضاة والاباء، في القدس والخليل واريحا وجوارها»[٣٤].

واصبح الشعار السائد في الكيان الصهيوني على مستوى كافة الاحزاب الصهيونية وفئات السكان «ان لاعودة الى حدود عام ١٩٤٨ حتى ولو صوتت الامم المتحدة بجميع اعضائها فلن تنسحب من الاراضي التي تحتلها»[٣٥].

ان الكيان الصهيوني هو الكيان الوحيد في العالم الذي لم يعين حدوده حتى الان، لذلك دفع المسؤولون فيه مفاهيم مختلفة عن الحدود باختلاف المراحل الزمنية حيث انهم بعد الحرب التي اشعلوها عام ١٩٤٨ رفعوا شعار الحدود الشرعية وهي تزيد عن حدود الهدنة، وبعد حرب حزيران العدوانية عام ١٩٦٧ رفعوا شعار الحدود الامنة والدائمة وهي أكثر من حدود عام ١٩٦٦ ثم اخذوا يطالبون بالحدود المقدسة، الحدود التي وردت في التوراة من النهر الكبير الفرات الى نهر مصر».

والواقع ان رفع هذه الشعارات المختلفة يهدف الى التستر على الاهداف التوسعية للكيان الصهيوني لاقامة اسرائيل الكبرى.

حركة اسرائيل الكبرى

ظهرت حركة اسرائيل الكبرى على اثر نشوة الانتصار التي حلت بالمسؤولين الصهاينة وشملت غالبية الاوساط اليهودية داخل الكيان الصهيوني وخارجه، وبتشجيع ودعم كاملين من المسؤولين الصهاينة.

واخذ اليهود يتحدثون عن المناطق المحتلة، وبعد ذلك استبدلوها بعبارة المناطق المحررة، ثم اخذوا يتحدثون في المرحلة الثالثة عن اسرائيل الكبرى. في بادىء الامر وقع ٥٤ من الشعراء والكتاب والعلماء والزعماء السياسيين بيانا ورد فيه: ان كل المناطق المحتلة

لنا»(٣٦).

واخذت الحركة تشمل رجال الدين والسياسة في الكيان الصهيوني فأصدر الحاخام الاكبر فتوى بتكفير من يتخلى عن شبر واحد من الارض الموعودة.

وعبر زراخ فارها فتيج وزير الشؤون الدينية عن مطامع حكومته التوسعية بقوله: «ها قد عدنا الى ارضنا ومن الان الى الابد»(٣٧).

واخذ رجال السياسة يستشهدون بما ورد في التوراة لتبرير رغباتهم في اقامة «اسرائيل الكبرى» من النيل الى الفرات ولكي يخدعوا العالم بأن الضفة والقطاع وسيناء والجولان اجزاء من ارض اسرائيل التاريخية وليست اراضي عربية محتلة.

واصدرت الحركة بيانا بعنوان انشاء مستوطنات يهودية في المناطق المحررة يأتي في المقام الاول «رحبت فيه بتشييد حزب العمل المستوطنات الاولى في الجولان وشمال سيناء وجبال الخليل وناشدت يهود العالم كي يبعثوا بسيل من المهاجرين لتوطينهم في المناطق الجديدة.

وأصدرت بياناً آخر تحت عنوان في سبيل اسرائيل كاملة ورد فيه «الهجرة والاستيطان اليهودي يؤلفان الدعامة الاقوى لمستقبلنا والهجرة الجماعية من الدياسبورا هي شرط أساسي للاحتفاظ بفلسطين كلها والمحافظة على طابعها اليهودي» (٣٨).

وكتبت لوموند عن حركة اسرائيل الكبرى تقول أن هذا الفريق من الاسرائليين قد تقدم بحجج دينية وأخرى تتعلق بالامن والسلامة للتمسك بالاراضي العربية المحتلة (٣٩)

وبالرغم من وضوح الاطماع التوسعية للصهاينة كمسؤولين وأحزاب ومؤسسات وحتى افراد خرجت مجلة نيوزويك الامريكية تزعم بأن الاسرائيليين لم يكن لديهم أية مطامع توسعية حين شنوا حرب حزيران بل برزت تلك المطامع عقب الرفض العربي للجلوس على مائدة المفاوضات والاتفاق بشأن السلام. (٤٠)

وتقول الحركة ان ارض «اسرائيل التاريخية» تتضمن أجزاء من سورية ولبنان والاردن وسيناء وان حق اليهود في هذه الاراضي حق نهائي.

وانعقد اول مؤتمر للحركة في القدس بتاريخ ٥/٦/١٩٦٨ حضره ممثلون عن حزب العمل الحاكم انذاك، وشامير وعدد من ابرز الكتاب والشعراء الصهاينة، كما بعث الارهابي بيغن زعيم حزب حيروت بتحيته الى المؤتمر أعلن فيه تضامنه مع أهداف الحركة.

وبعد التدقيق بأهداف وشعارات حركة اسرائيل الكبرى، يلاحظ المرء أنها جمعت مبادىء وأهداف حزب حيروت الفاشي، وحزب المتدينين القوميين، وتتمتع شعاراتها وأهدافها بعطف وتأييد كبيرين بين أوساط اليهود داخل الكيان الصهيوني وخارجه.

ان تدمير ٣٨٥ قرية فلسطينية داخل الاراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨ وتدمير مدن السويس والقنيطرة و ١٤ مخيماً من المخيمات الفلسطينية في لبنان وتدمير أجزاء واسعة من صور وصيدا والنبطية وبيروت الغربية وقتل أكثر من ٣٥ ألف فلسطيني ولبناني في عدوان

١٩٨٢ وضم القدس والجولان يظهر بجلاء وحشية وهمجية الكيان الصهيوني الذي يتبع سياسة الخراب والدمار والارض المحروقة وإبادة الجنس تجاه الشعب العربي مما يشكل انتهاكاً خطراً لاتفاقية تحريم ابادة الجنس البشري وميثاق الامم المتحدة وقراراتها ومبادىء القانون الدولي والاعلام العالمي لحقوق الانسان واتفاقيات جنيف الاربعة لعام ١٩٤٩.

ان وقائع الاحداث السياسية والحروب التوسعية التي يرتكبها العدو الصهيوني تظهر بجلاء انه لولا الدعم الاميركي والاوروبي الغربي للكيان الصهيوني لما تمكن من ارتكاب حروبه العدوانية ومجازره الجماعية. فحكومة الولايات المتحدة تؤيد سياسته العدوانية والتوسعية والعنصرية والاستعمارية، وتحافظ على تفوقه العسكري على جميع الدول العربية وتتدخل بشكل مباشر في الحروب للحيلولة دون هزيمته كما حدث في حرب تشرين التحريرية، وتحول دون انهياره الاقتصادي عن طريق تقديم مساعدات مالية واقتصادية وعسكرية ضخمة لامثيل لها في تاريخ العلاقات الدولية.

ان العدو الصهيوني لايستهدف فلسطين وحدها، بل الوطن العربي بأسره فالبلدان العربية جميعها مهددة بعضها بالامس وبعضها اليوم والبعض الآخر غدا أو بعد غد. ولذلك فالقوة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن للعرب بواسطتها الدفاع عن أنفسهم. بالقوة ثم القضاء على هتلر وألمانيا الهتلرية، وبالقوة يجب القضاء على شامير وكيانه الصهيوني لان الصهاينة أسوأ بني البشر وبيغن وشامير وشارون أسوأ من هتلر، والصهيونية أسوأ من النازية والكيان الصهيوني أسوء من المانيا النازية. لذلك يجب القضاء على الصهيونية ومؤسساتها كما تم القضاء على النازية ومؤسساتها لكي يعم السلام والرخاء في الشرق الاوسط.

المراجع

١ ـ القبس في ٧/٢/١٩٩٠

٢ ـ انظر: الوطن في ١/٣/١٩٩٠

٣ ـ تيسير النابلسي، حركة الهجرة اليهودية بعد عدوان حزيران، مركز الابحاث الفلسطينية بيروت ١٩٧١ ص ١١.

٤ ـ المصدر السابق نقلاً عن جويس أوبزيرفر آند ميدل ايست ريفيو ٧ تموز ١٩٦٧

٥ ـ دافار في ١١/٩/١٩٦٧.

٦ ـ حركة الهجرة اليهودية بعد عدوان حزيران ص ١٣.

٧ ـ دافار في ١٦/١١/١٩٧٠

٨ ـ الدكتور اسعد رزوق، اسرائيل الكبرى، سلسلة كتب فلسطينية ١٣، بيروت ١٩٦٨ ص ١٧٤

٩ - المصدر السابق ص ١٤٤ نقلا عن مقالة الصهيونية في الموسوعة اليهودية المجلد ١٢ عام ١٩٠٥ ص ٦٨٤.
١٠ - انظر: اسرائيل الكبرى ص ١٦٣.
١١ - المصدر السابق ص ١٦٩ نقلا عن دليل فلسطين ص ٤٣ - ١٥.
١٢ - المصدر السابق ص ١٦٩ نقلا عن دليل فلسطين ص ١٤
١٣ - مجلة فلسطين الصهيونية الصادرة في حزيران ١٩١٨.
١٤ - الانوار اللبنانية في ١٩/ ٥/ ١٩٦٧ نقلا عن اسرائيل الكبرى ص ٤٠٤.
١٥ - انظر: نورمان بينوتيش بالانكليزية، فلسطين اليهودية في الماضي والحاضر والمستقبل، لندن ١٩١٩ ص ٦٣.
١٦ - مجلة فلسطين الصهيونية الصادرة في ٢٨/ ٦/ ١٩١٩.
١٧ - توماس يسلوف، محارب ونبي قصة فلاديمير جابوتنسكي نيويورك ١٩٦١ ص ٣٣.
١٨ - اسرائيل الكبرى ص ٤٨٦.
١٩ - جوزيف شيختمان، ثائر ورجل دولة قصة فلاديمير جابوتنكسي نيويورك ١٩٥٦ ص ١١٢
٢٠ - جريدة ذي جويش ستاندرد، لندن ٢٩ اذار ١٩٤٦.
٢١ - جوزيف شيختمان، ثائر ورجل دولة ص ١٤٩.
٢٢ - ذي جويش ستاندرد لندن ٢٤ آب ١٩٤٥.
٢٣ - رسالة أ. ابراشاس المنشورة في جويش كرونيكل في ١٨/ ٧/ ١٩٤١.
٢٤ - ذي جويش ستاندرد، لندن في ٤/ ٢/ ١٩٤٦.
٢٥ - مجلة فلسطين الصهيونية الصادرة في ٢٣/ ٦/ ١٩١٧.
٢٦ - المصدر السابق في حزيران ١٩١٨.
٢٧ - اسرائيل الكبرى ص ٥٨٠.
٢٨ - أبا ايبان في الجيروزاليم بوست القدس في ٢/ ٥/ ١٩٥١.
٢٩ - الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل عام ١٩٥٢ القدس المطبعة الحكومية ص ١٥.
٣٠ - الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل لعام ١٩٥٧ المطبعة الحكومية القدس ص ٣١.
٣١ - اسرائيل الكبرى ص ٥٨٠.
٣٢ - ذي جويش كرونيكل ١٨/ ١٠/ ١٩٥٥.
٣٢ - افرام اورني وليليشا افرات جغرافية فلسطين برنامج الترجمات العلمية القدس ١٩٦٤ ص ١.
٣٤ - جيروزاليم بوست في ١٠/ ٨/ ١٩٦٧.
٣٥ - انظر: الهيرالدتربيون الدولية باريس في ٣٠/ ١٠/ ١٩٦٧.
٣٦ - هآرتس في ٢٩/ ٩/ ١٩٦٧.
٣٧ - مجلة دير شبيجل الالمانية العدد ٤٨ في ٢٠/ ١١/ ١٩٦٧ ص ١٢٧.

افاق العلاقات الأميركية - الاسرائيلية في ظل المتغيرات الدولية

مامون كيوان*

* مقدمة:

في ظل التطورات والمتغيرات العالمية، التي يتأثر بها نظام العلاقات الدولية، والناشئة عن انتهاج قادة الاتحاد السوفياتي سياسة البيريسترويكا، التي أدت بدورها الى نشوء حقائق جديدة على أراض الواقع الجيوسياسي، على شاكلة سقوط جدار برلين، والخطوات الجارية بصدد الاعلان عن ظهور «المانيا الموحدة» في نهاية العالم الحالي (١٩٠)، اضافة الى الاعلان عن انتهاء مرحلة «الحرب الباردة». وهذا ما أكدته قمة «بوش - غورباتشوق» في واشنطن، وقمة «لندن» للدول الاعضاء في حلف شمال الاطلسي، يجري الترويج في بعض الاوساط الفلسطينية والعربية والدولية، لوجهة نظر تدعي أن مكانة الكيان الصهيوني الاستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية قد تضاءلت، وأنها في طور الانحسار والتلاشي. وتُدعم وجهة النظر هذه، بتصريحات كبار الباحثين الاميركيين، وفي بعض الاحيان الصهاينة. ومثال ذلك ما قاله «مارتن أنديك» - مدير معهد واشنطن لسياسات الشرق الادنى. في نهاية (١٩٨٩): «ان التغييرات التي تجتاح أوروبا الشرقية، ستقلص أهمية «اسرائيل» الاستراتيجية بالنسبة الى الولايات المتحدة، التي لن تعود بحاجة الى حلفاء للتصدي للنفوذ السوفياتي. وان المحيط الاستراتيجي الدولي يتغير كلية، وأهمية «اسرائيل» الاستراتيجية ستتأثر بالتأكيد مع الزمن، الى الحد الذي انتهت فيه الحرب الباردة، حقاً يوجد شعور بأنه ما عاد يجب علينا محاربة النفوذ السوفياتي، ومنه انتشاره. ومقتضى هذا أن جهد أولئك الحلفاء لمساعدتنا في هذا الجهد أقل من ذي قبل»[1]. وأكد على ذلك، أيضاً، «مارك

---

* باحث من فلسطين.

هيللر» ـ من مركز «جافي» للدراسات الاستراتيجية في جامعة «تل أبيب» الذي قال: ان اضمحلال الشعور بالتهديد السوفياتي للشرق الاوسط (ربما يؤدي الى) اضمحلال قيمة «اسرائيل» الاستراتيجية في نظر صانعي السياسة الامريكية، «لانه» لم يعد هناك عدو مشترك»[٢].

ومما يُعمق ويساعد على انتشار وجهة النظر السابقة، سيادة فهم يُضخم الخلافات الاميركية ـ «الاسرائيلية»، ويعتبر أن «رفض» قادة الكيان الصهيوني لخطة «بيكر»، ومواجهتها «بمشروع الانتخابات»، أو ما يسمى خطة «شامير»، وتصريحات السناتور «روبرت دول» المتعلقة بخفض قيمة المساعدات الاميركية، المقدمة سنوياً الى الكيان الصهيوني، بنسبة (٥٪)، ستوسع الفجوة الاميركية ـ «الاسرائيلية»، وأن قدرة «اللوبي الصهيوني» ـ الايباك ـ «AIPAC» ، على ردم وتجسير تلك الفجوة، محدودة وهامشية، وذلك استناداً الى انحسار نفوذه في الكونغرس الاميركي، ومراكز صنع القرار السياسي الاميركي الاخرى. وأن الفرصة سانحة أمام اللوبي العربي «NAAA» ، لكي يقوم بتوسيع نفوذه، وثني الادارة الاميركية عن سياساتها المعادية للعرب عامة، وللفلسطينيين على وجه الخصوص.

هل تُجانب وتعوز وجهة النظر الواردة أعلاه المصداقية والدقة؟ أم أن تاريخية العلاقة «الخاصة» الرابطة بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، تدلل على عكس ذلك؟.. وما هي الاسس التي تحكم تلك العلاقة الخارجية؟. هذا ما تحاول السطور القادمة الاجابة عليه، وتبيان مدى ثبات تلك الاسس، في ظل المتغيرات والتطورات العالمية التي خلقت حقائق جديدة وملموسة.

*** خلفية تاريخية:**

يعتبر تصريح الرئيس الامريكي «هاري ترومان»، في ١٤/ أيار/ ١٩٤٨، والقاضي باعتراف الادارة الاميركية بالكيان الصهيوني، بعد دقائق من الاعلان عن قيامه، مساء يوم الجمعة ١٩٤٨/٥/١٤، بمثابة مفتاح العلاقات الاميركية ـ «الاسرائيلية» الاساسي، اضافة الى أنه يشكل المحطة الثالثة والنوعية، في مسار تلك العلاقات، التي مهدت لها محطتان سابقتان، تجسدتا من ناحية الولايات المتحدة الاميركية، فيما يلي:

آ ـ التأييد الاميركي في عهد ادارة الرئيس «وودرو ويلسون» (١٩١٧)، لوعد بلفور القاضي بتعهد بريطانية باقامة «وطن قومي» لليهود في فلسطين، ودعم ورعاية الحركة الصهيونية. ويعكس ذلك الوعد، اتفاق المراكز الامبريالية في ذلك الوقت، على ضرورة وجود أداة بشرية، تخدم مصالحها في منطقة الشرق الاوسط، وتكون جزءً منها، ومعبرة عنها، وعن متطلباتها الضرورية والاستراتيجية. وعلى هذا الاساس، وجدت هذه المراكز في الحركة

الصهيونية، كحركة سياسية عصرية، مادتها يهود العالم، صالتها المنشودة، ومقصد آمالها وطموحاتها، والبنية التحتية اللازمة لتجسيد المشروع الامبريالي العام في منطقة الشرق الاوسط.

ب ـ التأييد الاميركي «لقرار تقسيم فلسطين» (١٩٤٧) في عهد ادارة الرئيس «هاري ترومان»، الذي أشار في مذكراته، الى أن «وعد بلفور سار خطوة خطوة مع مبدأ ويلسون حول تقرير المصير»[٣]، وفي عهد سلفه «فرانكلين روزفلت» عقدت الحركة الصهيونية «مؤتمر بلتمور» (١٩٤٢)، الذي عبرت قراراته عن انتقال مركز نشاط الحركة الصهيونية من «لندن» الى الولايات المتحدة الاميركية، وعن عقد شراكة بينها وبين الادارة الاميركية، بصفتها المرشحة لزعامة الدول الرأسمالية آنذاك. اذ أن دلائل الحرب العالمية الثانية، ومجريات أحداثها، كانت تدلل على ذلك. وبناء عليه، فان التأييد الاميركي لقرار التقسيم، والاعتراف بالكيان الصهيوني، يعتبر أمراً طبيعياً ومعبراً عن رؤية الادارة الاميركية لمستقبل ذلك الكيان وأهميته. ولقد عبر عن ذلك «ي. ب ارتشيبولد»، كبير الملحقين العسكريين الاميركيين لدى الكيان الصهيوني، بعد أن أشهر من الاعلان عن ذلك الكيان بقوله: «انهم (الاسرائيليين) ليسوا على يقين بعد، أن أميركا هي صديقتهم مئة بالمئة. لقد خسرنا صداقة البلاد العربية، ولهذا السبب علينا أن نعمل ما في وسعنا للحصول على صداقة «اسرائيل». ويبدو أن لهذه الامة الصغيرة امكانات كبرى، اذ أنها ستصبح بلا ريب البلد الابرز في الشرق الاوسط... اسرائيل هي الحصان الذي يجب أن نراهن عليه في هذه المنطقة»[٤]. كما ويعكس هذا التصريح الاولي للدور الذي علقته، ومازال، مختلف الادارات الاميركية على الكيان الصهيوني.

*** الرؤية الاميركية للكيان الصهيوني:**

تعكس مواقف الادارات الاميركية المتعاقبة، سواء أكانت جمهورية أم ديمقراطية، الاتفاق على جوهر وأهمية وجود الكيان الصهيوني. وتستند في ذلك الى جملة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المشتركة.. فالولايات المتحدة والكيان الصهيوني كلاهما مشروع استيطاني، وتتشكلان من كتل بشرية هاجرت من مواطنها الاصلية اليهما. وقد عبر عن ذلك بوضوح الرئيس الاميركي السابق «رونالد ريغان»، في خطاب القاه في حفل استقبال أقيم في واشنطن، بمناسبة زيارة رئيس الوزراء الصهيوني السابق «مناحيم بيغن» (١٩٨١)، إذ قال: «قد تكون «اسرائيل» وأميركا متباعدتين آلاف الأميال، ولكننا متجاوران فلسفياً، نشترك في التزام قوي بالديمقراطية، وبحكم القانون. ومانشترك فيه هي روابط الثقافة والصداقة، وهي مزايا تجعل في نظرنا «اسرائيل» دولة

عظيمة. ليس من «شعب» حارب أطول، أو كافح أشد، أو ضحى أكثر من شعبكم، لكي يبقى وينمو ويعيش في حرية. ان الولايات المتحدة و«اسرائيل» تشتركان في بدايتين متماثلتين كدولتي مهاجرين، تتوقان إلى العيش بحرية، وتحقيق أحلام أجدادنا. وقد سعى كلانا إلى إنشاء مجتمعات من القانون والعيش في سلام، وتطوير الامكانيات الكاملة لأراضينا. ونحن نشترك في تكريس أنفسنا للمؤسسات الديمقراطية، والمسؤولية تجاه ارادة مواطنينا. ان شعبينا يعتنقان مبادىء مشتركة، من تحسن الذات عن طريق العمل العسير، والمبادرة الفردية. ونحن معاً ننشد سلاماً لجميع الشعوب وبنوع خاص نحن مصممون على الدفاع عن الحرية، وصيانة أمن مواطنينا. ونحن نعلم أن الاسرائيليين يعيشون في خطر دائم، ولكن «إسرائيل» ستنال مساعدتنا، وهي ستبقى قوية وآمنة، وصفتها الخاصة من الروح والنبوغ والايمان ستبقى سائدة»(٥).

وعلى هذا الأساس من القيم المشتركة، تجنح مختلف الادارات الاميركية، نحو اعتبار الكيان الصهيوني بمثابة ذخر استراتيجي لها، وأن بقاءه ضرورة قومية أميركية، كما أنها تعتبر الكيان الصهيوني «واحة الديمقراطية»، وممثلاً «للعالم الحر» في منطقة الشرق الأوسط. وإضافة إلى ماسبق، فإنه يتمتع بدرجة عالية من الإستقرار. ويبقى أن التصور الأساسي والإستراتيجي الاميركي للكيان الصهيوني، يتجسد في أن مهمة ذلك الكيان تتحدد فيما يلي:

أ ـ حماية مصالح الامبريالية الاميركية في المنطقة العربية، وتحديداً نفط الخليج العربي.

ب ـ تصدير الثورة المضادة بكل أشكالها السياسية والإقتصادية والعسكرية، ضد جماهير الأمة العربية، ومنعها من تحقيق حريتها وإستقلالها وتقدمها الإجتماعي.

ج ـ مواجهة مايسمى «الخطر الشيوعي» الذي يهدد منطقة الشرق الأوسط، ويؤدي إلى تهديد المصالح الاميركية في تلك المنطقة.

ويمكن للكيان الصهيوني أن يقوم ببعض المهام بالنيابة عن الإدارة الاميركية، في عدة مناطق من العالم، وذلك حين تتحرج الإدارة الاميركية من أداء تلك المهام، سواء نتيجة ضغوط داخلية، أو قوانين يصدرها الكونغرس الأميركي، أو نتيجة لاتفاقات دولية على شاكلة إتفاقية الحد من إنتاج الأسلحة، أو معاهدة (INF) القاضية، بإزالة الصواريخ المتوسطة المدى التي عقدتها الإدارة الأميركية مع الإتحاد السوفياتي. كما ويمكن للكيان الصهيوني، أن ينفذ برامج إنتاج وتطوير أسلحة نووية وصاروخية، تتيحها له عدم خضوعه لأي رقابة دولية، في حين أن الإدارة الأميركية مضطرة لإخضاع تجاربها النووية للرقابة الدولية نظراً لتوقيعها على معاهدة عدم إنتشار الأسلحة النووية. وبالتالي فإنها تجد، أن الكيان الصهيوني الذي لم يوقع وغير مُلزم بتلك المعاهدة، يمكنه تصدير بعض الأسلحة النووية إلى بعض الدول الحليفة لها، وأن يقوم بذلك عوضاً عنها. وهذا مايُفسر، إمتلاك الكيان

الصهيوني لحوالي (٥٠) إلى (١٠٠) رأس جربي نووي، وإطلاقه للأقمار الصناعية، وتطوير صواريخ «أريحا ـ ١»، «أريحا ـ ٢»، «أريحا ـ ٣».

وفي ظل المتغيرات الدولية الحالية، تُشير دلائل كثيرة، أن السياسة الأميركية الكونية، لاتدفع الإدارة الأميركية نحو الانكفاء على نفسها ضمن القارة الأميركية، لأن ذلك يعني إنتهاء عصر الهيمنة الأميركية على العالم، إذ أن تلك السياسة، وبعد أن أنجزت «مشروع مارشال» في أوروبة الغربية في عقد الأربعينات، وإنجازاتها في منطقة شمال شرق آسيا، وإخضاع اليابان في عقد الخمسينات، وملء الفراغ الذي أحدثه انحسار النفوذ الفرنسي في جنوب شرق آسيا في الستينات، وإتجاهها نحو منطقة جنوب غرب آسيا، والشرق الأوسط، في عقد الثمانينات، وتعاظم أهمية تلك المنطقة على قاعدة الموقع الجيوسياسي لها، وتمركز المصالح الأميركية فيها، والمتمثلة بوجود «النفط». ماتزال السياسة الأميركية، وتحت شعار «أمن الخليج»، ماضية في الإلتزام بتنفيذ «مشروع كارتر»، الذي قطعت إدارة ريغان أشواطاً في تنفيذه، إذ أنها أنجزت تشكيل قوات «الانتشار السريع»، وتشكيل محور دول «الإجماع الإستراتيجي»، كتحالف سياسي ـ عسكري، مهمته ضمان مايسمى بـ «الإستقرار» في منطقة الخليج العربي، إضافة إلى عقد إتفاقية «التحالف الاستراتيجي» مع الكيان الصهيوني، وتنفيذ الحلقة الأولى من إتفاقيات «كامب ديفيد» مع مصر. ويمكن القول أن كل ماتم إنجازه، من «مشروع كارتر»، يصب في إتجاه إخضاع حل القضية الفلسطينية لمصلحة «أمن الخليج»، وتنصيب الكيان الصهيوني قوة مهيمنة في منطقة الشرق الأوسط، وحارساً أساسياً للمصالح الأميركية في تلك المنطقة.

ومما يدلل على أن الإدارة الأميركية الحالية ماضية في تنفيذ«مشروع كارتر»، وتثبيت هيمنتها على منطقة الشرق الأوسط، هو تعاظم أهمية النفط في الأسواق الرأسمالية، وإستمرار بقائه سلاحاً هاماً من أسلحة الولايات المتحدة، تضغط من خلاله على دول أوروبة الغربية، الساعية إلى تجسيد وحدة أوروبا (١٩٩٢)، وعلى اليابان التي أصبحت قوة منافسة للولايات المتحدة في السوق الرأسمالية. وتؤكد على ذلك تصريحات مسؤولي الإدارة الأميركية، وخاصة العسكريين منهم. ففي كلمة لوزير الدفاع الأميركي «ريتشارد تشيني»، أمام مؤتمر «الايباك» ـ اللوبي الصهيوني ـ الأخير، الذي عقد في حزيران (١٩٩٠)، قال: إن التطورات الأخيرة والتغييرات في أوروبة الشرقية، لن تؤثر على العلاقات الإستراتيجية بين الولايات المتحدة و«إسرائيل»، وأن واشنطن ستظل ملتزمة بمبدأ تفوق «إسرائيل» العسكري في الشرق الأوسط. وستلجأ إلى كل الوسائل الحماية، أمن «إسرائيل»، وأصدقاء الولايات المتحدة. وقد تستعمل الوسائل العسكرية في سبيل ذلك(٦). أما رئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب الأميركي «لبس»، فأكد على أن «نهاية الحرب الباردة، لن تضعف العلاقات الإستراتيجية بين أميركا وإسرائيل، لأن هذه العلاقات

مبدئية، ولم تكن مبنية على الخوف من الخطر السوفياتي، بل على خوف «إسرائيل» من العرب والمصالح الإستراتيجية الأمريكية في المنطقة»[7]. وتقاطع مع ماسبق قول «كولين باول»، رئيس هيئة الأركان المشتركة الأميركية بـ «أن واشنطن ستحافظ على وجودها في الشرق الأوسط، وليست لديها خطط للإنسحاب من المنطقة، في إطار تخطيط دفاعاتها العامة، وإن التراجع هو أبعد شيء عن تفكيرنا»[8]. وتأتي إستجابة دول أوروبة الغربية واليابان لإرادة الإدارة الأميركية، ومواقف تلك الإدارة من تطورات الأوضاع في منطقة الخليج، العسكرية منها والسياسية لتثبت موقع الولايات المتحدة الأميركية القيادي في تحالف الدول الرأسمالية، مما يعكس نفسه على علاقة «التحالف الإستراتيجي» القائمة بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، لجهة تدعيم قوة ذلك الكيان العسكرية، وتثبيت دوره العدواني في المنطقة. ذلك الدور الذي يشكل مبرر وجود الكيان الصهيوني، إذ أن ذلك الدور العدواني ليس وسيلة «دفاعية» لحماية الكيان الصهيوني، بل أن الكيان الصهيوني برمته، يستند في وجوده، ويأخذ مبرره، من قيام الآلة العسكرية الصهيونية بدور عدواني ضد جماهير الأمة العربية. فغياب ذلك الدور، يلغي، وبشكل تلقائي، مبرر وجود ذلك الكيان. وإن إقامة الكيان الصهيوني، بناءً على هذا الدور، يشكل عملية قلب لنظرية «كلاوزفيتز»، لتصبح على الشكل التالي: «الدبلوماسية هي إمتداد للحرب بوسائل أخرى». والإدارة الأميركية في عهد «ريغان»، ونتيجة لتبنيها «لمشروع كارتر»، إعتمدت النظرية السابقة كجوهر لسياستها تجاه القضية الفلسطينية، ومسألة «أمن الخليج».

المساعدات الأميركية للكيان الصهيوني:

تشكل المساعدات المالية بشكليها الإقتصادي والعسكري، حجر الزاوية في مسألة العلاقات الأميركية ـ «الإسرائيلية». ويدلل على ذلك، ماتضمنه التقرير الأخير، الذي نشرته مجلة «الميدل إيست ريبورت» Middle East Report الأميركية، والذي حدد أن الحجم الحقيقي للمساعدات التي تقدمها الإدارة الأميركية للكيان الصهيوني، هو مبلغ (٦,٢) مليارات دولار. وذلك فقط خلال عام (١٩٨٩) ويشمل (٣,٧) مليارات دولار، تُقدم على شكل مساعدات إقتصادية وعسكرية، و (٥٠٠) مليون دولار عائد بيع «سندات إسرائيل»، التي تبيعها الشركات الأميركية. و (١) مليار دولار تبرعات تجمع من المواطنين الأميركيين. أما بقية المبلغ، فتكون عبر قروض طويلة الأمد، أو مقابل خدمات تُقدم من قبل مؤسسات الكيان الصهيوني ومرافقه العسكرية للقوات الأميركية، المتواجدة في منطقة الشرق الأوسط[9].

وتعود المساعدات التي تقدمها الولايات المتحدة إلى الكيان الصهيوني، إلى أواخر عام

(١٩٤٩) حين قدم البنك الأميركي للتصدير والإستيراد قرضاً للكيان الصهيوني، وقدره (١٣٥) مليون دولار، منها (٢٠) مليون دولار للآلات الصناعية، وفي عام (١٩٥١)، قدمت الولايات المتحدة مبلغ (٦٥) مليون دولار على شكل هبة، وقرضاً من بنك التصدير والإستيراد الأميركي، وقدره (٣٠) مليون دولار. وكانت حصيلة بيع «سندات إسرائيل» في ذلك العام (٧٤) مليون دولار[10]. وأسهمت تلك المساعدات في تغطية نفقات بعض المشاريع الإقتصادية والعسكرية في تلك السنوات، إضافة إلى مساهمتها في توفير تكاليف استيعاب موجة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، في تلك الفترة.

وخلال السنوات العشر، أو الإثنتي عشر الماضية، بلغ مجموع المبالغ التي قدمتها الولايات المتحدة إلى الكيان الصهيوني حوالي (٤٠) مليار دولار، كما يؤكد على ذلك السناتور «روبرت دول»[11]. ولاتشكل هذه المبالغ أية خسارة إقتصادية بالنسبة للولايات المتحدة. فالحسابات الإقتصادية البسيطة، من ناحية الكلفة والمردود، والجدوى الإقتصادية، تشير إلى أن الكيان الصهيوني، وفر على الولايات المتحدة خلال ثلاثة عقود فقط، مامجموعه (٥٠٦) مليارات دولار، كانت ستدفعها لو أنها ـ أي الولايات المتحدة ـ قامت بنفسها بالقيام بأعمال التجسس، أو عمليات عسكرية، أو بإنشاء قواعد أميركية ثابتة أو عائمة بديلة عن الكيان الصهيوني في الشرق الأوسط، وخدمات إقتصادية كانت قد تمت خسارتها في أفريقية وأميركا اللاتينية، وجنوب شرق آسيا، لولا وجود الكيان الصهيوني[12].

ومن جهته، فإن الكيان الصهيوني، يُقدم خدمات كبيرة منظورة وغير منظورة لمصلحة الولايات المتحدة، فهو يقوم، وإستناداً إلى دوره العدواني والفاشي، بتصدير الثورة المضادة بأشكالها المختلفة السياسية والإقتصادية والإيديولوجية. فعلى الصعيد السياسي، يسعى الكيان الصهيوني إلى ضرب وتفتيت حركة التحرر الوطني العربية، وتأزيم أوضاعها المأزومة أصلاً، نتيجة الشرخ القائم بين موقعها الطبيعي في خندق الجماهير العربية، ومواقفها التي تعبر عن إختلال أوجه نشاط تلك الحركة. ويحاول الكيان الصهيوني تعميق أزمة حركة التحرر الوطني العربية، عبر خلق أوهام سياسية لدى بعض أجنحتها، مما يؤدي إلى رفع درجة التناقضات داخلها، إلى درجة الإحتدام، مما يؤدي إلى تفتيتها، وتشرذمها إلى فرق وشيع متناحرة. ولعل تفجر أزمة العمل الوطني الفلسطيني، بعد الإجتياح الصهيوني للبنان (١٩٨٢)، يدلل على ذلك.

أما الشكل الإقتصادي للثورة المضادة، فيتم التعبير عنه عبر تعميق النزعة الإستهلاكية في المجتمعات العربية، وتعطيل أو ضرب محاولات المجتمعات العربية الساعية إلى بناء قاعدة مادية تكنيكية للصناعات الثقيلة والمتطورة من جهة، وتصعيد سباق التسلح في منطقة الشرق الأوسط، وتحويل تلك المنطقة إلى أكبر سوق للسلاح في العالم. وهذا يشكل خدمة لمنتجي السلاح والإحتكارات العسكرية الرأسمالية، وخصوصاً المجمع

العسكري الأميركي، من جهة أخرى.

وإيديولوجياً، يتم تعميم إيديولوجية رجعية، وثقافة إستهلاكية، تحت ستار من الحديث عن «الليبرالية» و«الديمقراطية»، مناهضة لأفكار التقدم والتحرر، من جهة، ومن أخرى تعميق النزعات الإقليمية والإنفصالية، والدعوات الطائفية، والإنعزالية.

أما مهمة الكيان الصهيوني على الصعيد العالمي، فتنحصر في القيام بمهام، وعبر أشكال مختلفة، تخدم الإمبريالية الأميركية، وذلك عبر قيام الكيان الصهيوني بدعم الأنظمة الفاشية والرجعية في آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية، وتزويد تلك الأنظمة بالسلاح، وبالخبرة العسكرية والأمنية لمكافحة وضرب حركات التحرر في تلك البلدان. ومثال ذلك دعم الكيان الصهيوني لعصابات «الكونترا» في نيكاراغوا، وغيرها من الدول.

كما ويقوم الكيان الصهيوني بتجيير النشاط الصهيوني الذي تمارسه المنظمات الصهيونية داخل الدول الإشتراكية لمصلحته، وخدمة للإمبريالية العالمية، فالنشاط الصهيوني في تلك الدول، يهدف إلى تعميق التناقضات داخلها، لزعزعة أسس النظام الإشتراكي، عبر إثارة المسألة القومية، أو إستغلال وجود اليهود في تلك الدول. ودليل ذلك دور المنظمات الصهيونية في أحداث بولونيا (١٩٨٠)، واليوم عبر الترويج لعودة «اللاسامية» لتلك الدول، وإضطهاد اليهود فيها. وذلك لإرغام يهود الإتحاد السوفياتي، ودول أوروبة الشرقية على الهجرة، لتأمين المادة البشرية التي يحتاجها الكيان الصهيوني ذاته، وتعميق أزمات المجتمعات الإشتراكية، خدمة من الكيان الصهيوني للولايات المتحدة، في ادعائها «فشل» أو «موت الشيوعية».

الخلافات الأميركية ـ «الإسرائيلية»:

تمر العلاقات الأميركية ـ «الإسرائيلية» بفترات من التوتر، وذلك على قاعدة إختلاف طرفي تلك العلاقة، حول عدد من المسائل، التي تتعلق بالصراع العربي ـ الصهيوني، وسبل إنجاز «التسوية»، وحول مسألة المساعدات، وبيع السلاح الأميركي لبعض الدول العربية، ومدى «إستقلالية» القرار السياسي الصهيوني، عن إرادة الأدارة الأميركية. ولقد مرت العلاقات الأميركية ـ «الإسرائيلية» بفترات من التوتر والإختلاف حول القضايا التالية:

أ ـ عقد إتفاقيات كامب ديفيد مع مصر.

ب ـ تزويد السعودية بطائرات الأواكس (AWACS) للإنذار المبكر، والطائرات المقاتلة المتطورة F16, F15 .

ج ـ ضم مرتفعات الجولان السورية إلى الكيان الصهيوني.

د ـ إعتبار القدس عاصمة أبدية للكيان الصهيوني.

ولعل الإختلاف بين الإدارة الأميركية والحكومة الصهيونية، على المسائل الواردة أعلاه تتقاطع من حيث الجوهر مع الخلافات القائمة الآن، والتي تتمحور حول خطة «بيكر»، ومسألة المساعدات. وكما أن الخلافات السابقة، التي سادت في بداية عقد الثمانينات، لم تؤدِ إلى فك العلاقة بينهما، فالخلافات الراهنة غير مرشحة لأن تشذ عن مسار سابقاتها. ومما يدلل على ذلك أن الخلافات الراهنة على مستوى الصراع العربي ـ الصهيوني، والناشئة عن طرح الإدارة الأميركية لمشروع «بيكر»، ومواجهته من قبل الحكومة الصهيونية بـ خطة «شامير»، وبالرغم من إتفاق المشروعين على حل أزمة الكيان الصهيوني، الناتجة عن نشوب الإنتفاضة الشعبية الفلسطينية (١٩٨٧) وإستمرارها، إلا أنهما تختلفان حول آلية الخروج من الأزمة، عبر «إخماد» الإنتفاضة. فالإدارة الأميركية، ترى تحقيق ذلك بالسبل السياسية، عبر توظيف قوى سياسية فلسطينية وعربية لأداء تلك المهمة. لهذا يبدو طبيعياً أن تُعلن الإدارة الأميركية، عن فتح حوار مع قيادة (م. ت. ف.) التي استجابت لاملاءات الإدارة الأميركية، وضربت بعرض الحائط بكل ثوابت العمل الوطني الفلسطيني. ورغم ذلك، يعبر أقطاب الإدارة الأميركية أن الحوار لا يعني «التفاوض» مع الفلسطينيين، وأن مستواه يجب أن يبقى هزيلاً على مستوى سفير. أما «تعليق» الحوار إلى أجل غير مسمى، فلا يعدو أن يكون وسيلة ضغط وإبتزاز لقيادة (م. ت. ف)، لتقديم المزيد من التنازلات، إلى درجة إلغاء نفسها، وتحولها إلى هيئة سياسية هزيلة. وهنا يجد الأميركيون إن الغاء (م. ت. ف) لنفسها، وإخماد الإنتفاضة، لايلزمها بأن تعترف بقوة سياسية، أو أن تتعاطى مع فعل نضالي لم يعد موجوداً.

أما الوسائل العسكرية، والمتلازمة مع إجراءات سياسية (خطة شامير)، فتهدف إلى المزاوجة بين القمع الصهيوني لجماهير الإنتفاضة الباسلة، وتوظيف قوى داخل الأرض المحتلة لمواجهة الإنتفاضة، والإلتفاف عليها، وتفتيتها من الداخل. كما ويحاول الصهاينة تشكيل قوة فلسطينية، قوامها عملاؤه في الداخل، تشارك في عملية قمع الإنتفاضة (خطة أرنس).

ونتيجة لفشل الطرفين ـ الأميركي والصهيوني، في حل أزمة العدو الصهيوني، فالخلاف مازال قائماً. ولا تحاول الإدارة الأميركية إرغام العدو الصهيوني، أو الضغط عليه لقبول حل لايتماشى مع ظروفه ورؤيته السياسية، بل تحاول إنقاذه من نفسه، ورغماً عنه. وعبر عن ذلك الرئيس الأميركي «جورج بوش» بقوله، في معرض رده على سؤال صحفي، حول إذا كان سيستخدم سياسة «العصا والجزرة» مع الكيان الصهيوني، حيث قال: «إني لاأحب أن أستخدم العصا مع الأصدقاء، و«إسرائيل» صديق وحليف لنا»[١٣].

أما الخلافات حول مسألة المساعدات الأميركية، المقدمة سنوياً للكيان الصهيوني،

فيجري حلها في أروقة الكونغرس، وعبر الدور الذي يمارسه اللوبي الصهيوني. وظهر ذلك، إثر تصريحات السناتور «روبرت دول»، الداعية إلى خفض المساعدات الأميركية، إذ أعرب اللوبي الصهيوني في بيان له، أن إقتراح السناتور «روبرت دول» قصير النظر، وأن «المساعدات الإقتصادية للدول التي تتلقى النصيب الأكبر من المعونة الأميركية (الكيان الصهيوني)، تتفق تماماً مع المصالح القومية في الإعتراف بالفائدة التي تعود على الولايات المتحدة من وراء دعم الإستقرار في الشرق الأوسط. ونأييد حليفنا القوي ـ «إسرائيل» ـ في هذا الجزء المضطرب من العالم. وإننا نختلف مع السيناتور (دول)، في إظهار الكرم تجاه البلدان الآخذة بالديمقراطية حديثاً في أوروبة الشرقية، ينبغي أن يأتي على حساب مصالحنا القومية في «إسرائيل»، ومصر والفلبين وتركيا. إن التطورات في أوروبة الشرقية والإتحاد السوفياتي، تقدر لنا بالفعل فرصة هائلة لتحريك العالم باتجاه حقبة من الحرية المتعاظمة والإطار المشترك، ولكن بشرط أن نكون حكماء وكرماء. ولكننا نعتبر أن السيناتور قصير النظر بصورة خطيرة. في حثه على الإختيار بين التعلم في الداخل والديمقراطية في الخارج، أو بين سلام في الشرق الأوسط، وتعددية في أوروبة الشرقية»[١٤].

وحول طبيعة العلاقة الرابطة بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، يحاول الصهاينة إدعاء «إستقلاليتهم» عن الإدارة الأميركية، أو تثبيت مفهوم الشراكة معها، وليس التبعية أو الذيلية التي تتسم بها علاقة بعض دول أميركا اللاتينية (دول الموز) مع الولايات المتحدة. وذلك على قاعدة إختلاف الكيان الصهيوني عن تلك الدول الكرتونية، وأن علاقة الشراكة يفضلها الصهاينة، وهي مفيدة جداً للولايات المتحدة ذاتها. وسبق وأن تحدث «شمعون بيريس» عن هذه المسألة، مخاطباً الإدارة الأميركية قائلاً: «هل تريدون «لإسرائيل» أن تكون مثل تشيكوسلوفاكيا أو بولندا. كدولة ذيل. ألا تكتفون بكون «إسرائيل» تشارك أميركا نفس القيم، ولها نفس المصالح والأهداف، وأنها ليست ذيلاً أو تابعاً. إن مصلحتكم أن تكون «إسرائيل» كذلك»[١٥].

وحذر «إسحق شامير» الإدارة الأميركية، من مغبة تفاقم الخلافات بينهما، نتيجة بروز توجهات في الإدارة الأميركية، تدعو إلى خفض المعونة الأميركية، أو التلكؤ في تزويد الكيان الصهيوني بآخر منجزات التكنولوجية العسكرية، بقوله: في مقابلة أجرتها معه صحيفة «وول ستريت جورنال» Wall Street Journal الأميركية: «عندما يلاحظ العرب وجود علاقة حميمة بين الولايات المتحدة و«إسرائيل»، فإن مايستخلصونه هو العدول عن التفكير في هزيمة إسرائيل بالقوة. وعندما يحدث عكس ذلك، فإن الأحلام بهزيمة «إسرائيل» تطفو على السطح من جديد»[١٦].

وغالباً مايتم حل الخلافات بين الطرفين في واشنطن، بصفتها الشريك الأكبر، صاحبة القرار في تحديد الأولويات الملائمة للمشروع الإمبريالي، وتحديد الهوامش التي

يمكن للكيان الصهيوني أن يتحرك من خلالها، لتحقيق إنجازات لمصلحة الشق اليهودي من المشروع الإمبريالي العام، تلك الإنجازات التي تتيح لقادة الكيان الصهيوني، أن يُقنعوا من خلالها المستوطنين الصهاينة، بأن الكيان الصهيوني هو «دولة اليهود» المستقلة، وليس قاعدة ثابتة من القواعد الأميركية المنتشرة في العالم، على شاكلة قاعدة «دييغو غارسيا».

ويحاول الصهاينة تحسين شروط علاقة الكيان الصهيوني بالولايات المتحدة والإيحاء لها بأن تسريع عملية تجسيد المشروع الصهيوني لذاته (الشق اليهودي)، وتحوله إلى «دولة يهودية» خالصة، يجب أن يكون في سلم أولويات وإهتمامات الولايات المتحدة، في حين أن إهتمامات المركز الإمبريالي، لاتنطلق أساساً من هذه الخلفية. فالأولوية في سلم إهتماماتها، هي للبعد العالمي (التنافس مع الرأسماليات الأخرى، الصراع مع النظام الإشتراكي، أمن الخليج ومنابع النفط). ونظراً لإستحالة تخلي الكيان الصهيوني عن صهيونيته والشيء ذاته بالنسبةللولايات المتحدة التي لاتستطيع تأجيل هيمنتها، أو الإنكفاء عنه لمصلحة مشروع تهويد فلسطين، تبقى علاقة الشراكة القائمة بينهما، والتي تتجسد بوجود «شريك كبير» ـ الولايات المتحدة ـ و«شريك صغير». الكيان الصهيوني ـ وعلى قاعدة إختلال موازين القوى بينهما، فإن الكلمة الفصل تبقى دائماً للشريك الكبير. وهذا ماعكسته عملية إنجاز إتفاقية كامب ديفيد، التي عكست في بعض مراحلها خضوع الكيان الصهيوني لإرادة الولايات المتحدة. وعليه سيبقى جهد الكيان الصهيوني مبذولاً لتعزيز مكانته، في صلب الإستراتيجية الأميركية، وإثبات نجاعته في أداء مهام، تعود بالفائدة على الولايات المتحدة أولاً، ومن ثم عليه. وعبر عن ذلك وبوضوح «توماس داين» المدير التنفيذي لمنظمة «الإيباك» ـ اللوبي الصهيوني ـ حين قال في المؤتمر الـ ٢٨ للإيباك»: المفيد لأميركا هو مفيد «لإسرائيل»، وما يقوي ويدعم «إسرائيل» يقوي وبنفس الدرجة أميركا»[١٧]. ويعني ماسبق أن دور اللوبي الصهيوني في عملية صنع القرار السياسي الأميركي، لايتعدى إبراز أهلية الكيان الصهيوني، وقدرته على القيام بإنجاز مهام لمصلحة الولايات المتحدة، بأقل كلفة، وبمردود عالٍ يعود عليها، وأكد على ذلك المؤتمر الأخير الذي عقده اللوبي الصهيوني (١٠ ـ ١٣/٦/١٩٩٠)، الذي دعا فيه الإدارة الأميركية، إلى «تطوير دور إسرائيل في دعم مصالح الولايات المتحدة الإستراتيجية في البيئة الدولية الجديدة، بالتأكيد على أن القوى الديمقراطية التي تجتاح أوروبة الشرقية، تبقى الآن غريبة عن الشرق الأوسط، وإعادة تأكيد الحاجة إلى حلفاء أقوياء ومستقرين من القلاقل والتغير»[١٨].

العلاقات الأميركية ـ العربية:

تعتبر العلاقات الأميركية ـ العربية، أحد أسباب الخلافات بين الإدارة الأميركية

والكيان الصهيوني. فالبرغم من تصريحات وتأكيدات مسؤولي مختلف الإدارات الأميركية، على أن العلاقة الخاصة مع الكيان الصهيوني، هي بمثابة الذخر الإستراتيجي للولايات المتحدة، في منطقة الشرق الأوسط، وأن علاقتها مع الدول العربية هي جزء من إهتمامات الإدارة الأميركية، في إيجاد حلفاء لها في المنطقة، لاينافسون الكيان الصهيوني على دوره، في المنطقة بل يكملون ذلك الدور بصورة غير مباشرة، إلا أن الكيان الصهيوني، يستغل العلاقات الأميركية ـ العربية لمصلحة تدعيم قوته العسكرية، وأهميته الإستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة.

ويعبر الأميركيون عن رؤيتهم لدور الأنظمة الرجعية العربية في خدمة مصالح الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط، وفي منطقة الخليج العربي على وجه الخصوص، في أنه يكمل دور الكيان الصهيوني ولاينافسه، أو يصل إلى منزلته. وذلك بناءً على أن عوامل تطور الوضع العربي عمودياً وأفقياً معقدة للغاية. فعمودياً، تشهد كل دولة تحولاً إجتماعياً، سريعاً في بعض الأحيان، بطيئاً في أحيان أخرى، يترافق مع مشكلات جدية، على صعيد التوزيع الإقتصادي ـ الإجتماعي، والمشاركة السياسية والحريات الديمقراطية، والتحالفات الخارجية، مما يجعل من مسألة «التغييرات الفجائية» أحياناً، والتي لها أسباب إقتصادية ودولية من بين أسباب أخرى[١٩]. وأوضح ذلك «زبيغنو بريجنسكي»، مستشار الأمن القومي الأميركي السابق بقوله للرجعيين العرب: «عليهم أن يفهموا أن العلاقات الأميركية ـ الإسرائيلية»، لايمكن أن تكون متوازنة مع العلاقات الأميركية ـ العربية، لأن العلاقات الأميركية ـ «الإسرائيلية» علاقات حميمة، مبنية على التراث التاريخي والروحي الذي يتعزز بإستمرار، بواسطة النشاط السياسي لليهود الأميركيين، بينما العلاقات الأميركية العربية، لاتحتوي أي عامل من هذه العوامل»[٢٠].

وإذا كانت رغبات وطموحات الرجعيات العربية، تشابه طموحات قادة الكيان الصهيوني، الرامي إلى صياغة المشروع الإمبريالي، وفق الرؤية الصهيونية، وإنطلاقاً منها، فإن الرجعيات العربية تحاول من جهتها أن تقدم «صياغة عربية» للمشروع الإمبريالي في الوطن العربي وفق أوضاعها ومصالحها الذاتية. وهذا يتعارض مع إهتمامات الإدارة الأميركية، لأن إهتمامها ينصب على البعد العالمي للصراع في العالم، وينطلق من مصالحها فقط. وهذا ماأشار إليه «زبيغنو بريجنسكي» في مقابلة أجرتها معه صحيفة الأهرام المصرية، حين قال: «ليس هناك أي التزام، يحتم علينا أن نمارس سياسة ترضيكم، نحن ملتزمون بسياسة خارجية تحقق مصالحنا»[٢١].

ومقابل ذلك، تبدو هشاشة المنطق الذي يروج لأهمية النتائج التي يمكن أن يحققها اللوبي العربي، من خلال ضغطه على الإدارة الأميركية، من قلب مؤسساتها الحكومية

ونظامها السياسي، إذ لايُعقل أن يُفلح حفنة من السماسرة، أو زمرة هامشية الدور في دفع الأداء الأميركية، بإتجاه الإنكفاء عن مشروعها في منطقة الشرق الأوسط، أو أن تعمل بإتجاه يناقض مصالحها، هذا من جهة. ومن جهة ثانية، فإن تحقيق مصالح الجماهير العربية، يتطلب مشاركة جماهير الأمة العربية، في خوض معركة التحرر، ضد الإدارة الأميركية المبادرة في الهجوم على الأمة العربية، في عقر دارها، أي أن الوطن العربي هو ساحة معركة التحرر، وليست واشنطن أو كواليس الكونغرس الأميركي. وطبيعة التناقض، هي التي تفرض شكل الصراع وأسلوب حله، وليس الرغبات الذاتية لأحد أطراف الصراع. وعلى هذا الأساس. فالنضال ضد الإمبريالية، لايمكن أن يتحول إلى «نضال مطلبي» في ردهات «البيت الأبيض»، أو وزارة الخارجية الأميركية، وغيرها من المؤسسات الحكومية الأميركية.

وبالتحليل الأخير، فإن الأسس التي تستند إليها السياسة الأميركية، إزاء الكيان الصهيوني ماتزال ثابتة، وتتحدد بأن الكيان الصهيوني هو ذخر استراتيجي بالنسبة للولايات المتحدة، وأن المساعدات الأميركية له، هي حجر الزاوية في العلاقات الأميركية ـ «الإسرائيلية»، وأن دور الكيان الصهيوني العدواني ووظيفته في المنطقة العربية مازالت ـ وبالرغم من إنتهاء الحرب الباردة ـ ضرورية لخدمة المصالح الأميركية في المنطقة. وهي مبرر إنشاء الكيان الصهيوني، وليس مايسمى «بالنفوذ السوفياتي أو الخطر الشيوعي». وذلك على قاعدة أن مصالح الإمبريالية في المنطقة، وسعي المراكز الإمبريالية للسيطرة عليها، يعود إلى بداية القرن الماضي، الذي لم يشهد آنذاك وجود «نفوذ سوفياتي» أو «خطر شيوعي» في منطقة الشرق الأوسط. إضافة إلى أن قادة الولايات المتحدة، يدركون تماماً، أن جماهير الأمة العربية، هي العائق الأساسي أمام عملية استكمال وإستمرار تنفيذ المشروع الإمبريالي في الوطن العربي، وأن إمتلاك تلك الجماهير لحريتها، سيشكل خطراً داهماً على مصالح المراكز الإمبريالية مجتمعة. وعلى هذا الأساس تسعى المراكز الإمبريالية المختلفة، وبزعامة الولايات المتحدة، على تثبيت سيطرتها وهيمنتها وتواجدها العسكري خدمة لمصالحها في الوطن العربي. وهذا ماعبرت عنه «مارغريت تاتشر»، رئيسة وزراء بريطانيا، في معرض حديثها عن مهام حلف «الناتو» في فترة إنتهاء «الحرب الباردة»، إذ قالت: «يجب على الحلف الأطلسي، أن يجد لنفسه دوراً جديداً، لأن العالم يتغير بشكل أسرع من تغير طرقنا في التفكير (وشددت على ضرورة بقاء الأسلحة النووية والقوات الأميركية في أوروبا) لحمايتنا من مصادر جديدة لتهديدات محتملة كالشرق الأوسط.. وعلينا أن نكون أكثر قدرة على التخيل، وأن نفكر بالعمل في إطار رقعة أكبر»[٢٢].

وإن إنتهاء «الحرب الباردة»، يشكل دافعاً للإدارة الأميركية لتنصيب نفسها قوة كونية مهيمنة بدون منافس، وقوة عسكرية تحمي المصالح الرأسمالية في مختلف بقاع العالم. «فالحرب الباردة» التي انتهت، نقلت الصراع العالمي إلى مرحلة جديدة. فبعد أن كان

الصراع العالمي يعكس نفسه بوجود معسكرين، أو يسمى إختصاراً صراع بين «الغرب والشرق» أضحى اليوم صراعاً بين «الشمال والجنوب». وعلى هذا الأساس، تسعى الإدارة الأميركية لتثبيت سيطرتها راهناً على منطقة الخليج العربي بشكل خاص، مما يتيح لها إبتزاز الدول الرأسمالية الأخرى، وإعترافها بقوتها وبقائها في سدة قيادة المعسكر الإمبريالي. وتأتي تصريحات أقطاب الإدارة الأميركية، لتعزز وتدعم الكيان الصهيوني، نظراً لمصداقية علاقته وولائه لها، مهما حدث من متغيرات عالمية.

وبناءً على ماورد أعلاه، يمكن القول أن الأسس التي تحكم العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني هي:

أ ـ الأساس الإيديولوجي: وهو الفكر الرأسمالي، ولّد منظومات فكرية رجعية وعنصرية، كالفاشية والنازية والصهيونية. هذا من ناحية النشأة والأصل. أما في المراحل اللاحقة، فإن قادة الكيان الصهيوني، يتسلحون «بالإيديولوجية» الأميركية، وتطبيقاتها الفكرية، ومفاهيمها حول «الحرية» و «الليبرالية» و «الديمقراطية»، يروجون أنها تتطابق مع الإيديولوجية الصهيونية القادرة على التجدد. إضافة إلى أن التركيبة الإجتماعية، في كل من الكيان الصهيوني والولايات المتحدة متشابهة، وحيث أن المستوطنين الذين قدموا إلى الولايات المتحدة، استطاعوا فرض أفكارهم في البيئة الإقليمية الجديدة، ترى الإدارات الأميركية، أنه يجب على المستوطنين الصهاينة، أن يقتدوا بما فعله المستوطنون الأوروبيون قبلهم. وعلى هذا الأساس فالتوافق الإيديولوجي بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني يبدو طبيعياً.

ب ـ الأساس السياسي: ويتجسد في رؤية الولايات المتحدة لمشروعها السياسي الإمبريالي للسيطرة على الوطن العربي، وآليات تنفيذه، وموقع الكيان الصهيوني في صلب ذلك المشروع، وإرتباط تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين، الوثيق بالمشروع الإمبريالي الأم. وعليه ترى الإدارات الأميركية، أن الموقع السياسي للكيان الصهيوني، يوفر الأساس الموضوعي لتنفيذ سياساتها في منطقة الشرق الأوسط.

ج ـ الأساس الإقتصادي: يتجسد في أن مختلف الإدارات الأميركية. تتفق على أن وجود الكيان الصهيوني، يحقق لها درجة عالية من «الربح» بالمقاييس الإقتصادية. فكلفة أدائه لدوره العدواني، أقل بكثير من كلفة قيام الولايات المتحدة الأميركية بمثل هذا الدور والكيان الصهيوني ليس مشروعاً استثمارياً بحد ذاته، ومردوده لاينتج عن عمليات إقتصادية داخلية، بل عن أداء دوره العدواني في منطقة الشرق الأوسط، ومهامه الإضافية على الصعيد العالمي. ومما يساعد على ذلك كون الإقتصاد الصهيوني «إقتصاد حرب»، أو «إقتصاد ثكنة»، يرتبط بالإحتكارات العسكرية العالمية، وتحديداً المجمع الحربي الصناعي في الولايات المتحدة، الذي يحقق درجة عالية من الإرباحية، عن طريق تكليف الكيان

الصهيوني بتسويق الأسلحة بالنيابة عنها.

وأخيراً، وبناء على ماسبق، فإن الإدارة الأميركية، تتجه نحو تعميق علاقاتها مع الكيان الصهيوني، بالرغم من إنتهاء «الحرب الباردة» ولتثبيت موقعها في قيادة المعسكر الإمبريالي، عن طريق سيطرتها على منابع النفط العربي في المرحلة الراهنة، لإخضاع المراكز الإمبريالية الأخرى. ويبقى الكيان الصهيوني، بمثابة ذخر إستراتيجي بالنسبة للولايات المتحدة، التي لن تتوانى عن دعمه ورعايته.

الهوامش والمصادر:

١ ـ صحيفة «السفير»، ٢٨/ ١١/ ١٩٨٩.

٢ ـ صحيفة «الحياة»، ١٧/ ١/ ١٩٩٠.

٣ ـ شراب، ناجي صادق، العلاقات بين الولايات المتحدة والصهيونية، مرحلة بناء «الدولة» اليهودية (١٩١٧ ـ ١٩٤٨) مجلة شؤون عربية، العدد (٥٢)، كانون الأول (١٩٨٧)، ص ١٠٢.

٤ ـ غرين، ستيفن، «الإنحياز» العلاقة السرية ـ الأميركية الإسرائيلية، سلسلة الدراسات رقم (٧٠)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ١ ١٩٨٥، ص ٩

٥ ـ صحيفة «الرأي العام»، ١١/ ٩/ ١٩٨١.

٦ ـ صحيفة «السفير»، ١٢/ ٦/ ١٩٩٠.

٧ ـ صحيفة «القبس»، ٢/ ٥/ ١٩٩٠.

٨ ـ صحيفة «السفير»، ١٢/ ٧/ ١٩٩٠.

٩ ـ صحيفة «الدستور»، ١٦/ ٧/ ١٩٩٠.

١٠ ـ مرسي، د. فؤاد، الإقتصاد السياسي لإسرائيل، دار الوحدة، بيروت، طبعة أولى، ١٩٨٣، ص ٥٥/ ٥٦.

١١ ـ صحيفة «القبس»، ١٦/ ٤/ ١٩٩٠.

١٢ ـ الحسن، خالد، مقالات حول الأوضاع العربية، صحيفة «الأنباء»، ١/ ٩/ ١٩٨٦.

١٣ ـ صحيفة «السفير»، ٢٥/ ٣/ ١٩٨٩.

١٤ ـ صحيفة «البيان»، ٢٦/ ١/ ١٩٩٠.

١٥ ـ الحسن، يوسف، «إندماج» دار المستقبل العربي، القاهرة (١٩٨٦)، ص ١٦.

١٦ ـ صحيفة «النهار»، ١٥/ ٦/ ١٩٩٠.

١٧ ـ مجلة «الدراسات الفلسطينية» الطبعة الإنجليزية، العدد (٦٥)، ربيع ١٩٨٧، ص ١٠٧.

١٨ ـ صحيفة «البيان»، ١٧/ ٦/ ١٩٩٠.

١٩ ـ منصور، كميل، إسرائيل في الإستراتيجية الأميركية في الثمانينات، أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رقم (١٣)، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٢

٢٠ ـ ادريس، محمد السعيد، الرؤية الأميركية لإسرائيل، مجلة المستقبل العربي، العدد (٢١) تشرين الثاني ١٩٨٠، ص ٥٢.

٢١ ـ صحيفة «الأهرام»، ٣٠/ ٤/ ١٩٨٨.

٢٢ ـ صحيفة «السفير»، ٨/ ٦/ ١٩٩٠.

الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية

د. نصير عاروري* ترجمة: ع . م

ان قرار الولايات المتحدة الاميركية تعليق الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية، لايمثل وضعاً جديداً، إلّا بالقدر الذي يمكن معه رؤية أن ادارة بوش، قد ألبست التقدم الأخير في السعي من أجل تسوية تفاوضية في الشرق الاوسط حلّة تجميلية. فقد كان العنصر الجديد الوحيد الذي برز من خلال التصريح السياسي الرئيسي الاول للادارة الامريكية، بشأن الشرق الاوسط (خطاب بيكر امام ـ ايباك AIPAC ـ في الثاني والعشرين من شهر أيار (مايو) ١٩٨٩)، هو الدعم غير المحدود لخطة شامير للانتخابات. ولم يكن

* استاذ العلوم السياسية في جامعات الولايات المتحدة الاميركية.

رفع واشنطن لتلك الخطة الى منزلة «الخطة الوحيدة المتداولة» ينسجم مع دورها الخاص كوسيط رئيس. إضافة الى ان ذلك قد جعل طلب بيكر من اسرائيل «تؤكيد انكار الضمّ» و «وقف النشاط الاستيطاني» لغواً فارغاً. حيث إن «المقدّمات المنطقية الاساسية» لخطة شامير، كما أعلن عنها مجلس الوزراء الاسرائيلي في الرابع من أيار (مايو) ١٩٨٩، قد أطلقت «لا» صريحة لكل «تغيير في وضع يهودا السامرة وغزة» وذلك من بين لاءات أخرى. ويتعارض هذا الرفض، حتى مع صيغة كامب ديفيد. وبطريقة مماثلة، فان التذكير الصريح الذي وجّهه الرئيس في الثالث من آذار (مارس) ١٩٩٠ بأن القدس الشرقية منطقة محتلّة، قد جرى تخفيفه فيما بعد بالايضاحات والتوكيدات بأن «سياسة الولايات المتحدة تجاه القدس لم تتغير». وقد سهلّت هذه الملاحظة التذكيرية الشجاعة ظاهرياً، التراجع نحو الغموض الحذر بصورة فعالة. وقبل فترة قصيرة، انخفض مستوى التفاؤل الأولي الذي أبدته الادارة بشأن امكانية قيام الامم المتحدة بنشاط إثر مذبحة ريشون ليستيون ضد العمال الفلسطينيين في العشرين من ايار (مايو)، من المطالبة بارسال مراقبين عن الامم المتحدة لحفظ السلام، حتى وصل أخيراً في حدّه الأعلى، وبناء على قرار النقض الذي وضعته الولايات المتحدة، الى مهمة تحقيقية عادية تحت رعاية مجلس الأمن. وكان على دورة الأمم المتحدة بالطبع، أن تنعقد في جنيف، لأن نيويورك أُعلنت مكاناً غير مناسب لعقدها، على الرغم من الحوار القائم بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية.

والآن، وقد عُلّق هذا الحوار الغريب، فإن منظمة التحرير ربّما ستحال الى محيط دبلوماسية الشرق الاوسط، بصرف النظر عن الحقيقة التي مفادها ان اشتراكها في هذه الدبلوماسية سوف يكون ظاهرياً أكثر منه فعلياً، والحقيقة أن تهميش الحق الوطني الفلسطيني سابق على تعليق الحوار، وقد كان حقيقة في المركز من سياسة الولايات المتحدة الشرق اوسطية لمدة تزيد عن العقدين. وقد كان ذلك بالضبط تأثير سياسة الحصار الدبلوماسي ضد منظمة التحرير الفلسطينية في العام ١٩٧٥، التي خطط لها كيسنجر، وتأثير قائمة الارهاب التي أضافها الرئيس ريغان الى تلك السياسة. يضاف الى ذلك، أن اتفاقية سيناء للعام ١٩٧٥، واتفاقيات كامب ديفيد للعام ١٩٧٩، تجسدّ المبدأ القائل بأن التسوية النهائية للقضية الفلسطينية، سوف لن تبنى على أساس «الافتراض الخاطىء»، بأن «اسرائيل» قد اغتصبت حقوق الفلسطينيين.

لذا، فقد رفعت الولايات المتحدة مسألة السيادة، الى مرتبة البند القابل للتفاوض، بعد ان كانت لاتعتبرها كذلك. ومنذ ذلك الحين، ادارت الولايات المتحدة دبلوماسيتها طبقاً لموقف رمزي وسياسة مفترضة. فالاتفاقات السابقة، الى جانب القرار ٢٤٢، تعتبر الضفة الغربية وغزة منطقتين محتلتين، في إطار ما يحدّدة القانون الدولي، كما جاء في اتفاقية جنيف العام ١٩٤٩، ومعاهدة لاهاي في العام ١٩٠٧. بينما الاتفاقات اللاحقة، تتعامل

مع الضفة الغربية وغزة في الواقع، بوصفهما مجردّ مناطق يتنافس من أجل السيادة عليها طرفان، يُعتبر أحدهما (وهو اسرائيل) الأجدر بالمطالبة بها.

ويمكن أيضاً رؤية هذا التهميش للحقوق الوطنية الفلسطينية، في خطط الولايات المتحدة التي تحمل أسماء روجرز (١٩٦٩)، وريغان (١٩٨٢)، وشولتز (١٩٨٨)، واقتراحات بيكر الحالية، التي وصفها شامير بأنها «عديمة الجدوى»، رغم أنه هو الذي مدّها باطارها العام في المقام الأول. وهذه الخطط جميعها بعيدة جداً عن الاجماع الدولي، الذي يدعم استبدال الاحتلال الذي طال أمده بالاستقلال الفلسطيني. ومع ذلك، فقد عملت «اسرائيل» على رفض أية مبادرة أمريكية تتضمن تسوية للمناطق، حتى عندما استثنت هذه المبادرات مسألة السيادة الفلسطينية.

إن هذه الدرجة من التحيُّز التي تكشفها الوقائع، تلقي بظلال واسعة من الشك حول أهلية واشنطن للعب دور الوسيط الرئيس. وهي الآن توبّخ منظمة التحرير بقسوة لعدم إدانتها لفعل فارغ قام به منشقّ أخرق، يقف خارج حركة تحرير، بينما هي تجيز حقيقة الجرائم الرسمية التي ارتكبتها «اسرائيل» في النورمبيرغ بمعنى من المعاني، منتهكة بذلك التعهدات الحقوقية الأمريكية في ظل اتفاقية جنيف للعام ١٩٤٩. حتى أن هذا الموقف الغريب غير الطبيعي وغير المتّسق، يتضخم عندما لاتستطيع ادارة بوش أن تتعامل مع شامير، بما يشبه الحزم. فالاخير قد تمتّ مطالبته ليس إلاّ، ليوافق على محادثات يمكن أن تمثل أقلّ من ربع الشعب الفلسطيني، تمهدّ لمحادثات حول الترتيبات النهائية لأقلّ من ربع ما كانت عليه فلسطين، قبل اثنين واربعين عاماً لاغير. وهو لم يُعزل أو يُحرم من الحصانة، حتى عندما تعهّد تكتلّه المؤلف من أربعة أحزاب جهاراً باتباع سياسة التهجير، وهو التعبير الملطّف للطرد الجماعي للشعب الفلسطيني من أرض أجداده. وكان عليه أن يتصّل برقم تليفون البيت الأبيض لاغير، بسبب فشله في احياء مشروعه الخاص، وبالتالي مساعدة واشنطن على انقاذ محاولاتها المتعثرة للسلام ـ وعلى النقيض من ذلك، فقد طُرد عرفات تماماً من اللعبة الديبلوماسية.

وبطبيعة الحال، فإن منظمة التحرير الفلسطينية لم تواجه سحباً للاعتراف بها، فلا إدارة بوش ولا الادارات التي سبقتها قدّمت اعترافاً، أو ألمحت إلى اعتراف كهذا، بالرغم من استعداد عرفات أن يقوم «يكررّ ماقيل» في شهر تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٨٨.

ان تقيّد منظمة التحرير الفلسطينية بشروط كيسنجر، وحتى بالملاحقْ التي أضافها ريغان، هو الذي أدّى الى حوارها مع واشنطن، مع أنه أصبح من المعروف للجميع، ان واشنطن آثرت الحوار مع القاهرة حول خطة شامير، مستجيبة بذلك للفيتو الاسرائيلي بشأن منظمة التحرير. ولقد جاء «الحوار» مع منظمة التحرير باعتباره آلية تقويمية، يمكن أن تؤهل المنظمة في النهاية للعب دور المحاور غير الشعبي بالنسبة للفلسطينيين في الضفة

الغربية وغزة، ليعطي أفضلية للأمريكان.

ان قرار واشنطن باستبعاد المحاور، هو الأنسب لها لتعزيز شلّ «عملية سلام» خُنقت سلفاً بفعل العقبة الاسرائيلية والجُبن الأمريكي. ولايوجد سوى بديل وحيد للملحمة: توسيع عميلة السلام، وافساح المجال أمام المجتمع الدولي للقيام بمسؤولياته تجاه صنع السلام اللائق، كما حدث سابقاً، وبنجاح كبير، في نزاعات اقليمية أخرى مثل النزاع الافغاني، وبين العراق وايران، وفي انغولا. ولايمكن أن يظل الشرق الاوسط المنطقة الوحيدة التي تواصل فيها «عملية السلام» اعاقة التقدم، بدلاً من أن تعمل المفاوضات بين أبطال الرواية الحقيقيين. لقد مكنت، والى حدّ بعيد، أحد أبطال الرواية لانكار وجود البطل الآخر، وذلك من أجل كسب الوقت، والخلق وقائع ديموغرافية وجغرافية، ولاطالة أمد احتلال طال أمدة بالفعل. والآن وقد انتهت الحرب الباردة، فان مصادر القوة الاستراتيجية لن تقاس أبداً بالمعايير التقليدية العتيقة، فالولايات المتحدة لاتستطيع أن تعتبر «اسرائيل»، والى الأبد مشروعها الوحيد، غير القابل للبحث لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد آن الأوان لتعيد الولايات المتحدة تقييم موقفها تجاه «اسرائيل» وفلسطين. بعد أن أعادت بناء علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي، واوروبا الشرقية، وامريكا الوسطى، والمؤتمر الوطني الافريقي.. وهذا ماسيمكّن المجتمع الدولي من إزالة الحاجز، والسير في طريق تحقيق السلام الحقيقي.

تاريخ وتراث

قصة الاكتشاف الأثري لمسلة قانون حمورابي

عبد الحكيم ذا النون*

في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وأثناء إجراء البحوث والدراسات على الألواح الطينية التي تحفل بها مكتبة نينوى، التي أسسها العاهل الفنان آشور بانيبال، والتي تضم آلاف المدونات في شتى المجالات، إبان وصول الامبراطورية الآشورية أوج عظمتها وازدهارها . .

وفي غمرة البحث والتمحيص في هذه الآثار العلمية التي تعود الى ألف سنة بعد عهد حمورابي، وُجد من بين الرُّقُم الطينية ألواح كثيرة منها ما كتب عليها مباشرة، ومنها ما استنسخ عنها، ويظهر من بعض هذه النصوص أنها تعود الى شرائع فترة لابد أنها تصل الى عهد حمورابي . . . وبعد ذلك، وبفترة وجيزة، ظهر الدليل، وتجلّى باكتشاف مسلّة القوانين البابلية للملك السادس حمورابي، في بداية القرن العشرين . .

مع بداية عامي ١٩٠١ و١٩٠٢م، استظهرت البعثة الفرنسية الأثرية المنقبة في سوسة (الشوش)، والتي

* كاتب من العراق.

تعمل بإدارة جي دي مورغان J,de, Morgan ، على قلعة هذه المدينة، والتي كانت تحكم من قبل دولة عيلام من قبل، ثلاثة أحجار من نوع (الديوريت الأسود) Blak Diorit ، وقد تألفت منها مسلّة تنتصب بشكل مخروطي بارتفاع قدره (٢,٢٥ متراً)، إنها مسلة العاهل العظيم حمورابي، الذي دوّن عليها قوانينه وشرائعه.

تقدم المسلّة من الأمام عرضاً ومشهداً يجسد رجلاً يرتدي رداء طويلاً، وعلى رأسه قلنسوة تشبه الشال، وقد رفع ذراعهُ اليمنى، وهو يتحدث بكل إجلال وخشوع موجه إلى إلّه على عرشه.

إن الموقع السامي لهذا الإلّه، يُرمز اليه بتاج متعدد القرون . . وترتفع من كتفي الإلّه أشعة الشمس، والتي ترمز - اذا استثنينا تطبيق صفات مردوخ مع هذا الإلّه - إلى عرض لإلّه الشمس (شمش).

لقد كان إلّه الشمس والعدل، حيث إن الشمس تسلط أشعتها وضياءها على كل شيء . . . ذراعه اليمنى ممتدة لتمنح كما يبدو رمزين . . خاتماً وصولجاناً، شارتيّ السيادة والاستقلال، أما بقية المسلّة، فمحاطة بشكل دائري بالكتابات . . . رموزها وعلاماتها القديمة موزعة فيما بينها الى سطور منفصلة في كل مرة بخط عمودي عن بعضها البعض، وتشير باتجاه اليسار . . إن ذلك تعبير عن شكل وطريقة الكتابة المستخدمة بنمط خاص في النصب التذكارية الرسمية فقط . . في حين كان المرء يكتب في الأعمال اليومية الاعتيادية من اليسار إلى اليمين على سطور أفقية .

إن هذا النوع من الكتابة دفع بخبير اللّغات القديمة شايل Scheil ، الى تحديد كون هذه المسلّة تعود إلى الملك البابلي السادس حمورابي، وأخذ يتعرف من خلال محاور المسلّة على شريعة آلهة هذا الملك.

وهكذا تجلّى من خلال المشهد والعرض المجسد شخصية هذا الرجل، إنه الملك حمورابي الذي يُقَلّدُ من قبل الآلهة بأوسمة الفخر والشرف والغار والسموق.

إن المسلّة موجودة الآن في المتحف البريطاني بلندن، يظهر فيها العاهل حمورابي بلحية طويلة وأنف ممتلىء تماماً، والنموذج البابلي السائد، والذي لايسمح إلاّ بالنزر اليسير لتمييز ملامح شخصيته، ربما يقدم رأس رجل من الكرانيت الأسود لايزيد ارتفاعه على (١٥سم)، واكتشف قريباً جداً من المسلّة في سوسة، في صورة أقرب ما تكون من النصفية لقائد أكبر سناً . . . هنا أيضاً تبدو وتظهر الخوذة المدوّرة المألوفة، وتحتها وجه رجل مسن، له شفتان رفيعتان وحاجبان غليظان وبشرة مجعدة . . لانعرف فيما لو كان المقصود حمورابي، كما أن وجه الشبه ضعيف في تمثال مجسّم يبين ملكاً واقفاً عند يد الإلّه.

مسلّة حمورابي وكذلك التمثال الصغير لرأس الأصل، كلاهما ينتصبان اليوم في متحف اللوفر بباريس، إنها حالة يرجع الفضل فيها الى شخص عاش بعد ستة قرون بعد عصر حمورابي، وربما كان الملك (شتروك - ناخنتة) العيلامي الذي عاش في حدود (١١٥٠ ق. م)، وخلال عدة غزوات بين بابل وعيلام، جلب الغزاة معهم مسلة حمورابي من بابل الى سوسة، مع مجموعة من النصب التذكارية البابلية.

إن ثلاثة من النصب التذكارية البابلية التي سرقت من المدينة البابلية الشمالية (سبار)، ونقلت الى سوسة (الشوش)، لاحظت البعثة الأثرية المنقبة، وجود مواضع ممسوحة بالحك، حيث أمر الملك العيلامي أن تُحفر عليها أخباره.

إن مسلّة حورابي تشير كذلك إلى مثل هذه المساحة المشطوبة - الممسوحة -، وانه ليس بمستبعد قيام العيلاميين بسرقتها من (سبار) تلك المدينة البابلية الشمالية، التي كانت مكاناً مفضلاً لدى حورابي، إذ غالباً ما كان يجعلها مقاماً ومنتجعاً له.

لقد كانت نصوص قوانين حورابي التي ضمتها المسلّة، على قدر كبير من الأهمية، حتى إن عدداً كبيرا من مسلات أخرى كتب عليها النص.. ففي سوسة وحدها أمكن حصر ثمانية نصب غير مستكملة، كانت تنتمي الى مسلتين أو ربما ثلاث مسلات.، وعبر أكثر من ألف سنة، أخذت نسخ على رُقُم طينية عن فصول من جملة شرائع ونوقشت في المدارس.. وهكذا نقلت هذه النسخ بوعي عبر الأجيال، وكانت هذه النسخ تسمح بملء الفراغات التي نجمت عن اختفاء سبعة أعمدة ثابتة، ولو جزئياً، وبإكمال نص المسلة.

تقسم مجموعة القوانين اليوم الى (٢٨٢) فصلاً، رغم أن مثل هذا التوزيع غير موجود في النص المسماري. ومهما يكن من أمر، فإن أول ناشر للمخطوطات، وهو (شايل) كان قد قام بتقسيم النصوص، حيث شَرَعَ بالانطلاق من المقاطع المبتدئة ب (إذا.....)، والأجزاء الصغيرة المنتمية الى أصل آخر جعلت من الممكن الابتعاد عن هذا العدد، غير أن المطلوب هو الإبقاء على الإحصاء المألوف.

إن من بين الأسئلة العديدة التي تطرح نفسها، باعتبارها ذات علاقة بمجموعة قوانين حورابي، والتي نوقشت علمياً، هناك العديد من الأسئلة لم تستكمل النقاش حول جميع الشرائع..

وأبرز سؤال في هذا المضمار، هو حول مسألة التقدير الزمني، ومن المقبول بشكل عام افتراض تدوين المسلّة أثناء فترة حكم حورابي، لكن أية سنة من فترة ولايته الطويلة يجب أخذها بنظر الاعتبار.

إن المسلّة تختلف عن وثائق الألواح الطينية بأنها دون أي تاريخ، وهكذا فليس من الممكن الوصول إلى تحديد زمن نشوئها، إلا على أساس ما يفهم من مضمون موجوداتها، وهكذا تقدم الانتصارات العسكرية المدونة بشكل خاص في مقدمة القوانين، الى السنوات الاخيرة من عهد حورابي، وفي الأخبار السنوية توجد أحداث السنة (٢)، إذ يذكر أن حورابي أقام العدل في البلاد، لكن المؤكد أن هذا التاريخ يشير إلى إعلان جملة الإجراءات والإصلاحات الاجتماعية التي صارت مألوفة، ولما كانت السنة (١) قد سميت في الأصل بعد اعتلاء عرش بابل، فتبقى السنة (٢) مقبولة التسلسل، ويمكن تثبيتها على انها السنة التي تلي سنة تولي الحكم مباشرة، ويذكر في السنة (٢٢) الملك حورابي، ويصور كملك للعدالة Equity King غير انه يبقى غير واضح فيما لو كانت هذه الملاحظة تشير الى النصب المجسم الموجود في مسلة الشوش، وبالقياس والاعتماد على المعارك المذكورة في بداية الشريعة، يتوصل المرء الى قناعة، وهي أن السنة (٣٧ - ٣٨)، وليس قبل ذلك، من سني حكم ررابي، هي التي يمكن اعتبارها سنة تبلور ونشوء وقيام المسلّة، أو حتى السنة (٤٠) من سني حكمه

ومهما يكن من أمر، فإنه لابد من ان نأخذ بعين الأعتبار أن إنجازاً كبيراً ونوعياً مثل هذا العمل، يحتاج الى سنوات طويلة، وهذا يمكن تأييدهُ من تأليف مقدمة كانت أقدم بعدة سنوات، من مقدمة المسلّة التي عثر عليها في الشوش...

حي الصالحية هجرة.. وبناء*

معزز نور الله*

قبل ثمانية قرون ونصف تقريباً، إبان الحروب الصليبية، هاجرت أسرة فلسطينية من قرية جمَّاعيل قرب نابلس إلى دمشق، فكان لهذه الهجرة تأثير كبير من الناحية العمرانية والثقافية.

أما من الناحية العمرانية، فقد بنى المهاجرون في جبل قاسيون مدينة لهم، هي مدينة الصالحية[١] ومن الناحية العمرانية عمقوا نشر مذهب الامام أحمد بن حنبل في دمشق وماحولها[٢]، وألفوا في فقه هذا المذهب كتباً ماتزال هي العمدة فيه عند الحنابلة كمغني ابن قدامة والمقنع وغيرهما، وبعثوا نهضة ثقافية شاملة فيما بنوه من المدارس والمكتبات العامة، فما هي وقائع هذه الهجرة؟

باحثة من فلسطين.

جد هذه الأسرة والباعث لها على الهجرة هو الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة، رجل متدين صلب، في الستين من عمره، نشأ في ظل الاحتلال الصليبي لبيت المقدس(٣)، ورحل على عادة ذلك العصر طالباً للعلم، ثم رجع إلى قريته جماعيل، فكان خطيباً في مسجدها، ومعلماً فيها للقرآن والحديث، فانتشر ذكره بين أهلها والقرى المجاورة لها لزهده وصلاحه وجرأته، وكان الناس يأتون إليه يستمعون لخطبته، ويجلسون إليه، وكان كثيراً مايلمح في مجالسه بعدم رضاه عن مقامه تحت أيدي الفرنجة، لما يفرضونه من ضرائب جائرة على الفلاحين الذين هم في عرف النظام الاقطاعي أقنان الأرض، ولما يوقعونه عليهم من عقوبات قاسية كتقطيع أرجلهم، ولمنعهم إياهم من اظهار شعائر دينهم.

قلق حاكم نابلس الصليبي من هذه الاجتماعات، وماقد ينجم عنها، خاصة وأن أحد جواسيسه قال له: إن هذا الرجل الفقيه يشغل الفلاحين عن العمل، فتحدَّث الحاكم في قتله، فسارع أحد الكتبة الصليبيين وأبلغ الشيخ أحمد بما يُدَبَّر له، فعزم على المضي إلى دمشق(٤).

ولدمشق هوى خاص عند أهل نابلس، فلحبهم لها سموا مدينتهم نابلس دمشق الصغيرة(٥)، وفي دمشق أيضاً كان السلطان نور الدين محمود بن زنكي، هذا الحاكم الذي فضح ملوك عصره بما أشاعه في رعيته من عدل، فهوت إلى عاصمته أفئدة الناس، فغدت دمشق مثابة وأمناً لكل من طال شوقه للعدل وللجهاد ضد الصليبيين.

ومع ثلاثة من أقربائه خرج الشيخ أحمد إلى دمشق، وما إن وصلها حتى أمر أقرباءه بالعودة إلى جماعيل، ومعهم رسالة إلى إبنه الأكبر أبي عمر، يأمره فيها بالسفر إلى دمشق مع الأسرة كلها، لأنه قرر المقام فيها، ولن يرجع للعيش تحت السيطرة الظالمة للفرنج.

رجع أقرباء الشيخ إلى جماعيل خفية، واختبأوا في مقبرة القرية حتى جَنَّ الليل، وكانت المقبرة تقع قرب طريق أبي عمر، فما إن مَرَّ به حتى صاح به أحدهم، وأخبره بأمر الرسالة.

في صباح اليوم التالي دار أبو عمر في القرية، وفي القرى المجاورة لها، يبلغ أسرته نبأ الهجرة، ويعد لها العدة اللازمة، وحين عاد في المساء جلس مع أهل القرية، وراح يتحدث عن الأرض وماتحتاجه من بذار، يريد بذلك ألا يشعروا بعزمه على الهجرة.

وكان لأهل القرية موقفهم المسوغ من الهجرة، لما تسببه لهم من ارهاق في العمل بالأرض ـ وقد نقص عددهم ـ فهم مطالبون بمقدار معين من الغَلَّة، بغض النظر عن عدد من يعمل، فالهجرة كانت تعني للباقين منهم عملاً أكثر وضرائب أفدح، ولكن من أين لأبي عمر أن يخالف والده فيما اتخذه من قرار؟

ومن هنا، ماإن علم أهل القرية بخبر الهجرة حتى حاولوا جهدهم أن يمنعوا أبا عمر ومن معه منها، وإزاء إصرار أبي عمر لم يبق أمامهم إلا طريق واحد، دفعهم إليه غضب أصم، فأفشوا سر هجرتهم إلى الصليبيين الذين بادروا على الفور إلى نهر الأردن ليدركوهم أثناء عبورهم له.

وهكذا انطلقت هذه القافلة الصغيرة في شوال سنة (٥٥١ هـ/ ١١٥٦م) ليلاً، مولية وجهها شطر دمشق عبر نهر الأردن.. ولن نستطيع الآن في عصر السفر المريح أن نتخيل أهوال الطريق التي صادفتهم، ففي ذلك العصر كان السفر يعني القتل أو الأسر من قاطع طريق أو صليبيّ، فما بالك بأسرة غالبية أفرادها

أطفال صغار، مطاردون خائفون، لاسلاح معهم ولا خيل. ان هو الا سيف وجمل. يمشون في الليل، ويكمنون في النهار، وآثار خيل الصليبيين الذين يطاردونهم تبدو لهم عند منعطف كل طريق، ولعل الأطفال هم وحدهم الذين لم يبالوا بما يصيبهم إن أمسكوا، فقد كانوا يمشون كما يمشون إلى بيوتهم، بعبث الاطفال ولهوهم واطمئنانهم، فاقترح أحد الكبار أن يكون للقافلة قائد، فاختاروا أبا عمر، هذا الشاب الذي كان يخطو وقتئذٍ إلى الثالثة والعشرين من عمره، فأركبوا بعض الصبيان على الجمل، وحملوا البنات على أكتافهم، وظلوا يسيرون متخبطين ضائعين ثمانية أيام، وبكل ماتعنيه السلامة من حظ طيب استطاعت هذه القافلة أن تتخطى حواجز الصليبيين، وأن تنجو من مكائد قطاع الطرق، حتى وصلت سالمة إلى دمشق، فخرج الشيخ أحمد وتلقاهم، ودخلوا دمشق قبل إغلاق أبوابها، وفي مسجد عند بابها الشرقي، مسجد أبي صالح(٦)، حطت القافلة رحالها أخيراً، وكان عددها خمساً وثلاثين نفساً.. وتتابعت الهجرة بعد إلى هذا المسجد أرسالاً..

والذي جعل الشيخ أحمد يختار مسجد أبي صالح للاقامة فيه هو اتفاقه في المذهب مع القائمين عليه وهم بنو الحنبلي، وقد أحسنوا استقباله في بداية الأمر، حتى إنه صار إماماً فيه، بل بدأت شهرته تنتشر في تلك المنطقة كما انتشرت من قبل في جماعيل، فغدا الناس يأتون إليه ويزورونه، ويستمعون إلى دروسه، وكان ممن يختلف إليه رجل من مدينة صور، ربما كان هارباً هو الآخر من ظلم الصليبيين، فجمعت بين الرجلين محنة واحدة، هو أبو القاسم الصوري، اطلع على أحوال هؤلاء المهاجرين ومايعانونه من شظف وفقر، فراح يدور في سكك دمشق وأزقتها يصف للناس حالهم، ويجمع لهم الطعام والثياب، ويبدو أن بيئة دمشق لم تواتهم، فراح المرض يغزو أطفالهم، والموت يحصدهم، حتى إن أحدهم بلغ به الحزن حداً جعله يرفض دفن ابنه.

وبدأ القلق يدب في قلوب بني الحنبلي وهم يشاهدون زوار الشيخ يكثرون، وشهرته تتسع، فخافوا على مسجدهم ومايدره وقفه عليهم من مال أن يأخذه المهاجرون. فجاؤوا إلى الشيخ أحمد، وطلبوا منه أن يكتب وثيقة بخطه تبين أنه نزل على المسجد طارئاً، وأنه فيه بإذن منهم. فكتب لهم الشيخ ماأرادوا، وحينئذٍ أفصحوا عن مرادهم، عمدوا إلى صديق الشيخ أبي القاسم الصوري. فضربوه في المسجد، وحين دافع عنه الشيخ أحمد شتموه، ولم يكتفوا بذلك، بل ذهبوا إلى السلطان نور الدين يستعدونه عليهم، وكان مع السلطان في الميدان الأخضر قرب القلعة قاضية الشافعي شرف الدين ابن أبي عصرون، وهو على خلاف مع بني الحنبلي، فاهتبلها فرصة، وراح يثني على هؤلاء المهاجرين الذين يحفظون القرآن الكريم، وكان لهذه الكلمة أثرها الطيب عند سلطان متدين، فرق لهم، وأمر أن يكتب لهم كتاب يسلِّم إليهم بموجبه المسجد ووقفه، وهكذا انقلب الموقف إلى صالح الشيخ أحمد، وأصبح وهو المهاجر سيد هذا المكان، ولكن الشيخ أحمد رأى في ذلك انحرافاً عما قصد له من الهجرة، ولم يرض أن يظلم وهو الهارب من الظلم، فقال: «أنا ماهاجرت حتى أنافس الناس على دنياهم، مابقيت أريد أسكن هاهنا».. عزم على الرحيل من المسجد ولما يمض على نزوله فيه سنة واحدة، ومما زاد في عزمه ماكان يراه ـ وهو الحنبلي ـ من مجون وخلاعة في أهل باب شرقي، وهم يخرجون كل يوم خارج دمشق يشربون الخمر، فينكر عليهم وهو الذي ماإعتاد

السكوت، فنشبت بينه وبينهم عداوات، وزاد في ضيقه ماكان يراه من موت الأطفال كل يوم . . ولكن إلى أين يهاجر؟ . أرسل ابنه أبا عمر إلى حوران علّه يجد فيه مكاناً له ولأسرته، فلم يجد، وفي طريق عودته كان جيش الصليبيين يغير على حوران، فاختبأ أبو عمر باللجاة(٧) خوفاً منهم .

وكان من عادة الشيخ أحمد أن يدفن موتاه في جبل قاسيون، هذا الجبل كان يقسمه نهر يزيد(٨) المتفرع عن بردى إلى قسمين، ماتحت النهر كانت القرى والبساتين المروية منه، ومافوقه كان جبلاً أجرد يقوم فيه ديران ومقابر متناثرة، دير غربي يسكنه أبو العباس الكهفي والشيخ عمارة، ويعرف بدير الحوراني، ودير في الناحية الشرقية فيه جماعة من الحنابلة منهم أولاد معبد بن المستفاد واخوته وأقاربهم . هذا الدير كان لجماعة من الرهبان يعتزلون فيه، ثم رحلوا عنه، فسكنه هؤلاء، وقد نشأت بين عبد الواحد بن معبد بن مستفاد وبين الشيخ أحمد صداقة، أفضت إلى أن بثه الشيخ أحمد ضيقة بالاقامة في مسجد أبي صالح، فعرض عليه ابن المستفاد أن يختار أي مكان يريده في الجبل يبني فيه . فاختار الشيخ أحمد مكاناً قرب نهر يزيد . . توضأ، وجعل حجراً مكان القبلة، وصلى فيه، وقال: ماهذا إلا موضع مبارك .

ولم يكن الانتقال من دمشق إلى جبل قاسيون مجرد انتقال من مكان إلى آخر . . إنه انتقال من حياة الأمان إلى حياة الترقب والخوف، ففي عصرٍ لايعيش الإنسان فيه آمناً إلا خلف سور مدينة أو حصن، كان السكن في جبل أجرد يعني أن تبقى بلا حماية أمام كل جيش غازٍ(٩)، إضافة إلى أن الجبل كان مأوى للسباع والذئاب . . ومن ثم ندرك حجم الضيق الذي كان يعاني منه الشيخ أحمد، والذي دفعه إلى أن يترك الحياة داخل سور مدينة دمشق إلى العيش فوق جبل أجرد ناءٍ . .

وعلى الفور، اكترى الشيخ أحمد عمالاً، وباشروا في بناء دير(١٠) لهم، وكان يساعدهم في البناء بعض الحنابلة، باسكان الدير الشرقي، وكان لأبي العباس الكهفي أرض يزرعها في الجبل، تحت الكهف، فخاف من هؤلاء القادمين الجدد، كما خاف منهم من قبل بنو الحنبلي، فراح يؤلب عليهم سكان الجبل، قائلاً: غداً يكثر هؤلاء، ويتملكون هذه المواضع . ولكن أحداً لم يصغ له .

كانت الأسرة كلها تعمل، الكبار يبنون، والنساء يطبخن، والصغار ينقلون الخبز للعمال، ولنا أن نتخيل صبياً في العاشرة بعمامة صغيرة وجُبّة واسعة، يحمل الخبز على رأسه . . هذا الصبي يخترق كل يوم البساتين المحيطة بدمشق من شرقيها إلى غربيها مصعداً إلى جبل قاسيون ـ وهي مسافة طويلة ـ لايخيفه طوال الطريق إلا صبيان دمشق في أزقتها يترقبونه ليضربوه، انه بالنسبة إليهم صبي غريب عن حيهم، ولاتعنيهم بعد هذه الحقيقة غاية هذا الصبي في مسيره اليومي، يكبر هذا الصبي، ويغدو واحداً من أكبر علماء عصره، فيذكر لجلسائه يوماً هذه القصة، وكأنه في خياله يقارن بين صبي خائف وعالم جليل(١١) .

ويستمر العمل في بناء الدير سنتين، وينتقلون إليه، ولم يكن للدير باب، فكانوا يحرسون ديرهم ليلاً مما يحوم في الجبل من الذئاب والسباع .

وفي انتقالهم إلى الجبل يتبدىء عهد جديد في حياة هذه الأسرة المهاجرة، وتنتشر شهرة الشيخ أحمد، ويكثر زواره يلتمسون دعاءه، ويعجب به السلطان نور الدين، فيكثر من زيارته في مدرسته الصغيرة المجاورة للدير على نهر يزيد .

ويعد سبع سنوات من هجرته يموت الشيخ أحمد، وله سبع وستون سنة(١٢)، ويخلفه ابنه أبو عمر، فيقوم بأول أعماله الكبيرة، وهو بناء المدرسة العمرية(١٣)، التي كانت تعد من أكبر مدارس ذلك العصر، ويرسل أبناء المهاجرين إلى بغداد حاضرة العالم الاسلامي وقتئذٍ، ويبني الدور للقادمين .

ويصور لنا أبا عمر من عاصره من المؤرخين شخصاً مهيباً على رقة فيه، لايسكت عن الحق ولا يهاب أحداً، حياته لهذه الجماعة المهاجرة يتفقد أهل من سافر منهم، ويصلح بينهم في القضايا، في نهاره يجمع الشيح من الجبل ويربطه بحبل، ويحمله إلى بيوت الأرامل واليتامى، وفي الليل يحمل إليهم الدراهم والدقيق ولا يعرفونه، يتصدّق حتى بثيابه، وكثيراً مايأتي الشتاء وعلى جسده جبة بغير ثوب، عمامته قطعة من بطانة، فإن احتاج أحد إلى خرقة أو مات صغير يحتاج إلى كفن قطع له منها قطعة . . ينام على الحصير، ويأكل خبز الشعير، وثوبه خام إلى أنصاف ساقيه، مانهر أحداً ولا أوجع قلب أحد(١٤) .

ولم تكن ثمة غزاة ضد الصليبيين: لا حضرها، ولا سمع بمنكر الا اجتهد في ازالته، لايتزلف لسلطان ولا لصاحب جاه، يكتب في رقاعه إلى ملوك عصره: «إلى الولد . . » طالباً كشف مظلمة لأحد الرعية، أو إعادة حقٍ اغتصب، حتى قال فيه أحدهم: هذا الشيخ شريكي في ملكي(١٥) .

وبعد غياب ثلاثين عاماً، يعود أبو عمر إلى القدس في عداد جيش صلاح الدين فاتحاً لها، ويدخل خيمته ـ أثناء الحصار ـ الملك العادل أخو صلاح الدين، فإذا بأبي عمر قائم يصلي، فما يقطع صلاته، ولا يلتفت ولايترك وردة، فيجلس العادل ساعة، ثم يخرج .

ويرجع أبو عمر بعد فتح القدس إلى جبل قاسيون، ليكمل مابدأه، فترتفع فيه المدرسة تلو المدرسة، والمسجد بعد المسجد، وتفتح الأسواق، ويبنى مارستان، ويطلق عليه «الصالحية» .

ونستطيع أن نتخيل الشيخ أبا عمر ـ كما وصفه معاصره ـ وقد جلس في أكبر مساجد الصالحية مسجد الحنابلة(١٦)، صبيح الوجه، كث اللحية، دائم الابتسام، نحيفاً، أبيض، أزرق العينين(١٧) في حوالي الثمانين من عمره(١٨) يسأله أحد الحاضرين بمهابة: لِمَ سمي هذا الجبل بالصالحية؟ فيردُّ عليه الشيخ بتواضعه المعروف: قال الناس الصالحية لأننا نزلنا في مسجد أبي صالح، لا أننا صالحون . . ولكن أبا شامة المؤرخ الدمشقي، المقدسي الأصلْ يقول: بهم سميت الصالحية لصلاحهم .

الهوامش والتعليقات

● استقيت معظم مادة هذا البحث مما أورده ابن طولون في مقدمة كتابه والقلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق الأستاذ محمد أحمد دهمان الطبعة الأولى، دمشق ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩م وللأستاذ دهمان مخطط للصالحية بذل فيه جهداً كبيراً، بين فيه المواقع الأثرية فيها .

(١) لم تكن الصالحية باتساع مدينة، ولكن كان فيها كل مرافقها، وحين زارها ابن بطوطة وصفها بأنها مدينة عظيمة، وهي من أوائل ماالتصل بدمشق من الضواحي مع مطلع القرن العشرين. انظر «رحلة ابن بطوطة»: ١/ ١١٤، و «دمشق في مطلع القرن العشرين»: ٢١ - ٢٢

(٢) كانت بغداد معقل المذهب الحنبلي، ثم انتشر في بيت المقدس وماحوله في القرن الخامس الهجري على يد الشيخ عبد الواحد بن محمد الانصاري. انظر «سير أعلام النبلاء» للذهبي: ١٩/ ٥٢

(٣) ولد الشيخ أحمد سنة (٤٩١ هـ)، وهي سنة سقوط أنطاكية بيد الصليبيين، وفي سنة (٤٩٢ هـ) تملكوا بيت المقدس، وأسسوا مملكتهم فيه، وقد هجروا أهله منه، فلجؤوا إلى بغداد مستنفرين مستغيثين، وكانت سياسة الصليبيين تهجير أهل المدن، الابقاء على أهل القرى للعمل في الأرض.

انظر «العبر» للذهبي: ٤/ ١٦٤، و «الكامل» لابن الأثير: ١٠/ ٢٧٢، ٢٨٢ ومابعدها، و «الأنس الجليل»: ١/ ٣٠٧، و «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٢/ ١٦ - ١٧، ٤٧٣ - ٤٧٤.

(٤) ماندري ماالذي دفع هذا الصليبي لابلاغ الشيخ أحمد بخبر تدبير مقتله، أهو حبه له كما أورد ابن طولون أم التخلص منه بأيسر سبيل؟..

(٥) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٢/ ١٦ - ١٧

(٦) أبو صالح هو أحد الصوفية الحنابلة، كان يتعبد في هذا المسجد، فنسب إليه توفي سنة (٣٣٠ هـ) وقد درس هذا المسجد ولم يبق منه شيء. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٨٤ - ٨٥، «القلائد الجوهرية»: ١/ ٢٥.

(٧) اللجاة: اسم للحرَّة السوداء التي بأرض صلخد. «معجم البلدان»: ٥/ ١٣

(٨) حضرة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فنسب إليه، انظر قصة حضره في «تاريخ دمشق» لابن عساكر المجلد الثاني: ١٤٥، ومابعدها، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

(٩) دفعت الصالحية ضريبة بُعدها عن أسوار المدينة، حين هاجمها التتار سنة (٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩م) فقتلوا من أهلها قريباً من أربع مئة، وأسروا نحواً من أربعة آلاف أسير، ونهبوا مكتباتها، وقد حمى دمشق وقتئذ صمود قلعتها. انظر «البداية والنهاية» لابن كثير: ١٤/ ٨، ومابعدها.

(١٠) الدير هو دار كبيرة، تحوي عدداً كبيراً من الحجرات. انظر مقدمة «القلائد الجوهرية» للأستاذ محمد أحمد دهمان: ٣

(١١) هو الأيام الفقيه ابراهيم بن عبد الواحد المقدسي. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٤٧ - ٥٢، و «القلائد الجوهرية»: ٣٧

(١٢) انظر «العبر» للذهبي: ٤/ ١٦٤

(١٣) انظر عن تاريخ هذه المدرسة كتاب «منادمة الأطلال ومسامرة الخيال» لابن بدران: ٢٤٤ - ٢٤٨، وهي الآن أطلال دارسة، نزلها بعض الفلسطينيين بعد نكبة ١٩٤٨م.

(١٤) «ذيل الروضتين» لأبي شامة: ٧١، ومابعدها.

(١٥) «سير اعلام النبلاء»: ٢٢/ ٩

(١٦) شرع أبو عمر في بنائه سنة (٥٩٨ هـ) وأنفق عليه رجل يسمى الشيخ أبو داوود، حتى بلغ البناء مقدار قامة، ثم نفذ ماعنده من مال، وبلغ ذلك الأمير مظفر الدين كُوكبوري، صاحب إربل فأرسل له ثلاثة آلاف دينار لتتميم العمارة. والمنبر الذي أمر بصنعه الأمير مظفر الدين مازال في المسجد حتى الآن. «البداية والنهاية» لابن كثير: ١٣/ ٣٢، و «ثمار المقاصد في ذكر المساجد» ليوسف برعب الهادي، وذيله لمحمد أسعد كلي: ٢٠٩ - ٢١٠، و «وفيات الأعيان»: ٤/ ١١٣ - ١٢١

(١٧) «ذيل الروضتين» ٧١، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٩

(١٨) توفي أبو عمر سنة (٦٠٧ هـ)، وله تسع وسبعون سنة، وكانت له جنازة مشهوده لم يتخلف عنها أحد من الأمراء والقضاة والعلماء والأعيان وعامة الخلق، وقد حذر الجمع في ذلك اليوم مبشرين ألفاً. انظر «ذيل الروضتين» ٧٣، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٩

ادب ونقد

تأملات في شعر الانتفاضة

ابراهيم محمود*

إن الأحداث الكبرى في التاريخ، وفي تاريخ أمة ما، وحقائق عصر معين، ولأمة معينة، لا يظهرها سوى أدب يرتقي الى مستواها كبيراً وعظيماً. ومن هنا نقرأ التاريخ في حيويته، والتحولات الكبرى في ثنايا الأدب عند «بلزاك وتولستوي وهمنغواي وريمارك وماركيز وشولوخوف» من الروائيين، و «بول بلوار ولوركا ونيكولاس غيين ونيرودا وبانيس ريتسوس ومحمود درويش» من الشعراء.

وكذلك فإن وجود حدث كبير وعظيم في تاريخ أمة، أو ما يُسأل عنه، ويبحث عن وزنه وامتداده الاجتماعي والسياسي هو في الشعر قبل كل شيء، وليس هذا السؤال، أو البحث فاقداً لمعناه الكبير والخطير في الوقت نفسه، فالشعر هو البرق الذي ينبىء بسقوط المطر، أو مقدمه وحديث عنه.

* كاتب من سورية.

ولكن هل كل برق ظاهر هو مقدمة لسقوط المطر؟ هذا السؤال الذي يتشعب في موضوعنا، الذي نتناوله هنا، فالبروق عديدة ومتنوعة. وقوة هذه البروق وومضتها ومضاؤها ورعشتها تتجلى في تأثيرها، في مدى ارتباطها بمولّد شعلتها، بنفاذها في قلب الظاهرة! إن حديثاً عن الانتفاضة الفلسطينية التي سلخت جلدها القديم، ولبست جلدها الجديد المتجدد في عامها الثالث، هو حديث عن حدث عظيم، وعن حقيقة عظيمة تاريخياً، لسان حالها شعب هو لسان حال حياة كفاح وبطولة. فالانتفاضة أولاً عبرت عن عظمتها من خلال تحولها الى مصطلح عالمي، يشير الى نضال وكفاح من نوع خاص، ابتكره الشعب العربي الفلسطيني «ومبتكروه ومبدعوه: فئاته العمرية كافة». واذا كان الأطفال، والذين لم تزل أعمارهم غضة من الفتيان، يشكلون النسبة الكبيرة من المنتفضين، فهذا لا يغير من هوية الانتفاضة في شيء. فهي انتفاضة شعبية، تعبير عن غضبة شعب لم يمت، ولم يضعف إحساسه بالحياة والكرامة والحرية، ورافض لكل أشكال التسويات في الداخل والخارج، من قبل الذين يودون المتاجرة باسمه، أو الذين تاجروا باسمه طويلاً، في ظل شعارات كثيرة، واكتشفت حقيقتهم لاحقاً، حيث كانوا أبعد ما يكونون عن قضيته الحقيقية، وتحقيق غاياته وأمانيه.

واذا كانت الانتفاضة هذه، ماتزال تتحدى كل المهتمين بها، وذوي الاتجاهات الكتابية «الفكرية والادبية والفنية» كذلك حيث لم تنل حتى الآن ما يعبر عن جدّتها وآفاقها الاستراتيجية وعمقها الشعبي الكفاحي، وحيث يكون الحديث في هذه الآفاق وأبعادها المختلفة، معرَّضاً لتشعبات عديدة!.

لذلك سنكتفي بالبحث عن مدى تجليها، ومدى تمظهرها في حركيتها في مرآة الشاعر العربي، وتحديداً الى أي مدى كان انعكاس الانتفاضة: الفني والجمالي والسياسي معاً في شعر الشاعر العربي. بداية نقول: لقد شكلت الانتفاضة «موجة» جرَّب ركوبها معظمُ الشعراء العرب، وهذا تأكيد على عنفوان هذا الحدث الصاعد، عمقه الاستراتيجي الشعبي، وتنوع دلالاته. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يدل هذا الاهتمام بالانتفاضة من قبل الشاعر العربي، على حساسيتها، بالنسبة له، وما تثيره من هموم وشجون أولاً، ومن آمال مستقبلية ثانياً، ولأن حدثاً كهذا لا يثير شاعراً، يرتبط به، أو هو ينتمي اليه بشكل ما، أو بآخر، يثير أكثر من سؤال وتساؤل، بصدد سكوت هذا الشاعر تجاهه.

ولكن هل الكتابة عن هذا الحدث الجلل «بحق» يعبر تماماً عن هذه القرابة «العاطفية ـ الثورية»، وعن هذا الانتماء الوطني الإنساني (الفعّال ـ الكوني) وتحديداً: هل يستطيع كل شاعر، يدّعي كتابة الشعر، ركوب الموجة، وفهم محركها من الداخل؟.

هذا هو السؤال ـ المدخل، لما نحن بصدده! فغالباً، أو لنقل: أحياناً يكون تناول حدث عظيم من قبل شاعر ما، إساءةً للشاعر نفسه وللموضوع، ويكون سكوته أفضل لو لم يكتب عنه، اذا لم يستوعبه بكليته!.

لقد عشق «بجماليون» تمثاله، ما صنعته يداه، كان اعتقاده يقيناً قاطعاً أن هناك روحاً كامنة في «حجره». حديثاً رأى التشيلي «نيرود» في «أحجار التشيلي» حجار السماء: مقدسة، خالدة، عنفوانية، حارة، خصبة، نضرة، صامدة، رمزاً ومعنى ودلالة، كما في قوله:

حجراً كنت وسأكون
وسألمس أيضاً ذاك الحجر
فهو لم يمت من أجلي
إنه ما كنته وسأكونه
وهو الراحة من قتال أكثر طولاً من الزمان(١).

وأحدث من ذلك، تحقق، ما كان يعتقده «بجماليون»، وما رأى فيه «نيرود»، من أن الحجر ليس جمالاً، وحيث تتحقق الوحدة الصوفية الموجَّهة في محراب الأرض. إنه يقدم هويته الصاخبة، يتحرك مع صاحبه، وذلك على يد الفنان الحي في واقع حي حقيقي «مدرسة مفتوحة للكفاح» هو الشعب العربي الفلسطيني، هو واقع كفاح، هو تحويل أحجار «فلسطين» الى كل ما من شأنه التعبير عن خلوده، عن كفاحه المتصاعد، عن طرق النضال الكثيرة لديه، التي استلهمها من واقعه المعاش. فالكفاح هنا هو عنف انبعاثي لقلْب عنف آخر تدميري، والشعر وفقه، هو عنف يُمارس في الكلام، حيث يهيمن عليه، وحيث يحيله الى أتونه حاداً، أو يتلبس ملامح هذا الكفاح! ان تأملات في شعر الانتفاضة التي ماتزال تتصاعد، في مدى: عمق تعبيره الفني لها، ليست بالامر السهل، فهذا الشعر متنوع في حدته، مختلف في آفاقه ورؤاه، ولقد رأينا من خلال اختيار نماذج، أنه يمكن فرزه الى ثلاثة مواقف:

آ ـ موقف الاندهاش، بحيث رأى هذا الموقف «الشعري» في الانتفاضة، ما يتجاوز الواقع، وأن خارقة ما، قد تخللتها، وتمظهرت فيها.

ب ـ موقف المزاودات الكلامية وتضخيم الشعارات السياسية من خلال الاشادة بالانتفاضة، والتبرك بالحجر، وبناء المستقبل من خلاله.

جـ ـ الموقف العفوي، ولكن الملتحم بحرارة الانتفاضة في شمولية أبعادها الشعبية!.

آ ـ حول موقف الاندهاش:

من الجميل أن يكتب الانسان عن الانتفاضة، أن يعبر عنها، باللون والكلمة، لانها حدث عظيم «كما قلنا سابقاً». ولكن أن يكتب الانسان كما يخطر في باله، كل ما يحلو له، فهنا يكمن الاختلاف، فالانتفاضة باعتبارها حدثاً كبيراً، انتفاضة شعب، أسلوب جديد للكفاح، مع ما في هذا الأسلوب من رؤى جديدة، وأبعاد سياسية، وهواجس مستقبلية، وطبيعة صراع بين الشعب الفلسطيني وعدوه، ومن عفوية تحتاج الى مزيد من الغوص في جوهرها، لكشف محركها الشعبي، والأطراف المتكاتفة والمتفاعلة في صنعه، وبنية هذه الأطراف، ان كل ذلك يحتاج الى تعمق في حركية الانتفاضة، لا باعتبارها انتفاضة وكفى، وانما باعتبارها تحولاً في مسار الكفاح، وليست الكتابة الشعرية عن هذا التحول بعد هذه السنوات الطويلة، التي تطفح بالكثير من الملل والقهر والإحباط والضحايا، والقليل من الامل والتفاؤل بالمستقبل، وكأن درب المستقبل بات مسدوداً والتشاؤم هو لسان حاله.

من هنا جاء شعر الكثير من الشعراء العرب اندهاشياً، نابعاً من عنصر المفاجأة، وكأن ما حدث لم يكن بحسبان، وإنما طفرة في التاريخ الكفاحي، إنقاذ سماوي، أو إيحاء غير متوقع، وعبَّر هذا الشعر عن اندهاشه بمثل هذا التجلي الصاعق، وبحيث اكتسب الحجر قداسة، وأصبح كل شيء مرتبطاً به، فتحول الحجر الى عنصر صاخب، الى حركة، الى معجزة، الى سورة، الى السلاح القاهر، الى مخلّص! فاللغة صارت حجراً، الحلم حجراً، والوردة حجراً، والسلام حجرياً، وطريق الخلاص من خلال الحجر يكون.

هكذا تشكلت «صدمة الحجارة» كما يقول أحد النقاد العرب حديثاً(٢). وتحول الواقع الى اسطورة، والصانع الى كائن شبه إلهي، وتجلت الحركة الشعبية للانتفاضة ذات قاع لا يتحدد، لا تحددها اللغة الإنسانية، وبدا انعكاس الانتفاضة في هذا الشعر انعكاس فعل الصاعقة، والنور الباهر في العين، وبحيث رأى البعض في كل ما يكتب عن الانتفاضة «جميلاً» وخاصة «ممدوع عدوان» دون أن يقدّر أن الكتابة اللاواقعية عن الانتفاضة، أو استيعابها جمالياً وواقعياً، وأسطرتها، تشوه حقيقتها الواقعية، وبمثل هذا التوجه يكتب «عدوان»، وبحماس اندهاشي في الأعم الأغلب:

هذا زمان من حجرْ
فتعلم الدرس الذي
أعطى لنا الولد الفلسطيني
في زمن الحجر
إن القلوب تجف رحمتها
وتصبح من حجر
«ومن ثم»
لم يبق ما تخشاه
كن في العري أوضح من حجرْ
لم يبق شيء لم يُبَعْ
فاحمل حجرْ
هذا عدو قادم
فاضرب حجرْ
هذا عدو حاكم
فاضرب حجرْ(٣).

ان هذا اللهاث وراء الحجر، له ما يبرره من ناحية، فالشاعر رأى في اللجوء الى المقاومة التي اتخذت مظهراً وطابعاً شعبيين، تحولاً في مسار الكفاح نفسه، وهذا يعني اختراقاً «للطواطم» السياسية والأوصياء المؤدلجين أنفسهم، ولكن هذا الاندفاع الذي يشكل لدى الشاعر ما يشبه القطيعة مع السابق، ليس هناك ما يبرره، باعتباره رأى في هذا التجلي كل ما يمكن تحقيقه وما ينبغي إظهاره، وتوقع ما لا يجوز توقعه بهذا «الانفجار» الشعري! فالواقع هو أكثر صلابة وصرامة، من رؤية الشاعر التي تحلق فوق واقع آخر «جرى

تمثله». ولأن الحجر هو خالق المعجزات من وجهة نظر الشاعر العربي، المندهش المبهور، بما يراه، فانه يربط كل ما يحلم به بهذا الحجر، حيث نجد هنا: عام الحجر، وايحاء الحجر، وأطفال الحجارة، وهم في طفرتهم الكفاحية. وحيث يرتفع الحدث «الحجري» الى ما هو منتظر، وقد أتى، أو منتظر، ويناديه الشاعر العربي المصعوق بخوارقه، أن يقبل، حيث يتهاوى كل شيء أمامه، هذا ما يراه الشاعر الفلسطيني «أحمد دحبور» في حجر الفلسطيني الذي يضرب زجاج العدو:

كأن زجاجهم هذا الفضاء
وليس بيتك من زجاجٍ
فاقتلعني من مزاجٍ داؤه كلُّ الجهاتِ،
وهات ما أوحى لك الحجر(٤).

وبدوره، واندفاعاً مع هذا الشعر «البركاني» وبه وفيه، نلمح الشاعر المصري «شادي صلاح الدين» وهو يرى دولة العدو متقوضة، وبدأ فتح جديد:

حجر يقوّض دولة الأشباح
يجتث البشاعة والجهالهْ
حجر بكف الثائر المقدود من حجرٍ
يساوي قنبله
حجر يقابل قنبلهْ

ثم يكبّر الحدث في ذلك التفاعل بين الطفل الفلسطيني والحجر:

يا أيها الشبل الموشح باللهبْ
يا ثورة البركان
يا ريح الغضبْ
لا تنتمي الا لأشبال الحجارهْ
فهم الولاة والأصالة والبشارهْ(٥).

بل نجد الشاعر الفلسطيني «صالح هواري» يتجاوز بالحدث الى ما وراء الواقعي، الى إطار الغيب تحديداً، فهو متحرك بقدرة قادر، كما يبدو، وهناك قوى أخرى تشارك في صنعه، وهذا يعني أن ما يجري، ليس بفعل معاناة ورد فعل شعبي فقط، وإنما من قبل قوى خارجية «غيبية»، وهكذا تتحول قصة النضال، نضال شعبٍ يقاسي أهوالاً شتى، الى قصة تنبني الا من الخارج، كما يُفهم من قصيدته، وهذا المقطع هو نموذج على ذلك، من قصيدته «وردة الحجر»:

... فاتل من سورة الأرض
قول الأبابيل في المعمعهْ
ألم تر كيف رمى الولد الكرملي الحجارة
فأرسل ربك جيش الملائك ترمي معهْ(٦)

طبعاً ليس هناك حد للشاعر، عليه أن يتوقف عنده، فالمخيلة الشعرية تخترق الممكنات، أي ما يُعتبر حدوداً مألوفة، ولكن ما هو مطلوب هنا، هو ألا يحوّل الشاعر مشهداً واقعياً الى كيان «قدسي» أو غير طبيعي، فالفعل الإنساني يجب أن يتجسد هنا، أي أن تقدم لنا القصيدة حاملها الاجتماعي لا الأسطوري «الخرافي» أو اللامتوقع، اللاتاريخي الراهن. والمقصود بالراهن، ما يمكن اعتباره معاشاً في الواقع..

ويتبعه الشاعر العربي السوري «عبد الكريم الناعم» في قصيدته «عام الحجر». وقد اتخذ بداية النهاية، بداية مرتقبة «الخلاص» ونهاية يُطلب تجاوزها، وحيث نرى كل شيء يثبت وجوده من خلال «حجريته» كما في قوله:

كرةٌ.. حجرْ
حجر له عينان.. نافذتان.. ذاكرتان
يدرك كيف تُفتتح السورْ
فاقرأ عليه سورة (الإخلاص)،
قلبٌ ذاك أم حجرٌ حنونٌ؟.
كافُ هاءٍ.. ياءُ عين.. صادُ،
هذا المنجم العربي أحرفه تصير حجارةً
والحرف فاتحة المطرْ
حجر لذاكرة البيوت
وطائر يردى فيسنده الحجرْ[٧].

إن أسوأ ما في الكتابة هو التعبير بلغة الانفعال، هو أن يباغتنا حدث ما، فنصوره عاطفياً، قبل تبلوره، أو استقراره، وهو يتصاعد بالمقابل، ودون أن ندرسه، نستوعبه، نعيه عقلياً، وثم نكتب عنه، وما يمارسه الشاعر العربي هنا، هو تحريك مفرداته من خلال اندهاشه بما يراه، أو يسمع عنه، فالحجر هنا لا يحركه طفل، أو يهبه بُعداً حيوياً، وإنما شعبٌ، والحركة ليست في الحجر، وإنما الحجر هو الذي يتلبس معانيه، أو تحولاته الرمزية، من «مستثمري قواه» تحديداً. أي الشعب عموماً!.

ب ـ موقف المزاودات الكلامية وتضخيم الشعار السياسي:

الشعر كلام، ولكنه ليس أي كلام، إنه كلام مكثّف للزمن.. للفعل الانساني، كلام يخترق الزمن، ليكون تاريخاً، شاهداً على تجلياته الكبرى، كلام من نوع خاص، اذا تجاوز حدوده، يفقد صفته كشعر يؤخذ به، إنه يضرب في العمق، حين يعبر عن حقيقة معينة، يصرح دون أن يسمي نفسه، فهو أكثر الكلام تجاوزاً لذاته، حين تحجزه هذه الذات في الظل، إنه يعيش انفتاحاً متواصلاً، يتحدد موقعه، صفته، جوهره، في هذا النفاذ العميق الى ما يعبر عنه، وهو هنا يوحي، ولكنه لا يمارس خطابه على منبر، فهو منبر المتجلي بما يقدمه.

تحديداً نقول، حين يتحول الشعر الى آلة تفرّخ شعارات سياسية، وتلجأ الى المزاودات الكلامية، يعدم ذاته، يقلل من قيمته، من كونيته، كما الماء حين يتسرب من بين الأصابع، أو يدخل مسامات الجلد، بعفوية، وحين يتجلد «يصبح جليداً» يتكسر، يفقد انسيابيته، وهو حين يسمي الأشياء بأسمائها، يمنحها غطاء سياسياً، يحول الفعل الى فعل سياسي مؤدلج، أو ينتج بيانات سياسية، لا يعود شعراً كذلك، فهو يعبر بطريقته هنا، يشير دون أن يسمي، يحوّل فعلاً دون أن يصيغه في جمل طنانة..

لقد أظهرت الانتفاضة الكثير من شعر يطفح بالمزاودات الكلامية، واللافتات السياسية العامة، حيث بدا الشاعر العربي هنا «منجماً» سياسياً، يتلذذ بمفرداته، ويغطي الوجود بمسمياته المؤدلجة، فهو يرى في الانتفاضة: الفعل المنتظر لإنهاء المهزلة، التي يعيشها عصره، مجتمعه بكل فئاته، وبدون استثناء. وضمن هذا الإطار، نرى «نزار قباني» يضع تاريخين، ما قبل الانتفاضة، وما بعد الانتفاضة، ويتلمس في «أطفال الحجارة» الخلاص من مهزلة مجتمعه، بلهجة حماسية، ومزاودات كلامية، وتضخيم شعارات:

يا تلاميذ غزة علمونا بعض ما عندكم فنحن نسينا
علّمونا بأن نكون رجالاً فلدينا الرجال صاروا عجينا
علمونا كيف الحجارة تغدو بين أيدي الأطفال ماساً ثمينا

ثم ينبههم الى حقيقة أساسية في خطاب العري السياسي بقوله:

نحن آباؤكم فلا تشبهونا نحن أصنامكم فلا تعبدونا
نتعاطى القات السياسي والقمع ونبني مقابراً وسجونا

وأخيراً يقول:

يا مجانين غزة... ألف أهلاً بالمجانين.. إن هُمُ حررونا
إن عصر العقل السياسي ولّى من زمان فعلمونا الجنونا[٨]

ان تساؤلات بسيطة، تُظهر ضلالة هذا الشعر/ اللاشعر في عنعناته السياسية الشاملة. هل جميع الرجال صاروا عجيناً في مجتمعه؟ ومن يتعلم منهم؟ وهل كان الآباء كلهم متشابهين؟ ومن يتعاطى القات السياسي؟ وأين هو عصر العقل السياسي الذي ولّى، وهو نفسه يدري، ومن المفترض أن يدري أولاً وهو في لبنان، أنه مازال قائماً بكل تموجاته المتصارعة؟ أليس الشعر هنا في اعتماده: جمالية اللفظ والصور الحسية، فاقداً كل معنى له، حين يلغي مجتمعه، يشمله بأحكام واحدة متشابهة، وان الخطاب السياسي، مهما كانت صوره جميلة، براقة، رغم وزنها، لا يصنع شعراً!.

وتحت ظل هذا التضخيم السياسي، والمزاودات الكلامية نرى السوداني «محمد نجيب محمد علي» يقول:

كلُّ حجر حجرْ
الا الحجارة في (القدس)
في (دبكة) العرس
بين بيوت (الجليل)

و(غزة)
والخيل تندفع بالصهيل
وأطفالنا
خرجوا من دم العاصفةْ
غيرّ كل تاريخ أيامنا الزائفةْ(٩)

ويرافقه الشاعر المصري «جميل محمود عبد الرحمن» بنفس الايقاع والحماس السياسي، مخاطباً أطفال الحجارة:

فاطلعوا من كل فجٍّ بالبشاره
واغسلونا باشتعالات الطهاره
وامنحونا رعشة الإحساس حتى نتفجرْ
واطلعوا من كل فجٍّ وارجمونا
علمونا أن نكون
علمونا أن نكون
إنكم من كل فجٍّ طالعونْ(١٠)

وكأن المصري الآخر «المنجي سرحان» يأبى إلا أن يعزف على هذا الوتر الحماسي المسيَّس:

أيها المشرقون على ليلنا
تكتبون ملاحمنا
تفتحون المواويل في دمنا
تعبرون من الوجع العربي
الى حلمنا..
وملامح أحجاركم
تتفجر أغنية للسماء
ترافق أزنادكم
فاقدحوا
واقدحوا
واقدحوا(١١)

جـ ـ الشعر في عفويته «الهادرة»:

يكتب «بابلو نيرودا» في مذكراته (إني لأؤمن بالارتجالية الموجهة أو العفوية المسيَّرة أو التلقائية المقننة/ ثم يتابع قائلاً. عمَّ يلزم هنا أيضاً (أول ما يجب أن يزوِّد به الشاعر هو رصيده من الأشكال والمضامين، من

الكلمات، من الأوزان، من الألحان، من الصور) وكذلك هناك نقطة هامة أخرى: (ثمة أيضاً مخزون العواطف «وهي» تحفظ بوعيها حين تحدث)(١٢)، ولكن هل هذا الكلام يعني أن الشاعر لا يحمل عيني السياسي ويبصر بهما؟ ألا يعتبر سياسياً واعياً لاحداث وتحولات مجتمعه، حين يمارس العفوية في كتابة الشعر؟.

القضية لا تُفهم كذلـك! وهنا يذكر «نيرودا» أمثله كثيرة حول هذه النقطة، ولدينا «بول ايلوار» الشاعر الفرنسي المشهور، حيث يكتب عنه، أنه كان (انساناً لا سياسياً) ثم يوضح فيما بعد قائلاً (يجب ألا يُعتقد بأن «ايلوار» كان أقل سياسياً منه شاعراً. لقد أدهشتني دائماً بصيرته الواضحة وتنبؤه العلمي وحجته الجدلية الرائعة. لقد حللنا معاً أشياء كثيرة، بشراً وقضايا في عصرنا، أفادني جلاؤه دوماً)(١٣).

ووفق هذا المنظور، نجد قصائد كتبت عن الانتفاضة الفلسطينية في شموليتها بعفوية، ولكن هذه العفوية، لم تُخْفِ العمق الرؤيوي للشاعر، ونفاذ نظرته للانتفاضة، فالشاعر العربي هنا، تجلت شاعريته، في إبراز حقيقة الانتفاضة، حقيقة شعبية، نضالية، انسانية من نوع خاص، ولدتها ظروف محددة، حقيقة فعل ثوري متعدد الجوانب، كرد فعل طبيعي على الضغوط التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني، وهي شاعـرية، لم تُخْلِلْ بتوازنها الكوني الشعري، وكذلك لم تفقد متكأها السياسي، وأيضاً فإن السياسي في الشاعر العربي تجلى في إحاطته بأبعاد القضية، من خلال مفردات شعرية لم تش ببلاغتها السياسية.

إن «محمود درويش» هو أفضل من حافظ على هذا التوازن الشعري المطلوب، على هذه العفوية العميقة، وعلى هذه الرؤيا السياسية في بناء قصيدته عن الانتفاضة، كما في «عابرون في كلام عابر».

أيها المارون بين الكلمات العابرةْ
احملوا أسماءكم وانصرفوا
واسحبوا ساعاتكم من وقتنا وانصرفوا
واسرقوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذاكرةْ
وخذوا ما شئتم من صور، كي تعرفوا
أنكم ان تعرفوا
كيف يبني حجر من أرضنا سقف السماء(١٤)

إن موقفي الشاعر والسياسي يتحدان هنا، من خلال اعلان الشاعر عن حقيقة بسيطة جداً وهي:

أيها الطغاة القادمون الينا، لن تستمروا على أرضنا، سوف تعبرون كالكلمات «لن يبقى لها أثر» وستنصرفون ولن تكتشفوا كيف تتنوع أساليب النضال، ضد وجودكم لحين إجلائكم عن بلادنا! والحجر هنا أسلوب نضالي، يهددكم ويعلمكم بهذه الحقيقة، من خلال حامله، وهو الفلسطيني بكل تنوعات أجناسه وأفراده المكافحين، والقصيدة في عفويتها هنا تكثف اللغة، تشحنها بكل الرؤى الكفاحية المطلوبة.. ونلاحظ الشاعر العراقي «سعدي يوسف» وقد وهب الحجر قيمة أخرى، مرتبطة بالارض كلها، بل تتحول الأرض نفسها الى حجر، يقذفها الطفل الفلسطيني، وهو هنا يشمل الشعب كله، في نضاله المتفرد، يقذفها في وجه أعدائه، في قصيدته «يحيى» ولعل هذا الاسم له دلالة، في كونه يرتبط بالانبعاث، ورمز القيامة على

الغاضبين، انه الوجدان الشعبي الذي يتفجر صلابة حجر ضد الاعداء:

رايات يحيى، ثوبك المنخوب بالطلقات
يحيى في المخيم
يرفع الأرض، التي احتقنت
ويدحوها، ويبرؤها، ويقذفها بوجه النار
يحيى ينبت الاحجار
يجعل من سواعدنا مقاليع النبوة
من أصابعنا دم الثوار(١٥).

ان المفردات التي يستعملها الشاعر قليلة، مألوفة بسيطة، مفهومة في معانيها، ولكنها في سياقها الهرموني، تلخص الكون نفسه، ضمن اطارها، تشكل بناء شامخاً، صلب الاساس. فالاعتماد الحسي في القصيدة بارز وجلي، وكذلك التصوير المعبر، الى جانب الخلفية السياسية للشاعر، فهذه العناصر متحدة تمنح قصيدته قيمة نضالية كبيرة، في دفق صورها، وفي مؤثرها العاطفي والثوري، دون أن يكون هناك طغيان أو تجلٍّ للمنظور السياسي، فهي تشرح «درسها»، تؤسس لسلطتها الشعرية، لمدلولها الاجتماعي الوطني الثوري بعفوية مطلوبة. وأخيراً نجد في قصيدة الشاعر الفلسطيني الآخر «سميح القاسم» المعنونة بـ «قصيدة الانتفاضة» هذا التلاحم بين القصيدة ومكونها «الشعب الفلسطيني» المنتفض، وهذا التفاعل بين الفلسطيني وأرضه ضد الغزاة، وهي قصيدة احتفالية أو كرنفالية، يمكن تصوير مراحل بنائها سينمائياً، حيث يتحرك كل شيء في اطار الأضداد، ولكن المنتفض هو الباقي في النهاية:

تقدموا تقدموا
كل سماء فوقكم جهنمٌ
وكل أرض تحتكم جنهمٌ
تقدموا
يموت منا الطفل والشيخ
ولا يستسلمُ
وتسقط الأم على أبنائها القتلى
ولا تستسلمُ(١٦)

فالقصيدة هي اعلان عن حالة حصار من الداخل، كلما تقدم به الزمن، يزداد ضيقاً، وداخل هذا الحصار، أو المحاصر هو «العدو الاسرائيلي» نفسه، وكذلك فان كرنفالية هذه القصيدة تجعل الأفق المستقبلي مفتوحاً إلى آخره، من خلال هذه العفوية «المتينة» التي تتجسد في نضال مشروع يمارسه شعب، يأبى الانسلاخ عن أرضه •قضيته العادلة.

ان ما تعرضت له، يشكل ومضات نقدية «تأملية» لا تتمظهر تحديداً في صيغة أحكام قاطعة، ورؤى نقدية ثابتة، ولكنها في مجملها تشير الى حد،ث كبير، مازال يتم تناوله بصورة انطباعية في الأعم الأغلب،

في إطارها الأدبي والفني والجمالي والسياسي والاجتماعي، وهذا الحدث ممهور بتفاعلات شتى سياسية واجتماعية واقتصادية محلية ودولية، ويتصاعد باستمرار، وهي «أي الانتفاضة» تحتاج لا الى خيال مجنح فقط، كما يقال فالشعر العربي المعاصر، نجد فيه الكثير من التشوهات والتشويهات، إثر هذا الخيال المجنح، الذي يحلق فوق الواقع، أو دونه «خيال محدود جداً»، أو مطلق بلا أرضية» وانما الى وعي «مجنح» ان جاز التعبير، يتجذر في الواقع، وهي وعي الحدث في عمومياته وخصوصياته.

وليس هناك ثمة حدث يتم التعبير عنه بشكل صادق من خلال الاحتواء العاطفي، وإنما من خلال استيعابه على صعيد الوعي أولاً، والوعي هنا هو الذي يمنح العاطفة المنبر المناسب.

اشارات:

١ - من مجموعته «سيف اللهب - وقصائد أخرى» ترجمة وتقديم د. ميشال سلميان - دار القلم - بيروت - ص٢٥٨.
٢ - راجع مقال «عبد العزيز المقالح» في مجلة «الناقد» اللندنية - العدد ١٦ ت١ - ١٩٨٩، ص٤٠.
٣ - ممدوح عدوان - في مجلة «الحرية» العدد ٨٣٨/ ٣/ ٩/ ك١/ ١٩٨٩/ ص٤٤.
٤ - في مجلة «لوتس» العدد ٦٥ - ٦٦ ١٩٨٨.
٥ - في مجلة «الوحدة» العدد ٤٨ - ١٩٨٨.
٦ - في مجلة «الوحدة» العدد ٥٥ - ١٩٨٩.
٧ - في مجلة «الوحدة» العدد ٤٦ - ٤٧ - ١٩٨٨.
٨ - ألقيت قصيدة «نزار قباني» بمناسبة الانتفاضة الفلسطينية - سنة ١٩٨٨.
٩ - في مجلة «الوحدة» - العدد ٤٩ - ١٩٨٨.
١٠ - في المصدر نفسه.
١١ - في مجلة «الوحدة» - العدد ٥٠ - ١٩٨٨.
١٢ - مذكرات «بابلوا نيرودا» - ترجمة د. محمود صبح - المؤسسة العربية - بيروت - ط٢ - تموز - ١٩٧٨ - ص٣٨٧.
١٣ - المصدر نفسه - ص٤٠١ - ٤٠٣.
١٤ - في مجلة «دراسات اشتراكية» السورية - العدد ١ ك٢ - ١٩٨٨.
١٥ - من مقال الدكتور «عبد العزيز المقالح» في المصدر المذكور.
١٦ - في مجلة «لوتس» - العدد ٦٣ - ١٩٨٨.

أدب ونقد

شعراء شرق الأندلس
الشاعر الشهيد: ابن الآبار

د. خلف المنشدي*

الحديث عن حياة الشاعر ابن الأبار، ارتبط دائماً بالحديث عن تاريخ الحقبة الأخيرة من حياة أمارة «فالنسيا Valencia »، عاصمة شرق الأندلس، قبل سقوطها بيد الملك «خيمة الاول»، ملك ارجون. ذلك أن ابن الأبار بجانب كونه أديباً، ومفكراً، وشاعراً، كان سياسيا، شغل مناصب رفيعةً في حكومة «فالنسيا»، كان آخرها وزيرا في حكومة الأمير «ابو جميل» زيان بن مردنيش آخر حاكم عربي للمدينة. فقد دخل ابن الأبار قصر الحكومة ليشغل وظيفة كاتب، عندما كان لازال دون العشرين من عمره، إذ رشحه لهذه الوظيفة أستاذه العلامة الفلنسي أبو الربيع الكَلاعي، وكان ذلك بحدود عام ١٢١٨م.

* باحث ومؤرخ عراقي مقيم في اسبانيا

وُلد الشاعرُ والمؤرخُ ابن الأبار بمدينة «فالنسيا» عام ١١٩٨. وقد أشار بعض المؤرخين إلى أنه ولد بمدينة «أوندا ONDA » التي تبعد حوالي ٥٠ كلم إلى الشمال من «فالنسيا»، حيث لازالت هذه المدينة تحتفظ بشواهد ملكية والده لأرضٍ زراعيةٍ فيها. وكان الأب الذي يبدو، أنه ترك مدينة «أوندا» بسبب تعرضها لهجمات الجيوش المسيحية ليقيم في العاصمة «فالنسيا» واحداً من علماء فالنسيا المعروفين، اشتهر بصلته الدائمة بالعلامة أبي الربيع الكلاعي، فكان ذلك سبباً في أن ينشأ الابن محباً للعلم وطالب من طلاب الاستاذ أبي الربيع، إذ احتل الابن مكانة الأب في مجلس ابي الربيع بعد وفاة والده. ويشير المؤرخون القدامى إلى أن ابنَ الأبار مالبث أن أثار إعجابَ أستاذه، فأصبح واحداً من أقرب تلامذته إليه. وكان ذلك سبباً في أن يقترح أبو الربيع على الأمير الموحدي أبي عبد الله ابن حفص بأن يُلْحِقَ ابنَ الأبار في ديوانه ككاتب، وذلك عام ١٢١٨. وبهذا التعيين أصبحت حياة ابن الأبار مرتبطة ارتباطاً شديداً بالسياسة ومشاكل الحكم وتقلباته، في فترة خضوع شرق الأندلس لسلطة الامبراطورية الموحدية ١١٢٩ - ١١٦٨. وكانت هذه الوظيفة سبباً، فيما بعد، في تشرد ابن الأبار أعواماً خارج بلاده، إذ أنه اضطُرَّ لمرافقة رئيسه الجديد أبي زيد عبد الرحمن الموحدي عند لجوئه إلى إمارة أرجون المسيحية عام ١٢٢٨. وحيث تركت تلك المهانة في نفسه وشعره أثراً لايُمحى، إذ نراه يسارع إلى ترك أرجوان المسيحية، والعودة إلى مدينة «خاطبة»، التي تقع على مسافة ٦٠ كلم من «فالنسيا» والتي كان يحكمها صديقه أبي الحسن الخزرجي، إذ مالبث أن استلم منصب القضاء في مدينة «دُنيا» القريبة من «خاطبه» والواقعة على شواطىء البحر الابيض.

لقد استمر تشرد ابن الأبار عن مسقط رأسه قرابة ثماني سنوات امتدت بين الأعوام ١٢٢٨ - ١٢٣٦، حيث استدعاه في هذا العام الأمير أبو جميل زيان ابن مردنيش ليتولى مسؤولية الوزارة في ديوان حكومة «فالنسيا»، في فترة تعد من أحلك فترات تلك الإمارة العربية.

إن نظرة سريعة على تلك التواريخ التي ذكرناها، تظهر لنا بأن ابن الأبار ولد في تلك الفترة التي بدأت تلوح بها نهاية دولة الأندلس. ذلك أن هزيمة جيش الموحدين في معركة العقاب «Las navas de tolosa» كما يسميها الاسبان عام ١٢١٢، قد حددت مسار النهاية لتلك الدولة العربية. إذ لم تعد هناك قوة عسكرية قادرة على مجابهة الجيوش المسيحية، بعد أن خسر المسلمون في تلك المعركة التي قادها زعيم الموحدين محمد الناصر المنصور عدداً هائلاً من القتلى، قدره بعض المؤرخين القدامى بمئتي ألف شهيد. وكان لابن الأبار آنذاك من العمر ١٤ سنة، فنشأ الرجل وترعرع مع القلق والخوف من مستقبل قاتم مظلم، وعندما حل عام ١٢٣٦ كان ابن الأبار الوزير يرى جيوش الملك «خيمه الأول»، وقد أطبقت على المدينة، بعد أن اتفق ملوك الدول المسيحية الاسبانية: ارجون، كاستيا، نفارا، ليون، بأن شرق الأندلس أصبح من نصيب ملك أرجون. ويشاء قدر شاعرنا الذي لم يبلغ بعد الثامنة والثلاثين في أثناء ذلك الحصار، أن يكون استسلام هذه المدينة العربية على يديه، ذلك أن الأمير «أبو جميل» زيان استدعاه ليتولى مهمة الوزارة، طمعاً في قدراته وامكانياته السياسية. وكان الأمير «أبو جميل» يعرف أن ابنَ الأبار قادرٌ على إثارة همة ونخوة الأمير «أبو زكريا» زعيم الدولة الحفصية في تونس لانقاذ إمارة «فالنسيا» من مصيرها المحتوم. فكانت أولى مهمات الوزير الشاعر السفرَ إلى تونس لطلب العون العاجل من الأمير الحفصي،

وكانت وسيلته في ذلك قصيدةً طويلةً ألقاها في مجلس الأمير الحفصي يقول في مطلعها:

نادَتْك أنـدَلُسٌ فَلَبِّ نِداءهـا   واجعل طَواغيتَ الصليب فداءَها
صرخت بدعوتك العليّة فاحْبُها   من عاطفاتك مايقي حوْباءها

وقد استطاع السياسي المحنك، والشاعر الكبير أن ينتزع من أبي زكريا وعداً بالمساعدة الفورية، بعد أن أثار نخوته، حيث شرعت سفن الأمير الحفصي بالتوجه محملة بالمؤن والأموال والسلاح الى شواطىء «فالنسيا»، وعندما وصلت إلى منطقة تسمى «جراو EL GRAU» حيث ميناء «فالنسيا» الحالي، وجدت جيوش الملك الأرغوني قد احتلتها، فاضطُرَّت سفن الأمير الحفصي إلى إفراغ حمولتها بمدينة «دُنيا denia»، وهي مدينة تبعد عن العاصمة قرابة ٧٠ كيلومترا. وكان من العسير على أولئك المحاصرين نقل تلك المؤن من ذلك المكان الى «فالنسيا». وبذلك تكون رحلة ابن الأبار قد فشلت في فك الحصار عن المدينة، فكان لابد من التفاوض مع المهاجمين الذين بدأوا يشددون حصارهم أكثر فأكثر، بعد أن عرفوا بموضوع معونات الأمير الحفصي. وتشاء أقدار الشاعر أن يكون هو المفاوض على استسلام مدينته ومسقط رأسه، فاستطاع أن ينتزع من الملك المسيحي عهداً بالأمان مدته عشرون يوماً، لمن يريد أن يغادر المدينة إلى مدينة أخرى، أو إلى خارج الأندلس، فرحل ابن الأبار مع عائلته والأمير «أبو جميل» بحراً إلى تونس عن طريق مدينة «دُنيا».

ابن الأبار: المؤرخ والكاتب

لقد أتاحت لابن الأبار صلاته بعلماء الأندلس، وعلاقته بأستاذه أبي الربيع الكلاعي ثقافة واسعة، مكنته من احتلال مركز أستاذه بعد مقتله، إذ يشير المؤرخ «ابن عبد الملك المراكشي» في «الذيل والتكملة»، إلى أن ابن الابار «كان آخر رجال الأندلس براعة واتقاناً وتوسعاً في المعارف، مُحدثاً مكثراً، ضابطاً عادلاً، ثقة، نافذاً، يقظاً، ذاكراً للتواريخ على تباين أغراضها، مستبحراً في علوم اللساد نحواً، ولغة، وأدباً، كاتباً بليغاً، وشاعراً مُجيداً، عُني بالتأليف وبحث فيه».

وعلى الرغم من انشغاله في أمور السياسة والحكم، فقد ترك نتاجاً عظيماً يصل إلى ٥٠ مجلداً ضاع أو أُحرق أكثره. وقد عثر له حتى الآن على ٨ مؤلفات حققها عدد من الأساتذه العرب ونشروها في القاهرة، والمغرب.، ومدريد، كما امتلأت كتب المؤرخين القدامى بأشعاره مثل: الوافي بالوفيات، نفح الطيب، أزهار الرياض، الذيل والتكملة.. الخ. وقد استطاع الدكتور عبد السلام هراس الأستاذ في جامعة تونس، بعد بحث واستقصاء أن يعثر على ديوان كامل للشاعر ابن الأبار في خزانة المكتبة الملكية في المغرب، فقام بتحقيقه وطبعه.

ولعل أبناء «فالنسيا» الذين بهرتهم قدرات ابن الأبار، السياسي، والشاعر، قد حاولوا أن يكرموا هذا الرجل بعد موته بقرون طويلة، فأطلقوا اسمه على أحد شوارع العاصمة «فالنسيا»، كما دأبت بلديّة مدينة «اوندا Onda» شمال «فالنسيا» على إقامة مهرجان سنوي باسم ابن الأبار، تدعو إليه عدداً من المثقفين

العرب والاسبان. كما تخذ المجلس البلدي قراراً منذ عام بإحداث جائزة سنوية لأفضل بحث تاريخي أو أدبي عن منطقة شرق الاندلس أطلق عليها اسم جائزة ابن الأبار. ولعل ذلك تعويضٌ يقدمه المثقفون الاسبان، عما لحق بالشاعر الشهيد على يد إخوانه العرب.

مأساة ابن الأبار

ويكاد مصير شاعرنا يتشابه مع مصير عدد لايحصى من شعراء العرب، بدءاً بطَرفَة بنِ العبد، ومروراً بلسان الدين الخطيب، وشاعر فالنسيا البني، وانتهاء بشعراء معاصرين، كان مصيرهم الموت، لأنهم قرروا في لحظة ما توجيه نقد لحاكم جائر، فالسجون التي زارها ابن زيدون تحدثنا عن محنة هؤلاء المثقفين العرب. ولعل ابن زيدون كان محظوظاً فلم يصل السيف إلى رقبته.

لقد التحق ابن الأبار بديوان الأمير الحفصي في تونس، لكنه مالبث أن إبعد إلى مدينة بجاية لأسباب غير معروفة، وأعيد للعمل في الديوان في زمن ولي العهد «أبو عبد الله المستنصر»، الذي استدعاه وبعد وفاة أبيه أبي زكريا وذلك عام ١٢٤٩. لكن هذا الأمير عاد ونفى ابن الأبار إلى بجاية عام ١٢٥٢، أي بعد أقل من ثلاث سنوات من استدعائه. ويفسر المؤرخون أسباب هذا الإبعاد كل على هواه: فمنهم من يقول بأنه كان بسبب طيش الأمير، ومنهم من يقول بأن ابن الأبار كان يظهر تكبراً وميلاً لأبناء بلاده الأندلسيين، وآخرون يقولون بأنه بسبب الوشايات والحسد من بعض العاملين في الديوان. غير أن ابن الأبار استُدْعي للمرة الأخيرة للعمل في الديوان، بعد أن زال غضب الأمير عليه، فكان هذا الاستدعاء سبباً في مأساة الشاعر والمؤرخ، إذ أمر الأمير الحفصي حراسه بالفتك به بطريقة وحشية، وذلك طعناً بالرماح، ولم يكتف هذا المتجبر الفاسد بذلك، بل أمر بحرق جثته وكتبه معه، وذلك في ٦ شباط ١٢٦٠، حيث دفن ماتبقى من أشلائه بمقبرة الموسية التونسية. ويرجع الدكتور عبد السلام هراس أسباب مقتل ابن الأبار الى الأمور التالية:

- الوشايات التي وصلت للأمير من أن ابن الأبار قد ألف كتاباً وكتب شعراً ينتقص به الأمير والدولة الحفصية.
- كان ابن الأبار معروفاً بعصبيته وثورات غضبه الجامحة، وقد يكون تجرأ في واحدة منها على الانتقاص من الأمير المستنصر، ذلك لأن ابن الأبار كان متعصباً لشعب الأندلس ورجاله وعلمائه.

بينما يشير مؤرخون آخرون الى سبب آخر، قد تكون له صلة في هذه النهاية المأساوية، وهي تشيع ابن الأبار، ويدللون على ذلك بكتابه: «دور السمط في أخبار السبط»، وهو أمر لايمكن أن يتسامح به الحفصيون المتعصبون.

ولعل في دلالة حرق كتبه معه إشارةً واضحةً إلى هذا الأمر، إذ لماذا لجأ الأمير الحفصي إلى حرق تلك الكتب، لو لم يكن السبب موجود فيها.

ومهما يكن من أمر، فلا يحتاج حاكم عربي لأسباب وجيهة لتنفيذ فعلة شنيعة كتلك الفعلة، إذ يكفي

مجرد الشك أو مجرد بيت من شعر ليكون عقاب صاحبه الموت.

بعض من شعره

كان غرام ابن الأبار بمدينة «فالنسيا» وطبيعتها وجمال حقولها أساسَ معظم أشعاره، فقد تغنى بجسر معان وبالرصافة، والبحيرة، وهي مناطق لازالت موجودة حتى الآن، تشهد على حقيقة ذلك الغرام بين الشاعر وأرضه.

الرصافة:

لله عهدُ للرُصافة سالفٌ يصفُ الشبيبةَ وهي في ريعانها
أبقى بقلبي لوعةً لو لمْ تكنْ تسْقيه ماءً ذابَ مِن نيرانها
ياشوقُ أحداقي هفت لحدائقٍ تُفضي جَداولُها إلى غدرانها
كالأمهات أوتْ إلى أطفالها فرمت عليها الرزقَ من قمصانها

والرصافة مرة أخرى:

يَقرُ بعيني أن ازورَ مغانياً بساحتها كنا نخوض ونلعبُ
إذ العيشُ غضٌ والشبيبة لدنةٌ وسافر وجه الحُسن ليس يُحَجَّبُ
فكل صباح في الشروق مفضفضٌ وكل أصيل في الغُروب مُذَهَّبُ
وما أربي الا الرصافة لو دنت وهل للهوى الا الرصافة مذهبُ

ويتغنى بفلنسيا التي كان بعيداً مشرداً عنها:

إلى أوطانه حنَّ العَميدُ فَظَلَّ كأنه غُصن يميدُ
ومسقطَ رأسِه ذكر اشتياقاً فذاب فؤاده وهو الحديدُ
ولو رام السلُوَّ أبت عليه معاهدُ عهدها الماضي حميدُ

وعندما كان لاجئاً في إمارة ارجون المسيحية يكتب ابن الأبار شعراً عن تلك المحنة وتلك الوحدة:

الحمد لله لا أهل ولا وَلَدُ ولا قرارٌ ولاصبرٌ ولاجلدُ

كان الزمان لنا سلماً إلى أمدٍ فعاد حرباً لنا لما انقضى الأمدُ

والرصافة التي لم ينسها كتب عنها الكثير من القصائد فلا عجب، فقد كانت أجمل منتزهات الأندلس، حيث تولى العرب الفالانسانيون الاعتناء بها وتجميلها. وكانت مُنية ابن أبي عامر في وسط الرصافة ملتقى الشعراء والأدباء، فالرصافة كانت تطل على البحيرة فيزيدها ذلك جمالاً وبهاء، وقد نأت الآن أميالاً عن تلك البحيرة بسبب العمران المستمر، واستبدلت تلك البساتين بالاسمنت المسلح، لكن اسمها ظل شاهداً على وجودها وتاريخها.

أبستان الرصافة لا هويتُ سواكِ بستانا
تخال الدوحَ مختلفاً به شيباً وشبانا
وقد لبست مفارقها من الأنداد تيجانا
تُجول به جداولهُ وتغشى النهرَ ازمانا
فنحسبها إذا انسابت أراقِمَ زُرْن ثُعبانا

ولم يكن ابن الأبار هو الوحيد في عشقه «لفالنسيا» و«الرصافة»، فقد شاركه في ذلك شاعر فالنسيا الكبير أبي عبد الرصافي الذي خرج طفلاً من الرصافة للإقامة في «مالقا MALAGA» فلم يعد للرصافة مرة أخرى، لكنه كان سببا في شهرة جمالها بقصائد الحنين التي كتبها لها، كما أن شاعر «فالنسيا» ابن الزقاق قد أغنى شعر شرق الأندلس بقصائد الشوق والمحبة لتلك الأرض، على الرغم من أنه لم يغادرها قط ومات بها دون أن يبلغ الاربعين عاما.

بلنسية ياعذبة الماء والجنى سُقيت وإن سقيتِ صَوبَ الرواجسِ
أحبُ وأقلَى منك حالاً وماضياً بموحشةٍ موتاً بعهد الأوانسِ
ومنْ عجبٍ أنَّ الديار اواهلُ وأنْدبُها ندْبَ الطلولِ الدوارسِ

اميل حبيبي بين السياسة والادب نموذج (المتشائل)

سامي عودة*

تُعيد آراء أميل حبيبي التي طرحها في مجلة الكفاح العربي، العدد (٥٨٣) موضوعه الأديب والتزامه السياسي، إلى الأذهان مباشرة، ليس على مستوى المقاربة النقدية، ومحاولة نمذجتها كقياس ذا دلالات، فحسب، بل وفي الأساس، البحث عن سؤال بديهي، وهو العلاقة بين الناس وأوطانهم، ومنهم بطبيعة الحال الأدباء والكتاب عموماً ومايجعل هؤلاء في دائرة الاهتمام والموقع الاجتماعي الذي يشغلونه، ووسائل الاعـلام التي يتعـاملون من خلالهـا مع مواطنيهم وقـد يكـون الاختـلاف في تحديد طبيعـة الالتـزام الايديولوجي، وعلاقة الأديب به، كما حدث مثلاً مع الأدباء الروس إبّان واقعية ستالين الاشتراكية، أي أدب انتصار الاشتراكية. . أو كأن ماتم هناك نهاية المطاف للصراع البشري. والغريب أن تولستوي في رواية البعث، او دستويفسكي في الأبله (الجريمة والعقاب)، قدما أعمالاً واقعية فيها من الاشتراكية أكثر

* كاتب من فلسطين.

من كل من تلاهما من اعمال الروائيين الروس أن ذلك يعني أن الأدب حاله مماحكة مستمرة، وهدم ايضا للعلاقات غير المتكافئة اجتماعياً وسياسياً. ان الأدب عملية نقد مستمرة خلاقة، قد تُساعد على ولوج عالم انساني ارحب. فالأدب ارحب من الايديولوجيا. هذا صحيح، ولكنه ليس اكبر من الالتزام الوطني دون جدال. فما بالك ان كان الأديب ملتزماً ادبياً ومنفلتاً وطنياً خاصة وان من نتحدث عنه، صاحب تجربة نضالية، هي تجربة الشعب العربي الفلسطيني في علاقة التضاد بيننا وبين العدو. ويزيد الأمر غرابة أن اميل هو صاحب اثر متميز في الرواية العربية وهو المتشائل، وهي على نقيض تام مع ارائه التي طرحها في العدد المذكور، فهما عالمان مختلفان، لايمكن الحياد تجاههما، الا اذا استطاع الواحد ان يكون رجلاً وامرأة في نفس الوقت او مليونيراً واشتراكياً في الآن عينه. قد نعذر الكسندر سولجنتين هربه الى الغرب حاملاً مفـاهيمه الليبرالية الا اننا لم نسمعه يشكك بالدولة الروسية حتى يسقط النظام الذي هو لايستسيغه. فالوطن فوق الايديولوجيا. بهذا المعنى نقدر فيه ذلك على العكس من السيد حبيبي الذي أقنعنا ادبا وصدمنا سياسة، فهو وطني ادباً، وغيره سياسة.

(المتشـائـل) تشكـل فجيعة مُرّة، لبطلها الغارق في تماهيه، وولائه (للدولة) اليهودية وهو يعريها باسلوب ساخر حد المرارة، حتى يصير الاسلوب اتجاهاً واحداً، يعلن القطيعة مع سواه، مؤكداً في النهاية على استحالة التعايش مع هذا المشروع (الدولة) هذا التضاد صاغه اميل ببراعة ترقى الى المبالغة احياناً، لانجد فيه اثراً للتقليل منه الا مايذكره عن (ركاح) مظهراً اياه بالجهة التي تتعاطف مع العرب والامر يمكن مناقشته على مستويين ادبي وسياسي:

أما الأدبي فإن الشخصية (الركامية) لاتظهر في الرواية الا لماماً، وتبقى الاشارة اليها غير مقنعة. وهي أقرب الى التجريد منها الى الواقع. ويبدو ان الحاح الواقعة الأولى (التضاد) بعلته لايبرز شيئاً غيره خاصة وإن ركاحا غالبيته من العرب. أما المستوى السياسي: فإنه يدرك جيداً لامشروعية لقيام الدولة اليهودية في أرض فلسطين لامن حيث أن العرب أسبق فيها فقط، بل لأن الدين لايشكل قومية. فلا داع اذن لتعصب المادي اليساري لوعد الهي مزعوم. لذا فالرواية تأخذ اتجاهاً واحداً، فالتماهي في الدولة يصبح تماهياً في ضدها وسنعيد هنا بعض مناخات المتشائل لنقيم المقاربة بعد ذلك لنتبين الخلل.

تبدأ الرواية برسائل يتلقاها الراوي، من سعيد أبي النحس، من القضاء. ومن خلالها نتعرف على هذه الشخصية المركبة: «ان اسمي وهو سعيد ابو النحس المتشائل: يطابق رسمي مخلقاً منطقياً. وعائلة المتشائل عريقة بخيبة في بلادنا، يرجع نسبها الى جارية قبرصية من حلب، لم يجد تيمورلنك لرأسها مكاناً في هرم الجماجم المحزوزة مع ان قاعدته كانت عشرين الف ذراع، وعلوه كان عشر اذرع[١]. وبعد النحس الأول في عام ١٩٤٨، تبعثر اولاد عائلتنا ايدي العرب، واستوطنوا جميع بلاد العرب التي لم يجر احتلالها[٢] وبعد فصول من الرواية، مليئة بالسخرية المرّة، تحدث فيها عن علاقته بالدولة «اسرائيل»، وخدمته لها كعين على الحركات السياسية، يبدع إميل رسم التقاطع الحاد والاشارة التي تقود نفي ماتوهمه المتشائل اثناء حرب حزيران ١٩٦٧ يسمع تنبيها في الاذاعة الى السكان العرب في الأراضي التي دخلها الجيش الاسرائيلي حديثا برفع الاعلام البيضاء حتى يسلموا من العاقبة. بيد أن الأمر اختلط على سعيد فرفع العلم في

اسرائيل هذه العملية قادته إلى الاعتقال، اذ أن رفع العلم الأبيض في «اسرائيل» عنى انه طوال تلك الفترة لم يكن يعترف بالاحتلال. ولنقرأ وهو يدافع عن نفسه أمام مسؤوله الاسرائيلي: «واما اذا كانت المكانس قد أصبحت منذ اندلاع نيران هذه الحرب، سلاحاً أبيض فتاكاً لايجوز لنا حمله الا بإذن كباروده الصيد التي لايؤذن بحملها الا للمخاتير وللمدمنين على الخدمة منذ الصغر فإنني معكم اباً عن جد وأنت تعلم ياصديق العمر بإخلاصي المفرط للدولة ولأمنها ولقوانينها ماهو معلن وما سوف يعلن»[3] ان هذا ليس عملية النفي الوحيدة التي تقاربها تلك الحادثة. فالرواية مليئة بالمتضادات التي تغني العمل ككوميديا سوداء، تقود قسراً إلى عملية النفي التي ذكرنا. فبعد زواجه «بباقية» انجب ولدا كانت تريد أن تسميه فتحي على اسم والدها المهاجر ولكنه سماه ولاء، تماهيا بصديقه «ممثل الدولة» فلما انجبت باقية طفلنا البكر، فأرادت ان تسميه باسم والدها النازح «فتحي» فرفع الرجل الكبير ذو القامة الصغيرة حاجبيه فوق المكتب تساؤلا سميناه «ولاء»[4] ولكن ولاءاً رمز التماهي، هو أيضاً يؤكد حالة النفي «ولاء ابني وحيدي، هذا الشاب الحي الضئيل الذي يأكل القط عشاءه. أصبح فدائياً، وأعلن العصيان المسلح على الدولة»[5] ونختم بالآتي ووجدتني مرة أخرى متربعاً وحيداً على ذلك الخازوق الذي بلا رأس، كابوس يحط على صدري ليلة ليلة، بلا انقطاع فلا أقوى على ازاحته عن صدري او علي أن استيقظ. خازوق في كابوس. والخازوق الحقيقي هو ذلك الوسواس، الذي لم أستطع أن أفكه عني. ان ماذا سيحل بك ياابن النحس لو ظهر انه ليس بكابوس بل خازوق وواقع[6] ماالذي يفرحه؟ يقول في رسالته الأخيرة الى الراوي «فنظرت الى تحت، فرأيت الشاب المتأبط الجريدة، ومازال يحمل فأسه، ورأيت يعاد؟ ورأيتُ أخاها سعيداً، وابا محمود وأطفاله يحملون اغطيتهم على ظهورهم، ويقومون والجارات، وكنا يزغردن، والعامل (أخت) من وادي الجمال يحمل مزودته ويذهب الى عمله، ويعقوب وقد نزل عن خازوقه. وخالتي أم اسعد (المخصية)، وحتى هي كانت تزغرد. ورأيت يعاد تدفع رأسها إلى السماء وتقول: حين تقضي هذه الغيمة تشرق الشمس»[7] ان الاستشهاد الأخير بالغ الدلالة على اصطدام رغبتين، الأولى عند سعيد بأن يرى إسرائيل وطناً خارج دائرة الصراع القومي، رغم كل الدلالات التي عايشها فأمنيته تظهر بدمجه الأسماء العربية باليهودية (يعقوب أخت، بالأسماء العربية. اما الثانية فهي عند يعاد وهي تطلق قولتها السابقة. أي ان شرط زوال التماهي زوال الغيمة. اذن هي تؤكد الضد. ثم أن في الرواية جانباً فنياً يتعلق باستخدام التراث العربي كلغة روائية. وهو مايعني التعلق بالهوية الوطنية ليس المعاصرة فحسب بل التراثية.

عودة الى المقابلة، والتي نقتطف منها بعضها، لنناقشه بعد ذلك.

● **س/ أراك حريصاً على العرب، على الرغم من أنك في حوارك مع صحيفة الأهالي هاجمت القومية العربية، وشعار تحرير فلسطين؟**

■ ج/ هذا كذب وافتراء انا قلت رأيي في القومية العربية، باعتبارها شعاراً يحتمي وراءه المرتجفون والخائفون من التعامل مع الاسرائيليين، لقد شبعنا كلاماً عن القومية، فهل حررت فلسطين وهل طردت يهودياً واحداً؟ انا ادعو للسلام واردد ماتقوله منظمة التحرير الفلسطينية فلماذا تعتبرونني خائناً؟ أنا لاأختلف

عن ابو عمار، وأي قيادي في منظمة التحرير.

● **س/ أنت قلت بالحرف الواحد ان الذين يؤمنون بالقومية العربية هم (هُبل) وانك لستَ (أهبل) مثلهم.**

■ ج/ أنا اقصد أولئك الساسة الذين يستخدمون شعار القومية العربية لرفض كل المناورات، كل الحلول المطروحة ولم أقصد الناس البسطاء الذين ينتمون الى الأمة العربية. بمعنى آخر أنا وجهتُ كلامي الى عرب الفُرص الضائعة. أي الذين أضاعوا فلسطين في عام ١٩٤٧، عندما لم يقبلوا قرارات التقسيم واستمرت مواقفهم في إضاعة الفرص حتى ضاعت فلسطين.

ثم يسأله الصحفي عن علاقته بشاعر (اسرائيلي) اسمه (نتان زاخ) كان معه في مدينة (عشق آباد) في جمهورية تركمانيا السوفييتية، في ندوة لعدد من الكتاب الذين يمثلون لجان السلام في آسيا.

● **س/ ماهي حقيقة علاقتك بالشاعر (نتان زاخ) الذي كان معك داخل المؤتمر.**

■ ج/ علاقة صداقة عادية جداً، فهو عضو في الحزب الشيوعي الاسرائيلي الذي انتمي اليه. وهو شاعر تقدمي، يؤيد حق «اسرائيل» في الوجود، كما يؤيد حق الفلسطينيين في دولة مستقلة لهم. وهو واحد من كثيرين ارتبط معهم بصداقات داخل (اسرائيل).

● **س/ «اسرائيل» ام فلسطين المحتلة؟.**

■ ج/ لا «اسرائيل» فهو اسرائيلي، وليس فلسطينياً..

● **س/ وأنت؟**

■ ج/ هويتي (بطاقتي) اسرائيلية، وجواز سفري كذلك، واعمل مع الاسرائيليين، وأتحاور معهم وحتى تُقام دولة فلسطينية في الضفة والقطاع أنا اسرائيلي، وهذا واقع لاأستطيع أن أغيره.

● **س/ هل تعرف ان اراءك سببت صدمة للذين كانوا معجبين، برواياتك وابداعاتك؟**

■ ج/ لماذا تقول كانوا معجبين؟ هل غيروا رأيهم في رواياتي بسبب أرائي السياسية؟ هذا هو قمة التخلف أنا أكتب لجمهور واع، وليس لجمهور محصن ضد ماأكتبه. شيء غريب جداً هذا الكلام الأدب فن وابداع، والسياسة مكر ودهاء ومناورة، كيف تخلطون بين الأمرين؟

● **س/ لكل كاتب أو أديب موقف من الوجود.. وقبولك لدولة «اسرائيل» هو نفي لوجودنا فهل تعتقد اننا سوف نقرأ لكاتب ينفي كياننا؟**

■ ج/ خذ مايعجبك. اما رواياتي أو سياستي لكن لا لاتخلط بين الأمرين. والا لن تقرأ سارتر، لأنه ايد وجود دولة «اسرائيل» ولن تشاهد السينما التي تنتجها شركات يهودية. وهذا موقف يتنافى مع المبدأ المعروف (اعرف عدوك).

اننا نكتفي بهذا القدر من المقابلة، وهو كاف بتقديرنا لنبدأ مناقشة جملة القضايا التي طرحها حبيبي، ونبدأ من قوله: «ان السياسة مكر ودهاءٌ. واضح ان العمل السياسي كذلك. ولكن كيف؟ ان المقابلة لاتدلنا الاّ على العكس من ذلك. ان السياسة لها وجهان الأول المكر والدهاء، والثاني أسلوب التحقيق، وكما يقولون ان الحرب هي الوجه الآخر للسياسة، والا فإن المعادلة تبقى ناقصة. واذا غاب الثاني يصبح

الأول تهافتاً غير مبرر. فهل يعتقد السيد حبيبي ان هناك في التاريخ مسألة قومية حلت بغير الوجه الانفع للسياسة «الحرب» تماماً كانشاء «اسرائيل». وحتى نزيد في ايضاح المسألة، فهل قامت «اسرائيل» الا على هزائمنا؟ فكيف تسمح هزائمنا بأن نقيم دولة في الضفة وغزة؟ حقيقة كيف؟.

وبعد فان العلاقة بين السياسة والأدب متداخلة الحدود اذاً، هاتناول الأمر الهوية الوطنية تحديداً، وهو مايعيد الى الاذهان المجادلات حول الأدب والالتزام. ومانقصده التزاماً ليس له علاقة بالدعاوي او الايديولوجيا، بل مانقصده ان الأدب هو محاولة لكشف العلاقات ايا كانت طبيعتها سياسية او اجتماعية. كما ان التاريخ يسير قدماً، فإن كشف حركيته فلسفياً أو علمياً، تقود الأديب (ان شاء) الى افاق جديدة تماماً، كما لو أن الحركة البشرية سفينة تسير في بحر ممتد، ولا تتوقف الا بعض وقت في الموانىء تلك السفينة فيها مايشاء الأديب، وهو بمثابة الكاشف لما وراء الموانىء. والمسافات غير المرئية بأدواته المختلفة. واذا كان السيد حبيبي قد أبدع في روايته المتشائل، فذلك له، أما مواقفه السياسية فتحسب عليه. فاستحالة التعايش، هو ماتكشف الايام عنه، عبر الصراع اليومي المستمر في الداخل والخارج. وهي عملية تاريخية، تتراوح بين المد والجزر، كما في أي نضال وطني في العالم.

وبعد فموضوعة غرامشي (المثقف العضوي) تختصر كل شيء، والخيارات ليست متعددة، والفاصل بينها دقيق. ان صورة الغد لاتقوم على مقاربة مشوهة خاصة في صراع كالصراع مع العدو الصهيوني. وكل العجب، اذا ماغيب (اميل) قوانين الصراع التي تحكم الصراع الاجتماعي ان كان ماركسياً، وهو أقل حدة من الصراع مع عدوٍ كعدونا. فما بالك بهذا الصراع؟.

هوامش:

من الاعمال الكاملة للمؤلف رواية الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، صادرة عن دار الجليل - دمشق - طبعة ثالثة.

١ - ص ٦٢ - ٦٣

٢ - ص ٣٣

٣ - ص ١٦٣

٤ - ص ١٣٩

٥ - ص ١٤٦

٦ - ص ١٩٤

٧ - ص ١٩٦

أزمة الانسان المعاصر ومسرح العبث معقولية اللامعقول

صالح سميا*

«يجب أن نبحث عن اجابة لمعنى حياتنا، وعندما نجدها سيصطلح كل شيء».

«ففي عالم انتفت منه كل المعايير والقيم يجد الإنسان نفسه مغترباً» البيركامو. فكيف يواجه الانسان مصيره في عالم فقد قدسيته. وفقد معناه. وانطفأت شموع الروح منه؟...

عالم مقلوب استطاع أت يشيىء الإنسان ويسلّعه، فغدا التطاول على المقدسات والقيم أمراً مقبولاً. إن العقل البشري قد ضل طريقه. وهو يتخبط في ليل لا آخر له، وفي هوة لا قرار لها.

وفي خضم هذا الضياع، والفوضى والانحلال والشقاء، والتعاسة، والالم، لا يبقى للإنسان سوى الأمل بعودة الصفاء والطهارة والكرامة.

وانعدام المعايير والقيم والطهارة، وفقدان المعنى في الحياة، هي الأسس التي يقيم عليها كتاب

* كاتب من سورية

اللامعقول بناءهم.

هذا اللامعقول الذي يتجلى في البشاعة، والنشاز، وعدم التناسق، والمثير للضحك والسخرية، والباعث للحزن والبكاء أحياناً، وهو الخلو من الهدف والانفصال عن الأصل، حيث يصبح السلوك غير مبرر، والكلام مجرد لغو أجوف.

ولكي يتم التوحيد بين الشكل والمضمون في أعمال كتّاب اللامعقول، جاءت كتاباتهم متصفة بعدم التناسق، ومثيرة للضحك والبكاء في آن واحد.

ويلتقي كتاب اللامعقول مع كتاب الوجودية حول أغلب المفاهيم كالاغتراب، وعدمية القيم، وانعدام المعنى في الحياة، وكذلك فقدان الطهارة. غير أنهم أي كتاب الوجودية يختلفون عنهم في الشكل التعبيري. فالاعمال الادبية لكتاب الوجودية مبنية على الجدل، وهي حسنة البناء. والابطال لديهم يتصفون باليقظة، ويعتمدون في مجادلاتهم على الحجة والمنطق.

في حين يعتمد المسرح العبثي، وكتاب اللامعقول على الحدس، والصورة الشعرية، بعيداً عن المناقشات المنطقية والجدل الفلسفي. من هنا، كان التوحيد، بين الشكل والمضمون أهم ما يميز مسرح العبث. فعالم «بيكيت» ينقصه التناسق، يثير الضحك، ويدعو للبكاء. وأبطاله هامشيون، ممزقون، ضائعون، ومسمرون في المكان، ينتظرون أن ينير أمامهم بقعة مظلمة بصيص ضوء آت من المخلص «في انتظار جودو»، إنه الامل الذي لم يبق للانسان سواه.

إن البؤس الحياتي والتشيؤ الذي آل إليه إنسان هذا العصر، وفقدان الثقة بعد أن عاش الخوف، والقلق، وعانى ويلات حربين عالميتين عصفتا بأوروبا، وطالت أغلب شعوب العالم. فكان من إفرازات هذا الوضع ادب اللامعقول، والادب الوجودي. فكلاهما من افرازات هذه الحياة الفاقدة لمعناها وطهارتها. هذه الحياة التي قذفت بالإنسان، الى وهدة الضياع، والاغتراب، والغثيان.

هذا الإنسان الذي يقف في مواجهة مصيره كإنسان حر، أخطأت الآلهة في خلقه حراً كما يدعي سارتر في «الذباب»، لكن الكاتب الوجودي يبقي لبطله شيئاً من التوثب اليقظ، رغم القلق الذي يعاني منه باعتباره حراً.

إن البحث عن الذات الضائعة وسط عبثية الحياة، هو محور اهتمام الأدب الوجودي وأدب اللامعقول، بغية إيجادها وبعث الثقة والأمل فيها من جديد.

لكن المسرح العبثي يرفض الاشكال الفنية القديمة، المبنية على قيم ومفاهيم يرى أنها فقدت صلاحيتها، ولم تعد قادرة على تحقيق هذه المهمة. فقام يطالب بعودة الإنسان الى الإحساس الأول: إحساسه بالدهشة من الوجود والانبهار مما يحيط به، انبهاراً يختلط فيه القلق بالحيرة من أجل التعبير عن الإحساس الدرامي، والضياع، والقلق الذي ولّده غياب المسلمات التي كانت سابقاً شبه مطلقة، وبعيدة عن كل شك. حيث حلت محلها الآلية، والنفاق، والزيف، فكان من أهداف مسرح العبث تعرية هذا الزيف والنفاق، وهذه الآلية التي ربط الانسان نفسه بها بغية الوصول به إلى البحث والتقصي عن الحقائق الاصولية في حياته.

لقد سخر مسرح العبث من لا معقولية الحياة، من الكذب والزيف، من أولئك الذين يتصفون بسوء الطوية، كما يصفهم / سارتر/. لإبراز مدى الجدب والآلية والزيف الذي يسود العلاقات الاجتماعية في المجتمع البرجوازي، كما يصوره «يونسكو» في «المغنية الصلعاء».

ويرى مسرح العبث أن أفضل الأساليب لنقد زيف العلاقات الاجتماعية، والوضع الاجتماعي هو الاسلوب الساخر، من أجل الوقوف في مواجهة لا معقولية وضعية الإنسان نفسه في عالم فقد إيمانه ويقينه.

فعندما يرفض الإنسان تقبل مجموعة القيم القائمة على إرادة علوية مطلقة، تصبح مواجهة الحياة أشد مرارة وقسوة ومأساوية.

ومسرح العبث يواجه الإنسان من خلال مركزه في الوجود، لا من خلال طبقته أو بيئته التاريخية، ولا حتى من تجاربه الحياتية اليومية. فأبطاله في مواجهة الزمن ينتظرون كما في صعاليك «بيكيت» في انتظار جودو . وهم في مواجهة الموت يهربون أو يختبئون، مثل أبطال يونسكو في (القاتل المأجور). أو يلجأون إلى تشويه الحقيقة، واستبدال الكذب بالصدق، كما تفعل (الخارقتان) لجان جينيه. وفي أحيان أخرى يكسرون قيودهم، ليسقطوا في قيود جديدة، نتيجة عجزهم عن التواصل الصحيح مع البشر.

إن مسرح العبث يهتم حتى الأعماق بالحقائق الأسياسية للوضع الإنساني.

ومهما بدا تهريجياً، فإنه يعتبر عودة إلى الينابيع الأولى لفن المسرح، مما يجعله يلتقي إلى حد ما مع المسرح الاغريقي الهادف إلى إبراز ما في مركز الإنسان في الوجود من ضآلة وغموض وتشتت.

غير أن المسرح الإغريقي يقوم على نظام من القيم المقررة، المرتضاة، في حين يبتعد مسرح العبث عن مثل هذه القيم، ويكتفي بالتعبير عن القلق، والضياع، والخيبة التي يحسها الإنسان إحساساً تخمينياً من أجل الوصول إلى معرفة حدسية بوضع الإنسان في الوجود، دون الاهتمام بمشكلات هذا الإنسان السلوكية والأخلاقية. فكل ما يهمه هو الإجابة بطريقة فنية عن أسئلة فلسفية تؤرق روح الإنسان وتضنيها، وهو غائص في البحث عن معنى وجوده، لاشيء في مكانه الصحيح. هذا ما يجده كاتب اللامعقول بعد اختباره للعلائق بين الموجودات، وإقراره بلا معقولية هذه العلاقات، آملاً أن تقود هذه اللامعقولية إلى الدهشة، والاستغراب، والتساؤل الذي يقود في النهاية إلى رفض المضي في هذه الحياة الرتيبة، والآلية الفاقدة لكل معنى، من أجل الوصول إلى قيم جديدة، وحياة جديدة، مبنية على تحطيم الروابط القديمة المستقرة بين الأشياء «الراقصة الصلعاء» يونسكو. ووضع الأشياء في غير مكانها الطبيعي بأسلوب تهكمي ساخر، كما يفعل مسرح العبث، يرجع إلى سخافة الحياة وعبثيتها التي تحوّل الوجود إلى شيء مضحك. وبهذا يصبح التهكم موقفاً أخلاقياً، بمقدار ما هو موقف نقدي رافض وتمردي. حيث يبرز طابعة التدميري الهادف إلى تحطيم المظهر الزائف والمألوف للوجود، وللروابط العادية للصور والكلمات والاشياء، وحتى السلوك، من أجل إقامة عالم جديد من خلال الولوج داخل عالم من الفوضى لا وجود للروابط المنطقية والعقلية فيه.

والبحث في المعنى الفلسفي للتهكم، يكشف لنا مدلولاً جديداً للمعرفة، قائماً على الاعتقاد المطلق بموضوعية الحقائق الخارجية، وصولاً إلى الإيمان بحقيقة أشمل وأوسع، تقبل الواقع وتتجاوزه، إلى ما بعد

الـواقع . وهذا الموقف مرتبط بالموقف الفلسفي القائل بعدم كفاية النظم المنطقية في التعامل مع الواقع وتفسيره . الأمر الذي دفع بكتاب اللامعقول إلى اعتماد الحلم للغوص إلى أعماق النفس البشرية .

حيث ينقلنا الحلم إلى عالم من الصور والذكريات المختزنة ، والتي تخرج بنا من مجال المنطق والمعقول ، إلى حقائق لا تقل أهمية عما نراه في حالات اليقظة والصحو . وهكذا يصبح الحلم عملية معرفية كالتفكير المنطقي تماماً .

فالحلم نشاط روحي ، تقود ترجمة رموزه إلى معرفة أوفى للنفس الإنسانية ، كما يرى «فرويد» . وهكذا تصبح الحقيقة مزيجاً من المعقول واللامعقول ، فيبرز التناقض والتضاد في كل شيء .

وحتى اللغة تصبح في مسرح العبث عاجزة عن التعبير عن كل الحقيقة . فقد أظهر علم النفس أن العقل الباطن يحتوي على قسط من الحقيقة ، يكون أحياناً أكبر مما يظهر في الكلام المنطوق .

ان الكوميديا في مسرح العبث تعبر عن الشعور بالمرارة والخوف من الوجود . تعبر عن أولئك الذين أصبحوا ضحايا الوجود اللاروحي ، والذين تسحقهم المادية تحت عجلاتها . فالإنسان المقذوف في عالم تسود المادية كل جوانبه ، وتقطع الطريق أمام كل ومضة من ومضات الروح ، لابد أن يواجه بهذه الحقيقة .

فمسرح العبث يحاول أن يقدم صورة أكثر صدقاً للواقع ، وذلك عن طريق التعبير عن إحساس أعمق وأشمل بالوجود . وهو لا يهتم بالعناصر المنطقية للبناء الدرامي ، وإنما يركز على قوة الإيحاء بالصورة والرؤى المعتملة في أعماق الباطن .

لقد جاءت شخصيات مسرح العبث صعلوكية مبعثرة ، متقلبة . ومبهمة تواجه مصيراً مغلقاً ، فيه الكثير من الترقب والخوف والانزلاق نحو الدونية والآلية العمياء .

فأصبحت مواجهة الإنسان بواقعه أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى ، لأن خلاصه قائم على مدى قدرته على مواجهة هذه الحقيقة بكل قسوتها وعبثيتها ، والسعي لإقامة مصالحة مع عالمه الذي يعيش فيه .

«يجب أن نعيش الحياة بدلاً من أن نجترها» هذا ما تقوله المغنية الصلعاء .

إن المقاييس الموضوعية تقتل في الإنسان النزعة النابعة من أعماقه إلى التشكك والتساؤل واعتماد المنهج الذاتي . وحياتنا يجب أن تكون نابعة من ذواتنا . رافضين تقبل المادية الآلية على أنها كل الحقيقة ، ورافضين الاستسـلام للمنطق العقلي الجاف . وحتى اللغة يجب أن نعيد النظر فيها لتخليصها من إسار التقاليد لإنعاشها . ولن يتم لنا ذلك ، إلا إذا ارتفعنا بحياتنا وسمونا عن الانحطاط إلى درك الحيوانية .

إن أدب اللامعقول ومسرح العبث ، ما هو في النهاية إلا حركة تهدف إلى الوصول بالإنسان إلى المعقولية ، وتخليصه من اليأس وبعث الأمل فيه .

إنه دعوة إلى مواجهة هذا اللامعقول ، وليس السقوط فيه . فالعصر لم يتحول بعد إلى رماد . لكنه في الطريق إلى ذلك ، ما لم نوقف الطوفان الزاحف . فالعبثية تقتحم عالمنا من كل الجهات . وما لم نواجهها بالموقف العبثي الواعي . ما لم نشرع كل الأسلحة في وجهها . فمن الصعب أن يبقى للإنسان كإنسان وجود فعلي في المستقبل . إننا في زمن المواجهة مع الآلة المعدنية كما يقول «بارت» ، وإذا لم ننتصر عليها ، فستحولنا إلى آلات عمياء نتعبد في هياكلها في مذلة واستكانة .

عكا والرحيل
رواية المحاولة الجادة

د . محمود سالم محمد*

على الرغم من التطورات الكبيرة والمؤثرة ، التي مرّت بها القضية الفلسطينية ، والتي تغري ببناء أعمال أدبية عليها ، فإن الأدباء الفلسطينيين لا يزالون يعودون بذاكرتهم الى التحول الهام في تاريخ شعبهم ، الذي تمثـل في قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسـطين العربية ، والخطوات التي مهّدت لهذا القيام ، والتي أعقبته ، وتأثيرها في الشعب العربي الفلسطيني ، لأنه الحدث الذي يحدد مايجري اليوم ، ويوضحه ، ويمد الأدباء بإمكانات كبيرة للذهاب في إبداعهم كل مذهب .

---

* ناقد من فلسطين.

ولكن . . كيف يمكن أن يوصل الأديب مايريد قوله في موضوع كبير ومؤثر، من خلال العمل الأدبي، دون أن يسقط في فخ الخطابية والمباشرة؟

فموضوع ذو شجون مثل المأساة الفلسطينية والنضال الفلسطيني الذي كان ـ ومايزال ـ محور كم هائل من الكتابة الأدبية، يصعب أن يسلم قياده ـ أدبيا ـ إلا للقادر المتمكن، وقليل هم، فكيف إذا كان بجوانبه المختلفة، ومستوياته المتعددة مضموناً لرواية، هي العمل الأدبي الأول لأديب، أو هي العمل الأدبي الأول المنشور له؟

إن المخاطر ستحفه من كل جانب، ولن ينجو من شرك إغراءات غنى الموضوع إلا بصعوبة وعسر، وخاصة في غياب الخبرة والمران.

هذا مايراود القارىء حين يهم بقراءة رواية / الياس أنيس الخوري/ الأولى / عكا والرحيل / ، التي صدرت مؤخراً بدمشق، والتي تأتي في سلسلة الروايات الفلسطينية التي حاولت التأريخ ـ أدبيا ـ للقضية الفلسطينية. وعرض التاريخ غير الرسمي وغير المدون لهذه المدينة الرمز، كما أشار في بداية هذه الرواية . . فالتاريخ الرسمي هو تاريخ الأحداث والشخصيات، والبحث عن الأسباب والنتائج والأهداف. أما التاريخ الذي ينشده الكاتب، فهو تاريخ الناس العاديين والأبطال المجهولين، التاريخ الذي يرصد التحولات داخل النفوس، ويظهر أثر الأحداث فيها، وأثرها في توجيه الأحداث. وهذا هو التاريخ الحقيقي، الذي يجسد الانفعالات والمشاعر والأفكار، ويثبت الجوهري، لا الشكلي العارض.

في العنوان يطرح المؤلف إشكالية روايته. فعكا المدينة الحصينة التي أعجزت الفاتحين، رمز الصمود والمقاومة والثبات. . والرحيل منها شاهد الهزيمة الكبيرة، ولعنة الشعب العربي الفلسطيني، ورمز النكبة والهشاشة والاندحار. . والرحيل إليها، رمز الاستيطان الصهيوني، وأبشع جريمة في التاريخ الحديث. جريمة اغتصاب الوطن والوجود. الجريمة التي لازالت مستمرة ومتعاظمة. . فكيف يجتمع رمز الصمود مع رمز الهزيمة؟

إن الجدل الذي يحكم تاريخ الشعوب، وهو يحكم تاريخ الشعب الفلسطيني وأمته العربية، انتصارات وهزائم، ووطن يتعرض لغزوات كثيرة وعاتية، لكنه ظل حيا، وظل لأصحابه.فهل هذا مايريده الكاتب من روايته؟ وهل هذه هي المقولة الرئيسة في الرواية، والتي كثّفها الكاتب في العنوان؟

لقد أجهد الكاتب نفسه في بناء روايته، لتنسجم مستوياتها المتعددة، دون أن يحس القارىء بذلك، ودون أن تفقد الرواية جاذبيتها. . ففي الوهلة الأولى تبدو الرواية رصدا لحياة امرأة، ثم لايلبث القارىء أن يراها عرضا لحياة أسرة، فإذا ماتقدم في قراءتها، وجدها تلخيصا لتاريخ مدينة، حتى اذا انتهى من قراءتها، وجدها تكثيفا لتاريخ وطن، رأى من الأهوال مالم يره وطن آخر، مع تأثير الاطراف العربية والدولية في أحداث هذا الوطن.

تلقي الرواية ضوءاً على مدينة عكا، وطبيعة الحياة فيها أثناء خضوعها للاستعمار البريطاني، والتحول نحو الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، وبعد قيام الكيان العنصري فوق تراب فلسطين. وتسجل وضع الشعب العربي الفلسطيني في خضم الأحداث الكبيرة فوق أرضه ومن حوله، ومواقفه وانطباعاته، ومقاومته

للمستعمرين على اختلاف تسمياتهم ومراميهم، وتوضح ماصار إليه الشعب الفلسطيني في ظل الاستيطان الصهيوني، وتظهر التوجهات المختلفة لأبنائه الباقين فوق أرضهم، والمشردين في أصقاع الأرض.

حاول الكاتب أن يبرز مظاهر مقاومة الجماهير الفلسطينية للاستعمار البريطاني والاستيطان الصهيوني، مع نشر الاشارات الكثيرة التي تؤكد تجذر هذه المقاومة للمحتلين منذ القدم. . فالمقاومة طبيعة للشعب العربي الفلسطيني، وليست صفة عارضة، وهذا ماأثبتته الأحداث حتى أيامنا هذه.

وعرض أوضاع أهلنا في الأرض المحتلة عرضا مؤثراً. كيف يفكرون وكيف ينظرون إلى الأمر، وكيف يتعاملون مع المستوطنين الصهاينة بعد أن أصبحوا أقلية مكروهة، ينصب عليها حقد الصهاينة صباح مساء.

واعتمد المؤلف على المفارقة بين ما آل إليه حال الفلسطينيين، وبين مايحلمون به، لتتم المأساة، ويظهر عظمها عند المتلقي. فالذي يخسر وطنه يخسر كل شيء، مهما حاول التأقلم مع وضعه الجديد ومهما حقق من نجاحات شخصية ومادية بعيداً عن وطنه.

ويظهر في الرواية اهتمام الكاتب في رصد التحول التدريجي التلقائي داخل نفوس أبطاله، من المواطنة الكاملة والحياة الحقيقية إلى ألم الاغتراب القسري داخل الوطن وخارجه. وهذا التحول تم بفعل الأحداث الفاجعة المتلاحقة التي كانت أكبر من الشعب الفلسطيني، بل أكبر من الأمة العربية آنذاك، فلم يعرف هذا الشعب كيف يجد المخرج من أزمته الخانقة، لذلك تباينت مواقف أبنائه، مابين القبول على مضض بما تأتي به المقادير، والمقاومة السلبية للمؤامرة الكبيرة، ومابين الرفض المطلق لها بالانزراع في الاراضي والتضحية بالروح في سبيلها.

إلا أن مايثير الانتباه في عرض المؤلف لأحداث روايته، هو أنه سرد هذه الأحداث، برؤية حاضرة معاصرة، وأوردها، من منطلق ما استجد في أيامه. إذ لايستطيع الكاتب، مهما أوتي من مقدرة، أن يتخلص نهائياً من أفكاره وهواجسه ونظرته إلى الأمور، وهو لايملك ملامح نظرة أهل ذلك الزمان إلى مايدور حولهم، ولايستطيع نقلها بدقة، لأنه لايستطيع أن ينفصل عن موضوع يشغل كيانه كله، ويرسم له حياته.

والذي أدى بالكاتب إلى ذلك، أنه وظّف معارفه كلها في روايته، فحاول أن يفيد من كل ما عرفه عن عكا ـ وهي مدينته ـ وعن فلسطين، في إغناء روايته بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية والنفسية والأدبية، وغير ذلك من ضروب المعرفة، فجاءت بعض هذه المعلومات مفيدة، لأن الكاتب استطاع أن يدرجها في السياق الأدبي، وجاء بعضها الآخر مسيئاً، لأن الكاتب أقحمه على النسق الأدبي، وظل ظاهراً مخالفاً لروح الأدب ونسجه.

وقد اصطنع المؤلف أسلوب العلماء في روايته، فظهر ميله إلى التحليل العلمي، والوقوف على الأسباب والنتائج، فكأنه عالم يكتب أدباً، أوناقد يجري النقد والابداع معا في آن واحد، من مثل قوله:

«هل تكون هذه هي اللبنات الأولى التي تكونت منها شخصية خديجة الصالح؟».

ومن هنا يأتي التساؤل عن طبيعة الرواية وتصنيفها، أهي تاريخ أم تسجيل لأحداث واقعية، أو

هي من نسيج خيال المؤلف، ومن نتف الأخبار التي وصلت إليه بطريق أو بآخر، وعرفها عن مدينة عكا، ثم أعمل فيها الجمع والتنسيق، وأضاف إليها ماعرفه عن قضية وطنه وشعبه، ووضعها في قالب الرواية، لتكون متماسكة ومقنعة، ولتكون مقبولة عند المتلقين. فلعالم الرواية إغراءاته، وله مميزاته التي تضفي الخيال على الواقع، وتضفي الواقعية على الخيال؟ فقد استطاع الكاتب أن يقنع القارىء بواقعية روايته، بسبب الوقائع الثابتة التي أوردها، وبسبب وصفه الدقيق لمشاهد الرواية، والتفاصيل الصغيرة التي استعان بها لرسم المواقف، وكلها تشير إلى أنه أحد أبطال الرواية، على الرغم من إنكاره لذلك في التقديم. وإذا كان إنكاره صحيحاً، فهذا يعني أنه امتلك المقدرة على بناء عالم روائي متين ومتكامل، لاتجد فيه مايسقط هذا البنيان، ويخالف الاتجاه السائد فيه، أو يباين منطقية الأحداث والحوار كما هو حاصل في عالم الواقع.

وحاول المؤلف أن يقول في روايته كل شيء عن القضية الفلسطينية، أو يكتفي بالاشارة إليه، دون إملال أو استغراق في التأمل أو الافراط في الوصف، فلم يقتصر في الرواية على المستوى السياسي، بل تقاطعت عنده المستويات الوطنية والقومية والاجتماعية والانسانية لقضيته، متجنباً قدر المستطاع الوقوع في الخطابية، وطرح الشعارات السياسية، وغير ذلك من ضروب المباشرة التي تفسد العمل الأدبي، والتي تسربت الى هذه الرواية بسبب حماس الكاتب الزائد، وافتقاره إلى الدربة والتمرس في هذا الميدان، ولكنها ظلت قليلة ونادرة. من مثل قوله: «نحن الآن أحرار، وستسطع شمس العرب من جديد على العالم». وقوله: «وأحدثه عن أحلامي ورغباتي وأحاسيسي، عن هويتي الضائعة التي بدونها لاأستطيع أن أحقق معنى وهدف وجودي وإنسانيتي».

لكنه جهد لطرح مقولاته من خلال مواقف الابطال وتصرفاتهم ومشاعرهم، فقد اتخذ من شخصيات الرواية رموزا للاتجاهات التي كانت قائمة آنذاك، أو التي استجدت بعد ذلك، وترك الباب مفتوحاً أمام الاحتمالات، مشيراً إلى الارهاصات التي أدت الى ماحدث بعد وقوف الرواية عند زمن محدد.

ومن ناحية أخرى، نجح الكاتب في رسم شخصيات الرواية وتجسيدها من خلال وصفها الخارجي المعبر، والغوص وراء مايعتلج في نفوسها، وإظهاره للمتلقين، موضحاً ذلك في تصرفاتها، وردود أفعالها. وأجاد الولوج الى أعماقها، ليبين جوانب العظمة في النفس الانسانية، وجوانب الضعف الانساني، والأهواء التي تتنازعها، لكنه أسقط ثقافته الخاصة على سلوك بعض الشخصيات، وأجراها على ألسنتها، وهذا ماخلخلها وأفقدها شيئاً من مصداقيتها.

قسّم الكاتب روايته إلى مقاطع مرقمة، انتقل فيها بين الأمكنة المتباعدة، والأزمنة المتعاقبة مضفياً على خط سير الرواية حركة تكسر رتابته. فقد امتلك القدرة على القص والانتقال من مشهد الى مشهد وربط ذلك كله بمحور واحد ومن منظور واحد، مستعيناً بما استقر في نفسه من تقنيات الرواية المختلفة. دون أن يتعمد ذلك، أو يقسرها على الدخول في روايته، فجاء شكل الرواية عفويا، والأقرب لايصال مايريد الكاتب إيصاله، دون أن يضيع حرارة الموضوع في تقنيات غريبة أو فذلكة لغوية، ولذلك حافظ على عنصر التشويق الذي تفتقر اليه معظم الأعمال الروائية الملتزمة في أيامنا هذه.

وربما أراد من وراء تقطيع الرواية إلى أقسام، وإيقاف الأحداث عند حد معين، والقفز إلى الأمام،

ثم العودة إلى نقطة التوقف، أن تتداخل الأحداث والمواقف في ذهن القارىء، فيستخدم حاسة التوقع، ويستخدم ذاكرته، فيتم التفاعل مع الرواية، ويخرج بانطباع عام، شارك في إدراكه، ولم يكتف بالتلقي السلبي، ومتابعة الأحداث بإيقاع رتيب ممل.

فالتقاطع في مثل هذا العمل الروائي، الذي يزفر بالأحداث والشخصيات ـ وإن كان ظاهرياً يضر بالانسجام ـ هو ضروري للامساك بخيوط متباعدة في المكان والزمان.

وقد أدى الكاتب ذلك كله بلغة ملونة، فيها الفصاحة التقليدية، وفيها السخرية المرة المتأتية من الأمثال والأقوال الشعبية الحادة والجارحة أحياناً، وفيها التعابير العامية المفصحة، والحوار العامي . . . وهذا التلون هو الذي مكّن الكاتب من إيصال أدق أفكاره ومشاعره والايحاءات التي يريدها الى المتلقي. لكنه صدم القراء ببعض الألفاظ الصريحة التي ظن أنه بها يقرّب روايته من الواقعية. وكذلك احتاجت بعض عباراته إلى تدقيق، مثل قوله:

«كرسي من طراز السلطان عبد الحميد»

وهو يريد من زمن السلطان عبد الحميد

بيد أن هذه اللغة الملونة لم تسجل للكاتب لغة متميزة، يعرف بها بين أقرانه، على الرغم من أنه اجتهد لتكون كذلك. . لكنها لغته. . التي إذا استمر في الكتابة بها، فإنها ستصبح لغة خاصة متميزة، وهي الأهم في التميز الأدبي، والروائي منه خاصة.

وعلى الرغم من أن الرواية قد تأخرت كثيراً في الظهور، لحذر الكاتب وخوفه من استقبال القراء لها ـ كما أشار ـ، فإن هذا التأخير قد أفادها، لأنه أعاد النظر بها المرة بعد المرة، فأضاف إليها وحذف، حتى استقام له بنيانها، وحتى استطاع الامساك بخيوطها الكثيرة. فخلت الرواية من الأخطاء القاتلة. . ويظهر أن الكاتب قد اغتنم فرصة التأخير، فأفاد مما اطلع عليه من أعمال روائية عربية وفلسطينية خاصة. فظلت في ذهنه المادة الروائية، واستقرت فيه الأساليب الروائية المتنوعة، فجمع معرفته ورغبته في هذا العمل الروائي، ليفيد ويمتع ويحرض ويؤدي رسالة هامة في زمن التزييف والتنازلات وقلب الحقائق. . وكأنه ليس العمل الأدبي الأول له، والذي يأتي عادة ساذجا ومليئا بالأخطاء والعثرات.

فيحمد للكاتب جهده، وتحمد له محاولته، التي جاءت إضافة للرواية الفلسطينة، تبشر بولادة روائي جديد، إذا دأب واستمر وتثقف واجتهد، سيكون له موقع في عالم الرواية العربية.

أدب ونقد

نهايات «مدن الملح»
دراسة في سياق التتابع

د. مصطفى عبد الغني*

هناك نوعان من الروائيين: أحدهما، يصل إلى موضوعه عبر نص واحد يكرره مع كل نص جديد، والآخر، يصل إلى موضوعه عبر عدة نصوص يتتابع فيها السياق.

الأول يتمثل داخل بنْيَة دالة، هي، النص، ويتمثل في وحدة لحنية تدور حولها تنويعات أخرى تعمل على استنفاد أبعاد هذه الوحدة دون أن يجاوزها، والآخر، يتمثل في تركيب بنى دالة عبر عدة نصوص وليس نصا واحداً.

لايعني هذا أن الروائي في الحالة الأخيرة يربط الحكاية بالخطاب الروائي، وإنما يمثل كل نص، لديه، حكاية في حد ذاتها، تنفرط على شكل حكايات (ألف ليلة وليلة) ولا تفقد ـ في الوقت نفسه ـ المعنى

---

* ناقد من مصر.

الدال الذي يتحدد كل مرة حسب طبيعة الحدث وقانون الصراع الإنساني.

وعلى هذا، فبينما يكتفي الروائي الأول بموضوع بعينه يكرره في كل عمل جديد، فان الروائي الثاني يُطوِّر موضوعه عبر بنى فنية مختلفة وعبر قيم فنية تتسق مع هذه البنى وتؤكدها مما، يدفع بلحظات الصدام إلى الهدف المنشود الذي ينتهي اليه، ومن هنا، فإن «النهاية في العمل الفني تعد بمثابة اللحظة الحاسمة التي ينفك فيها الصراع بين البنية الشكلية من جانب وبنية الموضوع التي تعكس خواص السياق الاجتماعي من جانب آخر»[(١)]

وإلى هذا النوع الأخير، السياق الاجتماعي، تنتمي أعمال عددٍ كبيرٍ من الروائيين المعاصرين من أمثال حليم بركات، وغسان كنفاني[(٢)]، وعبد الرحمن منيف وغيرهم.

وعبد الرحمن منيف ـ بوجه خاص ـ أكثر من غيره تعبيرا عن سياق التتابع في أعماله كلها.

ويمكن أن نرصد هذا في كل أعماله الروائية من رواية (الاشجار واغتيال مرزوق) ١٩٧٣ وحتى أحدث أعماله، الجزء الأخير، من (مدن الملح) التي صدرت العام الماضي ١٩٨٨.

وإذا وضعنا في الاعتبار أن (مدن الملح) لها مكانة ملحوظة في نتاج منيف، وهو مايحفزنا لرصد سياق التتابع فيها، فإنه من الضروري أن نعود ـ بشكل خاطف ـ إلى أعماله السابقة عليها قبل أن نعود ثانية إلى هذه (المدن..)

التناص: مرجعية الدلالة

لأن النص لايختلف، قط، عن مرجعه، فإنه لايمكن إغفال ربط المقابل الفكري بالمقابل الفني، ومن هنا، لايمكن إعادة النظر إلى السياق دون فهم المبدع وتكوينه الاجتماعي، فالروائي، إذن، في نهاية الأمر، هو خالق النص، وإن بدا هذا ضمن قوانين بيئية خاصة.

معنى ذلك إن طرح النهايات هنا وإعادة تركيبها في سياق متوال يرتبط أشد الارتباط بالكاتب، فلا يمكن إغفال بعض معاناة عبد الرحمن منيف وهذه (الخيبات) الكثيرة التي واجهها في حياته، حتى إنه اختار ـ بمحض إرادته، المنفى ـ منذ عام ١٩٨١ خارج الوطن العربي، مؤثراً الابتعاد، نهائياً، عن كل مامن شأنه أن يحوله إلى أداة في حركة الواقع السائد.

كان منيف قد خرج من تحليله للواقع العربي حينئذ، بأن أغلب انظمته تابعة للنفوذ الأجنبي، ولولا معاونة الاميركيين لسقطت هذه الأنظمة، وقد أضاف إلى النفوذ الأجنبي وخطره، التخلف والرجعية العربية وأطواق الاستبداد.. إلى غير ذلك مما انعكس في وعيه الإبداعي، وقد نَمى هذا وعمقه دراساته الطويلة للفكر الماركسي في فترة دراسته للاقتصاد في إحدى عواصم شرق الادرياتيك.

وعلى هذا النحو، فإن منيف كان واعياً إلى هذا العالم الخارجي، فراح يصنع عالما فنيا آخر يشبهه، بل يطابقه، وليس انعكاسا له بأية حال، وقد مكنه هذا من فهم القانون الذي يحكم الوطن العربي، وهو، إن الصراع الحاد بين القوى الوطنية والقوى الرجعية لايحسمها شخصُ او جيلُ واحدُ.

وهذا الصراع يمكن أن يؤدي إلى أحد طريقين: إما اليأس والقنوط، وإما الأمل والعمل، والوعي الإيجابي لابد وأن يرتبط برصد التراكم الطبيعي للتطور الوطني عبر مساحات زمنية شاسعة للوصول إلى الهدف الأخير.

والإطار المرجعي للنصوص يؤكد لنا ذلك، فهو في عمله (الأشجار واغتيال مرزوق) **١٩٧٣** يرسم ملامح هذا العربي الذي وصل به العالم حوله إلى حد اليأس فراح يطلق الرصاص على شبحه في المرآة فأخذ إلى مستشفى المجانين[٣]، حتى إذا ماوصلنا إلى (شرق المتوسط) لاحظنا أن مصير رجب كان قريبا من مصير مرزوق في العمل السابق، فقد انتهى القمع بالأول إلى الجنون، وبالثاني إلى الموت، غير أن الجنون أو الموت كانا مرحلة انتهت بتطوير الوعي وإنضاجه في الشخصيات التي عاصرت مرزوق ورجب وعرفتهما، إن زوج أخت رجب تردد بينها وبين نفسها ـ لا أجد الآن تكريما لذكراه إلا أن أهرب الأوراق التي عاد بها من وراء الحدود وأنشرها كما هي، ثم يجيء زوج الأخت المضطهد الواعي ليعرف ان (رسالة) رجب يجب أن تستمر، يقول لابد «أن أدفع الأمور إلى نهايتها لعل شيئا بعد ذلك يقع»[٤].

ويلاحظ أن مصير مرزوق ورجب هو مصير وديع في النهايات[٥] ومصير الصياد في (حين تركنا الجسر)[٦]، ثم مصير هذا الواقع المضطرب المتشابك في (سباق المسافات الطويلة)[٧].. إن المصائر تتعدد، وتتحدد عند نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة، وهو مانعثر عليه بشكل أكثر تحديدا في رواية (مدن الملح).

وعلى هذا النحو، يتحول عبد الرحمن منيف من الفعل الفردي عبرالياس ومرزوق ورجب والصياد.. وغيرهم في رواياته السابقة إلى الفعل الجماعي عبر متعب ومفضي وابن نعناع وسليمان وشمران وصالح.. وغيرهم في (مدن الملح)، ومن السياق المتتابع في هذه الروايات الى السياق المتتابع داخل (مدن الملح).

إن كل مرحلة تؤدي إلى المرحلة التالية، فالراوي ـ على سبيل المثال ـ ينظر إلى رجب في (شرق المتوسط) على أنه «مرحلة تاريخية، فهو مكلف بمهمة في مرحلة معينة. أنجز القدر الذي يستطيع إنجازه، وقبل أن يسقط جاء من يحمل الراية ويكمل الطريق»، ومن هنا، فإن التتابع يؤكد أن وراء كل رجل سقط آخرون لم يسقطوا، مبالين كانوا بهذا السقوط أو غير مبالين، إذ إنهم في الفترة التالية مباشرة سرعان مايُكونون القوى المضادة التي تسعى للتغيير، وهو يعني أن البطل وإن تحول إلى ضحية تحت الهزيمة النفسية او الجسدية، فإنه يظل، دائما، رمزا لوعي مطَّرد يؤدي إلى مداه.

وهنا، نقترب، أكثر، من نهايات (مدن الملح).

وقبل أن نهبط إلى هذه الرواية، ثمة أمر لابد من التأكيد عليه مرة أخرى، وهو، إننا يمكن ترتيب أجزاء هذا العمل إلى ثلاثة أجزاء ـ وليس خمسة ـ ليمكن لنا، رصد النهايات في سياق المتوالية..

وهذا الترتيب على النحو التالي:

(١) التيه

(٢) الأخدود

(تقاسيم الليل والنهار/ المنبت)

(٣) بادية الظلمات.

وبمراجعة هذه الأجزاء نجد أننا يمكن أن ننظر في السياق الأخير إلى نهايات متباينة، ونهايات لاتشي بحسم ولا تتسم بتحديد تقليدي.

وهذا معناه تعليق درجة الصدام

وسوف نرى تباين درجات الصدام وتلاشيها خلال كل جزء

ـ التيه

إن (التيه) هو الجزء الأول، يصور حقبة كشف النفط، وما نتج عنه من تهجير أهل الواحة ليحل محلها المصافي وميناء التصدير ومعسكر الأميركيين ومعداتهم وأحلامهم في صنع حران جديدة عوضا عن حران العربية القديمة، التي سيعمل الآن عدد كبير من أهلها في المدينة الأمريكية.

وفي المعسكر الجديد سوف يغلو الاميركيون في معاملتهم للعمال وتخلو حياة العمال من الأمل والراحة، فتنضج مشاعر العمال العرب في المقارنة بين حياتهم البائسة وحياة الأمريكيين المكيفة الهواء الى جانب حران الامريكية والعربية، وتشتعل مشاعر هؤلاء العمال أكثر حين يعاملون كالسخرة.

وتتحول عديد من الشخصيات العربية إلى رموز مقاومة لما حدث لزملائهم من العمال الذين طردوا، خاصة، بعد أن أطلقت عليهم النار في المظاهرات.

كان مظهر الاعتراض طردَ العمالِ ومخبرُه رفضَ القتلِ والترحيل ومكائد العملاء والمهانة والعمل الشاق وعفوة الحاكم وخطورة هذا الأجنبي اللعين. وكان على الامريكيين في المعسكر الآخر أن يجهضوا هذه الانتفاضة ضدهم، ووجدوا الوسيلة، ففي احتدام الصراع بين الطرفين يفاجأ الجميع ببلاغ من ديوان الامارة جاء فيه أمر الأمير على النحو الذي ينهي كل شيء، إذ جاء فيه: إن الامير «.. قبل سفره أمر بعودة جميع العمال الى الشركة، وقد استجابت الشركة لهذا الطلب»[٨].

وعلى هذا النحو، تحولت النهاية من صدام فعال، الى «تبريد» هذا الصراع بوضع حل مراوغ لإجهاض حركة العمال الشعبية ضد الشركة الاجنبية، وكأن القضية لم تكن هي طرد العمال العرب، ولا اختفاء متعب، واغتيال مفضي، وتلك المعاملة المذلة، والواقع المعيشي المهين والاستعمار الزاحف للسيطرة. «لقد غيب المسؤول، وضاعت المسؤولية، أو لقد بُريء من ظُنّ أنه مسؤول، او تحييد من اتجهت أصابع الاتهام اليه»[٩].

لقد كان رحيل الأمير بعد ذلك تأكيدا لاجهاض الحركة الثورية ضد الأميركيين، ذلك لأن «الأمير المريض، الأمير الذي غادر للعلاج ولن يعود، هو الذي أعطى الامر والحل. ولن يعطيه مرة ثانية لأنه لن يكون بالامكان أن يطلب منه ذلك، مرة ثانية، لقد رحل فأقفل الباب الذي فتح، وانتهت مرحلة فتوقف القص لكنه بقي مفتوحا على التحولات المقبلة. على هذا المجهول»[١٠].

وقد كان هذا المجهول هو الذي حدد نهاية الجزء الأول، فعلى إثر حور دار بين ابن نفاع وبين خزنة،

قال:

«ـ تفاءلوا بالخير. . لكن لا أحد يعلم الغيب»[١١]

إنه المجهول، الغيب، القص المتحرك إلى سياق آخر. .

وهذا التحول الناقص يسعى إلى سياق في الجزء الثاني من الرواية، الأخدود، حيث نلتقي بأحداث أخرى تبدأ في السنوات التي أعقبت منتصف القرن الحاضر.

ـ الأخدود

وإذا كانت (التيه) تنتهي بتعليق الصراع بين الطرفين، فإن الأخدود تبدأ لتصل، عبر تراكم الأحداث ودلالاتها، إلى مثل هذه النهاية المعلقة.

إننا نلتقي بالسلطان الجديد، الذي وجد أمامه أحد الانتهازيين ـ الحكيم ـ فاستطاع هذا الأخير بدهاء شديد، أن يصنع أطراف الدولة بمساعدة ـ وتحت إمرة ـ الولايات المتحدة الأمريكية، ورموزها: حماد المطوع ومطيع شخاشير للأمن والإعلام، ولم يلبث أن تجدد الصراع من جديد، ومثل أحد الطرفين الحاكم والحكيم والانصياع (لهذه الأميركا)[١٢]، بينما مثل الطرف الأخر القوى الشعبية وعلى رأسها صالح الرشدان وشمران العتيبي وغيرهما.

وقد زاد من حدة الصراع وضراوته ماكان يفعله الحاكم ورجاله من ظلم وسجن ورشوة وخراب وتورط في حروب، وإغداق أموال لاستنزاف الخزانة، وتقطير بين الناس وتبذير بين الأمراء، وفي الوقت الذي سعت فيه القوى الشعبية لتكثيف النضال ضد النظام السائد عادت القوى الأجنبية مرة أخرى لتعزل حاكم ـ خزعل ـ وتولى آخر ـ فنر ـ، ثم دأبت القوى الأجنبية على إبصار الحاكم بالمؤامرات التي تحاك ضده والتغييرات الشعبية التي تسعى من خلال الجيش لإحداث التغيير.

وكان هذا كله، يعني، أن تكريس الأمريكيين لكل مامن شأنه أن يقوى أطراف هذه القوة التابعة، أن يزيد من ضراوة هذه القوة، ومن هنا، بدأت علامات الصراع بين الطرفين تتخذ شكلا غير حاسم.

لقد راح شمران، حين رفض النظام الجديد الإفراج عن ابنه أحد المناضلين، ضد النظام السائد، يقول:

(ـ ديار الظالمين تاليها خراب. . وحنا وياهم والزمان طويل)[١٣].

وفي موضع آخر

(ـ . . واللي يجون عقبنا يسولف)[١٤]

وتكون آخر كلمة تطلق في هذا الجزء من شمران هي (. . وتشوف!)، بما يعني أن النهاية المفتوحة تعود من جديد، فتجمد القص على مشهد ختامي، لكنه، يبقى مفتوحا لسياق آخر.

إن السياق يستمر لكنه يتتابع لإغلاق الدائرة. .

وبينما تستكمل ملامح الزمان والمكان في الكتابين التاليين (تقاسيم الليل والنهار)، فإن النهاية تظل مفتوحة لتوالي الصراع في سياق آخر. .

إن (التيه) يتحول إلى (أخدود) عميق لا يلبث أن يتهيأ إلى دورة أخرى من دورات الصراع بين القوى الشعبية والنظام السائد. .

وهو مانتعرف عليه في آخر أجزاء (مدن الملح)

ـ بادية الظلمات

وعبورا فوق أ-حداث كثيرة بين القوى الوطنية والقوى الحاكمة، فان الحاكم الجديد يكون أكثر من سابقه استفادة برجل الانجليز (هاملتون) و (مكيافيلله)، وأكثر فهما لدور الأميركيين ووسائلهم، ومن ثمَّ يزيد حدة الصراع حين يزيد دور المغامرين الجدد من شتى بقاع العالم، كليفي شاوات، وبروبرت يونج وغيرهما فتتحول الدولة الى رأسمالية (تابعة) للرأسمالية العالمية، وتزيد الحروب والامراء والمنتفعين والسجون، والمشاريع، والحريم، والمدن التي تتحول الى هياكل متهاوية، سوف تهجر تماما و (تفش) حين ينضب البترول. . وحين تزيد من حدة الحركة الشعبية يكون الإرهاب هو الوجه الآخر للنظام السائد، فيعدم الكثير فتطغى موجة من الحقد الممزوجة بالقرف على القلوب مثلما تطفو طبقة الزيت فوق الماء»[١٥].

ويكون من شأن النظام الجديد أن يتبع سياسة القمع التي تحول كل شيء إلى جحيم، ويجيئنا صوت الراوي/ الشاهد ليصور مايحدث حينئذ فيقول:

(ـ قال الذين عاشوا هذه الفترة، إن الدنيا بدأت تصغر وتضيق حتى أصبحت كحبة خردل).

ويكون من طبيعة التضييق أن يأتي الفرج، ويكون الفرج على شكل اغتيال الحاكم، ممن؟ وكيف؟ ومتى؟ أسئلة كثيرة لايجد لها إجابات.

ويجيء الحاكم الجديد بسرعة فيوصى ببعض الإجراءات التي يسعى بها الى تضييع الوقت لئلا تتنبه إليه القوى الشعبية الصاعدة: إعادة الدستور وتنفيذ المشاريع ووعد بالعفو عن المساجين، غير أن هذه القوى لاتخدع للمرة الثالثة، إذ تكون أكثر وعيا مما قبل. .

غير أن حدة التغييرات تغرق الجميع في صمت، يصوره عبد الرحمن منيف في نهاية الجزء الأخير تصويرا واعيا موحيا، مفتوحا، يقول:

(ـ وبدأت موران تتنصت وتتلفت وتترقب. . من جديد). [١٦].

وهو مايعنى أن دورة ثالثة من دورات الصراع تتهيأ في رحم الواقع للبدء من جديد في ضوء ماحدث في المرات السابقة.

إنه المجهول، الغيب، القص المتحرك من جديد. .

سياق التتابع:

في كل مرة، من الدورات الثلاث، كنا نلحظ أن الملحمة الضخمة لهذه المدن كانت تمثل،

بخصوبتها، سياقا متتابعا، لايفضي في كل مرة إلا إلى سياق جديد.

ولا يعني ذلك أن كل سياق يبدأ من البداية، وإنما يظل حصيلة البدايات السابقة والتتابعات المتوالية في سياق كمي ممدود بشكل أفقي.

لقد أصبح لكل نهاية سياقها الخاص بها، ومنطقها الداخلي المنبثق من طبيعة الأحداث، وأصبح الإنسان يعي تماما، أنه لايستطيع، وحده، إحداث المواجهة وبدء التغيير، فكثيرا ما اختفت بعض الشخصيات (كرد فعل للقهر) أو قُتل البعضُ الآخر (كرد فعل للإرهاب) أو سقط البعض الثالث (كرد فعل للقمع) غير أنه في جميع الحالات لم يكن أي من هؤلاء ليسلم راية النضال بدون جدوى، وعلى سبيل المثال، فإن متعب الهزال، اختفى كرد فعل لضراوة الأحداث على وجدانه النقي، ومع ذلك، فإنه كان متواجدا طيلة الملحمة بشكل أكثر من الشخصيات التي لم تختف أو تتغير.

كان على أي إنسان أن يسلم الراية لغيره بعده.

وكما ظلت الشخصيات فاعلة، حتى بعد استنفاد قوتها، كذلك، ظلت المراحل التاريخية ـ داخل النص وخارجه ـ متتابعة، فاعلة خلال هذه النهايات المفتوحة.

كانت النهايات متوالية، وهو ماانتسق مع منطق القوى الغربية التي كانت تسعى، كل مرة، إلى إجهاض كل حركة واعية في سياقها التاريخي، وعديد من الوثائق الأمريكية التي كشف عنها بعد ذلك أكدت أن ماالتزم به الروائي هنا لم يكن وعيا بمنطق السياق المتتابع في التاريخ الفني فقط، وإنما، كان وعيا، بدينامية الحركة الامبريالية عبر التاريخ، وخطة (الفا) التي كانت تسعى بها الولايات المتحدة الامريكية للسيطرة على عبد الناصر في مصر مازالت تشهد على هذا المنطق.

كانت قوى الغرب القبيح تتسلل كل مرة، إبانْ تصاعد المد الشعبي لاجهاضه، إما بالحصار الاقتصادي الذي انتهى بهزيمة عسكرية في مصر، وإما بالاختراق السياسي لعديد من أجهزة الدولة التسلطية التي نجد ممثلها الكبير الآن في العربية السعودية.

وهذا الدور الأخير هو ماحاول رسمه عبد الرحمن منيف في (مدن الملح)، ووفق فيه إلى حد بعيد.

(١) صلاح فاضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الانجلو، القاهرة، ط ٢/ ١٩٨٠ ص ٤٤٢.

(٢) يلاحظ سياق التتابع عند حليم بركات في أعماله الروائية المتوالية: فروايته الثانية (عودة الطائر الى البحر) تمثل تتابعاً في سياق روايته الأولى (ستة أيام)، إذ يمكن اعتبار الرواية الأولى ـ ستة أيام ـ بمثابة (نبوءة) تحولت في العمل التالي له إلى (تحقيق)، وهو مايمكن أن يقال لدى غسان كنفاني، حين تعتبر روايته الثانية (ماتبقى لكم) هي امتداد لروايته الأولى (رجال في الشمس)، إذ أكد العمل الأخير، أنه لكي يكون الموت معاد لا للعمل والكفاح، لابد أن تسبقه محاولة يختبر فيها كيف أن الموت يكون البديل الوحيد للحياة، البديل الوحيد المتاح اذا

لم نسع للفعل الايجابي..

وبينما يُلاحظ أن حليم بركات كان يؤجل الصراع عبر سنوات، فان غسان كان يؤكد أن الصراع السلبي لابد وأن يعقبه الفعل الإيجابي، وكان أن تنبأ بركات في الهزيمة قبلها بسنوات، وتنبه كنفاني بالبديل/ الموت لو لم يكن الفعل الإيجابي هو البديل الوحيد، ويكفي أن نعرف أن روايته (ماتبقى لكم) كتبها بعد ثلاث سنوات من روايته الأولى وبعد انطلاق الثورة الفلسطينية.

(٣) عبد الرحمن منيف، الأشجار واغتيال مرزوق ص ٢٩٣

(٤) عبد الرحمن منيف، شرق المتوسط، دار الطليعة، بيروت ٧٨ ص ١٧٥/ ١٧٦

(٥) عبد الرحمن منيف، النهايات، ص ٨٠

(٦) عبد الرحمن منيف، حين تركنا الجسر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٤، ١٩٨٧.

وهنا لايمكن إغفال ملاحظتين هامتين:

ـ يلاحظ أن منيف في الإهداء بعد ذكره لعدة أسماء يضيف: (... ذكرى خيبات كثيرة مضت.. وأخرى على الطريق.. ستأتي) ص ٥، الخيبات، فإنه يشير إلى هذا السياق الواعي في تعاقب الخيبات التي لايعتبرها أكثر من تتابع لابد من أن يشير تراكمها إلى خبرة ووعي في التعامل معها.

ـ أما آخر صفحة في الرواية، فهي ترتد، بعد أن يقطع الراوي أكثر من مئتي صفحة في وصف هذه الخيبات والاحباطات المتوالية التي يُصاب بها الراوي، فإنه يذكر عبارة من الواجب أن نذكرها لنرى أن السياق لايمتد كميا بدون وعي، تقول آخر فقرة:

«وقبل أن تغيب شمس اليوم الأول كنت قد ضعت في زحام البشر، وبدأت أكتشف الحزن في الوجوه..

وتأكدت أن جميع الرجال يعرفون شيئاً كثيراً عن الجسر، وأنهم ينتظرون.. ينتظرون ليفعلوا شيئاً» (٢١٣).

(٧) عبد الرحمن منيف، سباق المسافات الطويلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩، ص ٣٤٨

(٨) عبد الرحمن منيف، مدن الملح، ج ١ ص ٥٨٢

(٩) يمنى العيد، الراوي الموقع والشكل، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٦ ص ١٥٦.

(١٠) السابق، ص ١٥٦

(١١) مدن الملح، ج ١ ص ١٨٢

(١٢) مدن الملح، ج ٢ ص ٧٧٤

(١٣) السابق ص ٦١١

(١٤) السابق ص ٦١٢

(١٥) السابق ج ٥ ص ٥١٤

(١٦) السابق ج ٥ ص ٥٨٤

مسرحية

الجاروشة

زيناتي قدسية*



شخصيات المسرحية:

- زينب
- ربيع
- أيوب الجليلي
- جميل
- الميجر باروخ

المكان: العيسوية، قرية من قرى القدس

الزمان: منتصف ليلة الثامن من كانون الأول لعام ١٩٨٩.

● المسرحية من فصل واحدٍ طويل ●

---

* كاتب وممثل ومخرج مسرحي من فلسطين.

إلى روح إسبانيا العظيم.. فديريكو غارثيا لوركا الذي حفّزني لكتابة هذه المسرحية..
إلى كل من عشق الحرية واستُشْهد من أجلها..
وإلى كل من يعشق الحرية ويقاتل من أجلها..
أقدّم عملي المتواضع هذا.

ز.ق

● ● ● بيت «فلسطيني» متواضع ● ● ●

(شموع موزعة في أرجاء المكان، الإنارة بنفسجية خافته، غير كاشفة لمعالم المكان، فانوس معلق ينبعث منه بصيص من الضوء....)

(تدخل زينب ببطء وهي تحمل شمعداناً كبيراً وفي اليد الأخرى فستاناً أبيضَ مطرزاً من حوافّه... تتقدم من كتلة مغطاة بقماش خاص.. تجلس إلى جانب الكتلة وتضع الشمعدان وتناغي الفستان قليلا... ثم تسحب غِطاء الكتلة لتظهر الجاروشة.... تتحسسها بشوق وحب.. لحظات.. تمسك مقبض الجاروشة وتديرها... ثم تبدأ بالغِناء)

ما قتلك يا يمّه على الرحى عينيني
مدزي الرحى ثقيلة ولاّ الهوى راميني
ما تنسمع رحايا بس إيديّ بتدور
اطحن بقايا روحي ولاّ اطحن شعير

(تتوقف عن لف الجاروشة... وتغيم نظراتها.. الشموع واللون البنفسجي المنتشر يعمقان أحساسها بالحلم... فتَخاطب نفسها والجاروشة والفستان...)

زينب: وحدي... أنا وأنت والعيسويةُ، مقدر علينا أن نعيدّ الليلةَ وحدَنا، أنا وأنت والشموعُ والفانوسُ... وليلٌ طويل... وحصارٌ يخيم على البيوت والناس،وفارِس الاصيلة بعيد عن عيني.. أنا وانت وثوبُ العرس الذي طرزتُه بدم قلبي،النجومُ تسافر وتعود.. وأنا أنتظرُ أوبتَك وحيدة...

(ينبثق ربيع من الهالة البنفسجية وهو يحمل شمعدانا مماثلا... ويقترب من خلفها كالطيف).

ربيع: لست وحيدةً، الارضُ، والجبالُ، والسماءُ، النجومُ، والشجرُ. كلُّ شيءٍ خلقه الله على وجه أرضنا يشاركك فرحةَ العيد، قلبُ الأرض.. يتراقص فرحا لفرحك يا زينبُ..... زينبُ

زينب: ياحبةَ عين زينب...

ربيع: كان يجب أن أكون إلى جانبكِ في ليلة عظيمة كهذه... قلبي لم يطاوعني.

زينب: الله يحرسُ قلبَك ويحميه.

ربيع: قال لي: قم يا ربيع، قم وتلفع بالعتمة.. واركب حصانا مُجنحا.. واذهب الى الجوهرة التي يعشقها قلبُك وعقلُك.. نوارةِ العيسوية... الدرةِ التي تضيء دربَك كلما اشتدت حلكة الظلام....

زينب: أخاف أن يصيدك أولاد الحرام على غفلة منك..

ربيع: (يقترب منها كثيرا) لو غفلت عيني فإن قلبي لا يَضِلُّ طريقه... وكل شيء يهون من أجل عينيك.

زينب: العيسويةُ مُزَنَّرَةٌ بالنار والحديد.

ربيع: (يكاد يلامس كَتِفَها من الخلف) أنت الجنة... وكلُّ عام وأنتِ أحلى وأجملُ وأقوى.

زينب: (ترتعش أوصالُها وتكاد لا تفرق بين الحلم والحقيقة) طائر الشنار... رفرف على روحي بأجنحته.. يا رائحة الزعتر بصوتكَ.. يارائحة الحنّون واللوز... يا حبيبي أنت... أهذا حلمٌ أم حقيقة؟.

ربيع: حلمكِ أقوى من الليل الظالم... وأعيادنا الكبيرة آتية تتقافز كالغزالات في عزّ النهار (يتلمس الثوبَ... فتتلامس أيديهما.. تنثني زينب فتراه أمامها)

زينب: يا فرحَ القلب وفرحَ الروح وفرحَ العمر.

ربيع: لو لم تكن الشوارعُ تعج بالعقارب.. لأخذتك من يدك ونزلنا معا الى ساحة العيسوية ورقصنا... رقصنا ودبكنا، ندبك وندق الأرض حتى يستيقظ المدفونون الذين لفهم تراب أرضنا المباركة، ويقوم الجميع، يرقص ويدبك ويغني ونبدأ زمنا جديدا.

زينب: أأنا في حلم؟

ربيع: وسنظل ندبك حتى يشقشقَ الفجر.. لا.. للضحى العالي... للظهر.. لثاني يوم وثالث يوم وخامس وعاشر وألف، حتى يرث الله الأرضَ ومن عليها.. وحين نتعب نقعد على العشب الأخضر، ونمسح عرقنا بباطن كفينا.. ونضحك نضحك نضحك، حتى تغسلَ دموعُنا كلَّ شقاء السنينَ الماضيةِ... ثم نطير مثل الفراش نلملم أجمل اللحظات التي سرقها منّا الزمن الأسود، ونعود أولاداً صغارا نركض بين الزيتون وحقول القمح... وأقطع حنونةً حمراء وأشبكها في طيات شعرك ونُغني معا على دلعونا.

(يترنمان باللحن وهما يدوران حول نفسيهما.. للحظات)

(يغيبُ ربيعُ وتفيق زينبُ من حلمها الجميل.. وهي تتساءل)

زينب: انا فْ حِلِمْ ولاّ فْ عِلِمْ...

(يبرز أيوب من إحدى زوايا المكان... صائحا.. باللهجة الشعبية.. ناقراً على دفّه الملون...)

أيوب: فاتَتْ حَقيقَتْنا بْحِلِمْ عُمْرِكْ..
إنْتِ الْعِلِمْ، وانْتِ الْحِلِمْ، إنتِ الحقيقَة الْباقْيِة، إنْتِ الزَّيتونْ والتين، إنْتِ يا طُورِ سْنين،
إنْتِ الهوا والغيمْ لِبْيَظْ والغَنانِي والْحنين...
إنْتِ الشَمِس، إنْتِ الْقَمَرْ، إنْتِ الرَّبيعْ لِخْظَرْ.
إنْتِ البَيادِرْ.. إنْتِ يَكْروم الْعِنَبْ واللَّوزْ والْلَّيمونِ لْمْعَطَّرْ...
إنْتِ الأَرِظْ تِطْرَحْ مواسِمْ عِشِقْ.. وِاغراسْ موعودِة وصدى أرغول
والرَوِيّس فْ الْجوفيِّة يتْمَخْتَرْ
يا كُحْلِة العْين، يا لَفِّةْ الْقرمول... يا شامة على خْدِيدْ مِثِلْ زِرِّ الْوَرِدْ لِحْمَرْ..
إنْتِ الصبايا بْلَيْلِة الحِنّا... وْعَجِّ العَتابا وْرَقْصِة السامر
والسَحْجِة تلوى الْخَصِرْ لِمْزَنَّرْ..
إنْتِ الْفُصول الأربعَة فْ بلادنا، ما ظافها إنسان وتْذَمَّرْ....

زينب: قلبي لا يكذبني.. هذا صوت الحكواتي أيوب الجليلي.

أيوب: نعم.. أنا الجليلي أيوب، أيوب ياجبينه، أيوب الذي أحبك منذ رفع الله سماءه، بلا عمد، وأرسى الجبالَ، وبسط الأرض، وفجرَّ فيها الماءَ، ثم تجلّى على عرشه.

زينب: تُحبني أنا

أيوب: ولا شيءَ سواك...

زينب: وتعرفني...

أيوب: لا أحد في هذا الكون يعرفك كما أعرفك أنا.. وسأحكي للدنيا كلها عن زينب.

... زينب التي فقدت والديها قبل أن تكمل ربيعَها العاشرَ.. فرباها عمُّها أبو حامد الشهم الأصيل... رباها وعلمها كبناته، الى أن درست التاريخ في جامعة بيرزيت....

وفي بداية عقد الثمانيات أعطت أول درس في التاريخ لتلاميذ العيسويّة....

زينب: وكيف عرفت أني هنا؟

أيوب: منذ أن وعيتَ على الدنيا، وأنتِ تتشعبطين على الحيطان كل ليلة، وتقفزين من بيت عمك وتجيئين الى بيتكم... وتجلسين أنتِ والكتابَ وفانوساً عتيقاً... والليلة عرفت انك هنا، ولا يمكن أن تكوني إلاّ هنا، فهل يعقل أن يكون أيوبُ بعيداً عنكِ وعن العيسوية في ليلة عظيمة كهذه...؟

زينب: حدثوني عنكَ كثيراً وأنا صغيرة، وكان صدى صوتك يصل إلى أذني صافيا كحليب الأم.... ولكن أخبارك انقطعت عنا منذ سنوات... فأين أنت يا أيوب يا ابن الجليل... يا صابر...

أيوب: موجودْ... يا جبينه.. [بلهجته الشعبية]

موجودْ رَغْمِ الموتْ لِمْخَيَّمْ على روس الْبَشَرْ فِ بلادنا، وْقَديش اَعِدّ سنينْ.
ما في بَشَرْ فوق الأَرِظْ شاف اللّي شُفناه مِنْ شَقَا تِخْمينْ.
رَغْمِ القَهِرْ لِمْعَشِشْ فْ قَلبي، رَغْمِ الْبَرْدْ والجوعْ والْغُربة. . .
موجودْ فِ غصونِ الشَجَرْ. . جُواً الحيطانْ. . . تِحْتِ الحَجَرْ. . .
بِسْهَرْ عَ روس جبالنا، وَبَمْشي عَ ظَهْرِ الْغيمْ، وْبَتْسَحْسَلْ مَطَرْ. .
موجودْ فِ الْوِديانْ، وبْمَيةِ الغُدرانْ... موجودْ في زْرَارِ الْوَرِدْ، والخابيةِ وْشِبَّابةِ
الْرِعْيان. . . . موجودْ فِ حْقُولِ القمحْ، فِ الروزَنَة. . مَعْ جفرا وِمْويل الهوا
«ويمّا مويل الهوا يمّا موليا   ضرب الخناجر ولا حكم النذل بيّا»
ومن يوم أنْ غِبْتِ وَغبنا، ومُنْذُ ان جَفّت عيونُ الماءِ، وخيّم سواد الليل على الارض الحزينة، وأنا أدور من ساحة لساحة ومن دار لدار ومن بلد لبلد وأنا أحكي وأغني وأقول. . .

زينب: وتروي القصص القديمة للناس يا أيوب؟

أيوب: أي قصص؟

زينب: قصص أيام زمان.

أيوب: «زمان ولىّ وْراح»، زمان كنت أنزل على القهاوي وأحكي للناس عن أبي زيد وعنترة والظاهر والملك سيف وحمزة البهلوان. . . وعندما راحت أيام العز، وانقلب العالم علينا بسافله وعاليه، نظرت حولي فإذا الدنيا غير دنيا. . وعجّت أرضنا بالعقارب السامة من كل صنف ونوع. . . وصار الوجع يكبر ويكبر معه السؤال. . . «لاعادْ رُمْحِ ذيابْ يِنْفَعْ ولا عادْ سيفْ عَنْتَرْ يِلْمَعْ». . . . طلقت القصص والقهاوي ووضعت دمي على كفي ورحت أصيح وأقول وعمر السامعين يطول:
(ينقر على دفه ويغني. . . خلال الأغنية تنشغل زينب بالجرش ويمكن أن تشاركه الغِناء مع بقية اعضاء الفريق المسرحي)

اول ما نبدى ونقول   صلو ع طه الرسول
يا حلالي يا مالي   ويا ربعي ردوا عليّا
أولْ صوتٍ غنيناه   يا شعبي سَنْتِ العشرين يا حلالي. .
ضِدّ الوعدِ البلفوري   واجهنا المخرزْ بالعينْ يا حلالي
وموسمِ النبي موسى   يشهد عَ لِمْجاهدين يا حلالي
شدّوا العزمْ وسالِ الدمْ   وِتْلَوَّنْ على الصفين يا حلالي

«موال»

- وسَنْتِ الواحد وعشرين   مِنْ يافا بْشَهَرْ أيارْ يا حلالي
شَعْلَلُوها مْوَحّدينْ   وِارْتَفَعْ لَهيب النارْ يا حلالي

وطارِ حصانِك يا القُدس   مجَنّحْ بِالْتِّسعَةَ وعشرينْ يا حلالي
وَمَدْ جناحهُ هالبُراق   علَى عْمومِكْ فَلَسطينْ يا حلالي
مِحَمَدْ وعطا وفؤاد   عاشو بْسِفْرِ الخالدينْ يا حلالي

«موال»

- وفِ الثَلاثهِ وثلاثين   وقّفنا ضِدّ التَهويدْ يا حلالي. . .
رِخْص الدَّمُ ورِخْص الروح   ورَخَّصْنا المالُ ولِعْيالْ يا حلالي
ورَجَفْ قَلْبِ الصَّهيوني   يا شعبي بْظَرِبةْ نهلال يا حلالي
وخامسْ صوتْ وسادسْ صوتْ   دَبّيتُه والناس نْيامْ يا حلالي
مِنْ عمال وفلاحين   وجَلْجَلْ صوتَكْ يالْقسام يا حلالي
وزَلْزَلْها أبو ابْراهيم   وفرحانِ السعدي المِقْدام يا حلالي

«موال»

- وشعبي يا بو المُعجزاتْ   عَ مدى كُلِّ العْصُورْ يا حلالي
هَزِّ الكونْ وهَزِّ الناس   إظرابَكْ بِالست شهورْ يا حلالي
وفِ الثماني واربعينْ   حَوَّطونا بِالأَلغامْ ياحلالي
زغارِ تقومْ كبارِ تنامْ   وتتخبى مثلِ النعامْ يا حلالي
وفجرّوا بشعبي القنابل   قالوا علينا السلام يا حلالي
ويا قرايب طار الطير   والله يمسيكم بالخير يا حلالي
(صمت. . . . . .)

- «ومَرْقَتْ علينا ايّامْ. . . .   أسودْ مِنِ القُطران والليلْ
عشرينْ عامِ مِنْ الحَكي   جرّتْ علينا الويلْ
اسقَتْنا كاسِ المُرّ   وطوّل علينا اللّيلْ
عشرينْ عامْ مِنْ الحكي الطّنان   لا رَجَّعتْ طير وما فادتِ ابْن آدم
لو حطّها مجنونْ عَ الْقَبان   كان انصلحْ عقلهْ واتْشقلب العالم»

إلى أن صحوت في ليلة وصحا العالم من حولي على هزة عنيفة خلخلت أعمدة الأرض وانشقت طواقي السماء وجلجل الصوت مدويا ومبشراً بولادة الفارس. . . بعد عشرين عاما أعجفَ. . . وبعد أن توهم الجميعُ أن أحشاء نسائنا قد جفت ونشفت وأن أرحامهن تيبست وانطفأت فيها جذوة الحياة. . . ولد الفارس. . . [بنقر على دفّه وينغمّ بلهجته الشعبية].
«ولبْشارَة هَلّتْ والأَرظْ فَتَحَتْ شَبابيكِ الوْلادِة ودَرْبكَتْ لِخْيولْ
ونِسْوانا زَغْرَتِنْ وشقّتْ عَنانِ السما زُمارْةِ اليَرْغولْ. .

وِلِدِ الوَلَدْ مِنْ قَلْبْ خيمةِ امْزَّعةَ وطينِ المخيم . . .
يحملْ رسالةِ مْوَجَّهة لَلْعالمِ المَخبولْ . . . .
شوبـاشْ يا مريم ، شوبـاش يا صبحيةِ ، يا بدريةِ يا خيرية ، يا بنتِ البلد ، شوباش يا وَظْحَهَ وخديجةِ وفاطمةِ ، شوباش يا إمِّ الولدْ
يا إمْ كُلِّ اوْلادنا . . .
كيفَ اوصفكْ . . . يا أكبر مْن الوَصِفْ . .

[**يغني**] . . . «جذع جذره ف بطن الارظ مخزون،وفرعه تعمشق بخصر السما وطار
لا هزة ع المدى ريح وبرد كانون ولا اذار بثلوجه ولمطار»

ترعرع الولد وكبر، واعتلى ظهر حصانه الأصيل منذ ربع قرن وطار، يعارك الريح والموج والعـواصف . . ويبحث عن جبينـه . . ويرفـرف على كتفيه ثوب العـرس الأبيض الـذي طرزه بدمائه . . . ودار الزمان دورته . . . بتألق الفارس وغضبه بفرحه وحزنه ، بجموحه وكبوته ، . . . ولكنه في وسط اللهيب لم يغادر حلمه ولم يخالطه اليأس ، وفرّخ آلاف القناطير من طيور الحجل والشنار التي تملأ اليوم سماء وأرض بلادنا .

والليلة جئتكم أنا أيوب الجليلي ، من آتون النار المشتعلة هناك لأبلغّلكم وأشهدكم على قصة حدثت في قلب الليل . والليل في بلادنا له مذاق مختلف عما يدور في النهار . . . الليل لي . . . انا أيوب الجليلي ابن الليل والعتمة . . . [ثم بلهجته الشعبية] .

«انْتَبهو مليح . . . انْتِبهو مليح . .
القِصةَ طويلةِ ، وما في وقت بْليلةِ نْوَقِفْ عِنْدِ النُقَطَة السُّودا وْعِنْدِ الحرفِ الجارحْ ، لكنْ فينا نقولِ الزُبدة بْنَبْرةْ صوتِ معبّى ومعنى واضح . . . »

● **يختفي ايوب في ركنه . . أو يجلس تحت انارة خفيفة . . ويراقب ما يجري . . . .**
● (تتجول زينب في أرجاء البيت قلقة متوترة . . . تبدو وكأنها بانتظار شيء أو أحد ما . . . . تذهب نحو الجاروشة . . . وتطحن بهمة ونشاط . . فترة . . . تتوقف بغتة عن العمل وتنهض لتنظر الى خارج البيت مترقبة بقلق . . . ثم تعود مرة ثانية لتجرش بهمة ونشاط . . . ثم تتوقف . . . .) .

زينب: يارب كن معهم . . احم الشباب يا رب . . . كن مع ربيع واحمه ، وأغلق عيونهم عنه . . . بحق هذه الليلة المباركة . . . ربيع يا صاحب القلب الذي يشبه الربيع . . . آه لو كنت هنا ، لرأيت بعينيك ما حلّ بزينب . . زينب التي كبرت وعاشت تجربة الشقاء المريرة . . . زينب التي تعلم التلاميذَ التاريخَ والشجاعةَ،والتي يقول عنها الناس إنها أصلب من حجر الصوآن . . . لو ترى كيف يسيطر الرعب على كل خليه من جسدها!خائفة عليك وليس الأمـر بيدي . . كل ساعـة تمر كأنها دهر كامل . . الخوف يحاصر قلبي . . . يعتصره . . يدميه . . سكـين حادة تقص لحمي . . والليل طويل . . أطـول ليلة في الدنيا . . . خبر

منك . . خبر عنك يزيح عذاب الروح ووجع القلب . . . . .
(تعـود إلى الجاروشة وتطحن بهمة . . لحظات . . تتوقف وكأنها سمعت صوتا . . تركض بلهفة وتغيب لحظة . . تعود يسبقها جميل وقد بدا عليه بعض الاضطراب .)

جميل: مساء الخير يا زينب . .
زينب: يسعد مساك يا جميل .
جميل: (ينظر إلى أجواء البيت بقلق) ما الذي دعاك للخروج من بيت عمي أبو حامد؟
زينب: كنت . . . .
جميل: الوقت بعد منتصف الليل يا ابنة العم . . والبلد مقلوبة وانت تعرفين .
زينب: اشتقت لدارنا يا جميل . .
جميل: ولكنـك تأتـين الى هنـا كل يوم . . ألا يكفي أنك تدرسين الأولاد هنا . . وتعملين على الجاروشة نهارا . . وتريدين أن تقضي الليل هنا أيضاً؟
زينب: أنا أحن الى دارنا يا جميل في النهار وفي الليل وفي كل لحظة .
جميل: يا بنت الحلال . . إنها لا تبعد عن دار عمي أبو حامد الا حائطين فقط . . أنا خائف عليك يا ابنة العم . . اخاف ان يشكوا بك ويبدأوا بمراقبتك . . لأن صوت الجاروشة في هذا الوقت من الليل مسموع من أول الشارع .
زينب: أهذا ما أتى بك؟
جميل: نعم وزعت الخبز والبرغل على قسم من الأهالي ، ثم وأنا عائد سمعت صوت الجاروشة ، فنخزني قلبي ، قلت أدخل لأطمئن عليك وأطمئنَك . . . مالك يا زينب . . . أنت قلقة ولونك شاحب .
زينب: لا . . أبدا . . . ولكن الليل طويل . . وهذه ليلة عيدنا الثاني . . لم أستطع النوم تركت بنات عمي نائـمات وأتيت . . لاحتفـل بالعيد في بيت أبي . . ثم قلت لنفسي ، أطحن القمح وأجهزة من الآن . . فقد ننشغل في الصباح بعمل آخر .
جميل: معك حق . . قد لا نستطيع أن نتحرك من البيوت نهارا . . لأن اولاد الميتة سينتشرون في الصباح كالجراد ليطوقوا حادثة البارحة . . فما رأيك أن أوزع البرغل الآن على باقي الأهالي؟
زينب: كل شيء جاهز في الكيس . . وسأطحن الآن رطلين من القمح لعائلة عبد الواحد .
جميل: (يزفر) إيه مسكين عبد الواحد . . لقد هشموا كل جزء في بدنه . . واحد اكتافه مكسور .
زينب: ألم يعالجه الدكتور حسان؟
جميل: لقد منعوا الدكتور حسان من زيارة أي واحد من الثلاثة الذين عاقبوهم صباح أمس إلاّ بعد القاء القبض على من فجروا الثكنة .
زينب: وهل عرفوا من هم؟
جميل: لا طبعا ، أنت تعرفين كيف يتحرك هؤلاء الشباب ، الجن الأزرق لا يعرف طريقهم

ولكنني سمعت من شبابنا أن الذي جرح منهم...

زينب: (تشهق خفيفا وتضع يدها على فمها)

جميل: مالك يا زينب، هل أنت متضايقة من شيء؟

زينب: مَن الذي جرح يا جميل؟

جميل: محمود أبو حجل... ولكن لا تخافي عليه،مثل العَفريت.. لقد فجروا الثكنة بما فيها من سلاح وذخيرة وجرحوا منهم ثمانية كلاب وَسَّخوا بدمائهم أرض العيسوية الطاهرة... وحين استيقظ الباقون طاردوهم فأصابوا محمود أبو حجل... في البداية سقط وسال دمه الزكي لكن ربيع بن الحاج عثمان (زينب تشهق) شدّه على كتفه وطار به واختفى كالجن.

زينب: (لا تستطيع أن تخفي فرحها) يارب أسألك أن تحميه وأن تعمي عيونهم عنه

جميل: من فمك لباب السماء... آخ يا عيسوية آخ... أكثر من مئة وخمسين كلبا من عساكرهم موزعين في أنحاء البلدة... ووجهوا دوريات باتجاه المكبر والمنطار وأغلقوا مداخل ومخارج الضواحي الأخرى.

زينب: هذا يعني أن الشباب مازالوا في العيسوية.

جميل: أكيد... والميجر باروخ ابن حرام مصفى، ولن يسمح لنملة أن تغادر العيسوية... خبيث ويعرف البلد جيدا، وسينتقم بشكل أفظع مما فعله أمس.

زينب: الميجر باروخ.... رأيته ثلاث مرات خلال العشرين يوما الماضية.. أول مرة عندما جاء ليغلق المدرسة ومنعنا من تدريس الطلاب... والثانية عندما فرقوا الناس ونحن عائدون من المقبرة بعد أن دفنا عمران بن أبو علي... والمرة الثالثة وأنا في المستوصف أساعد الممرضات، جاء ومعه ثلّة من العسكر وأخذوا ثلاث شباب من تحت أيدينا.

جميل: لابد من عقاب هذا السفاح

زينب: وفي كل مرة كان يحدق بي طويلا، فيرتجف قلبي من نظرة عينيه اللتين تشبهان عيني الذئب الجائع

جميل: تخافين منه يا زينب؟

زينب: لم أستطع النظر في وجهه، ولم أستطع تفسير مشاعري في تلك اللحظة، أهو الخوف، أم الكره والحقد.

جميل: عَرَفوا من يُرسلون إلى العيسوية... ثعلب مكّار، لا يترك أحدا من شرّه، ولكن وحياة عينيك يا ابنة العم لن يقيموا فيها كثيرا طالما نحن على قيد الحياة ونتنفس الهواء.

زينب: ولكن العيسوية جائعة، عشرون يوما لم يدخل الى البلد لا ماء ولا كاز ولا خضار ولا طحين... والكهرباء والهواتف مقطوعة لا خبر ولا صورة ولا جريدة، لا نستطيع الوصول الى أحد ولا أحد يستطيع الوصول إلينا.

جميل: ربنا كبير... والقمح الذي بحوزتنا يكفي البلد لاكثر من عشرة أيام أخرى وهناك أربعة

بيوت حفرنا في كل بيت منها بئرا.....

والبركة في هاتين اليدين، وهذه الجاروشة التي تطعم العيسوية.... لا تخافي يازينب، الشباب حسبوا لكل شيء حسابه.... المهم.... شدّي عزمك وقوي قلبك ويديك... وقبل انتهاء القمح الذي بحوزتك أخبريني لأجلب لك كمية جديدة....

زينب: لم يبق لدي إلاّ نصيب عائلة عبد الواحد.

جميل: إذن دعيني أخطف قدمي وأذهب لأجلبَ لك كيساً جديداً.

زينب: توكل على الله... وانتبه لنفسك.....

جميل: لا تخافي على جميل.. هذه العيسوية التي أعرفها شبرا شبرا.

(يتحرك ولكنه يعود مترددا)

كنت... أريد أن أقول.... أقصد.......

زينب: قل يا جميل.

جميل: كنت أود أن أقول... بعدين.. ياالله إلى اللقاء (يخرج)

(تتبعه زينب وتتفقد بعض النوافذ قلقة ثم تعود إلى الجاروشة وتطحن)

(يبرز أيوب من زاويته ويروي للمشاهدين)

أيوب: صار اسم البلد معروفا... العيسوية، قرية صغيرة بجانب القدس، كفرخ الحمام الذي يستدفىء بجناح أمه.... وستعرفون عنها الشيء الكثير بعد قليل أما الآن وإلى أن يعود جميل بكيس القمح، دعوني أخبركُم بما فعله الميجر باروخ صباح أمس وبعد أن عجز عن صيد واحد من ديوك الحجل الذين فجروا الثكنة على رؤوس من فيها.....

عرف الميجر باروخ أن عساكره استطاعوا أن يصيبوا أحدهم بجرح...

فجمعوا الناس بمكبرات الصوت... من سن السابعة إلى سن السبعين.. وفي نفس الوقت، وجهوا دوريات لتمشيط بيوت العيسوية، وبدأوا يفتشون في الناس عن جرح، جرح واحد كان كفيلا بأن يهدم العيسوية على رؤوس ساكنيها،مزقوا ملابس الناس... الحطات،، الجواكيت.. القمصان والبنطلونات.. ولم يجدوا شيئا... وعادت الدوريات بخفي حنين... طار صوابهم من شدة الغيظ،نظر واحد من رجال الميجر إلى الناس وقال: إسمع أنت هناك.. لماذا تأخرت؟ دهش الرجل لهذه التهمة المباغتة: «أنا صافف بالدور من دغشة الصبح يا خواجة»..،،لا.. أنت تأخرت عن الموعد الذي حددناه ثلاث دقائق.،،،.... «أما شغله صحيح تريد أن تتبلاني يا خواجه، بقولك أنا هنا من الصبح، ومن أربع ساعات فتشتوني ولم تجدوا شيئاً في بدني.

الميجر باروخ طار ظبان عقله... وصرخ من قحف رأسه.. أيها الحيوان كيف تجرؤ على تكذيب واحد من رجالنا... أنت متأخر ثلاث دقائق يعني أنت متأخر.. وأنت هناك، أنت أيضاً تأخرت ثلاث دقائق، وأنت أيضاً.. أنتم الثلاثة.....

وهـذه الدقائق الثلاث مشكوك بأمرها . . . أين أمضيتم هذه الدقائق؟ أين كنتم؟ وماذا فعلتم؟ ولأي شيء كنتم تخططون؟ . . .

غلط عبد الواحد وقال: وافرض يا خواجه ميجر باروخ أننا تأخرنا، ماذا يمكن أم نفعل في ثلاث دقائق؟ . .

أجابه باروخ بخبث: اسأل نفسك.

فرد عبد الواحد: سألت حالي ولم أجد الجواب.

عندي . . . رد باروخ: الجواب عندي، وسأبرهن لكم على ذلك، سأريكم ما الذي يمكن أن أفعله خلال ثلاث دقائق هيا اضبطوا الساعات . . .

: وانتم أيها الجنود، افتحوا نيران رشاشاتكم على كل من تصدر منه أية حركة هيا . . . .

في الدقيقة الأولى ربطوا عبد الواحد في اللاندروفر وشحطوه خلفه إلى أن هشموا عظامه ومزعوا لحمه.

وفي الدقيقة الثانية، رموا خلدون ارضا، خلدون ابن السبعة عشر عاما ومرّوا اللاندروفر من فوق رجليه الاثنتين.

وفي الدقيقة الثالثة، حشروا سلمان وشدوا وجهه امام العادم وأداروا محرك اللاندروفر وداسوا على البنزين فحرقوا وجهه.

وصرخ الميجر: ارأيتم ماذا يمكن أن يحدث خلال ثلاث دقائق . . ؟ عندما تتحسن أحوالكم أريد إجابة واضحة . . . أتفهمون، إجابة واضحة . . . وعاشت العيسوية أصعب ليلة يمكن أن تعيشهـا قرية صغـيرة محاصرة ومقطوعة عن العالم، يلفها الصمت وتحيط بها التوجسات المرعبة . . . ولا أحد يدري ما الذي يخطط له الميجر . . .

كانت مصلوبة فوق حزمة من الديناميت . . . قلقة، يذبحها البرد والتوتر، والقهر يأكل قلوب الناس . . .

والعالم من حولها يغط في النوم ويستحمّ في أحلامه الوردية . . .

وأنا الصاحي الوحيد في دنيا النيام، أصرخ وأقول: [يغني بلهجته الشعبية]

، ، يا عيسوية يا مْباركة بْإسْمِكْ . . . يَاأمّ القَلْبْ لِخْظَرْ
يا مَقْدِسِيّةْ شامْخة بْوجِهْ العِدا واللّيلْ والعَسْكَرْ
مَهما الحْصار يْطولْ . لأبُدّ بابِكْ يِنْفَتَحْ وِتشرّعِي الشُّباكْ لِسُكَّرْ
وِإنْ كانَتِ الدّنْيا بْقَفَلْ عَنْكْ .
أيوبْ صاحيلِكْ حَلَفْ ما يْنامْ، حَلَفْ يَصْرَخْ بأعلى صوتْ
لَطَّرشانْ يِسْمَعْ وِالنّسْيانْ يِتْذَكَّرْ [ويعود لركنه يراقب مايجري]

(يدخل جميل مسرعا وهو يحمل كيسا متوسط الحجم)

جميل: خذي يا زينب.

زينب: الله يعطيك العافية.

جميل: هل طحنت برغلات عبد الواحد؟

زينب: كل شيء جاهز، وهذه حصة الحارة الثانية، خذ

(تناوله الاكياس يمد يديه الاثنتين فتتلامس أيديهما يتوقف لحظات)

جميل: زينب

زينب: نعم يا جميل . . مالك يا ابن عمي.

جميل: كنت اريد أن أقول، لو أنهم لم يحاصروا العيسوية، ولم يقطعوها عن العالم كنت . . . ناوياً أن . . .

زينب: ناوياً على ماذا يا جميل؟

جميل: على أن أخطبك من عمي أبو حامد.

(يرتجف قلبها لسماع الخبر)

وأن يكون عرسنا في هذه الليلة، ليلةَ عيدنا الثاني يا ابنة العم

زينب: (كالملدوغة ولكنها تضبط أعصابها ولسانها)

ليس الوقت ملائما لمثل هذا الكلام يا جميل.

جميل: أنا أعرف أن الوقت غير مناسب، لكنك ترين ما يحدث، وقد يطول الأمر ونحن كبرنا يا زينب . . . وكبر الهم والخوف.

زينب: الخوف؟

جميل: الخوف من الموت الذي يأتي على غفلة منا . . . يعني لا يستطيع الإنسان أن يضمن عمره.

زينب: اسكت يا جميل، لا تذكر سيرة الموت.

جميل: والليل في العيسوية صار أطول بكثير من النهار، وقلبي لم يعد يحتمل

زينب: اسكت يا جميل

جميل: وَالمثل يقول: «إلزَّلِه بَلاَ مَرَه خاتِمْ بلا جوهَرَه»

زينب: لا تعذبني أرجوك

جميل: «والمَرَه بَلاَ رِجَّالْ، مِثِلْ بِسْتانْ بَلاَ سْياجْ»

(زينب تتألم دون أن يحس بها جميل)

لا يجب أن ندع الفرصة تضيع من بين إيدينا

زينب: اسكت يا جميل ولا تزد.

جميل: كما ترغبين، ولكن إذا انفكَّ الطوقُ وخرجوا من البلد بعد أسبوع سنتوكل على الله ونكسب الوقت.

زينب: (تتأوه) آه يا وجع القلب

جميل: الفرصة تأتي مرة واحدة يا ابنة العم . . . تنفتح بلحظة مثل أبواب السماء ثم تذهب دون أن

تنتظر احدا.

زينب: لا تحرق قلبي أكثر من هذا

جميل: زينب..

زينب: طقت روحي يا جميل.

جميل: (ينتبه إلى انها قد أصبحت على مشارف الانهيار)

مالك يا زينب، ماذا حدث لك يا ابنة العم؟

(دق خفيف على الباب... تفيق زينب من غيبوبة ألمها الممض وتنهض مسرعة وتركض باتجاه الباب ولكنها تتوقف بغتة.. وهي ترتجف...)

(يدق الباب خفيفا ولكنه ملح).. (زينب تكاد تخرج روحها)

جميل: من الذي يعرف أنك هنا في هذا الوقت المتأخر؟

(يدق الباب خفيفا)

أهناك من يعرف أن هذه الدار مسكونة؟

زينب: (وقد فاض بها) ناشدتك الله أن تفتح قبل أن يتوقف قلبي.

(جميل يتحرك وهو في أقصى حالات الحيرة.... يغيب. فتركض زينب بعنف نحو الفستان وتحتضنه بشده وتغيب في صلاة مبهمة..

يعود جميل وهو يحمل ورقة في مظروف.. ينظر إلى زينب التي تفتح عينيها بترقب شديد...)

جميل: ولد صغير ملثم... لم أستطع أن أرى وجهه.. سلمني هذه الرسالة وغاب في العتمة كالشبح.

زينب: ألم يقل من هو؟

جميل: قال كلمتين فقط: هذه لزينب... (تباغته الفكرة)

من الذي يعرف أنكِ هنا الليلة؟

زينب: (تمد يدها المرتجفة وتأخذ الرسالة ببطء)

يجوز أنها من إحدى صاحباتي المعلمات.... قرّب الفانوس يا جميل

(جميل يمتثل، ولكنه مازال في حيرة.. يجلب الفانوس ويضعه بجانبها)

جميل: طيب.. أنا استأذن بالانصراف.

زينب: ستذهب؟

جميل: أتريدين شيئا؟

زينب: لا.. لا تؤاخذني يا ابن عمي.. بعض قلق ويزول...

جميل: إنشاء الله....

(تعود مسرعة وتفض الرسالة على ضوء الفانوس وتقرأ...)

زينب:

يا مهجة قلبي يا ربيع.... (تقرأ) إلى أين تأخذ عمري وتمضي؟ (تقرأ) الحمد لله... (تقرأ) لكن كيف؟ كيف يا ربي؟.... (تخفي الرسالة وتبدأ بجمع بعض الأشياء وتصرها وتقف حائرة...)

كيف يا ربي؟... ماذا أفعل؟

(تتجه نحو الباب وتنادي بتردد)

جميل.... جميل...

(يدخل جميل)

جميل: لم أعجل في الذهاب، كنت أحس أنك بحاجة إلى شيء..

زينب: جميل..

جميل: قولي ماذا تريدين؟

زينب: أريد أن أتحدث معك يا ابن عمي.

جميل: وأنا أستمع إليك (يقولها بشيء من الفرح الداخلي)

زينب: ماذا أنت بالنسبة لي؟

جميل: وتسألين يا زينب؟ لقد كنت أتحدث قبل قليل، وأنت أوقفتني عن الحديث

زينب: أريد أن أعرف الآن

جميل: قبل كل شيء أنت ابنة عمي.. وأنت أيضاً رفيقة الشقاء والشغل.. وفوق كل هذا أنتِ....

زينب: تقول هذا من قلبك؟

جميل: أتشكين بكلامي يا زينب.؟

زينب: يعني لو انتخيتُك، تلبي.؟

جميل: باطل يا بنت العم... على روحي..

زينب: وتحب أن أبقى على قيد الحياة.؟

جميل: وأدفع روحي وعمري كله لتظلي حيّة.

زينب: حياتي هناك.. هناك يا جميل...

جميل: هناك؟ لا أفهم ما تقصدين.؟

زينب: نسمة الهواء التي تساعدني على العيش هناك، عند الجامع.

جميل: عند الجامع... أنا لا أفهم شيئا، ولكّن دمي لك يا ابنة العم.

زينب: خذ اذن واقرأ....

جميل: (محرجا) تعلمين أنني لا أعرف القراءة..

زينب: لا تؤاخذني يا ابن العم.. نسيت.. لعن الله الشيطان.. على كل حال... هذه

الورقة . . . .

جميل: قلتِ إنها من إحدى المعلمات. . ما بها. . إن كانت تحتاج إلى مساعدة فأنا على أتم استعداد.

زينب: كنت أعتقد هذا، ولكنها من أناس آخرين.

جميل: ممن. . اقرأيها يا زينب

زينب: يعني لو قرأتها، هل أضمن أنك ستفهمها جيدا يا جميل؟

جميل: صحيح أنني لا اقرأ ولا أكتب، ولكنني أسمع وافهم ما أسمعه جيداً. .

زينب: أنا أقصد أن تفهمها بعقلك وبوعيك وبروحك.

جميل: إقرأي.

(زينب تفتح الرسالة. . فيظهر وجه ربيع تحت انارة خاصة محددة وتقرأ بصوته)

ربيع: حبيبة قلبي زينب.

(جميل يرتجف وتصدر عنه أنةُ مفاجئة)

جميل: ما هذا الذي أسمع؟

زينب: الم نتفق أن نسمعها ونفهمها بالعقل.

جميل: أي عقل؟!. . أي عقل؟ (يتماسك بصعوبة بالغة) أكملي. .

ربيع: سأحاول أن أخرج من العيسوية بعد ساعتين من الآن. . . وساتوجه نحو الجبال، محمود بخير. . . جرحه بسيط. . ويستطيع أن يمشي بسهولة، والبركة في الأولاد والدكتور حسان. . . أنا بحاجة إلى بعض الأغراض. . . وسأذيلها بالرسالة كما احتاج إلى شخص تثقين به جيدا، كي يوصل لي هذه الاشياء. . أنا موجود في زاوية الجامع الخلفية. . . وهي مكان لا يلتفت إليه أحد. . أرجوك. . . لا تحاولي أن تريني، لأن معلوماتنا تؤكد أن الميجر باروخ يراقبك جيدا ومنذ مدة. . . انتبهي لنفسك. . .

كلمة السر. . . جبينة. . . حبيبك المخلص إلى الأبد ربيع. . . .

(خلال قراءة الرسالة نرى تمزق جميل البادي الوضوح. . . يخطف الرسالة من يدها ويشدها من معصميها ويرفعها نحوه بقوة)

جميل: كيف قطعت عليّ أجمل حلم عشته في حياتي. . أنا الذي أحببتك أكثر من أي شيء على وجه الأرض.

زينب: لم تعطني الفرصة يا ابن عمي. .

جميل: عن أي فرصة تتحدثين؟ أنسيت أنك ابنة عمي، دمي ولحمي، وأنا أولى الناس بك. . أنسيت المثل الذي يقول: «إبْن العَمّ إذا ما شال كَرَمْ بِشيل زَرَمْ؟»

زينب: (تتأوه متوجعه لصعوبة مواجهة هذه العقلية)

جميل: بنيت أحلامي وحياتي وسعادتي لحظة بلحظة ويوما بيوم وليلة بليلة والآن. . . . ورقة صغيرة

تدمر كل شيء. . وتزعمين أنها من إحدى صاحباتك.

زينب: أنا لم أخنك يا ابن عمي. . ولم ارتكب في حقك أي خطأ على الاطلاق. . وأمثالنا تقول أيضا: «الأصيله ما بيعيبها جْلالها، وَعَ الشروشْ مَنْبتِ الشَجَرْ»

جميل: صحيح [بألم بالغ] ولكنك

قطعت الماء عن شجرة عمري. . . [ويغيب مع حلمه الأليم]

كنت أحلم أن نُحمَّلَ على ظهور الخيول الأصيلة، ونُزَف إلى دارنا أنا وأنت. . . الدار التي حلمت بها طوال عمري. . . دار مسيجة بالريحان والمنثور والحبق.

زينب: ارحمني يا جميل وارحم نفسك

جميل: وبعد أربع أو خمس سنوات يرزقنا الله ولدين وبنت. . . . البكر بدر، وجميل الصغير، وزينب الصغيرة جوهرة العقد. .

زينب: جميل لا تضّيع نفسك وتضيعني معك.

جميل: وفي الصباح نتحلق نحن الخمسة مثل ظمة ورد جوري. . . ونغمسّ التمر بزيت الزيتون الصافي مع خبز الطابون. . . .

زينب: اصْحُ يا جميل. . . أتوسل اليك أن تكف عن هذا الحديث الآن (تهزه بعنف)

جميل: كيف استطعتِ ان تدمري كل شيء. . . ؟

زينب: أنا لم أدمر شيئا، ولكنك تطالبني بشيء تعتقد أنه من حقك. . . وأنا لا أستطيع منحك إياه. .

جميل: أهذا كلام يصدر عن واحدة متعلمة وتفهم أن ابن العم يأخذ ابنة عمه من الجلوة، ؟ يطيحها عن ظهر الفرس. . .

زينب: لأني تعلمت وفهمت الحياة، عرفت أن هذا القانون القَبَليّ لا يمكن تطبيقهُ إلاّ في الغاب ونحن لسنا حيوانات ولا نعيش في الغابة. . . نحن بشر. . . أتفهم يا جميل؟. . . بشر ومن حقنا أن نختار كيف نعيش ومع من نعيش. [صمت].

جميل: وفضلتِ عليّ ربيعاً بن الحاج عثمان، لأنه درس وتعلمّ.

زينب: (هامسة بعذاب). لا . . . .

جميل: فضلته عليّ أنا الفلاح الذي لم تتح له فرصة ان يتعلم القراءة والكتابة و.

زينب: لا تكمل يا جميل. . . إنك تدمي قلبي بهذا الحديث. . . أنا لم أفضل أحداً على أحد، هو شيء وأنت شيء آخر. . . أنت ابن عمي، الفلاح الذي عشنا وأكلنا من عرقه وشقوق يديه. . . أنت نسغ الحياة بالنسبة لنا جميعا، من دونك لا يكون لحياتنا معنى ولا قيمة. . . أنت ربيب الأرض وحبيبها الذي يحنو عليها فتعطيه ليعطينا. . ويفجر ماءها ليسقينا. . . ما نفع حياتي أنا وربيع إذا لم تكن أنت موجودا ؟

جميل: وتعملين معه من زمان دون أن أعرف وأنا أقرب الناس إليك.

زينب: نعم.أعمل معه من زمان... منذ أن حفرت في ذاكرتي صورة أمي وهي تسقط على الأرض مضرجة بدمائها، في باب الخليل... في السبعة وستين.. وصورة ابي الذي ساقوه أمامهم بعد أن حطموا عظامه بأعقاب بنادقهم.. وضاع في سجونهم إلى أن عاد إلينا ميتاً... وكنت لم أبلغ بعد العاشرة من عمري... ومن يومها وأنا أفكر مع ربيع بالكيفية التي تمكننا من استئصال الداء الذي استفحل في بلادنا.. وهذا أمر يشرفني ويشرفك يا جميل.....

جميل: وتحبينه... وأنا الذي كنت أعتقد أنني...

زينب: جميل ناشدتك الله ان أن تتوقف عن الكلام الآن.. اذبحني إذا أردت... افعل بي ما شئت... المهم الآن أن نوصل لربيع ما طلبه.

جميل: وما فائدة كل شيء بعد أن ضاع أملي.. بعد أن قتلت فيّ أعز ما أملك..

زينب: الحياة ما تزال أمامنا يا ابن العم.. المهم الآن أن تذهب وتوصل له الأغراض

جميل: وتريدين أن أذهب اليه بنفسي.. (صمت محموم)

زينب: كما تريد... أنا سأذهب... (تتحرك)

جميل: (صارخاً)

لأ.... لن تخرجي من البيت في هذا الليل.. والصهاينة يجولون من مكان لآخر لن تخرجي..

زينب: أموت إذا لم تصله هذه الأشياء. [لحظات صمت مريرة]

جميل: لا تتحدثي عن الموت.. أنا سأذهب وأحمل الأغراض لحبيبك..

زينب: نعم حبيبي يا جميل.. ولست خجلة من الاعتراف بهذا الأمر أمامك..

جميل: لست خجلة!!

زينب: لأنك حبيبي أيضا..

جميل: أنا؟

زينب: نعم يا جميل... أنت ابن عمي... يعني حبيبي... وأنت أخي...يعني حبيبي...أنت أهلي وأقاربي والدم الذي يجري في عروقي.... يعني حبيبي..

أما ربيع فهو حقيقتي المرة والحلوة...حريتي التي أحلم بها ليل نهار... أنا واثقة أنك ستفهم هذا جيدا، نحن لسنا صغارا... وبيننا تجربة عمر بأكمله... وأنت الوحيد الذي أثق به بعد الله...

جميل: (بعد صمت)

هاتي الصرة..

زينب: حفظك الله تاجا فوق رأسي يا ابن عمي (تعطيه الصرّة)

(يتحرك جميل) انتظر... خذ (تعطيه شالها) أعطه له..

(يأخذه جميل بكثير من العذاب) انتبه لنفسك... وابتعد عن العسكر... وافتح عينيك جيدا...

جميل: سأوزع الأشياء على الناس، ثم أذهب اليه.

زينب: أشياؤه أولا، الناس في العيسوية يستطيعون الانتظار ساعتين... اما بالنسبة لربيع فان كل دقيقة تمر فيها موته وموتنا....

(يتحرك جميل مهموما ولا تزال أمارات الغضب مرتسمة على وجهه...)

زينب: جميل... قل له... جبينه تنتظر عودتك... المياه جفت والروح عطشى، والعيسوية، كل العيسوية في انتظاركم...

ولا تنسى أن تعود لتطمئنني....

(يخرج جميل مسرعا وقد غلبه البكاء...)

(تركض زينب إلى الكيس الذي أحضره جميل. وتبدأ في الجرش المحموم من جديد..... تتوقف...)

زينب: كم من الهموم ستحتملين يازينب؟ كيف يمكن أن تحافظي على حصانة روحك أمام كل هذه الضربات الموجعة؟

آه يا زينب. أشعر أن روحي مزعزعة.. والقلب تكتنفه الهواجس... من لي غيرك يدفىء قلبي ويحفظ روحي ويصونها من التلف.

(يبرز ربيع من العمق... متشحاً بشال زينب.. يرتعش جسدها وقد طغى عليها شعور مباغت بالنشوة)

زينب: أي ريح طيبة تتسلل إلى بدني؟ وأي ندى يرطب قلبي كلما أوشك الجفاف أن يأكله؟ أهو أنت؟

ربيع: نعم،أنا دائما...

زينب: دائما تكبلني بحضورك الطاغي..

ربيع: لأمكنك من القضاء على الخوف الذي يداهم روحك النقية وقلبك الناصع..

زينب: ولكن كيف تروح... وكيف تجيء...؟

ربيع: أروح عندما أطمئن إلى صلابة عزيمتك.. وأجيء حين أشعر أن روحك تتوق إلى جرعة من روحي....

زينب: يا الله... كم أتمنى أن أراك أمامي.. أن ألفعك برموش عيني، وأخبئك في سويداء قلبي إلى يوم القيامة...

ربيع: تخافين عليّ إلى هذا الحد؟

زينب: وماذا سيتبقى مني إذا حدث لك شيء؟

ربيع : مصيري كله متوقف على قوة قلبك ورسوخه . . . وأنا مطمئن إلى هذا.
(تضحك زينب بنشوة . . . وتجرش قليلا . . . وكأن حلمها قد انتهى . . يقترب ربيع)

ربيع : زينب

زينب: نعمين

ربيع : تغيرتِ

زينب: أنا؟

ربيع : وكبرتِ

زينب: (تتحسس وجهها وجسدها بحكرة غريزية) صحيح؟ معقول؟ كثير؟

ربيع : قليلا . . . لكنك لا تزالين كالطفلة الصغيرة التي تضع إصبعها في فمها . . ولا تسمع كلام أمها . .

زينب: (تضحك بوله شديد)

ربيع : عندما تضحكين، أحس بأن العالم سعيد ويضحك . . . أتعرفين يا زينب؟ في بلادنا يجب أن يعيش الجميع بقلب مفتوح . . مفتوح إلى أبعد حد، كالسهل المنبسط الذي يسرح فيه الخيّال . .

زينب: لكن هناك أشياء مازالت تقلقني

ربيع : الذي يحدث في بلادنا، يجب أن يغير فينا أمورا كثيرة . . وأولها قلوبنا،إذ كيف يمكن للإنسان أن يعيش دون قلب مفتوح،مشرع للهواء والشموس وحب الناس؟

زينب: ينبغي أن يفهم الجميع هذه الحقيقة .

ربيع : أنا واثق أنهم سيفهمون، إن لم يكن اليوم فغدا . .

زينب: ولكن الطريق طويل .

ربيع : الذين سلكوه قبلنا عبدّوا لنا جزءاً منه . . وها نحن كبرنا وسرنا عليه لنمهد جزءاً جديداً لأولادنا الذين يكبرون ويشتد عودهم يوما إثر يوم . . .

زينب: لكنهم تركوا لنا هما أكبر . .

ربيع : حين يكبر الهم . . . يصبح الحلم على مشارف الحقيقة . . وأحلامنا صغيرة كباقي البشر . . . وليست عصية على التحقيق . . .

زينب: وهل تحتاج إلى كل هذا الثمن الفادح؟

ربيع : لأنها ترتبط بالحرية، والحرية تحتاج إلى أكثر من ذلك . . ولكي تكون أرضنا لنا، حملنا النار على أكتافنا. ونحن نعلم أنها ستحرق جلودنا . . . دون نار تظل الأرض نهباً ومرتعاً للعقارب السامة، ولا شيء يخيفها ويقتلها ويطردها غير النار . . .

زينب: . . . . أليس فظيعاً أن يولد الإنسان في الشقاء،ويعيش في الشقاء،ويترعرع ويكبر فيه؟

ربيع : فظيع بطبيعة الحال . . ولكي لا تستمرَ هذه الفظاعة، لابد أن نمشيَ المشاويرَ الطويلة وأن

نتحمل البرد الذي يتسلل إلى البدن كالحية العمياء . . . . وأن ندوس على الشوك . . . لابد من اجتياز الظلام كي نصل إلى نهار أبيض مثل ثوبك . . ونرجّعَ أفراحنا المسروقة .

زينب: (تتعامل مع الثوب . . . . وقد انتشت روحها بحديثه وتلتحم هي وربيع والثوب في حالة حلمية استثنائية . . . .)

ربيع : وسيأتي اليوم الذي أحملك فيه بين يدي وأطير بك في سماوات العالم، إلى كل بلاد الدنيا، ونوزع الحب والعسل وعناقيد الخبز لكل الناس . .

زينب: متى سيأتي هذا اليوم؟

ربيع : ليس بعيداً، أراه مقبلا كالمهر المحجل، اليوم الذي حكى عنه عمران، الفلاح الطيب، حبيب الأرض، كان قلبه كبيرا وواسعاً بحجم الهم الذي نحمله على أكتافنا . . . لفعناه بلحمه المحروق . . وحنينا أيدينا بدمه، دمه الذي صار عطرا، حملته نسائم الفجر وطارت به إلى رؤوس جبالنا، ونثرته في بطن السهول وعلى السفوح والصيافير، وكحلت به غصون الشجر وأجنحة العصافير . . كل شيء على أرضنا أخذ من دمه شمة عطر، وحين عدنا كانت العيسوية كلها مضمخة بعطر دمه . .
سيأتي هذا اليوم . . . . وندخل إلى جنتنا من أوسع أبوابها

زينب: (كأنها تغفو على كتف ربيع والثوب يغطيهما معا . .)

ربيع : وسيضيق الافق بفرحك . . ويرقص العالم طربا لجمالك الخلّاب . . . هذا ليس حلما مستحيلاً . . . هذا الحلم تحقق في بلاد كثيرة، وأنا متأكد من أنه سيعم كُلَّ الارض وسنتنفس بحرية لا حدود لها . . . وحين تصير حريتنا بين أيدينا،ينبغي أن نوزع الفائض منها على كل الناس الذين يشبهوننا، ولن نسمح لأعداء الإنسانية أن يسرقوا فرحنا ثانية .

زينب: (كالنائمة) أمتأكد أنت مما تقول؟

ربيع : المؤكد عندي كوجودي معك الآن، هو أني سأظل أدافع عنك وعن العيسوية وعن كل أرضنا،من أول نقطة ماء في بحرها،إلى آخر غيمة في سمائها . . . حتى يتحقق الحلم أو أموت . . .
(زينب تشهق)
وأذوب في التراب،لأولد من جديد تينا وزيتونا، وأتوزع في الهواء الذي تتنفسينه ليل نهار.

زينب: (تصحو من غفوتها فينزلق الثوب ويغطي الجاروشة . . .)

ربيع : وإذا تحررت العيسوية وأنا على قيد الحياة . . أعدك بشرف كفاحنا معا أن يكون مهرك أول موسم قمح،وبلادنا تنعم بالحرية.

زينب: لن تموت ما دمتُ أنا حيّة.

ربيع : ما دمتِ صلبةً وشامخة العزيمة . . . . فلن أخاف من شيء.

زينب: سأجاهد كي أكون كذلك.

ربيع : بل يجب أن تكوني . . . لانني أعيش وأتحرك وأحلم وأقاتل بأنفاسك يازينب

زينب: سأحبس أنفاسي في رئتيكَ أنتَ. . . ولن أفرط بنفس واحد، اذا كان هذا النفس يمد في عمرك . . . ولو للحظة. . . .

ربيع: هذه زينب التي أعرفها.

زينب: ولن أخاف.

ربيع: ولا تخافي (ينسل ربيع من حلمها)

زينب: امكث قليلا، فالوقت مازال مبكرا. . .

ربيع: (بصوته البعيد الهامس) ولا تخافي. . . .

زينب: (تدور في أرجاء المكان) . . . مازال الوقت مبكرا. . . .

(يباغتها الميجر باروخ. . . الذي اخترق المكان خلسة)

الميجر: بالفعل مازال الوقت مبكرا، مع أن الساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. . . .

(تتسمر زينب في مكانها وقد تحجرت عيناها وبدأت واقعاً جديداً، الميجر باروخ يمسح المكان بعينية الذئبيتين، حيث تستقران أخيراً على زينب يحدق فيها للحظات. . . . إنه يتصنع الأدب والدبلوماسية والذوق الرفيع)

الميجر: لم أكن أتوقع أن تمدي لي بساطا أحمر ترحيبا بمقدمي. .

ولكن المثير للدهشة أن لا أرى علائم الخوف تغزو قسمات هذا الوجه الصخري

زينب: وممَ أخاف؟

الميجر: ربما تعتبرين دخولي بهذه الطريقة المباغتة شكلا من أشكال الاقتحام.

زينب: قلتها بلسانك.

الميجر: فلابد أن يترك أثراً في النفس، إن لم يكن الخوف فالاستغراب على الأقل.

زينب: لا يا ميجر. . . أنت محتل. . والمحتل لا يدق أبواب الناس ولا يطلب الإذن. . المحتل يكسر الأبواب ويقتحم. . وما دامت هذه طبيعتك، فلم تريدني أن أخاف أو أستغرب. . . .

الميجر: كنت تتوقعين مجيئي. . . ويبدو أنك تعرفين من أكون. .

زينب: أعرفك جيداً.

الميجر: مع أنكِ لم تريني إلاّ مرتين أو ثلاثاً، ودون أن أتشرف بمتعة الحديث معكِ.

زينب: ولكنني أعرفكَ من زمان يا ميجر.

الميجر: أفهمكِ تماما، وهذا يزيد من غبطتي، فمعرفة الواحد منا بالآخر، وخاصة إذا كانت هذه المعرفة من النوع المزمن، فإنها تسهم بشكل ديناميكي في تقريب المسافة والتعجيل في الوصول إلى صيغة من التفاهم الودّي فيما بيننا.

زينب: أهكذا تعتقد؟

الميجر: بالضبط وهذا ما دفعني للمجيء في هذا الوقت المتأخر، متلفعا ببرودة لم أعهدها من قبل،

وكلي أمل بأن لا ترديني خائبا. . .

(يتفقد المكان)

شموع. . . توشيّ المكان بلمسة شاعرية، وأنا بأمس الحاجة إلى كثير من الاسترخاء. . . مع أنها تعمق إحساسي بالبرد المميت. . .

زينب: إنها طبيعة العيسوية في هذه الأيام. . ويصعب على مثلك أن يتلاءَمَ معها

الميجر: مع أني ولدت وترعرعت في بلاد الصقيع والضباب.

زينب: أنا أتحدث عن الروح يا ميجر، روح الطبيعة وروح الأرض المعجونة بدم أصحابها جيلاً وراء جيل، والتي تمنحهم إمكانية أن يعيشوا متوازنين مع فصولها الأربعة منذ آلاف السنين. . .

الميجر: منطق جميل. . . أنا أعشق المنطق. . إنك تبدين فوق ما كنت أتوقع. . أعرف انك مختصة بالتاريخ، ولكني لم أكن أدرك أن لك هذه النظرة الفلسفية فيما يخص الجغرافيا والمناخ والطبيعة.

زينب: وهل بمقدور أحد أن يفصل بين التاريخ والجغرافيا؟

الميجر: مستحيل. . . صعب جدا. . أنا أشاطرك الرأي تماماً. . نحن أيضاً لم نفصل يوما بين التاريخ والجغرافيا، ولو فعلنا هذا لما رأيتني هنا الليلة. الاكاديميون فقط، أصحاب العقول المتورمة هم الذين شقوا المادة إلى نصفين. . . متناسين أن التاريخ لا يصنع في الهواء، وإنما على الارض الـ. . . . جغرافيا. . .

زينب: ولكن الفرق كبير بين إنسان يعيش تاريخه ويصنعه كل يوم على أرضه وآخر يتوهم أن يصنع لنفسه تاريخا على جغرافيا غريبة عنه، ولم تكن له في يوم من الايام. . (يحدق بها ملياً) أنا اقصدك بالطبع. . أنت وأمثالك. . .

الميجر: إذا كنت أفهم ما ترمين إليه، فإنني أفضل أن نترك مناقشة هذه المسألة لكتابكم ومفكريكم. . . لقد منحناهم هذه الفرصة منذ سنين طويلة ليشغلوا انفسهم بها، أما نحن، فلا يجوز أن نضيّع وقتنا بحوار أثبتت القوةُ عقمَه على مدى السنين (يوقفها). . . عفوك. . لنكن عمليين ونتحدث في الأهم.

لقد جئتك الليلة وحيدا كما ترين. . مجردا من أي مظهر يدعو إلى الريبة والشكوك. . . لم أشأ أن أخبر أحدا من الجنود أو الضباط، كي لا أثير الغبار من حولك، ولنسويَ أمرنا بمنتهى الهدوء ولمصلحة الجميع. . .

(يجول كالضبع في أنحاء البيت متأملاً الشموع المضاءة وموجودات البيت الاخرى)

واسمحي لي أن أعرب لك عن شكري العميق، لأنك هيأت هذا الجو الفريد من نوعه بالنسبة لي. . . فقد تعودت أن أمارس عملي في غرفة ضيقة رطبة تنزّ صديدا. . جدرانها ملطخة بخثار الدم المتيبس. . .

زينب: (هامسة) دمنا.

الميجر: وتفوح منها روائح اللحم والجلد المحروق.

زينب: (هامسة) لحمنا.

الميجر: وتحت إنارة حادة تخطف الأبصار.. أما هنا فالأمر مختلف... [صمت].. ولكن ألا تلاحظين أن هناك شيئاً من المبالغة في هذا العدد الكبير من الشموع؟

زينب: نحن في هذه المنطقة يا ميجر، لا نعصر الزيتون ونعلبّ الخضار ونغزل وننسج ونستخرج زيت السمسم فحسب.. نحن نصنع القاشاني أيضاً والقرميد والبلاط والخزف والصدف.. والأهم من كل هذا نحن نصنع الشموع، ولا تنسى أنكم قطعتم التيار الكهربائي عن البلد منذ عشرين يوما..

الميجر: ليس أسهل علي من تسوية موضوع كهذا.. ولكنه يعتمد على ما تتمتعين به من تعقّل وحكمة... إنما قصدت بملاحظتي، أنه كثير على إمرأة وحيدة في بيت مهجور وفي وقت كهذا... إلّا اذا كان هناك شريكٌ... أو أنك تنتظرين أحد

زينب: الليل شريكي يا ميجر، وأنتظر طلوع الصبح... والبيت ليس مهجورا إذا أردت أن تعرف، ولم يكن مهجورا في يوم من الأيام.

الميجر: من المؤسف أنني تأكدت من هذا مؤخرا، ولكن لا بأس.. المهم هو اقتناص اللحظة قبل فوات الأوان، وأمامنا متسع من الوقت لمعرفة الكثير من التفاصيل..

(يتلمس ثوب العرس من فوق الجاروشة... زينب تتحفز.. يرفع يده محذرا) جميل...

زينب: (تجفل للوهلة الأولى عند سماعها لفظة جميل، ولكنها تتمالك نفسها) هذا ثوب عرسي.

الميجر: آها.. تنتظرين عريسك إذن؟

زينب: من زمان

الميجر: ومتى ستحتفلان بهذه المناسبة السعيدة.

زينب: قريباً جداً.

الميجر: أمثالكم تقول: «لا تقول فول حتى يصير في العدول....» (بغتة) بالمناسبة ما هذا الشيء؟

زينب: هذه جاروشة.

الميجر: جاروشة؟.

زينب: اسمها الجاروشة.

الميجر: جاروشة. وهل هي من كماليات بيوتكم؟

زينب: هي الآن للشغل

الميجر: (مستغرباً) أي شغل.

زينب: نطحن عليها الحبوب.. قمح وفول وعدس...

الميجر: (كالملدوغ) تطحن... تطحن الحبوب... كيف؟ لقد اغلقنا مطاحن الحبوب المنتشرة في هذه المنطقة منذ مدة... فماذا تفعلون بهذا الشيء الاسود الاصم؟ هلمّي وارني كيف تعمل...

(تتقدم زينب بثقة... تعلق ثوبها ثم تجلس إلى الجاروشة وتبدأ بالدوران الخفيف...)

زينب: هكذا....

(في هذا المشهد تتطور حالة الميجر تطورا مريعا... وتبدو زينب وكأنها تطحن عظامه)

الميجر: هوذا... نفس الصوت... سرعيّ الدوران قليلا... هوبعينه... أيعقل هذا؟.... سرعي أكثـر.... جنـون... جنون مطبق... الطنين الطنين... أوقفي هذه الملعونة.... قلت يكفي.... توقفي.... (يتنفس بصعوبة بعد أن توقفت زينب عن الجرش)

طحن الحبوب.. وأنا الذي كنت على يقين من أنكم سترفعون علم الجوع الاصفر بعد عشرة أيام من الحصار على الأكثر... واذا بكم تحولّون هذا الشي إلى آلة للطحن... هذه الكتلة الصماء المثقبة التي تطحن روحي إذن...

منذ خمسة عشر يوما وأنا أجوس أزقة العيسوية ليلا... في البدء كنت اسمع صوتا غريبا على أذني... ولم أكن أعيره شيئا من اهتمامي.. ولكنه بدأ يتحول إلى شيء آخر.. شيء أشبه بالصوت الأجش المبحوح الذي يثير النفس ويستفز الاعصاب... ثم صار طنينا يعلو ويعلو حتى صار ضجيجا راعبا... لا تقوى أذني على احتماله... صار موجعا كوخز الإبر، كمسننات حادة مدببة تثقب عظامي، ثقيل كالرصاص المصهور، الذي يهرس القلب ويذيب الشرايين....

(يكون قد لمسها وعرف أنها من الحجر)

ومن الحجر أيضاً؟

زينب: حجر أسود من حجارة بلادنا

الميجر: (هائجا وقد خرج عن اعتداله ودبلوماسيته المزعومة)

حجر في النهار... وحجر في الليل.. لستم جوعى بالقدر الذي تصورت. لستم جوعى... ولابد من إيجاد طريقة تجعلكم تتوسلون اللقمة فلا تجدونها حتى تجف أمعاؤكم وتتيبس فتموت..

زينب: مثلما فعلتم بنا في الثمانية واربعين... سرقتم ارضنا وخيراتنا وحاربتم شعبنا الاعزل باللقمة... وفرضتم الجوع على كل بيت لكي ننسى أرضنا وحقنا، وراح رجالنا وشبابنا يركضون وراء اللقمة... يركضون في الصحراء ويموتون.. في البحر ويموتون.. على كل حدود الدنيا ويموتون.. ناموا في الشوارع، في العراء، على الأرصفة، والمحظوظ منهم كان يجد مدخل عمارة لم يكتمل بناؤها بعد وينام مفترشا الأرض وملتحفا بكيس اسمنت

فارغ . . . ليبحث في الصباح عن هذه اللقمة المغمسة بالموت والسمّ والقُمامة

هل حدث وأن أكلت كسرةَ خبز من القُمامة يا ميجر؟

هل حدث وتقاتلت مع الجرذان والكلاب لكي تسبقهم إليها؟

بالتأكيد لا يا ميجر . .

لكن رجالنا نبشوا القُمامة عن لقمة زائدة، ليستطيعوا مواصلة الحياة وتأمين الطعام للأفواه الجائعة التي تركوها وراءهم، ولكي لا يسمحوا لأسلافك أن يدفعوا بأولادنا لتسول اللقمة في الشوارع . هذا ما فعله أسلافك قبل اربعين عاما . . . وهذا ما تفعله أنت كخلف لهم اليوم، لكنك ترى بعينك ماذا يفعل أحفاد هؤلاء الرجال بكم يوميا؟

أفهمت الآن لماذا نطحن القمح على الجاروشة . . ونصنع منه برغلا وسميدا وطحينا؟

الميجر: (يتحدث من بين أسنانه، وقد احتقنت الدماء في وجهه)

وتوزعينها على البيوت في العيسوية؟

زينب: ليس هناك قانون في الدنيا يمنع الناس أن تطبخ وتأكلَ في بيوتها

الميجر: ولكنك تعلمين ان التجوال محظور عليكم . .

زينب: في الشوارع وليس في البيوت . .

الميجر: في كل مكان، وهذا اعتراف صريح من فمك يمنحني الحق في تقديمك الى محاكمة فورية (يستدرك) ولكني لن أفعل هذا، لو عرفتُ أسماء الذين يقومون بهذه الأنشطة المعادية!!

زينب: كل فرد في العيسوية يأخذ نصيبه بيده . . ويمكنك أن تحصل على قوائم بأسماء كل أهالي البلدة وأن تحبسهم إذا أردت . . فالعيسوية محاصرة أصلاً ومقطوعة عن العالم، ولن يعلم أحد بمثل هذه الاجراءات . . .

الميجر: سأفعلها . . نعم . . سأفعلها . . وسأحطم هذه الكتلة السوداء فوق رؤوسكم ولن أسمح لمخلوق على هذه الأرض أن يقف أمام إرادتي المطلقة . . .

زينب: كل بيت يملك جاروشة . . ولقد تعودنا على نحتها بسهولة . . . وكلما كسّرت أكثر . . كلما ازدادت الحجارة أكثر.

الميجر: ملعونة . . ملعونة أنت!منذ رأيتك أول مرة في المدرسة أحسست أنك ترتجفين من قمة رأسك حتى أخمص قدميك . . وحاولتِ أن تتظاهري بالثبات والصلابة أمامي . . ولكنني سأحطم صلابتك المزعومة . . وأسحقها تحت قدمي . . ولكن بعد أن أعرف سبب وجود مثل هذه الأشياء هنا . .

«ويركل بقدمه بعض الكتب والدفاتر» .

زينب: «ترتعش أوصالها ولكنها تتماسك» . هذه كتب ودفاتر مدرسية كما ترى .

الميجر: ولكن المدرسة مغلقة منذ مدة ومن الملاحظ هنا أنها واجبات مدرسية بتاريخ أمس وأول أمس . هل تقومين بتدريس الأولاد في هذا البيت أيضا . .

زينب: نعم يا ميجر .

الميجر: أتدركين مدى خطورة هذا التصرف؟

زينب: اذا لم نعلم أولادنا تصبح الخطورة أعظم وأكبر.

الميجر: تعلمينهم هنا؟ .

زينب: سنة ونصف وانتم تغلقون المدارس وتمنعون أولادنا من تلقي العلم . . بحجة . .

الميجر: . . «يقاطعها بقسوة» كان هذا اجراءً وقائياً مؤقتا . . كنوع من العقاب لهم على ما يفعلونه . .

زينب: عقـاب؟ سنة ونصف دون تعليم: عقاب؟ لو كان اسبوعا . . اسبوعين شهراً كاملا . . لصدقنا هذا الزعم . . أما سنة ونصف . .

الميجر: لقد سمحنا لهم بالدراسة لمدة اربعة أشهر هذا العام . وتلاحظين مدى التسامح الذي تبديه الدولة إزاء هؤلاء الشياطين .

زينب: هذا الكلام تقوله لأناس لا يعرفون طبيعة تسامحكم يا ميجر . .

ثم إن هذه الأربعة أشهر التي تتحدث عنها درس الطلاب خلالها ثمانين يوماً فقط . . ومنحوا شهادات خلبية . . وسمحتم بالتسجيل بهذه الشهادات لتقولوا للعالم: إن التدريس قائم عندنا في الأرض المحتلة . . . مع أن الهدف هو تجهيل أولادنا وتكسير ذاكرتهم . وليس مجرد العقاب كما تزعمون .

الميجر: إذا أرادت الدولة أن تبقوا جهلةً، فإنه يتحتم على الجميع أن يصدع لهذه الإدارة، وما يعنيني هنا، هو الاعتراف بأنك تقومين بأعمال تعتبر تحديا لهذه الإدارة . . وبالتالي تهديداً لأمن الدولة .

زينب: هذه أرضنا، وهذه بيوتنا . . ونحن أحرار فيما نفعله بداخلها . . اذا كنت تحمل أمراً باعتقالي فأنا جاهزة . .

الميجر: لن أحتاج إلى أمر بهذا الخصوص . ولكنه سيحدث اذا لم تجيبي على الشيء المهم الذي دفعني للانسلال إليك في هذا الليل البهيم .

زينب: لقد رأيت وسمعت كل شيء . . فاعتقلني إن شئت أو اخرج من بيتي .

الميجر: لا . . لا ياسيدتي. بقي الأهم . . وأحذركِ من أية مماطلة فالوقت ليس في صالحك وأي تلاعب في الإجابة سيؤدي إلى كارثة مهولة في العيسوية . وأنا على استعداد لتحمّل نتائجها مهما بلغت .

زينب: ماذا تريد أن تعرف؟

الميجر: أسماء الذين فجروا الثكنة ليلة البارحة .

زينب: لا أعرفهم .

الميجر: وأسماء الذين أوعزوا اليهم بذلك .

زينب: لا أعرفهم.

الميجر: وأماكن تواجدهم. وكمية الاسلحة التي بحوزتهم.

زينب: لا أعرف.

الميجر: تعرفين... تعرفين كل شيء... وسأنتزع الاعتراف من فمك انتزاعاً.

زينب: حاول.

الميجر: أنصحك بأن لا تمدي أصابعك في الجمر. هذا ليس في صالحك.

زينب: الذي عاش أربعين عاماً في قلب النار لا تخيفه بضع جمرات.

الميجر: كوني عاقلة واعلمي أن مصير العيسوية، متعلق بكلمة من فمك... ويجب أن أسمعها قبل بزوغ الفجر.

زينب: لا تتعب نفسك. أنا لا أعرف أحدا منهم.

الميجر: ولكنهم من هنا. من العيسوية،وهذا ما أكدته تقاريرنا،وأحدهم له علاقة وطيدة بهذا البيت، ومعك أنت بالتحديد.

وأنا واثق من أنك تعرفين أين يختبئون في هذه اللحظة بالذات.

زينب: «تجاهد كي لا تفضح خوفها». «لحظات متوترة».

الميجر: سأعفيك من الاجابة عن معظم الاسئلة، وسأتغاضى عن مسألة الجاروشة والكتب. لو قلت لي فقط أين يختبئون. هذا عرض لم أقدمه لأحد من قبل،وأعدك بأن يبقى الأمر بيننا. وأن تمارسي حياتك بالشكل الذي ترغبين.... لا ترددي... وتذكري أنك تقدمين خدمة كبيرة لبلدك ولأهل بلدك.

زينب: «بتصميم بارد» لا أعرفهم ولا أعرف أين هم..

الميجر: «صارخاً بوحشية» كيف ظهر السلاح إذن؟ ومن العيسوية بالتحديد؟ كيف يمكن لهذا العقل «مشيراً إلى رأسه» أن يتحمل مجرد انبعاث فكرة مخيفة كهذه، حسمت قبل واحد وأربعين عاما..؟ كيف..؟ عندما سحقناكم عام ثمانية وأربعين وشققنا أوشليم إلى نصفين كانت العيسوية واحدة من ضواحي القدس الـ.. عربية. اقصد في القسم العربي..

ومع ذلك فقد قررت الدولة ان تكون منطقة منزوعة السلاح، لاسباب تتعلق بأمن دولتنا. وتعرفين معنى ان تكون منطقة منزوعة السلاح. وبقيت كذلك إلى أن حطمنا البقية الباقية من فلولكم عام ٦٧، فأصدرت الدولة قرار بضم القدس العربية وما يحيطها من قرى وضواحٍ بما فيها العيسوية إلى أراضي دولة اسرائيل وتحت عنوان مشروع القدس الكبرى.. وظلت العيسوية منزوعة السلاح منذ ذلك الزمن. إلى ما قبل البارحة بأيام... فكيف خلق السلاح؟ ماذا يعني ظهوره في العيسوية؟ في هذا الوقت بالذات، وبعد مرور كل هذا الزمن.

زينب: اسأل نفسك يا ميجر. وإذا فرّخت العيسوية سلاحا كما تقول فإن احتلالكم هو الذي

وضع بيوضه الأولى.. والذي يزرع الشوك لا ينتظرُ أن يقطف ورداً..

الميجر: أريدهم... أريدهم... يجب أن تقولي أين هم؟ يجب أن تعترفي بكل ما تفعلين وتعرفين... لا تصمتي.. صمتك هذا سيجرك إلى الهلاك... سأدمر العيسوية كلها اذا لم تعترفي..

زينب: للعيسوية رب يحميها..

الميجر: وسألفعكم جميعا بالسواد والحزن..

زينب: منذ سبعين عاما لم نرث الا الجوع والحزن.. وقليلاً من الأحلام... طاردتموها ولم تستطيعوا أن تحبسوها.. أفلتت من بين أيديكم.. وصارت تكبر.. حتى أصبحت أقوى وأصلب من الحديد الذي تواجهوننا به كل يوم.

الميجر: مجنونة... مجنونة وسأذبحك دون أدنى تردد إذا لم تعترفي.. لقد ذبحت الكثير في حياتي ولن تكوني آخرهم..

زينب: انتهى زمن الخوف.بيننا نار ودم وموت... لم تعد تخيفني،ولا يمكن أن تأخذ مني شيئاً وأنا حية.

الميجر: كوني على ثقة أنني سأفعل ما أقول.. سأجرك من رقبتك وأرمي بك في زاوية معتمة.. وستحشرين خلف القضبان،ويلتهمك صقيع الإسمنت البارد.. ستنامين على الشوك والمسامير سنة.. سنتين.. عشر سنوات.. وربما عشرين سنة أخرى.. وتضيعين في متاهات النسيان.. لا يسأل عنك أحد.. منسية إلى الأبد، حتى تتعفني وتتراقص الديدان في جسدك،وحين يعثرون عليك.. اذا كنت محظوظة،فسيجدونك عظاما منخورة محشوة بالحشرات والدود والأتربة المنتنة.

زينب: أبي أيضاً كان منسيا في سجونكم،وحين خرج ميتا،ووصل ما تبقى من جسده إلى هنا،حفرنا له في أرض العيسوية،وتلفع بترابها الطيب المبارك، اذهب وانظر إلى قبره.. لترى الأزهار والحشائش الخضراء تحيط به من كل جانب...

الميجر: سأمحو حتى مقابركم.. وسأحرق وجه الأرض بيابسها وأخضرها.. وسأحيلها إلى رماد..

زينب: «وكأنها في حلم متأجج».. احرق.. دمر كما تريد.. ولكنك لن تستطيع أن تحبس الهواء أو تمنع هطول المطر على أرضنا...

الميجر: مجنونة وسأذبحك..

زينب: والشمس لا تتأخر عن موعدها... وليس بمقدورك أن تؤجل شروقها لحظة..

الميجر: سأضيق الخناق على هذه الروح الجامحة،ولن أتوانى عن ذبح الجميع إذا لم أحصل منك على ما أريد...

زينب: «تغيب في حلمها» تابع المسير وافتح عينيك جيدا.. ولا تخف عليّ.

الميجر: مع من تتكلمين أيتها المجنونة.

زينب: تابع مسيرك.. فالأيام القادمة حبلى مطراً وفرحاً.. فرحاً لايستطيع آلاف الميجرات أو الجنرالات ان يصادوره من قلبي..

الميجر: «يضغط على عنقها» سأمرغ عينيك في التراب، وأملأ حلقك بالدماء.. وستذوي هاتان العينان وتمتلآن كآبة ووحشة. وتغوصان في بؤرة صفراء كالحة.. سأجعل امعائك ترتجف هلعاً وسأحشو جسدك بقمامة الازقة. بعد أن أستأصل ذاكرتك من جذورها ولن يحميك أحد من جحيمي.

زينب: بيننا جسوراً بين الأمس واليوم.. وبين اليوم وغداً.. أساساتها دم ولحم وعظام.اضرب.. اضرب يا ميجر اضرب.. كل جرح في بدني.. سيتفجر دما ويطرشق وجهك البشع...

الميجر: سأقطعّ أوصالك ايتها الفاجرة.

زينب: اقطع يا ميجر، لن أصرخ، ولن أتألم.. ولكن أطرافي لن تفيدك في شيء.إلا إذا صرتم تستعملون أطراف نسائنا وتركبونها لرجالكم...

الميجر: ماذا تقولين؟

زينب: مثلما سرقتم قلوب شهدائنا وأكبادهم وزرعتموها في أجساد صهاينتكم.

الميجر: سأفجر فمك قبل أن يسمع أحد بما يفح به لسانك.

زينب: مهما حاولت أن تخفي وجهك الشنيع فإن العالم بدأ يتلمس حقيقة فظائعك.

الميجر: العالم لا يفهم إلا لغة القوة،والقوة بين يدي أنا.. وبها لويت عنق العالم منذ مئات السنين «يسحبها نحوالجاروشة ويضغط برأسها فوق الجرن» ومادامت القوة بين يدي فإن الوقت يجري لصالحي باستمرار.. إنه بين اصابعي أحدده أنا وأحركه أنا بإرادتي المطلقة، وبمنطق القوة الكاسح..

ولن يمنعني عالمك المخذول هذا من أخذ ماأريد.

زينب: وهل بقي في بلادنا شيء لم تسرقوه؟

الميجر: كل شيء سيكون في قبضتي.. كل شيء أيتها اللعينة.

زينب: [تجاهد وهو يضغط على عنقها] إلاّ الروح يا ميجر.. آه إلا الروح..

الميجر: أرواحكم على رأس القائمة...

● يرفع مقبض الجاروشة بيد ويضغط رأسها في محاولة لحشره في الفراغ بين الحجرين.. تقاوم بعنف.. في اللحظة نفسها يدخل جميل وهو يحمل ابريقاً من الشاي وصينية عليها أكواب ●

جميل: على مهلك يا ميجر...

● يباغت الميجر ويستدير بحركة غريزية شاهراً مسدسه وتبقى زينب ملقاة على الأرض وقد صعقتها المفاجأة ●

الميجر: من أنت؟

جميل: لا تخف يا ميجر.. أنا لست مسلحاً كما ترى

الميجر: [يحدق فيه بهلع وهو يصوب المسدس نحوه.. لحظات متوترة]
استدر وإلا فجرت رأسك..
[جميل يمتثل..]
حذار أن تقوم بأية حركة دون أمر [جميل يهز رأسه إيجاباً]
[الميجر يقترب منه بحذر شديد ويفتشه بدقة.. بين نظرات زينب الهلعة] ما هذا الذي في يديك؟

جميل: هذا الشاي يا ميجر... والمفروض ان نقدم لك الواجب فور تشريفك،لكن هذه الغيبة..

الميجر: [يقاطعه] كيف دخلت إلى هذا البيت؟

جميل: أنا...

الميجر: أنت تعرف عقوبة خرق حظر التجول!!!... وجهك إلى الحائط.

جميل: هذا بيت عمي فَلاح والد هذه الـ.. المرأة [زينب ترتجف لرنة صوته] وإلى جانبه بيت عمي أبو حامد.. وبيتنا في الجهة المقابلة

الميجر: وكيف عرفت أني هنا؟

جميل: رأيتك من الشرفة وأنت تدخل إلى البيت وحيداً وبلباسك المدني... وانتظرت... لعل بعض الجنود... أو بعض معاونيك يلحقون بك،، وعندما لم يأتِ أحد.. اطمأن قلبي وقلت في عقلي، الدار أمان.. إذهب يا جميل وقم بالواجب....

الميجر: لا ريب إن هذه الارتجافات في صوتك، تشي بأمر أخطر مما تتفوه به [جميل يحاول أن يستدير لكن الميجر يتحفز] احذر أن تتحرك خطوة واحدة.

جميل: قلت لك يا ميجر لا تخف.. نحن أناس نكرم الضيف.. وأنتم تعرفون هذه الخصلة السيئة فينا. وهذا شاي، لتدفىء قلبك.. فبرد العيسوية لا دواء له إلاّ الشاي.. وانا واثق أنك ستشكرني على هذه المبادرة....

● الميجر يصوب نحوه بتركيز شديد ●

الميجر: ضع ما بيديك على الأرض واستدر ببطء

جميل: (ينـظر اليه من وراء كتفه فقط) عيب ياميجر.. ضيافتنا نقدمها بايدينا هذه عاداتنا.. وسأقدم لك شيئاً يهمك كثيراً..
[زينب تتوفز بهلع]

الميجر: [وقد اتسعت عيناه] وما هو هذا الشيء؟

جميل: [بكثير من الثقة] سأجيبك عن السؤال الذي طَرَحْتَهُ صباح أمس على أهالي العيسوية..
[شهقة خفيفة تصدر عن زينب]

الميجر: [يرمقها بنظرة خاطفة..] عن أي سؤال تتحدث؟

جميل: عن الدقائق الثلاث، التي لم يعترف عبد الواحد بما جرى قبلها . . .

الميجر: [وقد بدا على وجهه طيف ابتسامة ماكرة] وهل تعرف أنت ماذا حدث . . بعد انفجار الثكنة؟

جميل: [بثقة، وكأنه يمزق زينب بسكين حادة] وأعرف ماحدث قبل ذلك أيضاً.

الميجر: [متشككاً] يبدو أنك تعرف الكثير. .

جميل: من أجل هذا أتيت . . ولأني أعرف أن رأس هذه الغبية قاسٍ كحجر الصوّان ويمكن ان تورط كل أهل العيسوية . . فسأعترف لك بكل ما جرى . .

[تجحظ عينا زينب وقد تجمد الدم في عروقها]

الميجر: [يلحظ ما يحدث لزينب فيخاطبه بلهجة يشوبها التشكيك] وما الذي يدفعك لهذا الاعتراف؟

جميل: [دون تفكير] قلبي . . [زينب تجفل وتكاد أن تقع]

الميجر: [يلحظ تطوراتها] لم أفهم . . أرني وجهك جيداً . . [جميل يستدير بكامله]

جميل: [ويرمق زينب بنظرة حاقدة] لأن . . . العيسوية غالية على قلبي . . ولن أسمح لامرأة فقدت عقلها كهذه المرأة أن تخرب بيوت الناس من أجل . . لا شيء . . .

[يشحب وجه زينب وقد خيم عليه شبح الموت . . الميجر يلحظ ما يحدث فتنبسط قسمات وجهه المتجمدة] .

الميجر: أفهم من هذا أن لديك معلومات هامة

جميل: [باندفاع جنوني وهو يسوط زينب بنظرات نارية] بل اعتراف ياميجر . . اعتراف يخلص العيسوية من الدمار الشامل . . . [ثم بلهجة ذات مغزى] ومن أمور كثيرة أخرى . . [زينب تلوي عنقها وقد شارفت على الاختناق]

الميجر: [يراقب تطوراتها بشيء من النشوة] هذا عين العقل . . (لزينب) أترين؟ بقليل من التعقل ينقذ بلده في اللحظة الحاسمة . . ومع ذلك لن تفلتي من يدي . . .

جميل: (بحدة مكتومة) لا ياميجر . . هي لا دخل لها بما سأقول .

الميجر: ماذا تعني؟

جميل: (يجلدها بنظرة قاسية) كلامي واضح . . أقدم لك المعلومات شرط أن تتركها وشأنها، وإذا لم تفعل فلن أتفوه بكلمة حتى لو علقتم مشنقتي . . .

الميجر: (تنبسط قسماته أكثر) ها . . يبدو أنك مهتم بأمرها أكثر مما كنت أتصور.

جميل: (باندفاع) طبعاً يا ميجر . . اليست ابنة عمي . . (زينب لا تكاد تتعرف على نفسها)

الميجر: (بابتسامة ماكرة) لك ذلك . . هذا وعد . . هيا قل ما عندك

جميل: قبل تفجير الثكنة بثلاث ساعات . . اجتمع اربعة عشر رجلاً في جامع العيسوية بحجة الصلاة . . وانتدبوا من بينهم . . اثنين ليقوما بعملية التفجير . . [زينب تبدو وكأنها تعاني

سكرات الموت] .

الميجر: (مبهوتاً) اثنان . . هل قلت اثنان؟

جميل: نعم يا ميجر

الميجر: (مصعوقاً) كنت أعتقد أن الذين نفذوا العملية يزيدون على العشرة . . . ولقد خلت للحظة أن الحرب قد اندلعت . . اثنان؟ فقط؟

جميل: هذه هي الحقيقة . .

الميجر: وتعرفهم طبعاً .

جميل: حق المعرفة .

الميجر: عظيم . . والباقون . . أتعرفهم؟

جميل: ولو ياميجر . . نحن أبناء بلد واحدة وكلنا يعرف كلنا

الميجر: أعطني أسماء الجميع بسرعة . . أسماءهم الحقيقية

جميل: سجل عندك . . .

زينب: [بصرخة ما قبل الموت] قتلتني يا جميل

جميل: [بحقد عجيب] أنتِ التي طعنتني أولاً . .

الميجر: [لزينب وقد انتفخت عروقه غضباً] كفي عن هذا النباح . . يا بنت ال. . وإلا افرغته في رأسك . . وأنت أعطني الأسماء بسرعة .

جميل: سجل عندك ياميجر .

● الميجر يتقدم نحو الكرسي مشيراً بالمسدس لزينب للاقتراب من جميل . . تمتثل كالأموات . . يجلس على الكرسي ويدس يده في جيب المعطف الداخلي ويخرج دفتراً صغيراً وقلماً، يضع المسدس على التربيزه أمامه ليفتح الدفتر ويأخذ القلم . . في اللحظة نفسها وبحركة خاطفة يدلق جميل محتويات الابريق في وجه الميجر الذي تصدر عنه صرخة راعبة وقد غطى وجهه بيديه وانثنى الى الخلف . . في اللحظة التي يقفز فيها جميل ويخطف المسدس . . ويشهره في وجه الميجر الذي سقط مع الكرسي الى الخلف . . زينب لا تكاد تصدق عينيها . . . ●

جميل: انتهى كل شيء يا ميجر . . وبأقل من ثلاث دقائق . . أقل بكثير . . .

[الميجر وقد جحظت عيناه ولا يدري ماذا حدث . . يحدق بجميل وهو يتحسس وجهه بهلع . . . . .]

جميل: لا تخف يا ميجر . . الشاي ليس مغْلياً . . . وجهك ليس بحاجةٍ إلى مزيد من البشاعة . . .

● زينب تلتصق بظهر جميل بحركة غريزية ●

جميل: والآن يا ميجر؟ أما زلت بحاجة إلى أسماء من فجروا الثكنة؟

الميجر: (مذهولاً) ماذا ستفعل؟

جميل: وهل يحتاج الأمر إلى التساؤل؟
الميجر: اقتلني إذن أيها الجبان.
جميل: أنت تعرف أنني لست جباناً
الميجر: قبل لحظات كان صوتك يرتعش هلعاً
جميل: حين كان هذا (يشير إلى المسدس) في يديك. . . ارتعش قلبي للحظات ولكن بعد أن أدركت سبب مجيئي فان الفرق يبدو واضحاً بين رَعْدة الجُبن، ورعشة الجرأة. .
الميجر: لو كنت كما تزعم، لما خدعتني بهذا الأسلوب الماكر
زينب: [من وراء جميل] أنت تتحدث عن الخداع . . ؟ شوهتم إنسانيتنا وسرقتم أرضنا، وقتلتم شعبنا بالخديعة والمكر، والجبن المختبىء وراء هذا (مشيرة ايضاً للمسدس الذي يحمله جميل)
بمنطق القوة الكاسح الذي كنت تنبح به قبل لحظات. . ولو قُدّر لنا أن نمتلك ربع ما بيدكم. . . لاختلف الأمر كثيراً. . الآن، وفي الماضي أيضاً. . أنت تفهمني تماماً يا ميجر. .
جميل: لا تجادليه. . يجب أن يفهم أن الحرب خدعة، إن كان بيدنا سلاح أو لم يكن.
الميجر: وهل تعتقد أن الأمر سينتهي عند هذا الحد؟
جميل: أكون غبياً لو فكرتُ على هذا النحو. أنا فلاح بسيط يا ميجر ولكنني أدرك جيداً أن حربنا طويلة. . . وأدرك أيضاً بعقلي الصغير أنها لن تحسم لجانب الحق إلاّ إذا واجهنا جحيمكم. . بجحيم مماثل. .
الميجر: إقتلني إذن. . ولكن تذكر أن العيسوية ستدمر بأكملها عند خروج أول طلقة من هذا المسدس
زينب: (صارخة) جميل. . (تتقدم بسرعة وتقف أمام جميل) لا تطلق النار. .
الميجر: ما بك أطلق
زينب: لن نقتلك يا ميجر. . ليس خوفاً على العيسوية من الدَّمار. . . فبلادنا كلها معرضة لأن تدمروها. . ولكن لنحافظ على ما فينا من إنسانية. . . اخرج من هذا البيت. . ارحل عن هذا البيت. . . وفتش في زوايا روحك المظلمة. . علّك تجد بصيصاً من نور يرشدك إلى طريق آخر. . .
الميجر: [يجرجر نفسه وينهض بكثير من الأنفة ويرمقها بنظرة حادة].
سأخرج. . الآن سأخرج من هذا البيت. . وسوف يكون لنا في الغد لقاءٌ مختلف. . .
زينب: بالتأكيد. . . فنحن في الأتون معاً وستجد العيسوية كلها بانتظاركم. . .
[يخرج بحذر وهو يرمي جميل وزينب بنظرة حاقدة].
● صمت ● (صوت رعود بعيدة. . تقترب قاسية للحظات ثم تبتعد وتبقى في الخلفية)

● تستدير زينب ببطء وتواجه جميل الذي ينزل يده ويحدقان ببعضهما للحظات. . ●
زينب: (برغبة عارمة لعناقه). . . ماذا فعلت؟
جميل: فعلت ما كان يجب أن أفعل. . . .
زينب: كدت أموت. . .
جميل: أعطيك روحي. . . .
● [تعانقة بحنان كبير. . . يحضنها جميل وهو يجاهد كي لا يبكي]●
تمسكه من وجهه براحتي كفيها. . وتنظر في عينيه. لحظات.
زينب: والآن؟
جميل: [مبتسماً] الآن. . استعدي لاستقبال الربيع.
زينب: مازلنا في بداية الشتاء. .
جميل: ربيعنا لا يخضع لدورة الفصول. .
زينب: لا أفهم شيئاً. . ولكنك تقول شيئاً أشبه بالشعر. . .
جميل: وما المانع؟ أما قلتِ لي يوماً إن أعظم الشعر قاله شعراء لم يعرفوا القراءة والكتابة؟
زينب: أذكر هذا (بسعادة بالغة) ولكن. . .
جميل: دعيني إذن أقدم لك أجمل القصائد
[يقترب من الناحية التي دخل منها وينشد بصوت هامس]
جبينة. . . تنتظر عودك. . .
● يبرز ربيع وقد تلفع برداء خاص. . يحمل الصرّة التي جهزتها زينب ويتشح بوشاحها. .
زينب وقد أخذتها المباغتة فتعيش للحظات في قمة الفرح الاستثنائي والدهشة. . . ●
زينب: [بصوت لا يكاد يخرج] أنت؟ [تقترب منه وترفع يدها غريزياً لتتحسس صفحة وجهه] أيعقل هذا!؟ [تلامس أصابعها وجهه فتجفل] أأنا في حلم؟
ربيع: بل هي الحقيقة يا زينب. . .
● تنقل بصرها بين الاثنين وهي في حالة من السعادة الغامضة وعدم التصديق. . ●
زينب: وأنتما معاً؟
ربيع: وهل يمكن أن نكون إلاّ معاً
زينب: (بفيض من السعادة) ماذا تفعلان بي؟
ربيع: نحبك. .
زينب: [تميد الأرض تحت قدميها للحظات] ولكن. . ما الذي دفعك إلى المجيء الآن؟
ربيع: وهل تحتاج الشمس إلى دافع للشروق؟
زينب: ولكن. . .
ربيع: لا تقـولي شيئاً. . ، فقد تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود وصار الفجر على وشك

البزوغ... وفي الصباح يبدأ العيد، عيد جديد ومختلف...

● جميل الذي كان صامتاً يتقدم من زينب ويجثو إلى جانبها ●

جميل: أما أنا.. فاسمحي لي أن أركع أمام عظمة روحك..

زينب: (ترفعه بيديها) جميل...

ربيع: الآن نستطيع المسير معاً دون قلق

زينب: (بلهفة) معاً

ربيع: نعم.. معاً...

زينب: ومن سيبلّغ الناس في العيسوية وخارج العيسوية بما حدث الليلة؟

ربيع: سنترك هذا الأمر لأيوب الجليلي

زينب: [مستغربة] أيوب؟!

يبرز أيوب من زاوية ما...

أيوب: نعم أيوب.. أيوب، الذي أحبكم منذ أن رفع الله سماءه بلا عمد.. وأرسى الجبال.. وبسط الأرض... وفجرّ فيها الماء، ثم تجلّى على عرشه

[يتقدم من الثلاثة ويحتضنهم بيديه الحانيتين]

زينب: وماذا ستقول للناس يا أيوب؟

أيوب: سأقول لهم: الذي يحب زينب حقيقة، لا يتفرج عليها فقط.. أو يفرح عندما يراها قوية، ويحزن حين يراها مدّماة ثم يقول لها: «.. اذهبي أنتِ وربُك فقاتلا، إنّا هاهنا قاعدون..» الذي يحب زينب حقيقة ينبغي أن... اذهبو انتم.. أنا اعرف ما سأقوله لهم...

زينب: ونحن أيضاً نريد أن نعرف قبل أن نذهب:

أيوب: حسنٌ سأقول: [يحمل دُفّه وينقر عليه ويبدأ الغناء]

أيوب: أولْ ما نِبْدا ونقولْ   صَلُّو عْ طه الرسول
يرددن من وراه   يا حلالي يا مالي ياربعي ردوا عليا
أيوب: شَوْحْ لَلنشامى يْجُوكْ   يْشيلو ظَيْمك ويعِزُّوك
يرددون: يا حلالي يا مالي   وياربعي ردوا عليا
أيوب: والنشاما تْشيلْ تْشيلْ   ومايْنفعْ قليلْ الحيلْ
يرددون: يا حلالي يا مالي   وياربعي ردوا عليا
أيوب: والنشاما تْشيل تْشيلْ   وما ينفعْ قليل الحيلْ

● يرددون المقطع الأخير مع خفوت الإنارة التدريجي حيث يختفي الثلاثة ومازالت أصواتهم تصلنا وتبقى بقعة ضوءٍ صغيرة على وجه ودف أيوب الذي يردد آخر كلماته.... وبقعة ضوء على الجاروشة التي يملأ صوتها أرجاء المكان...●

دمشق ١٩٨٩

قصة

الجهر

الياس العطروني*

١ ـ القبلة:

دخل الضياء الى شقوق قديمة في الارض، وغلّ بعيداً، استطاب البرودة فاستمر، تملكه هوس شبق في سبر العمق والصمت فاستمر، سمع تمتة بعيدة فأنصت. كانت التمتة حديثاً يزعج الصمت. توقف وأنصت.

سأل الشهيد رفيقه: كيف مت؟.

جاوبه الآخر: مت في حلم! سأحكي لك الحكاية للمرة الالف. يبدو أنك تستلذ سماعها. على كل حال نتسلى.

كنا في طريق العودة، خمسة، نجتاز سهلاً بين جبلين، بين جيشين واحد لنا وآخر لهم، كنت تعباً، و«الدكتريوف» في العودة أثقل منه في الذهاب. والفجر يوشك أن ينبلج والطابور يسير أحادياً باتجاه الشمس عندما أمر أحمد بالتوقف لاستراحة قصيرة، وكلفني المراقبة، توقفنا، سندت جسدي الى صخرة مشرفة أنظر الى الغرب... لابد وأن وقتاً قد مر كانت الجبال تظهر مثل خيالات

---

* قاص من لبنان.

الاساطير والهواء مضمخ بطيب عجيب وكنت مرهقاً . . . كما قلت لك لابد وأن وقتاً قد مر فحين نظرت حولي لم أجد أحداً ولم يكن الفجر قد انبلج بعد وسمعت وقع أقدام . . . كان الوضع أشبه بالحلم، لانني وفجأة وجدت نفسي في غرفة تحقيق، والرجل السمين يريد معرفة كل شيء . . .

أخبرته حكايات كثيرة، ظهر أنه لم يصدق واحدة . . . قال : إننا من أرومة واحدة والاحتمال كبير أن نكون من قبيلة واحدة . بل ومن فخذ واحد . . . لم أطمئن لنظراته كانت عيناه تتحركان بصورة دائمة وبشكل دائري . . . وليس في قبيلتي من ينظر هكذا فأكملت بحكايات جديدة . . .

غضب . . . غضب كثيراً، كنت أشاهد اهتزاز قدمه اليمنى الدائم من تحت الطاولة نهض، وتقدم مني وقال : انه يريد تقبيلي . . . لم أفهم ولم ينتظر موافقتي وعندما قبلني متـ . . . مت . .

لوح الضياء برأسه وصعد.

٢ ـ الهدير :

ركب الضياء قرص الشمس، أراد الرؤية من الشاهق.

المرأة وابنتها الطفلة تموجان مع المائجين أمام مدخل المستودع الكبير، صاح السمين من الداخل بطاقة الاعاشة مع البطاقة الشخصية وطابور . . . طابور . . .

مدت المرأة يدها تحسست جيب جلبابها، سوّت وضع غطاء رأسها، نظرت الطفلة اليها، تأملت عروق يدها النافرة . شاهدت الشمس قادمة لتوها من خلف الجبال الرمادية.

وصلت المرأة الى الحاجز الخشبي، أخذ السمين البطاقتين طبع خاتمه على واحدة وأعادهما.

ناولها كيسين : واحداً كبيراً وثانياً أصغر وقال :

الحليب الاسبوع القادم.

حملت المرأة الكيس الكبير والطفلة الصغير وسارتا، صار الحشد خلفهما والمخيم أمامهما، مسحت عرق وجهها بغطاء رأسها، وكانت الصغيرة تنظر، فشاهدتها وشاهدت الشمس فوقهما تماماً.

التصق الكيسان بجدار يحمل في وسطه صورة دون زجاج، تأملتها الطفلة فتذكرت كلام أمها بانه جدها، وبأن الجناد في الصورة يحتوي فشكاً وبأنه مات . . . مات مع الشهيد عبد القادر في القسطل، قالت لها . . . كان بطلاً، قالت لها . . .

منتصف الليل استفاقت الصغيرة مرعوبة، ترتجف وتعرق، سقتها ماء وهدأتها . . .

ـ وين أبوي؟ . .

تمهلت لحظات وجاوبت . .

ـ راح لدار جدك هناك . . .

ـ خلي يرجع ياما . . .

ـ طيب . . . نامي . .

منعها الهدير المولود من السكون وحجم الخوف الذي نبت في عينيّ أمها . .

سمعت صفيراً ممطوطاً ولم تسمع ما تلاه . . .

كانت صورة بجناد وفشك على رأس شجرة بعيدة وبطاقات شخصية واعاشة تحت أخرى.

٣ ـ العنقاء تغازل مكيافيلي :

تربع الضياء مصابيح باهرة، القاعة الكبرى في القصر الابيض طاولة متصلة مقسمة، وقضبان قصيرة تحمل خرقاً ملونة.

عصير مانغا، مياه معدنية، كريستال بوهيمي وأجهزة ترى وتسمع وتحفظ.

الكبار وصلوا! . . .

وقف السمين ينحني ويدل فالمداخل كثيرة. تطلع أحدهم الى فوقه وقرأ بوابة «خليل»، قرأ الثاني بوابة «الكمالين» قرأ الثالث بوابة «غسان» وعندما قرأ الرابع بوابة «محمد علي موسى» قال لمن حوله : إن هذا الاسم طويل.

كانت عيونهم حمراء وأخذت تعود الى بياضها . .

العنقاء تغازل مكيافيلي في القبة، وكلام كثير . .

اقتحمت القاعة رفوف من طير غريب / دخلت في فجوات غير موجودة / عبق الجو برائحتها / وقف كل منها على حافة كأس واستكان / في رقبة كل طير اسم / الكرامة، الهامة، بحر البقر، أيلول، صبرا، مفاعل، بيروت، بيروت فردان، مارتقلا . . . وأسماء كثيرة منسية . القسطل / دير ياسين / كفر قاسم . .

انسياباً دخلت الطيور والاسماء الكثيرة في الكؤوس. شربوا، تبادلوا القبلات بالجملة والعناق «بالقطاعي» ركب السر الجهر والعصر الطهر، تداخلت الاشياء في زمان مختلف، اختلطت «الدندرمة» وخبز «الطابون» وكاسات «الخشاف» بهامبرغر وهوت دوغ وكافيار وجبال مثل خيالات الاساطير وصورة على رأس شجرة بعيدة، بجناد وفشك.

تكلموا . . انتهوا . . خرجوا . .

طوابير الدراجات تصدر هديراً مولوداً من سكون . .

سأل الشهيد رفيقه : ما هذا؟.

جاوبه : انهم يحتفلون بنصرنا؟.

سألت الابنة أمها : ما هذا؟.

جاوبتها : هاد أبوكِ يا . عاد من دار جدك هناك . . .

وقالوا إنها تمطر . .

كان الضياء يبكي . .

قصة

اليوم الخامس لاختفاء خنيفر الشعبي

جهاد الرنتيسي*

إلى الصديق خالد الصوري..

هكذا تبدأ الرحلة للخروج من مدن السراب

ياسامعين الصوت.. هل رأيتم خنيفر الشعبي؟!.. الحق معكم إذا لم تجيبوا.. أو حتى تلتفتوا لصوتي المبحوح.. فأنتم لاتعرفونه!!.. وإن كنتم حقاً لاتعرفونه.. فهل لديكم الاستعداد للجلوس حتى أنتهي من سرد حكايته.. والخروج من لذة المرض الاستهلاكي الزائفة؟!.. الخروج من أجواء التخمة والخدر اليومي المستشري في أوصالكم حتى العظم.. هل لديكم استعداد لسماع بعض الحكايات.. سترعبكم عند سماعها للمرة الأولى.. لا لشيء إلا لكونها تذكركم بما يخبيء لكم المستقبل!!.. وتصدمكم بواقع مرير استكنتم إليه..؟؟!.. فخنيفر ليس أسطورة.. وليس واحداً من أبطال القصص القديمة.. خنيفر ليس رمزاً صنعته وسائل إعلام العصر الاستهلاكي.. والبترو دولار.. هو بدوي خرج من رحم مدن السراب.. ركض خلف لمعانه، إلا أنه لم يجد مايروي ظمأه، فأخذ يحفر في أعماق الصحراء ثم اختفى!!.. ولم أعرف عنه شيئاً منذ أيام خمسة.

أيها المتخمون الجالسون حول الموائد في هذا المطعم الأنيق، لقد أصابتكم كلماتي بالملل.. أعلم ذلك، وقد يشكك بعضكم بقواي العقلية.. أعلم ذلك أيضاً.. سأوضح لكم الامر وأكشف عن اللغز الذي يحيركم.. سأسهل عليكم محاولة الوصول إلى الحقيقة دون عناء يذكر..

خنيفر طالب جامعي.. وصحفي في الوقت ذاته.. جاء برفقة أسرته إلى المدينة من الصحراء ذات عام.. كان صغيراً عندما عمل والده إماماً في أحد المساجد.. كان خنيفر زميل دراسة لي طيلة اثني عشر عاماً، ثم التحق بالجامعة، وعمل في إحدى الصحف ليحصل على ما يمكنه من الانفاق. وحين أخذت أبحث عن وظيفة بعدما فصلت من إحدى الشركات، بعد

---

* كاتب من فلسطين.

إضراب عمالي، دعاني للعمل معه في الصحيفة ذاتها. لم يكن خنيفر يحمل همه الشخصي وحسب.. فهناك ثمة هموم مركبة كان يحدثني عنها.. انعدام العدالة الاجتماعية.. الفقر.. عصر الاستهلاك.. الديمقراطية المحرمة في مدن السراب.. الخ.

وبالمناسبة.. لم ينس خنيفر أن يحدثني عن التخلف الاجتماعي الذي يعيش، فاستطاع بحديثه أن يخدش الصورة التي ارتسمت في الذهن لأبناء مدن السراب.. وعندما أخبرته بذلك ضحك طويلاً حتى بانت أسنانه.. وقال لي: إننا لم نزل نعيش على هامش المجتمع، لأنهم أرادوا لنا ذلك.. لقد أطلت عليكم في السرد أليس كذلك؟!.. اعذروني سادتي فأنا لاأتقن فنون القص، لست سوى صحافي تطارد عينا الرقيب كل مايكتب، حتى أصبح عاجزاً عن كتابة خبرٍ يُرضي به قراءه.. لنعد إلى خنيفر الشعبي.. كان يسمع الموسيقى.. ويحب قراءة الروايات والقصص.. كان يتابع أخبار المحرومين والديمقراطية في العالم.. وكان يحدث زملاءه عمّا يقرأ..

وفي يوم ماسمعته يتحدث عن ضرورة وجود البرلمانات في مدن السراب التي أصبحت كالقبور، حتى يجد المؤرخون في يوم مانقاطا مضيئة غير لمعان السراب على الرمال يذكرونها في كتبهم.. وقال يومها إن التاريخ الحقيقي ليس مايقال عن أمراء العشائر.. والعلاقات المحنطة.. إنه تاريخ الشعوب صاحبة الحق في قول ماتريد.. كان يقول: إن الديمقراطية أصبحت مطلباً، ولن يستطيع أي كان أن يحجب هذا المطلب عن الجماهير.. لقد أدخلتكم أيها السادة في جوقة من الشعارات السياسية، وأبعدتكم عن خنيفر الشعبي أليس كذلك؟!.. اعذروني فلم أستطيع حتى الآن الصحو من صدمة اختفائه.. على كل حال سأحدثكم قصة اختفائه فاصغوا إلي أيها السادة.

اليوم الاول

كان الظلام قد أخذ يلف المدينة التي أصبحت أشبه ماتكون بمنطقة عسكرية يحكمها حظر التجول.. وكان الدخول إلى أحيائها دون بطاقة الهوية أمراً أشبه بالمستحيل، فرجال الأمن يملأون الشوارع، والمداخل مغلقة.. اضطُرنا إلى قطع المسافات البعيدة سيرا على الأقدام، وبين كل حاجز وحاجز كان يستوقفنا حاجز يطلب مايثبت أننا من سكان المدينة.. كانت تسيطر عليّ الهواجس.. فكيف دخلت زوجتي إلى المكان؟؟.. وهل استطاعت الوصول إلى البيت.. وأن تعبر هذه الحواجز؟؟.. كنت واقفاً أمام الحاجز الأخير عندما لمحت خنيفر.. نظر إلي نظرة حادة، فيها بريق لم أره من قبل في عينيه، وأدار وجهه ومضى.. كانت زوجتي تراقب الطريق من شباك المطبخ، عندما أخبرتها بأنني ذاهب لأترقب الحدث الهامّ الذي تمر به مدن السراب.. قالت لي بخوف، ان رجال الأمن يملأون المكان.. وإن المعركة ليست معركتي.. طمأنتها بأنني لن أقترب من المكان الذي أخذ الشباب يتجمعون فيه.. قطعت الساحة الخلفية باتجاه التجمع، إلا أن رجال الأمن منعوني أيها السادة من التقدم، فاضطررت للصعود إلى إحدى البنايات، وأخذت

أراقب الأمور عن كثب. . كانت المدينة خالية إلا من بعض رجال مكافحة الشغب، وعشرات من الشباب أخذوا يرددون بصوت متقطع. . «ديمقراطي . . دي. . مـ . . قراطي» . . تقدمت سيارة رش المياه والجموع لم تزل واقفة. . القوا بقنابل الغاز وبقي الهتاف مستمرا. . القنابل الصوتية صمت الآذان، وبقي الهتاف وبقيت الجموع واقفة لم تغادر مكانها أيها السادة. . كانت سيارات الإسعاف تحمل المصابين وحافلات الشرطة تحمل المعتقلين. . فمع أي منهم كان خنيفر؟! . . هذا مايحيرني أيها السادة. .

اليوم الثاني

كانت الصحف الرسمية تتحدى مشاعر الجميع بعناوينها الرئيسية. . مرتزقة يطلبون المغفرة من أمراء العشائر، وكان خنيفر غائباً لم يحضر للصحيفة، تماماً مثلما كنت أتوقع. . بغيت سؤال الزملاء عنه، إلا أنني لم أفعل. . تماماً مثلما كان الحال بالنسبة لبقية الزملاء. . فالتفينا أيها السادة بالنظر إلى بعضنا البعض، وكأننا نواسي أنفسنا بوفاة عزيز. . أنهينا عملنا بصمت. . سلمنا ما كتبناه من سخافات إلى رئيس القسم، وخرجنا فرادى بهدوء. . يطاردنا سؤال حول اختفاء خنيفر الشعبي. . الفتى الطيب الذي لم يسيء إلى أي منا يوما ما. .

اليوم الثالث

كان الصمت مخيماً كاليوم الذي سبقه. . وكنت أحاول استجماع أفكاري **لأنتهي** وأمضي. . وكانت لولوه تبحث في موجات الراديو عن خبر حول مدن السراب. . فقد اعتدنا أيها السادة سماع أخبار مدننا اللقيطة من إذاعات بعيدة، بعد أن تحولت إذاعاتنا لمجرد أدوات تنقل أخبار أمراء العشائر، لتجعل منهم أمراً مقبولاً لدينا. . صوت المذيع كان يأتي كموج البحر ثم يرتد. . عندما نطق باسم مدن السراب، وأخذ يشرح ماحدث»، حاولت التركيز قدر الاستطاعة على كلماته، واستطعت فهم بعض العبارات. كان المذيع يصف ماحدث بدقة وكأنه كان معنا، وقبل انتهائه من رد أخبار مدن الملح أم مدن السراب؟؟ كان التشويش على الموجات قد حول صوت الراديو الى خشخشة، فاستبدلته لولوه بصوت سلمان زيمان، الذي جاء عبر شريط الكاسيت دافئاً يغني لعشق له في ربوع الشمال على ربى الناصرة. . سلمان زيمان وفيّ العشق لم يعشه أيها السادة. . وذلك الزنديق المتخم أطل علينا ذلك الصباح عبر صفحات الصحيفة، متباهياً بحبه للسلام ولقاءات ضمته مع العدو، منذ أن كان طموح أي فتى في هذا الوطن أن يموت في معركة التحرير. . فكرت بالرد عليه، إلا أنني تراجعت حين تذكرت كلمات خنيفر «بأن اصفرار صحفنا يجعلها أعجز من أن تحمل الحقيقة».

اليوم الرابع

كنت عاجزاً عن أداء أي عمل في ذلك اليوم، فقد تهت في تداعيات كثيرة لم أعرف لها أول من آخر. . كانت تمتزج في ذاكرتي صورة خنيفر بصور أصدقاء سقطوا شهداء قبل سنوات عديدة. . بحثت عنهم من ثنايا الذاكرة أغنيات زيمان وتبجحات ذلك المتخم بفتات موائد أمراء البترودولار. . ولم يكن خنيفر أيها السادة، غائباً فقد كان جزءاً من المشهد. . فقد كنت أتذكر جيداً كلماته التي تقول «فرقنا الاستعمار وأمراء **العشائر** . ووحّدنا الجرح. . فهبوا يافقراء المستعمرات» . . كانت لولوه أيضاً تبحث عن إجابة لتساؤلات لديها، فاستدعت نظراتها عباراتٍ كان قد قالها خنيفر ذات يوم ربيعي، حين كنا نخيم في الصحراء. . «إنني أحب لولوه. . هي فتاة جيدة ياعزيزي، إلا أن هناك تباينات تجعل الارتباط بها شيئاً أقرب مايكون إلى المستحيل. . فأبي فقيرٌ. وشقيقي الأكبر «بيسرى» . . إننا ياعزيزي في منظور ذويها جمع من الحبربش. . هل تعلم؟!»

اليوم الخامس

كان يدب في أوصالي خدر غريب عندما صحوت من النوم هذا الصباح. . وكان تعب لفاصل يفعل بي مايشاء. . حاولت في البداية مقاومته، واستسلمت له في نهاية الأمر. . لم أستطع ذهاب إلى تلك الصحيفة اللعينة بعد أن حضر رجال الأمن وفتشوا المكان، صادروا كل أوراق خنيفر وأشرطته وكتبه. . إلا أنهم لم يستطيعوا مصادرة نظرات لولوه. . أحاسيسها. . رغم أنها تحسه. . . خرجوا بعد أن نثروا الرعب في المكان، وتركوا لجواسيسهم استكمال المهمة، فأخذوا يتصيدون كلمة من هنا وأخرى من هناك. . لقد تحول المكان إلى شيء لايُطاق عندما غادرته لولوه، وأقسمت ألا تعود قبل عودة خنيفر. .

بقيت وحيداً عندما غادرت زوجتي إلى العمل، فقررت البحث عن خنيفر لعلني أجد مافقد. . وها أنا أجلس أمام هذه الطاولة الفاخرة من هذا المقهى الأنيق، أكتب بعض الكلمات ثم أمزق الورق. .

لن ألومكم أيها السادة وأيتها السيدات، إذا لم تساعدوني في البحث عن خنيفر الشعبي، فحواجز الخوف تحول دون وصول صوتي إليكم. . ولذلك أصررت على البحث عنه بين طيات الورق. . أكتب وأمزق. . وأبقى اكثر اطمئنانا فمن يدري. . ربما كان بينكم رجال أمن يذهبون بي إلى المجهول في حال تصريحي بأن لي علاقة بخنفير وزملائه. . ؟! كل شيء جائز في هذا الزمن بالذات. . إلا أن الحقيقة تبقى أيها السادة واحدة، وإن تعددت أوجهها. . والحقيقة التي يجب أن تدركوها جيداً، هي أن خنيفر وزملاءه هم التاريخ الحقيقي لمدن السراب.

---

* بيسرى - غير أصيل باللهجة الكويتية

قصة

النهاية

حسن حميد*

كنّا على سفر مابين أريحا والخليل، وكنت على مقربة منهما، تضمنا حافلة للركوب. حديثهما يصل إليّ، وللآخرين، كانا رجلين، الأول: أبيضَّ شعره، وتجعّد وجهه، التهمته الحياة أو كادت، والثاني: شاب في ريعان عمره. كانا في حديث متصل، الرجل العجوز يحدث، والشاب يستمع. قال العجوز:

في الصباح، وبعد ليلة صاخبة، ساهرة، عامرة بالأصحاب، والغناء الجميل.. استيقظت متأخراً بعض الشيء على صوت زوجتي الصارخ:

ـ «قم، ياعامر، في الباب رجل»!

تناهضت، وأنا أتمتم:

ـ «ياصباح، يافتاح»!

ومضيت إلى الباب.. لاستقبل الرجل.

حين رأيته هششت له.. وبششت، على الرغم من أن هيئته زرية، ومنظره لايبعث على الارتياح. وقلت له:

«أهلاً ومرحبا.. تفضل»!

فتمتم بالسلام، والتحيات الكثيرة، وانحنى، حتى كاد يطوي نفسه على نفسه، ودخل متعثراً. ودّ أن يجلس على الأرض، قرب الباب، فمنعته، وأجلسته على الفراش الممدود.. في صدر الدار!

* قاص من فلسطين.

واعتذرت منه، لأن البيت لم يرتب بعد، فالدنيا صباح، وياألف صباح الخير..!

وصرخت بأم العيال:

ـ «الفطور.. ياندى»!

وهمهمت ندى، وبدأت بتحضير (الزعترات، واللبنات، وابريق الشاي..)! وبعد طول صمت، قال الرجل:

ـ «نمت البارحة على باب بيتك.

أعجبني البيت. فقلت إن أصحابه أهل كرم وعزٍّ.. سأضيف عندهم»!

قلت:

ـ «يامرحبا»!

وعاتبته:

ـ «لكن لماذا لم تقرع الباب؟!

فالبيت واسع، والفراش موجود.. الله يسامحك»!

فأضاف:

ـ «أمسِ، عبرت النهر»!

وقلت له:

ـ «أنت، من الذين يعبرون، إذاً»؟!

فأجاب:

ـ «نعم..»!

وسألته: «إلى أين وجهته»؟! فقال: «إلى بلاد مصر، ومنها الى الجنوب»!

وهللت به، ورحبت!

وددت أن أسأله عن محتويات زوادته الكتانية المنتفخة، إلا أنني لم أفعل، وقلت في نفسي: عيب ياولد!

وبعد الفطور، والحديث والسلام، انتبذ الرجل إحدى زوايا الغرفة، أخرج من زوادته كتاباً، وطاقية سوداء صغيرة، مثقّبة.. وضع الطاقية على مؤخرة رأسه، وشرع يقرأ في كتابه، ووجهه إلى الجدار، وبدأ يرتعش ويهتز كأنما دخلته روح شيطانية، والعياذ بالله، وحين انتهى من القراءة، سألته: لماذا كان يهتز وهو يقرأ، وما الذي قرأه؟!

فقال:

ـ «هذا كتابي، أقرأ فيه دائماً، واهتز احتراماً للكلام المكتوب»!

قلت:

ـ «يامرحبا»!

بعد أيام، تجاسر الرجل، الذي لم يرحل، وبدأ يتذمر من الروائح التي يتركها أطفالي في

فراشهم، فمنعتهم من النوم في غرفتنا، ثمّ أخذ يتذمر من سوء طعامي، فحسنته، ثم طلب مني أن ينام في الغرفة وحيداً، وأن يأكل وحيداً، لأنني أشخر على نحو مزعج جداً، وأريل، وأصوّت . . في أثناء تناولي للطعام!.

وقلت له: «حاضر . .»!

ثم بدأ يضايقني أكثر، فقد طلب مني شراء الغرفة!

عرف حاجتي إلى المال، فألح عليَّ في شرائها. شاورت زوجتي! فوافقت! ومانعتُ، وصددت عنه!

ثم، وبعد أيام عدة، جاء نفرٌ من معارفه، وحلّوا ضيوفاً عليه! وبات أمرهم، جميعاً، مزعجاً تماماً!

ثم تكاثروا. . وتكاثروا! حتى بات الوضع على نحو. . يشعر أنني الضيف، وهم أهل البيت!.

وسألته، غير مرة. . : «متى الرحيل»؟!

فكان يجيب بغمغمات، فحواها: أنه سيرحل، مع جماعته اليوم، أوغداً! وحين ضيّقوا عليّ أكثر ولم يرحلوا، قلت لهم:

ـ «ياجماعة، هذا . لايجوز»!

فقالوا:

ـ «بع البيت لنا. . أفضل»!

وعندما رفضت بشدة، صدوا عني، وشرع نفر منهم يغازلون ابنتي الكبرى، ابنة الثلاث عشرة سنة، ويضربون أولادي، ويعتدون على ماشيتي، ويخربون زرعي. وكنت أقول لهم (عيب، وأقول لنفسي: طوّل بالك ياولد)!

ثم تجرؤوا، فربّوا الخنازير، والطيور في حاكورة الدار. ثمَّ بنوا قربي بيوتاً لهم، بعد أن أخذوا موافقة السلطات. وتناهى إلى أسماعي أن نفراً منهم، غير قليل، اشترى بيوتاً وأراضي، واستقروا فيها، وباتوا كثرة!

كما علمت. . أن عدداً منهم، اشتبكوا مع أهل البلد. . تقاتلوا معهم، وسال الدم. . من أجل البيوت، والأراضي والنساء، والأموال.

فقلت لنفسي:

ـ «ياولد، إن حلق جارك . . بلل ذقنك»!

فعلاً! وقعت الفأس بالرأس، عندما اعتدى أحدهم على أرضي، وحاول أن يزرعها!

قلت له:

«ياحبيبي، (يأبو شوارب كاكي) هذا لايجوز فالأرض ليست أرض أمك. . استح»!

وبدل أن يستحي، قال لي إنها بور، وفارغة. . وسوف يعطيني شيئاً من محصولها! وحاولت

أن أقنعه، انني أريح الأرض بين فترة وأخرى، وبين موسم وآخر. وهذ مسألة لايفهم فيها! فغضب، وعلا صياحه، وهجم عليَّ!

قلت: إذا وصلت الأمور إلى هذا الحد، فيامعين. . المدد، واشتبكنا!

بدا لي قوياً. . عنيداً، لكنني قلت: لن يهزمني لو كان ثوراً، وتصارعنا طويلاً. وقدرت عليه، بطحته، وقبضت على رقبته بكلتا يديَّ، وباتت روحه بين أصابعي!

وسألته:

ـ «والآن ماذا ترى»؟!

ـ فأنَّ:

ـ «أرجوك لقد أخطأت»!

وأضفتُ:

ـ «ترحل. .»!

فأجاب:

ـ «أرحل»!

■

انقطع الحديث حين توقفت الحافلة في محطتها الأخيرة. . فقد وصلنا، وكان آخر ماقاله العجوز للشاب:

«عرفت إلى أين وصلنا في حديثنا. .»!

وهزَّ الشاب له رأسه علامة بالمعرفة، وشرعنا ننزل! غصصت، وتأسفت كثيراً لأنني لم أعرف خاتمة القصة! ولفتّنا ضجة المحطة، تلهينا قليلاً، وأنفقنا وقتاً في استلام حقائبنا، وعلى الرغم من ذلك كنت أبحث بعيني عن الرجلين، العجوز والشاب، لأعرف نهاية القصة، وحين وجدتهما، خففت إليهما، وحالما اقتربت منهما، التحم الاثنان في عناق حار وتوادعا! ودهشت، وانقبض قلبي!

مضى العجوز، وظلَّ الشاب واقفاً، لابدَّ أنه كان ينتظر مخلوقاً ما. ولم أجد نفسي إلا أمامه. ابتسم لي وابتسمت له. هنأته بسلامة الوصول وهنأني! ثم، وقبل أن يمتد الصمت بيننا، سألته:

ـ «وماذا عن نهاية القصة»؟!

أعني ماذا كانت نهاية الرجل الذي عبر»؟!

فابتسم، وقد أدرك أنني كنت أستمع لحديثها، ووُدَّ الشاب أن يحدثني عن النهاية، إلا أن وصول امرأة طويلة، ومباغتها له بالعناق. . جعله يحجم، وكل ما فعله، وحين فكَّ التحامه، تمتم:

«النهاية. . عندي»!

واستدار واستدارت المرأة! وابتعدوا فوق خطواتهم القصيرة الرشيقة، وظللت طيَّ حيرتي!

قصة

تذكرة العباد بسيرة عبد الجواد

خيري عبد الجواد*

بين عسعسة الليل وتنفس الصبح، أعلن نبأ موت عبد الجواد كبير الجوادية البالغ من العمر أرذلـه والعائش من أعمار الخلق مئة سنة الا عشرين، أعلنه أخوه الأصغر لمّا خرج على الملأ بنبأ المصاب الجلل بعد أن ظل ينازع مرّ المنازعة مدة ثلاثة أيام بليلتين حتى تعب فأسلم نفسه للموت مطمئناً.

أعلن النبأ بينما كان أباؤه الاثنا عشر ذكوراً وإناثاً مابين نائم وقائم، وأولادهم وأود أولادهم يملؤن حجرات البيت بشخير منظم متصل، وحين دخلنا عليه حجرة موته. كان أول ضوء للفجر لم يشهده يتسلل من نافذة وحيدة، رأينا عينيه ترنوان الى فضاء بعيد، ورأينا بقايا معركته الاخيرة مع ملائكة روحه فشعرنا برهبة، وكانت رائحة الموت الغامضة موزعة في أركان الحجرة وحول سريره، الملاءة - ملاءة غطائه، كنبة جلزسه في مواجهة سرير موته، رفعنا الغطاء وتحسسنا الجسد الذي ظل محتفظاً بسخونة نضاله المعجز، قمنا بتسخين الماء وغسلناه غسلاً جيداً، غسلنا قروحاته المتيبسة من رقدته الاخيرة، ألبسناه جلبابه الابيض النظيف وأرحناه على ظهره، لفعنا حول رأسه شالاً أبيض

* قاص من مصر.

نظيفاً فأحكم إغلاق فكيه، سبلنا عينيه وفردنا عليه ملاءة، حين أتممنا ذلك قامت كبرى بناته ووقفت في بئر السلم وأعلنت النبأ صريحاً في صوت عواء متصل ليعلم القاصي والداني، بينما كان أخوه يرتدي عباءته مغادراً البيت ذاهباً الى كوم الضبع حاملاً النبأ ومنتظراً أخاه في رحلة عودته الى مسقط الرأس ميتاً، بعد أن رحل عنها في مطلع صباع ساعياً سواحاً في بلاد الله بحثاً عن لقمة عيش ومستَقَرٍ فوجدهما في بولاق الدكرور، وحيث كوّن عائلته التي تجاوز عددها الستين - ستين حنكاً يأكلون بقرة بروثها - كان يقول ويضحك فخوراً وضارباً على صدره بقبضته - جاءوا من صلبي أنا وحدي - جاءوا من زوجتين لم تحتملا فحولته فماتتا وتركتاه يلوك وحدته حتى آخر أيامه التي فكر فيها أن يتزوج للمرّة الثالثة وحال مرضه دون ذلك، كان يلمّح تلميحاً مستطلعاًل رد فعل أبنائه الستين الذين تساءلوا كيف يتزوج ابن الثمانين؟ وهل يقدر على ذلك؟ ولايدرون أنه كان أكثر فحولة من ذي قبل، وأن سائله المتدفق في صلبه دوماً نغص عليه حياته موحياً اليه بفكرة الزواج من امرأة شابة تعيد اليه صباه الذي ولى، وتملأ عليه وحدته الأكثر حدة والني ما ملأها أولاده وأحفاده الأكثر عدداً من البط والإوز والفراخ والحمام الذي يربيه على سطح بيته.

في كوم الضبع أعلن النبأ، أعلنه أخوه لمّا وصل في الساعة السابعة من صباح موته فهاجت النـاس وضجت وتجمعت على الزراعية أمام الترب تنتظر، كوم الضبع ترقب أبناءها العائدين، تلملم أشلاءها المبعثرة - تشرق تغرّب لا مفر من العودة، تبنى وتعلّى ولك في النهاية متر في متر - كان يقول ويرسم بأصابعه على مداميك الطوب المرصوص بيديه، يرسم رؤساً كثيرة، يرسم أرجلاً وأيدياً بأعداد كبيرة، يرسم خيوطاً مشدودة الى دائرة، يصل الخيوط بالرؤوس والأرجل والأيدي يشير بأصابعه: هذه الدائرة هي كوم الضبع، هذه الرؤوس نحن، وتلك هي حبالها الأبدية، قد نقطع الخيط ونفر أحياناً، لكن ثمة خيوطاً أخرى لانراها، تشدنا اليها فلا يضيع منا أحد في زحمة المدن الكبيرة.

قبـل بضعـة شهور من رحيله الأبدي، كان يحمل عصا زمنه المولى سائراً سواحاً، يجوب حواريَ بولاق الدكرور ودروبها، يرصد ما تغير منها وما ظل على حاله، وفي عينيه تلتمع حبات ماء تترقرق وتنز على جانبي الوجه: هنا كانت توجد جنينة الخواجا همفرس، قصور الملك فاروق، قصر الملذات - هنا قُتل صاحبي حارس القصر لحظة تعرفه على صاحب الجلالة - وكان، ياما كان، هناك ملك اسمه فاروق صاحب عزّ وجاه وكانت مملكته تسمى مصر المحروسة، وكان له نديم يسمى همفرس، فاتفق أن همفرس أراد أن يهدي الملك هدية فابتنى له قصراً على حدود المملكة في ضاحية تسمى بولاق الدكرور وجعل هذا القصر أعجوبة من العجائب وغريبة بين الغرائب وسماه قصر الملذات، وصار يجلب له من الجواري أصنافاً، وكان الملك يعشق النساء، فكلما أحس بضيق يتنكر في زي تاجر من التجار ويأتي الى قصر الملذات فيظل في حط وانشراح حتى يصبح الصباح، وصار يداوم على هذه العادة إلى أن جاء يوم من ذات الأيام، وبينما الملك يتقدم متنكراً من بابا القصر وإذا بالحارس يقف وينحني تعظيماً له، فظهر الغضب وبان من عيني الملك وقال له: وهل عرفتني؟ فرد

الحارس عليه: من جهل سموك ماعاش. فأخرج الملك من جيبه سلاحاً نارياً وصوب الى قلب الحارس وأطلق فأرداه قتيلاً - صاحبي ذهب هدراً وتيتمت عياله من بعده. هنا كانت الحظيرة الملكية الملآى بحيواناته المأكولة في عشاء مابعد الجماع الملكي، حيث كان يقدم له طهاته خروفاً بكامله مُذاباً في كأس من الذهب الخالص ليتسنى له مجابهة أعداء الوطن بمعدة ممتلئة، هنا مبنى هيئة التحرير، مبنى مابعد الثورة، وحيث كانت الاجتماعات الثورية المستمرة من أجل تطبيق المبادىء الستة بعد رحيل صاحب المحروسة على متن محروسته، هنا مبنى الدفاع الشعبي حيث تكونت فرق الدفاع المسلح، وفرق الإنقاذ، وإطفاء الحرائق التي كانوا يشعلونها، وحيث قاموا بتركيب صفارتين للإنذار المبكر تعلنان عن غارات الأعداء، وهنا منطقة الخنادق التي تم حفرها - وأسهمت في بنائها - ليفر الناس اليها لحظة هجوم خاطف يشنه الاعداء وقد أصبحت ملجأ للضفادع والكلاب والقطط ومياه الصرف الصحي.

في تجواله الأخير، رأى العمارات الشاهقة مكان الخنادق في زمن منحه معاشاً باسمه مدى الحياة قدره عشرة جنيهات مصرية فقط لاغير. كان يرى في تجواله تحولات بولاق الدكرور الكبرى، وفي عينيه، كانت تومض التماعات طفل يرى العالم للمرة الأولى، طفل ولد منذ ثمانين سنة ولم تصبه الشيخوخة بعد، طفل وُلِد مصاباً بفيروس فناء أمه، حيث تفتحت عيناه للمرة الأولى على ساقي امرأة أبيه، وحيث رأى العالم جملاً بسنامين فاتحاً فاه، على وشك النهامه - جملي وهدية ابي الاولى لي - والذي ضرب حتى أوشك على الموت ولم يبك وأراد الانتقام وأخذ الثأر فكان ماكان، وكان ياما كان هناك ولد ماتت أمه لحظة ميلاده فربته امرأة أبيه حتى كبر قليلاً وأنصت لحديث الرواي صاحب الرباب فعرف أن العالم مقسم الى أربع جهات، وأن الدنيا واسعة، وما كوم الضبع إلا قطرة في بحر محيط، وأن ناسه يسدون عين الشمس، وعلى الرباب سمع: قصة الامير حمزة الشهير بحمزة العرب - كان ياماكان كانت دولة الفرس من الدول العظيمة في قديم الأيام. قصة عنترة بن شداد العبسي أسد الإسود والصخر الجلمود، سيرة الظاهر بيبرس: الملك العادل صاحب الفتوحات المشهورة ملك مصر والشام وقواد عساكره ومشاهير أبطاله مثل شيحة جمال الدين وأولاد اسماعيل وغيرهم من الفرسان وما جرى لهم من الحيل والأهوال. طفل يرى نفسه ماسكاً جريدته ممتطياً حصاناً بوصياً خائضاً المعارك منتصراً على أعدائه الخرافيين ومسربلاً بدماء انتصاره الوهمي، طفل يخلق سعد زغلول حيث يراه ممتطياً حصانه الخشبي وخلفه الشعب يهتف بسقوط الاحتلال، ثورته التي سمع أخبارها من فم رواته - رواة أساطير الوطن، فيما بعد سوف يحقق حلمه بالوقوف منشداً في سرادقات الليالي والأفراح قصصه التي عشقها حتى حفظها: قصة الأميرة خضرة الشريفة وما جرى لها في بلاد النصارى.

قصة: حبيب بن مالك وما حصل لبنته السطيحة على يد البنى. سارة والخليل وهاجر واسماعيل، أيوب لَّما ابتلى، الحجاج بن يوسف الثقفي مع الغلام زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. قصة الغزالة والجمل واليتيم المظلوم وعامر اليهودي.

في تغريبته الاولى هجر بلدته بحثاً عن مكان يصلح مخبأ لعقاب أبوي صارم بعد أن تواترت الأخبار عن قيامه بهجومه الليلي الخاطف على غيطان القطن ليبيع ماجمعه ليلاً في سوق القرية نهاراً من أجل شراء حلوى طحينية ورغيفٍ من عيش البنادر، وحين تم العثور عليه مقرفصاً داخل ممر مائي جاف، ثم تعليقه من رجليه على فرع شجرة سنة كاملة - هكذا ظن - فكان يسمع عياطه على مسيرة يوم، حتى تم رفع العقاب الأبوي ففاحت منه رائحة نتنة وقد تغير لونه إلى الرمادي بعد أن غطاه براز طيور أبي قردان.

الغربة داء ودواء - حدث نفسه وهو يوّطنها على خوض مغامرته الكبرى صوب المدن الكبرى والأحلام الأكبر من كل شيء، في تغريبته الثانية، كانت بدايات فتوته قد ظهرت، ففي رؤاه الليلية كان ثمة حيوان خرافي يتشكل في هيئة امرأة كل مايميزها غور واسع عميق أشد إظلاماً من ليل كوم الضبع، في معركته الأولى والتي ظهرت آثارها فوق جلبابه صباحاً، بدا أنه أكثر جرأة على خوض معاركه الوهمية، وكان قد تخلص نهائياً من طفولته - أجرب حظي وأمشي سواحاً في بلاد الله - حمل عصا ترحاله ورحل، عصا غربته التي ظلت تلازمه كظله، والتي رقص بها تحت أنظار الناس على أنغام الغاب لحظة سماعه حكماً ببراءته من جريمة مافعلها قط، سرقة بساطه السحري الذي اشتراه ليروض به المدن الكبرى - ابن الناس وشى به لما رأى سجادة صلاة في يدي، وكان يظنها ماذكر في محضر الشرطة من سرقة بساط صنعة بلاد العجم - سافر مصحوباً بفقر ودعوات أب وغبشة الفجر الأولى وصرة قماش بها محلبة وأقراص عيش وقطع جبن قديم سابحة في مش. من أين وإلى أين الطريق الى قريبي ياربي؟

ولوْ كان علمي بأن الوعد مدّاري.. ماكنت أسافر ولا أطلع قط من داري» ردد موالاً قديماً فأحس شجناً خفياً، وحن الى شجرة جميز وحيدة كان يرتكن اليها والى ساقتيه النواحة، أبوه، صاحب الرباب، ورائحة بوله المنهمر في «الرطش» رأى نفسه يعيش أول صباحات المدن، ورأى اختفاء الشمس خلف العمائر الشاهقة فتعجب لذلك، في تجواله للبحث عن عمل شاهد حي الخارطة القديمة - والتي سوف يراها فيما بعد تتحول أمام عينيه الى بين السرايات - بعمائر فخمة وجنائن الورد والموز وتعريش العنب، رأى الدقي القديم بعششة الصفيح وحقول القمح الممتدة حتى بولاق الدكرور - ملجأي وملاذي - عزبة الورد وشارع داير الناحية - وسألت نفسي: ياواد تعرف تعيش هنا؟ ولاّ ترجع وخيبة الأمل راكبة جمل؟ وفيما بعد سوف يذكر كيف اتخذ قراره بتعلم صنعة لازمته حتى الموت، بناء، أول صفعة تلقها وجهه من المعلم لخطأ البدايات اولى، تعلم رص المدماك فوق الآخر، أن يفرد خيطاً ويقيم الميزان ويصنع سقالة تعلم، على سقالته رأى الموت بعينيه ذات صباح بينما كان يهم بتركيب عتب مسلح حين انكسر فجأة لوح الخشب الواقف فوقه فوقع وانخرق العنب بعيداً عنه، لحظتها قرر نذراً لابن بنت النبي، اشترى رطلين من اللحم وأرزاً وأرغفة، قام بتوزيعه على باب المقام، حجرته الصغيرة الضيّقة بشارع داير الناحية في الدقي القديم، شراؤه كل مايلزم عيشة عازب يتعذب بوحدته وانهزام أبطاله الخرافيين أمام عينيه، عودته

الأولى للكوم الضبع، شراؤه أول جلباب من الصوف الأنجوري وعباءة كشميرية وحذاء بنعل كرب، إعطاؤه للوالد جنيهاً كاملاً من عرق جبينه، مفاتحته له في أمر زواجه بعد رؤيته لولده الكسيب.

قبل أيام من رحيله، وفي مواجهة سرير تغريبته الأخيرة، رنا الى الحائط مستعرضاً صوره المعلقة، صور دنياه التي عاشها طولاً وعرضاً وما ارتوى ـ هذه صورتي: في شبابه، حيث كان متكئاً على حائط فرغ تواً من بنائه، يده اليمنى قابضة على مسطرينه، أما الأخرى فتحمل قبعة من قماش مخرومة ومزينة بكبسولات نحاس، على جبينه حبات عرق لامعة في شمس الظهيرة. وصورة لي: جالساً فوق شيكارة اسمنت على الأرض، أمامه ورقة عليها قطعة حلوى طحينية ورغيفان، حوله قوالب طوب متناثرة وحائط لم يكتمل بناؤه بعد. وصورة لي: على كوبري قصر النيل، خلفه ينتصب سبعان من الجرانيت الأسود، ذراعه ملتفة حول كتف زوجته الثانية الشابة وكانا في أسبوع زواجهما الأول. وهذه صورتي وأنا: بين أطفاله الثمانية من زوجته الأولى ـ زوجة صباي وعزّي ـ بجانبه تجلس أم الترقيدة الثانية، والتي فيما بعد سوف تنجب ولدين وبنتين يقاسمونه شيخوخته. وصورة ـ صورتي لمّا طلبوني للقرعة عام ٤٨، ووجدوا انه تخطى سن التجنيد فعاد هو فقط وقد نجا من رائحة الحرب الفاسدة التي أطلقها أعداء الوطن. صورة: بملابس الإحرام في رحلته الوحيدة خارج دنياه الى بلاد الله، ورجوعه حاملاً في رقبته عنقوداً من تين الحجاز وبطانية ذات مربعات زاهية ولقب حاج. وأخرى: واقفاً أمام بيته محيياً مستقبلية، خلفه تشف سفينة كبيرة بثلاثة أدوار بحار الطوب الأحمر المطرطش، فوقها تحلق ظائرة طيارة رسم فوق مؤخرتها علم مصري له ثلاث نجمات يختبئن في حضن هلال، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، وجملاً بسنامين، حجُ مبرور وذنب مغفور، كل سنة بعودة ياحاج.. وعنقودان من كهارب الزينة بالوان مخلطة على واجهة البيت، حديثه عن الصفا والمروة ورمي الجمرات ورؤيته للكعبة بعينه المجردة.

في صورته الأخيرة نائماً على فراش موته بدا شاحباً، وكان قد رجع تواً من صلاة عيده الأخير لمّا أحس بسرطانه يهزمه، معركته الأخيرة مع عدو حياته وقد ظلت قائمة مدة سنة، سنة كاملة كان يقبض على كبده المتهرىء بكلتا يديه مهدهداً سرطانه الحي فينام قليلاً بين يديه، مفسحاً له فرصة العيش بضع ساعات دون ألم.

كان الليل على وشك لمّا هب من نوه فزعاً وقال اللهم اجعله خيراً، ثم أكمل: جاءت لتأخذني. وحدق فينا فتساءلنا من هي ياوالدنا. فنظر الينا وقال أمكم، ونظر الى إخوتنا وقال زوجة أبيكم. فقلنا في نفس واحد: وهل أخذتك!

فهز رأسه ووضعها بين راحتيه وسكت فلم نتكلم نحن، عاد بنظره الينا وتساءل: يعني حاموت! ولمّا لم يتلق إجابة أكمل: من يعرف.. مايمكن ربنا يكرمني وأقدر أقف على رجلي مرّة ثانية.

* * *

قصة

الانتفاضة

سليمان الازرعي*

في غرفة مسكونة بالعفونة، تبدو مستطيلة الشكل لكنها متعرجة الأضلاع، أشبه ماتكون باسطبل الابقار، كانوا جميعا.

كانوا يرقدون على أسِرّتهم ببلادة الابقار الهرمة، يناقشون تارةً الوضع السياسي. وأحيانا يتحدثون عن الفن والالتزام والثورة الجنسية. وتارة يتجادلون في أقصر الطرق لقتل الملك بالحصان والفيل الأبيض. ثم يتفقون. وربما تحدثوا عن إملاق الجماهير وزحف الصحراء ونتائج الجفاف.. كانوا يعدّون باستمرار أسماء الكتب المهمّة، ويشتمون كثيرا من العناوين.

---

* قاص من الاردن.

هم متفقون دائماً!! يمدحون معا ويشتمون معا. . يبرّرون، يتهمون، يقطعون صكوك الغفران. . ويهدرون دم الخالصين والمجتهدين بالرأي ينفقون باستمرارٍ وتلتقي آراؤهم كعصابة مقدّسة، فيشك في أفكاره اذا ماخالفهم. . حالةٌ ممن حالات إلغاء الوعي القسرية.

آثر الصمت، ولم يعد يشاركهمم نقاشاتهم. . كادوا يزلزلون ثقته حتى بافكاره النظرية. . لكنه كان يستمد ثقته من صوت المغنّيَ الجوّال في الخارج. دائما، كان المغنّيَ يعيد إليه الثقة، ويسند معنوياته.

كيف يمكن البقاء معهم داخل اسطبل واحد؟. . حالة قهرية تبدو فيها تبدو قدرية.

تعلّم منهم النومَ، ولكنه لم يمت. . من حين الى حين كان يستيقظ على شخيرهم. يقطعون وصلة نومه، فيجفل. وكان الامر لصالحه. لم يكن ينتقل من النوم الى الموت. . أما هم، فكانوا يموتون كل ليلة. يستيقظون لتناول وجباتهم وكميّات الكحول اللآزمة، ومن ثمّ، يفرغون الفضلات، ثم يتناقشون ويعودون إلى الموت مجدّدا.

وحده من بينهم جميعا، كان يفكر بالمطر في مناطق التصحّر. .

تناقشوا وتبادلوا الآراء، ثم اتفقوا كالعادة، فظلّ مستمعا ولم يشارك. ولم يعلن عن قراءاته وتنبوآته خشية الاّ يتفقوا جميعا كالعادة، ويسخروا منه ومن أفكاره.

استلقوا على أسِرّتهم في الطريق الى الموت، فتوجّه الى كوّة في الحائط، وراح يتنهّد ويرقب السماء:

(طال انحباس المطر) خاطب أعماقه بحزن شديد، فسمعه أحدهم!:

ـ لاشيء في الافق يعكّر الرؤية. الرؤية واضحة، وأنت حالم. انظر. ان النجوم واضحةٌ تماما. إنّها تدوّي في افلاكها، وليست أكثر من حقيقة مادّية صامتة. عليك ان تدّرب نفسك على الهدوء. ولا تستعجل المواسم قبل أوانها. . فجياد المطر لاتزال في مرابطها منذ آخر المواسم. . انها تحمحم هناك، وها أنذا أستمع إلى أصوات زرد الأعِنّة والقيود. .

شكّ في أحاسيسه، وخبت جذوة الاستبشار في أعماقه، وقال في نفسه: ما أسوأ أن تحبس الخيول. . وما أروع الانطلاقة المجيدة للخيول الربيطة. فجاء صوت المغنّي من بعيد:

خيولُ الريّاحِ
خيولُ الرجالِ
خيولُ المطرْ
فحولُ تجيءُ من الشرقِ والغرب
من كلِّ فجٍّ وصوبْ
تَزفُ الأجنّةَ في عُرْسها الأبديّ
الى التربةِ الماحلةْ. .

أعاد المغني اليه الثقة من جديد.

ـ إنها الرّيح. . أنا أؤمن إيمانا قاطعا بأنها الريح. أنا أعرف ذلك جيدا، وأذكر رائحة الأرض وهي تستعد لتستقبلَ بغالَ الرياح المحمّلة بالمطر. . حيوانات الغابة التي تحسّ بالزلزال قبل وقوعه ليست أفْهَمَ منّيَ. صدّقوني. أنا لاأزف خبراً كاذباً. استمعوا الى سمفونية الريح في الخارج. انظروا كيف ترتعد فرائص الأشتال الصغيرة، فيما تفكّ النخلات العملاقة أزرار قمصانها بعصبية. . انها تستولد المطر من أحشاء العاصفة، كي تستحم عارية، وتتطهّر من غبار الطلع الميّت لتحبل من جديد. إنها ترفض الموت باصرار.

ـ غير أن موسم قد ولّى يافصيح. إنّها رياح القحط الصفراء التي لاماء فيها. وأنت تعرف المحل جيّدا. لم يعد غريبا علينا. . ولكنني اعترف لك، بانني نسيت تلك الرائحة التي تتحدّث عنها. ولهذا فانني أشكُّ تماماً فيما تقول.

صَفْرتْ شقوق النوافذ، وأنّتْ أنينا يجرح قلب الليل. خمدت فحزن. . عوت ذؤباناً جائعة على أكداس الثلوج. . زأرت ثانية فتلظّت عروقُ البرق في مفاصل الغيوم. أجفل الرعد وأطلق زئيره في وجه البروق مبدّدا وحشة الظلام. .

ـ الريح لاتنكر نفسها ولاتتنكر. . لاشكّ انها العاصفة. .

* * *

تسلّلت الريح ودخلت من كل الثقوب. امتدت الى مشكاة في الجدار وأطفأت السراج، فاستعاد الظلام شبابه.

ـ أشكّ تماما في كل ماأسمع وفيما أرى.

ـ غير أنها العاصفة.

واصل المغنّي الجوّال نشيده:

وأقبَلَتِ النَّقْعُ تعقدُ بعض الدوائرِ
تشتدُّ
تنبْيء بالمستحيلْ
وأظلمَ ليلً
على الكون داجٍ
يبشرنا بشتاءٍ طويلْ
وطفت بروقُ الضياءِ الظلامَ
بسكينةِ النورِ
قيْلَ،
وقيلَ:
فارختْ ذوائبها السُّحبْ

ألقتْ مواعظِها للحقولْ.
وقِيْلَ:
بأنَّ سِماخَ الحشائش
حَلتْ ظفائرَها المخملَيةَ
أمسَتْ نخيلْ..
ـ ألا تسمع. انه نشيد المغنّي الجوّال.
ـ انا لاأسمع شيئا. ولا أدري من أين تجيء بهذه الأصوات.
أكمل المغنّي بقية النشيد:
وظلَّ يقولْ:
أشكُّ بأنَّ التي تعصفُ الريحَ
ان سيولَ النبيذِ سيولْ
وهذا النخيلُ
يحلُّ ظفائره للتبرّجِ والكِبْرِ؟!
إنّ الذي يحدثُ المستحيلْ!!

تململ ميّت يهذي في أحلام موته:

إنها العاصفة..

تململ ميّت ثاب إلى النومم:

إنها العاصفة؟!

قال نائمٌ

إنها العاصفة؟!

قال آخر:

إنها العاصفة!

قال آخر:

إنها العاصفة!!

إنها العاصفة!!

لم يخطىء هذه المرة، ولم يكونوا قادرين على قلب قناعاته وإلغاء عقله، حتّى لو اتفق معهم كلّ خلق الله. تحسّس النيام أقفيتهم. كانت الماء قد سالت من تحت اما هو فقد قتلته الرائحة. فقرّر مغادرة الاسطبل، فتح الباب. فكَ أزرار قميصه كما يفعل النخل العملاق، واستقبل المطر. رأى أضواء القرى العالية من بعيد تُخزّق معطف العتمة.

تحسّس جبينه وصدره.. شهق عدة شهقات.. وانطلق يعدو مع العاصفة، ويقاسم الرّعد الزئير..

قصة

ثلاثة معاقل لامرأة

عيسى بعجانو هيشون*

«حين تجري وراء رحلة، لاتنتظر القبضة التي ترفعك عن الأرض فقط»

«نصيحة»

[مخاطبة]

«يقال: أقدم خيمة للفلسطينيين كانت في فلسطين... ويضيفون: أول المخيمات للفلسطينيين كانت في فلسطين.. ويؤكدون: الأمم المتحدة، وقبلها عصبة الأمم، أول من قدم الخيام للمجتمعات الإنسانية. ويبتعد آخرون أكثر فيقولون: الخيمة الفلسطينية بقيت مكانها، والخيام الراحلة هي خيام الأمم المتحدة.. وغير المتحدة..»

---

* شاعر من سورية.

الحرب.. مد خطاك.. مد خطاك.. البحر، والصيف

مد خطاك.. في الحر، في البحر.. مد خطاك

الحر البرد في البر.. نموت..

طاق، طاق، طاق، طاق، طاق، طاق..

السماء خلفكِ زرقاء صافية... والطريق الذي تعبرينه ممتد من ذاك الأفق..

«قال شاهد عيان أنه شاهد رجالاً، يحملون سلاحاً، وشاهد دبابات وقذائف تنفجر..»

«وقال آخر: وجدت في مكان واحد ـ كان منزلاً ـ أكثر من أربع عشرة جثة.. الذباب عليها، ولها رائحة وبعضها موثوق بحبال..»

«وقال آخر: أنا متأكد ـ هنا ـ كان يسكن عدد كبير من الناس.. أولاد، وشباب ورجال، ونساء... وكانت هنا أبنية لها نوافذ وأبواب..»

الأرض.. الأرض الأرض

رصاص.. رصاص رصاص

رصاص في الأرض رصاص وفوق الأرض رصاص

تمدين النظر، تلوحين بيدك، وتمدين الخطو، يرافقك ظلك، يسير وراءك طفلان.. عرفت أسماء كثيرة، أسماء أشخاص، وأولاد ودساكر، ومخيمات...

حرثتِ، وأنجبتني رشاءً، وأشبال، زُرعتي» وتسلقك «الديس» والعليق، وكثرت حقول القمح والذرة، ودوار الشمس.. أنت أرض كل المحاريث، وشمس كل النباتات..

= الانجاب = حراثة وبذار

نبت وقتل

قتل للحراثة

قتل للزّراع

«قدّم أحدهم وثيقة فيها صورة فلاح أمامه ثورين، وتبدو في الأرض بعض الأشجار، وكيس البذار، وتنتصب الى جانبه عصا طويلة كالرمح، علتها كالراية قطعة قماش... فيها ينسج شبكي أحمر، وعندما سئل عن ذلك قال: ذلك الصمد، والمساس، والشملة».

عين، أذن، طريق، أذن وعين وطريق

في العين ترى، وفي الأذن تسمع

وفي الطريق تموت ... ...

وعلى مقربة العواصم تبتعد عن بيروت

تحبين الانجاب شهوة وأرضاً..

انا أحب الكمأة يافلسطينية صبرا..

تعدين للانجاب...

رأوا حولك أحجاراً مكسورة، وبيوتاً مهدمة، رأوا أشجاراً تبكي بين الأشجار، بين الأحجار أصابع وعيون.. ودماء تجري

«يا صبرا... أحب الكمأة... الكمأة تأتي لا تتكاثر

تأتي في زمن الرعد، تأتي حين يشتد المطر، ويزداد اللمع، تكثر في أرض البور أكثر. حبات الكمأة تنمو... تنمو، لا تتكاثر، تكثر شتاء، لا صيفاً..

يقولون أنهم باعدوا بين الأسلاك ليتسع الرحيل، وضيقوا المربعات حتى لا يذهب الطالح الطالح.. يحبون فيك قتل الإنجاب.. وأنت ياصبرا تحبين الأرض..

حبات الكمأة تحب هطول المطر، وارتعاش الأرض؛ الكمأة تحب الصاعقة والرعد.

[المحاريث... شاتيلا]

واحدة هي انفلقت أرضاً، ومحاريث الحقل مكسورة؛ المطر هذا العام وفير، وسوف تبرد يا طفلاً أهلوك، أحبوا بعضهم، وأحبوا الأرض..

المحاريث توقفت... تزداد أراضي البور... تزداد الكمأة..

في الأراضي التي همد محراثها، وبارت، وانتظرت المطر..

الأرض التي بارت، وانمطرت، وهزها الرعد،

الأرض التي انمطرت وهزها الرعد وغزتها الصاعقة.

الأرض التي هزها الرعد، وغزتها الصاعقة.

الأرض التي غزتها الصاعقة، مد خطاك.. مد خطاك

توقف أيها المحراث، قلبت الأرض كثيراً.

دع النباتات البرية تكثر..

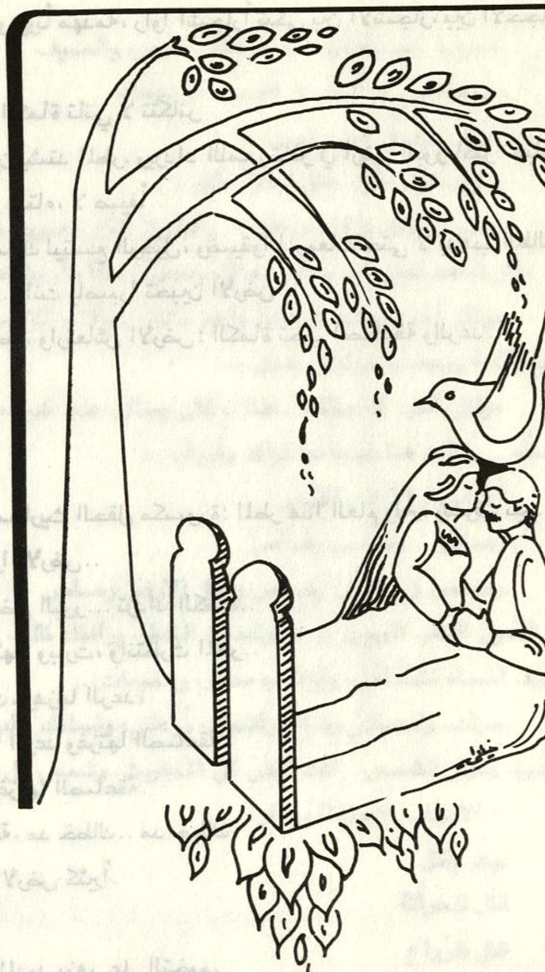
دع الأعشاب تنمو، وبنات المدى يزهر على التخوم،

قد تلقى الحدود، وقد تكثر الكمأة

قد يرتاح الطير، وقد تثلج السماء، فالسحب كثيرة،

والرياح كثيرة،

والقتل كثير في أرض الحراثة..



قصة
حسن وزينب

محمود شاهين*

السمسار حسن أدمن السُكر. يسكر في الصّباح، في الظهيرة، في المساء، يسكر حتّى الفجر. يريد أن ينسى زينب وحمل زينب، إن استطاع ونظراً لارتفاع نسبة الكحول في دمه، فقد بات يغرق في الثمالة بعد تناول جرعة واحدة من العرق. جرعة واحدة فقط غدت كافية لتغرقه في ثمالة أبديّة من المحال أن يصحو منها يوماً. وبهذا اختفى وجهه العدائي الشرّير، وراح يظهر دائماً بوجهه اليسوعي النبيل المسالم، حتّى أنّه توسّل إلى الشيخ عليّ أن يعيد له زينب بكل الوسائل وتحت أية شروط.

---

* روائي وقاص من فلسطين له العديد من المؤلفات

أقبل الشيخ فواز بيت أهل زينب بتواضع جم بلغ حَدَّ المسكنة، حتّى أن من شاهده وهو يقدم لم ير عليه هيبة شيخ العشائر على الإطلاق، إذا لم يرأف بحاله!

كان أهل زينب ينتظرون أقلّ إشارة من حسن ليعيدوا له زينب، لعلّهم بذلك يكفّون ألسن الناس عن التقوّلات حول أسرار الحرَد والحمل، فوافقوا شريطة أن يكفّ حسن عن اتّهام زينب بأنّ الحمل ليس منه.

وقع هذا النبأ على زينب وقع الصاعقة، لاعتقادها أنّ «حسن» سيقدم على قتلها بعد أن يصحو من سكره.

(كانت في الأشهر الأخيرة قد اعتادت التسلل إلى الجبال - حيث قبر الشهيد «عمر» - وهي متسربلة بملابس السّواد. وبطنها يندفع أمامها. تسقي النباتات والورود التي زرعتها حول القبر وتضيء شمعتين، شمعة عند «رأسه» وشمعة عند «قدميه» ثمّ تجلس في صمتٍ عند القدمين، دون أن يفارق مخيّلتها وجه عمر. وكانت قد تابت إلى الله وواظبت على الصلاة، وفي أحيانٍ كثيرة كانت تؤدّي صلاة المغرب إلى جانب القبر. مرّة واحدة فقط سلكت سلوكاً غريباً. عندما تذكّرت بعض لياليها مع عمر، فداهمتها الرغبة، ولم تعرف كيف وجدت نفسها تتعرّى من كل ملابسها وتجلس على ركبتيها عند «قدمي» الضريح ومخيّلتها تستحضر «عمر» بكل عنفوان شبابه، غير أنّه لم يبدر عنها أيّة آهة أو حركة، وظلّت جالسة في صمت وخشوع وسط جو سادته رهبة فريدة إلى (قصّة النباتات والورود التي كانت تنبت حول قبر عمر، والشموع التي كانت تنير كهفه ليلاً. جعلت الناس في ضواحي القدس يتحدّثون عن ملائكة ينزلون من السماء مساء كل يوم، يسقون النباتات والورود ويضيئون الشموّع. ولم تمر سوى فترة وجيزة حتى غدا «عمر» في نظر النّاس «وليّاً» تنذر له النذور وتتبرّك النساء منه، ويحلفن بحياته قائلات «وحياة سيدي عمر» غير أنّ مكانة عمر هذه لم تحل دون حدوث ماحدث لزينب. رغم تنبؤات العرّافة «اللاجئة المجنونة» التي جزمت بأنّ زينب ستحيا وتنجب طفلاً لعمر!).

«لا! لن أعود إلى حسن» هكذا هتفت زينب بعد أن طلب إليها أخوها الأكبر أن تحزم أمتعتها ليصحبوها هم والشيخ إلى بيت زوجها. وهُنا بالذّات أيقن أخوتها أنّ في الأمر سِرّاً، فتساءل الأكبر في دهشة:

- لماذا يا امرأة؟

هتفت زينب بوهن:

- لأنّ حسن سيقتلني!

وازداد الأخوة دهشة على دهشة:

- ولماذا يقتلك يا امرأة.

- لن يصدّق أنّ الحمل منه.

- لكنه لم يعد يشكك في الحمل كما قال الشيخ.

وأومأ الشيخ برأسه موافقاً.

- لا! ربّما قال هذا وهو سكران، وعندما يعود إلى وعيه سيقتلني!

ونـظراً لأنّ الأخوة لم يكونوا على معرفة بحالتي حسن المتناقضتين في الصحو السكر، فلم يذعنوا لها، قال الأكبر:

- أنت مجنونة؟ إذا لم يقتلك وهو سكران، هل سيقتلك وهو يقظ؟ هيّا! اتركينا من الكلام الفارغ واحزمي ثيابك لتعودي إلى بيتك!

وكررت زينب بحزم:

- لن أعود، وافعلوا مايحلو لكم!

وليست مفاجأة أن ينهال الأخ الأكبر عليها بالصّفعات، المفاجأة أن تنهار أعصاب زينب تحت وطأة ضربات الأخ المؤلمة وتصرخ بملء فيها بما لايريد أن يسمعه أحد:

«لا! لن أعود إلى حسن لأنني أكرهه هيّا اقتلوني، اقتلوني، اقتلوني!!».

وانطرحت على الأرض في شبه غيبوبة.

تراجع الأخ الأكبر بضعة أقدام إلى الوراء، فيما وقف الشيخ والأخوة الآخرون في حالة من الذّهول، وعمّ صمت شابه الترقّب، لم يبدده إلّا كلمات الأخ الأكبر:

«لن يغسل عارنا إلّا رجمها بالحجارة حتّى الموت، خذوها إلى ساحة البلدة»!

قال ذلك بهدوء وحزم وكأنّه يسلّم بقدر لامفرّ منه، ولاسيّما بوجود الشيخ الذي قد يعتبر أي إجراء غير هذا سيكون خروجاً مشيناً على الدّين وعادات البلاد وتقاليدها!

تردد الأخوة الأصغر للحظات قبل أن يقتربوا من زينب وينهضوها من يديها ليقتادوها إلى ساحة البلدة، دون أن يبدي الشيخ شيئاً يمكن أن يساء فهمه، أو يعتبر تدخّلاً في الشؤون العائليّة للأسرة، وربّما خروجاً على الأعراف السائدة!

كان الوقت قبيل الأصيل، وقد أخذت الشمس تتمطّى وهي تتدلى في الأفق الغربي خلف جبال القدس، لتخلد إلى النوم بين جحافل من الغيوم الملتهبة، وكان الرّجال يؤوبون إلى البلدة عبر الـطرق المختلفـة. و «الورّادات» من الفتيات يسرن في أسراب حاملات صفائح الماء على رؤوسهن، فيما كانت بعض النسوة يقمن بالأعمال المنزليّة أمام البيوت أو يشعلن نار المواقد لتحضير طعام العشاء، فتصاعد الدّخان وارتفع لتسوق الرّيح الغربيّة قطعانه نحو قمم الجبال الشرقيّة. وكان الأطفال يلعبون في أماكن شتّى بين البيوت، مرتدين أسمالاً بالية، فيما كان الرّعاة ينحدرون السّفوح المحيطة بالبلدة وقد تعالى صدح أراغيلهم ونایاتهم، وضجّت الأودية بثغاء قطعانهم ورجع أغانيهم.

خرجت زينب من البيت برفقة سبعة من أخوتها والشيخ عليّ، أمّا أخواتها وأمّها فقد اعتصمن داخـل البيت، واكتفت بعض الأخوات بالتلصص على ماسيجري من خلف ستائر النّوافذ فيما ظلّت الأم والأخوات الأخريات معتكفات في الداخل، وقد جلسن في صمت ورعب وذهول.

كان إثنان من الأخوة يتمسّكان بذراعي زينب ويسيران إلى جانبيها دون أن يدفعاها أو يحثّاها على الخطو، فقد كانت تسير طائعة وبخطى متّئدة وقد أسبلت جفنيها، فلم تعد ترى إلّا مابين قدميهـا، فبـدت وكـأنّها مستسلمة تماماً لقدرها. وبدا أنّ الأخوين راضيان عن اتّئادها أو أنّهما لايتعجلّان لحظة الأبديّة. وللحق إنّ الأخوة جميعاً بدوا مكرهين على تنفيذ مالا بُدّ من تنفيذه، وكانوا يتمنّون في نفوسهم لو أنّ في مقدورهم أن يستبدلوا الرّجم بعقوبة أقلّ إيذاء.

على مسافة أقدام من اللذين يقودان زينب، سار باقي الأخوة اثنين اثنين، وبالخطى المتّئدة ذاتها، حاملين قطعاً من الحبال في أيديهم. الأخ الأكبر شكلّ صفاً ثنائياً مع الشيخ في نهاية الموكب، الذي بدا كمأتمٍ متواضعٍ لجنازة تشيّع إلى مثواها الأخير.

أشاح الناس نظراتهم، أيقن الجميع أنّ شيئاً رهيباً سيحدث. ألقت الورّادات صفائح الماء وتوقّفن يتهامسن أو ينظرن بصمت، وقد وضعن أيديهن على صدورهن فيما تخلّت النّساء الأخريات عن الأعمال المنزليّة وانتصبن بقاماتهن الفارعة أمام البيوت، أو أخذن ينظرن عبر النّوافذ، وهرع الأطفال عدواً نحو الساحة حتّى لايفوتهم أي شيء من المشهد، وأقبل بعض الرّجال بخطى سريعة وعيون نهمة، ومن السّفوح أرسل الرّعاة نظرات حادّة لمعرفة مايجري، فيما كانت اللاجئة المجنونة تجتاز البلدة بشكل لم تبد فيه من قبل. كانت ترتدي كيساً من الخيش وقد تهدّل شعرها على كتفيها، وكانت تدق صدرها بالحجرين وبعنفٍ أكثر من أيّة مرّة أخرى، وكأنّها تؤنّب نفسها على الحدس الذي خانها.

أحاط الأطفال الساحة قبل وصول الموكب الذي ترافق وصوله مع وصول العديد من النّساء والرّجال. أخذ الجميع أماكن لهم، يستطيعون منها أن يرقبوا كُلّ ماسيجري.

أفسحت الحلقة لدخول الموكب. اجتاز كافة أخوة زينب الحلقة ليتوقّفوا وسطها، فيما تخلّى الشيخ عن المتابعة وتوقّف في مكانٍ متقدّم عن الناس. اقتاد الأخوان زينب بضعة أقدام لتصبح في مرمى الحجارة. قيّدا يديها خلف ظهرها، وضمّا رجليها ليطوقّهما حبل غليظ. جثت على ركبتها بكل طواعية وقد اندفع حملها الذي كان في أيّامه الأخيرة ليملأ حوضها، وأسبلت جفنيها لتغمض عينيها تماماً دون أن تلقي أيّة نظرة على ماحولها وبدا أنّها تحاول جادّة انقاذ الحمل الذي في رحمها، فقد انحنت بكل جسمها لتجعل بطنها في مأمن.

تراجع الأخوان إلى الوراء فيما الأخوة الآخرون ـ ماعدا الأكبر ـ يجمعون الحجارة من الساحة ويكوّمونها أمامهم.

همس أحدهم الذي وصل لاهثاً لتوّه، همس وهو يقترب من الأخ الأكبر ماداً رأسه:

«كان يجب أن تحضروا لها حفرة لترجم فيها وتدفن».

أدرك الأخ الأكبر أنّ هذه المسألة كانت غائبة تماماً عن باله، فتساءل بهمس:

«ألا يمكن أن ندفنها فيها بعد»؟!

أطرق الشيخ لبرهة.

«يمكن! على أن تدفن وحدها بعيداً عن الميّتين حتّى لاتدنّس قبورهم».

وأومـأ الأخ الأكبر برأسه موافقاً، وتراجع الرجل ليأخذ مكاناً بارزاً إلى جانب الشيخ علي وبعض الوجهاء والمخاتير الذين حضروا للتو.

«فاطمة الليثي» دخلت البيت على أمّها وهي تداري حملها بيديها وتهتف بهلع «يمّه ياحسرتي سيرجمون زينب ياويلي».

كانت «أمّ عامر» تنقّي قليلاً من العدس لطعام العشاء وعندما باغتتها فاطمة بالنّبأ وقع صحن العدس من يديها، وهبّت واقفة وهي تردد «ياريت عليهم السّواد ياريت عليهم السّواد، مين فضح سرّها يمّه ياحبيبتي»؟!

تمتمت فاطمة والرّعب يجتاح كل كيانها «لا أدري يمّه لا أدري. الله ينتقم منّه في ماله وعياله!».

وهرعت أمُّ عامر دارعة الصدر عارية الرأس على غير عادتها، وهي تطلب إلى فاطمة البقاء كي لاترى شيئاً مما سيحدث، غير أنّ فاطمة لم تكن قادرة على منع نفسها من التطلّع رغم كل الرّعب الذي كان يجتاحها، فوقفت على النافذة وتمسّكت بقضبانها وراحت ترقب مايجري من بعيد.

الشرطة لم تتدخّل في المسألة الدكتور سليم علم بالنّبأ وكان على يقين أنّه لايستطيع أن يفعل شيئاً في أمر كهذا،

«أم عائد» ظلّت قلقة على فاطمة التي هرعت لتخبر أمّها «فقد ترتعب ياحبّة عيني» وكانت أم عائد قلقة أيضاً على «عائد» الذي لم تصله رسالتها إلى السجن كما يبدو، وإلاّ لردّ عليها. نهضت وراحت تحثّ السير نحو بيت أم عامر.

«نجمة» صعدت إلى الطابق الثاني ووقفت على الشرفة وتمسّكت بقضبانها، وكم دققت النظر لعلّها تشاهد الشيخ فواز غير أنّها لم تشاهده، فقد كان الناس يتجمعون بالآلاف، وصعب عليها تمييز الشيخ من بينهم.

السمسار حسن كان بالتأكيد في حالة الثمالة، وكان يأمل عودة زينب برفقة الشيخ، فسارع إلى ترتيب الأشياء وفتح النّوافذ لتهوية البيت، حتى أنّه نفض الغبار عن باقة ورد بلاستيكيّة ليستقبل بها زينب، وللحق أنّه شاهد الناس عبر النافذة يهرعون من كل صوب ويتجمعون في الساحة، فاعتقد أنّ السلطات طلبت إليهم التجمع كما جرت عليه العادة، فقرر أن يتجاهل كل شيء وأن يستمر في ترتيب البيت لاستقبال زينب.

انحنى الأخ الأكبر ليأخذ حجراً بحجم رأس القط، فانحنى اخوته بدورهم. توسّلت زينب إلى الله في سريرتها أن يعجل أبديّتها وأن لايدعها تطول تحت وقع الحجارة، وظلّت على جلستها، دون أن تفتح عينيها ودون أن ترى شيئاً مما يجري حولها، حتّى أنها لم تسمع سوى جلبة خفيفة وهمسات تنطلق بين الفينة والفينة، لكنَّ كُلَّ هذا توقّف فجأة ليعمَّ صوت رهيب للغاية.

كان الأخ الأكبر قد رفع الحجر بيده، وآلاف العيون تحدّق إليه دون أن ترف، وآلاف الأنفاس تكتم دون أن يُسمع لها أي صوت. بدا الأخ متردداً وهو يهمُّ لقذف الحجر، فشرف الأسرة وسمعة العشيرة، وإحلال الحقّ، والانتصار للعادات والتقاليد تدفعه لقذفه، ورباط الأخوّة وإحساسه بعدم انسانيّة مايجري - ولاسيّما أنّه زنى كثيراً في حياته - يدفعانه للعدول. لكن، وكما بدا، تغلّبت الدوافع الأولى على الدافعين الأخيرين، فقد قذف الأخ حجره، وإن كان قد أشاح وجهه جانباً قبل أن يرتطم الحجر بكتف زينب، تأوّهت زينب متألّمة وهي تجاهد لاحتضان حملها بكلِّ جسمها، وانطلقت حجارة باقي الأخوة لتصيبها في مواضع مختلفة.

أخفى العـديد وجـوههم أو أغمضوا عيونهم، وصرخت بعض النساء وانحبست أنفاس الأطفال، وارتجفت قلوب الكثيرين ممن «زنوا» أو «زنين» في حياتهم، حتّى قلب الشيخ فواز فقد ارتجف قليلاً وأغمض عينيه ويشدُّ على نفسه ويهزّ رأسه محاولاً بكلِّ طاقته ألاّ يدع صورة زينب مشوهة تأخذ طريقها إلى مخيّلته.

هتف الرجل وصرخات زينب تتوالى مثيرة الحزن والرعب في النّفوس: «صراخها مؤلم، كان يجب أن تكمموا فمها»!

وحين لم يجبه أحد انحنى ليلتقط حجراً وهو يطلب إلى الناس أن يساعدوا في الرّجم للتعجيل بموت زينب والتقليل من أمر عذابها «آجروا معنا آجركم الله» وقذف حجره، لكنه لم يصب من زينب مقتلاً، فقد وقع على عجيزتها!

أخـذ بعض النـاس يقذفون زينب بما تطاله أيديهم من حجارة متفاوتة الأحجام، وأخذ بعضهم يرمون الحجارة ناحية الأخوة حتّى لاتفرغ من أمامهم، فيما ظلّت الأكثريّة من الناس واقفة بصمت دون أن تقدم على فعل شيء.

انحنى الشيخ فواز وأخذ حجراً، وعندما همّ بقذفه، داهمته صورة زينب، فلم يعد قادراً على رميه، فقد تشنّجت يده ثمّ أخذت تتراجع إلى أن استقرت إلى جانبه. أرخى الشيخ أصابعه ببطء فسقط الحجر على مقربة من قدميه دون أن يتنبّه إلى ذلك أحد، لكنّ كثيرين شاهدوا الشيخ وهو يستدير وينصرف محاولاً أن يشقّ له طريقاً بين الحشود.

لم تعد زينب قادرة على حماية حملها كما ينبغي، فقد باتت الحجارة تنهال عليها من كل صوب حتّى طرحتها على جنبها، ومع ذلك ظلّت تثني جذعها وتضمُّ فخذيها في محاولة لوقاية الحمل، غير أنّ حجراً أصاب من رأسها مقتلاً، جعلها تفقد رشدها، فارتخى جسدها ليصبح بطنها أيضاً عرضة لضرب الحجارة.

أقبل «أم عامر» هارعة وهي تهتف من أعماقها «لا!لا!لا!»

شقّت لنفسهـا طريقـاً بين الحشود، وهرعت لتلقي نفسها فوق هامة زينب، التي كادت الحجارة أن تغطيها. توقّف قذف الحجارة. وسلّطت آلاف العيون التي ملأتها الدهشة والحيرة على أم عامر وزينب. كانت زينب تلفظ أنفاسها الأخيرة. فتحت عينيها للحظة، وهمدت بين يدي «أم

عامر».

نهضت «أم عامر» بقوى متهالكة وقد أيقنت أنّ كل شيء قد انتهى. تساءلت بلوعة ويأس ونظراتها تجوب ماحولها، ترى الناس كُلّهم ولا ترى أحداً بعينه:

«ربّاه! إذا كانت زينب قد زنت، فهل زنى الحمل الذي في رحمها كي يرجم معها؟!»

ولم يجب أحدٌ من الناس الذين خمدت أنفاسهم تماماً. لم يجب أحد منهم بكلمة، ربّما لأنّهم لايعرفون بماذا يجيبون، وربّما لأنّ أم عامر لم تكن تقصدهم بسؤالها، وربّما لأنهم جميعاً شاركوا في الجريمة بشكل أو آخر، وربّما لأنّ معظمهم «زنوا» في حياتهم!

انثنت أم عامر لتغادر الساحة، بخطى متعبة، وقلب أثقلته الآلام، وأقبل السمسار حسن وهو يهتف بأسى «قتله قتله» ويحاول لأوّل مرّة في حياته ألّا يدع حالة السُكر تطيح به.

كان قد هيّأ البيت تماماً لاستقبال زينب حينما باغته صوت الشيخ عبر النافذة وهو يمرُّ عائداً إلى بيته «زينب لن تعود إليك أبداً أيّها المجنون، أنّهم يرجمونها في الساحة».

صرخ حسن بهلع «لا! لا» وخرج يعدو باكياً ناحباً كطفل.

فتح الناس له طريقاً ليمر. لمح جثّة زينب ملقاة وسط الساحة. هرع نحوها وهو يهتف «لا أيّها القتلة، لا!»، طرح نفسه إلى جانبها وراح يبعد الحجارة عن جسمها «قتلك المجرمون يازينب، قتلوك! كنت أنتظرك، رتّبت البيت ونظّفته لأستقبلك، لماذا لم تعودي؟ قتلوك! أعرف، لم يتركوك تعودين!» وما أن فرغ من ابعاد الحجارة حتّى راح يمسح بكمي سترته الدّماء التي كانت تغطي وجهها. لم يُفلح في مسح الدّماء كما يجب. أدخل يديه تحت جسد زينب في محاولة لحمله. ألقى على الناس نظرات شزرة، والدّموع تنحدر على وجنيته. هتف قبل أن يهمّ بحمل الجثمان:

وهم بحمل الجثمان. وحقاً تمكّن من حمله على يديه. سار بعضة أقدام ليتوسّط الساحة تماماً. هتف وقدما زينب ورأسها يتدليّان على جانبي يديه، وقد انسدل شعرها ليلامس الأرض:

«لم تقبلوا زينب بينكم وهي حيّة، ولن تقبلوها بين أمواتكم وهي قتيلة. أنا كنت سأقبل بها حيّة، وسأقبل بها قتيلة، سادفنها في بيتي حتّى لاتدنّس قبوركم الدنسة! وإيّاكم أن يعترض أحدٌ منكم طريقي، أو يقرع عليّ بابي دعوني أودّع الحياة مع جثمان زوجتي، بعيداً عن أعينكم القاتلة»!!

سار بخطوات مترنّحة، أفسحت له الطريق ليغادر الساحة. وجد كثيرون أنفسهم يجرّون أقدامهم خلفه، ويتبعونه بنظرات نهمة حائرة. شيّعوه إلى أن دخل بيته وأقفل الباب خلفه بعقب رجله. ثمّ تفرّقوا إلى بيوتهم بصمت وقلق لم يثقل نفوسهم مثله من قبل.

ظلّت فاطمة متشبثّة بقضبان النافذة إلى أن نبّهتها أم عائد إلى أنّ كل شيء قد انتهى. كان الرعب يجتاحها من قمّة رأسها حتّى أخمصي قدميها «لو لم يكن لها أخ مثل عامر لانتهت إلى ماانتهت إليه زينب»!

احتجب البدر تلك الليلة خلف بساط كثيف من السُحب الداكنة ولم يرَ ظهوره أحد، وهبّت عواصف شديدة، والتمعت البروق في كافة الأرجاء، وقصفت الرعود فوق البلدة حتّى كادت أن

تخسفها! وانصبّت من السّماء أمطار مدرارة فاضت من جرّائها الأودية، فاقتلعت الأشجار وأغرقت بعض الأغنام والدواب، وهدمت بعض البيوت، فقيل إنّ كل هذا من غضب الله، ولم يغضب وجه الله إلّا رجم زينب الذي شارك فيه معظم سكّان البلدة!

وعندما هُدمت البلدة وطرد جميع سكّانها بعد بضعة أشهر، قيل إنّ لعنة «سيدنا عمر» قدحلّت بها.

أمضى الناس تلك الليلة في قلق مريب. وتكوّمت النساء والفتيات تحت الأغطية وهن يتمثّلن أنفسهن مكان زينب. أما الرجال فلم يكونوا قلقين لكن بعضهم كانوا يشعرون بشيء من تأنيب الضمير! الثائر «عامر الليثي» كان والى ماقبل حادثة الرجم، يظّن أنّ ثمة أرضيّة خصبة ومناخاً ملائماً لطرح أفكاره، فاكتشف أنّ الناس قد يرجمونه. هو إذا ماجاهر بهذه الأفكار المجنونة. لذا لايمكن تصوّر حالة القلق التي بدا فيها «ثمّة هوّة كبيرة بينه وبين الناس لايعرف كيف يطمرها أو يهدمها»

السمسار حسن أمضى ليلته يحفر قبراً لزينب في غرفة النوم، ولم تثنه العواصف المخيفة التي هبّت عن الحفر، فقد ظلّ يحفر حتّى الصّباح، ولم يتناول خلال الليلة كُلّها إلّا جرعات قليلة من الخمر، ودون أن يأكل أيّ شيء، أي شيء على الإطلاق. والحق أنّه امتنع عن الطّعام، وظلّ ممتنعاً حتّى مات إلى جانب زينب!

قيل فيما بعد أنّه شوهد في الصّباح يخرج من البيت ويغلق الباب، وقيل أنّه غاب قرابة ساعتين في المدينة، وعاد بشاحنة محمّلة بتابوتين كبيرين وإكليل من الورد الحقيقي، وبعض صناديق الخمر، ولم يشاهده أحد يخرج من البيت بعد ذلك، فافتقده الناس، واقتحموا البيت بعد عشرة أيّام ليجدوه ميّتاً في تابوت إلى جانب زينب.

والحق إنّ حسن خرج. خرج ذلك اليوم تحت جنح الظلام وقصد عيادة الدكتور سليم، وطلب أن يجالس الدكتور على انفراد. وهناك فعل حسن، مالم يفعله أحد من قبل قدّم إلى سليم صرّة كبيرة مليئة بالأموال، وتنازلاً عن كل مايملك للوطن تفوّه ببضع كلمات فقط، بضع كلمات كتب لها الخلود، وتداولها الناس إلى جانب غيرها من الكلمات الخالدة، بعد قرابة خمسين عاماً من تحرير البلاد:

«أمرٌ مؤسف ومحزن، ألّا أعرف طريقي إلى الوطن قبل هذا اليوم، هذا كُلّ ماأملكه، أضعه بين أيديكم لعلّه يساهم في بناء وطن لايرجم فيه أحد، ولا يكون فيه القتيل قاتلاً، ويتساوى فيه الناس، ويسود فيه الحب والتعاون الخلّاق، ويحقّ فيه للنساء مايحقّ للرجال»!.

«أرجو أن يبقى هذا الأمر سرّاً، مادامت الظروف لاتسمح بذلك. وأرجو مساعدتكم في تحقيق رغبتي الأخيرة، بأن تدعوني أغادر هذه الدنيا مع زوجتي بسلام، فلا يقرع أحد باب بيتي، ولا يقلق أحد راحتنا الأبديّة، وليبق قبرنا في هذا البيت، هذه مفاتيح بيتي أتركها لكم».

ونهض حسن قائلاً «وداعاً يادكتور»

هتف سليم في محاولة لردع حسن عمّا صمم عليه:

«حسن تمهّل!»

«أرجوك يادكتور. إنّها رغبتي ولن يثنيني عنها أحد، وقد لاتصدّق إذا ماقلت لك، إنني لم أستشعر الراحة والطمأنينة في حياتي إلاّ هذا اليوم، فدعني أخلد إليهما!»

وخرج تاركاً «سليم» في حالٍ محيّرة من الدهشة.

عاد إلى البيت. أقفل كل الأبواب والنّوافذ ودخل حجرة النوم، فرغ من حفر القبر تلك الليلة، ثمّ غسّـل زينب وعطّرها وكفّنها بالحرير الأخضر. أنزل التابوت إلى القبر وفرشه بالحرير الأخضر أيضاً، ومددها داخله. وبعدما قبلّها قبلة الوداع وأقفل التابوت، رأى أيضاً أنّه في حاجة إلى غطاء من الحرير الأخضر، فغطاه ووضع عليه إكليل الورد.

كان يتناول جرعة من الكحول الصرفة بعد الفروغ من كل جزء من العمل، شذّ عن ذلك مرّة واحدة فقط، عندما قام بتعرية زينب لغسل جسدها، فقد تناول حينئذ عدّة جرعات وهو يتأمّل كدمات الحجارة التي انتشرت في بقع زرقاء على جسدها.

عنـد الصّبـاح مدد تابوته في القبر إلى جانب تابوتها، وراعى أن يضع وسادة ليسند رأسه عليها، وأحضر صناديق الخمر ووضعها إلى جانبه. استلقى في التابوت حافي القدمين، وبلباس النوم، وراح يسكر بصمت وجنون، وظل يسكر بصمت وجنون، إلى أن مات ميتة مجنونة بصمت وجنون! كان يطرق للحظات بين كل جرعة وأخرى، يلقي نظرة هادئة مطمئنة على تابون زينب ويحاول ألاّ يدع أيّة أفكار تقتحم مخيّلته.

لم يشاهده أحد طوال عشرة أيّام فارتاب النّاسُ في أمره، ولاسيّما بعد أن شاهدوا بعض الـطيور تحطُّ على النّوافذ دون أن يطردها أحد. حتّى أنّ البوم أخذ ينام عليها وينعق بأصوات صارخة في الليل، مثيراً حول البيت شيئاً من الرّهبة والوحشة.

تجمع الناس حول البيت محاولين اقتحامه. بعضهم جاء بدافع الفضول، وبعضهم جاء بدافع الشّفقة على حسن والحزن على زينب، وبعضهم جاءوا بدوافع شتّى، يأتي في مقدّمتها معرفة خاتمة هذه القصّة.

ارتفعت بعض الأصوات مطالبة بخلع الباب، ولولا قدوم الدكتور سليم، لخلع الباب حتماً.

وسط دهشة الجميع أخرج الدكتور سليم رزمة المفاتيح وراح يجرّبها واحداً واحداً فتح الباب الخارجي ليجد أنّ الأبواب الداخليّة موصدة أيضاً، اندفع الحشد خلف سليم وهو يفتح الأبواب واحداً بعد الآخر. عند غرفة النوم استقبلتهم رائحة كريهة أغلقوا لها أنوفهم، ولم يستطع أحد التقدّم إلاّ بعد فتح النوافذ.

كان جثمان حسن ملقى في التـابـوت إلى جانب تابـوت زينب. وسط ركـام هائلٍ من الزّجاجات الفارغة: زجاجات تكاد أن تغطّي جسده، فقد شكلت رجماً فوق صدره، وأكوام من زجاجات أخرى إلى جانب التابوت، وثمّة بعض الزُّجاجات المتناثرة على أرض الغرفة وفوق أكوام

التراب التي أحاطت القبر. وبدا أن «حسن» قد فارق الحياة بهدوء تام. كانت رأسه تميل قليلاً إلى كتفه الأيمن، وعيناه مغمضتان، وأسارير وجهه منفردة، وكأنّه كان يبتسم!

شرع سليم برفع الزّجاجات الفارغة من فوق الجثمان، ثمّ سحب المخدّة من تحت رأسه وألقاها جانباً. أغلق التابوت عليه وطلب إلى الناس المساعدة في إعادة التراب إلى القبر.

قيل فيما بعد أن «حسن» فارق الحياة بعد اسبوع ونيفّ من استلقائه في التابوت. وقيل بعد خمسة أيام، وقيل بعد يومين، غير أنّ كل هذا لم يكن مهماً إلى هذا الحد، المهم أنّ «سليم» أحضر من أقـام ضريحاً جميلاً لزينب وحسن، والحق البيت كُلّه بالضّريح، ونقش على بلاطة رُخاميّة تصدّرت القبر، عبارة تقول «هُنا يرقد الزوجان الصالحان حسن السّرابي وزينب الناصري».

ودوّن سليم قصّة حسن وزينب بخطٍ جميلٍ في كتاب، اختتمه بكلمات حسن التي قالها له قبل رحيله. ووضع الكتاب في كوّة صغيرة في الضّريح. والحق إنّ أحداً لم يزر الضّريح ولم يقرأ ماجاء في الكتاب إلاّ بعد تحرير البلاد، فعادت قصّة «حسن وزينب» إلى الظهور ثانية، وانتقلت كلمات حسن من لسان إلى لسان، وبدلاً من نقل ضريحهما بالقرب من أضرحة الآخرين، أخذت الأضرحة الجديدة تمتد إلى خارج المقبرة لتقترب من ضريحهما، إلى أن وصلت إليه وأحاطته.

وبعد قرابة خمسة قرون، كانت قصّة «حسن وزينب» تروى إلى جانب غيرها من القصص كشاهدٍ على العصور الغابرة، وقد أضافت إليها مخيّلة الناس الكثير وحرّفت فيها الكثير، لكنها ظلّت حيّة، وبعد قرابة ألف سنة كانت ماتزال حيّة.

شعر

التراجع المستحيل.. وبقايا الذاكرة..؟

ابن الشاطىء*

ماذا جرى؟.. أتشدّدين حصاري   وتهمشّينَ منابع الأنهار..؟.
وتفضّلين النوم في غسق الدجّى   معجونةً بالصمت والأعذار..؟.
ياأم أوفي وانت مُحْرجَة وقد   تتوقفين عن اختزان نهاري
فلربّما تعبت خطُاك.. وعششّتْ   في المنحنى.. والظلّ.. والتذّكار
وتزوّجتْ شيخ القبيلة خلسةً   مبهورةً بالطبّل والمزمار
وتجمّلَتْ بسفينة قطُبْيَّة   مشبوهة الأبعاد والأوطار
حرقت ضمير الكبرياء.. واشعلَتْ   لغُةُ التراجعُ من وراء ستار..؟.
ماذا..؟ أيوجعك الوصال؟ أينحي   هذا الجمالُ على فمِ الأخبار..؟

* شاعر من فلسطين.

أرجعت للهوس القديم مريضةً   بالهجر رغم حرارة التيار؟؟
والوعةَ الذكرى يُنَتّفُ شَعْرِها   نَزَقُ الهجير وهَيْبةُ الأشعار!
أنا ما عرفتُ الليلَ فيك.. ولا الأنا   ماذا دهاكِ؟ أخفْتِ من أفكاري؟
أَولستِ شامخةً شموخ تَطَلعي   وغَنِيَّةً بالحبّ والأمطارِ..؟
أَولستَ دافئةً..؟ وصَدْرِك مورق   أبداً.. ويُدْلِجُ في الغد المعطارِ.؟
أيعيش في ثَلْج القبيلة مُرْهقاً   وينامُ..!! كيف ينام دون جماري؟
ما كنتُ أحسب أنّ حُبَّكِ غَيْمةٌ   صيفيّةٌ عبرتْ على أوتَاري
وبأنّ هجرِك سيّدٌ مُتّطرِّفٌ   يغتال عُمْرَ الوَجْد والأزهارِ
يرتدّ في عزّ الظّهيرةِ حالِماً   ويقُولِبُ الأيام في استهتارِ..!!
تتناثر الأخبارُ مشُبْعَةَ الأنا   وتنوس فوق منابرِ وشعارِ
وتجف أنهار الأصالة كيف يا   قدّيستي تتوحّدينَ وداري..؟؟
خَيّبْتِ ظنّ المُعطيات فيا تُرى   هل ترجعين.. وتسكنين بحاري؟!؟
يا أُمَّ أوفى أنتِ واقفة على   حد الجراح غريبةَ الأطوارِ
ماذا جرى؟ أتهرّبين مشاعري   في مقلتيكِ.. وتكسرينَ جراري؟؟
أغدوتِ مُدْبِرةٌ وكُلَّ جليلةَ   طِلقتها.. ورفضتِ عمق مَساري..؟!؟
لَم تهربين..؟ أتشعرينَ بخَفْقةَ   تحتلّ قَلْبَكِ دونما إشْعارِ..؟؟
ماذا..؟ أتَخشْينِ الهوى؟ يَغْمُ الهوى   يمتدّ دون تَكَلُّفٍ وخمِارِ..!!
منذُ التقْينا والرِمالُ شَجيَّةٌ   وخواطري تنساب في ذيِ قارِ
وحملتُ حبّي الصعبَ مُتّقَد الخُطى   وعلى جبيني العامريَّ أُواري
أعرفتِ قلبكِ..؟ لا تكوني مَرْأةً   سطحيّةً في الوعي والإبْحارِ..!!
أنا في فؤادِك عاشقٌ مُتَفرّدٌ   فاستوعبيني.. واسكني إعصاري
وتيقّني أنّي هَواكِ مُجَدَّداً   وبأنّني أهلُ لكلّ فخارِ
أحيا أَبيّا... أستطيبُ نزاهتي   وبراعتي.. وأعيش حُلْمَ دياري
وأظلّ أزهر في الصّعاب ولا أرى   إلّاكِ أُنثى رغم طول حصاري..!!
وأراكِ في الأشياء حَذْرَ أصالتي   وضميرَ ذاكرتي.. وعُمْقَ قراري
وأرى شموخَكِ مَوْقِعاً متقدّماً   في الصحّو يحمل أخطر الأسرار
فَلِمَ الهروب المستحيل وأنت في   نفسي كما الماضي حقِولُ مَدارى..؟؟
أتصدّقينَ بأنَّ آخرَ مرةٍ   كُنّا معاً بالغت في إنكاري.؟؟

وكسرتِ داخلي الأليف غوية
وطعنتني من حيث لا أدري.. فمن
أواري..؟!؟
ماذا وراءكِ..؟ هل تغيّرت الرؤى
تستمطرين (الأوف) في بحبوبة
وتُنشّفين الرّيقَ حين أجيء في
أتراهنينَ..؟ وقد تخايل في الضّحى
ويُغيّر الدُنيا بلَهْجةِ بُعْده
أتراهنين..؟ وكُلُّ طفل فارسٌ
مقلاعة القَدَريّ أعظمُ طَلْقة
وعلى ملامحه البريئة مَوْطنٌ
يا أُمَّ أوفى.. ما هجرْتُك لحظةً
كانت مرايا الرّمل تفرضُ نفسها
وتَمَشّطُ الشّعْرُ الجميلَ مضيئةً
وتمدّ سيْفاً كُلّما استوضَحْتِها
تلك المرايا الصّابئاتُ تعود يا
فعلى حجاراتهم تلوح مرابعي
يا أُمَّ أوفى.. طلّقي غَسَقَ الدُّجى
واستوعبي هذا الرصاصَ.. وجدّدي
وتوحّدي فينا.. فأنت سخيّةٌ

وخنقتِ شوقي وانتهكت وقاري..؟!؟
منّا القتيلُ..؟ وكيف.. كيف

وغدوتِ لَحْنَ القصر والزُّوار..؟؟
وتدغدغين عواطف السُّمار..؟؟
وضح النّهار الَحُ في استفساري؟؟
حَجَرٌ يُضيء قنابلَ الأحرار
ويُعتدَ كُلَّ توهّج الثُّوار؟؟
في أرضنا يصحو على الأحجار
تغتال هذا الليلَ في إصرار
غالٍ.. وشَعْبٌ من صميم (غفار)؟؟
أو فَرّقتْنا تُخْمةُ التُّجّار..!!
أنّى اتّجهتُ عريقةَ الإيثار
دربي.. فأسهر في ضلوع (نزار)
عنّ.. وتَعْبقُ بالدّم الفوّار
هَمّي.. لِتُشْرقَ من عيون صغاري
ويلوح رغم المجرمين نهاري..؟!
وتَراجَعي عن صَمْتك الثّرثار..!!
نَفَسَ النّضال.. وحطّمي أسواري
إن شئتِ..!! أنتِ أصيلةُ الأغوار..!!

جيجل/ الجزائر/
١٩٨٨/٢/١١

شعر

التسلل إلى نافذتها

ادريس بن الطيب*

إلى طرابلس

هو الشوقُ أهّلَني   لارتياد المسافات، أشعَلني بالجنونِ،
وأرسلَني مُترعاً في **طرابلْس** مُبتدعاً لغةً للتواصُل بيني
وبين أزقّتها،
ثمّةَ الآن ماأشتكيه من الوجدِ أيتها المُشْتَهاة،
وثمةَ مايحزنُ القلبَ،
مرهقةٌ هي حُمّى القصائد في الزمن الصعب،
والشعرُ **يَفْلتُ** مني كمُنْزلَقِ الماءِ بين الأصابعِ
حلّقتُ مُنْسَرباً   في المَدَى
فتلبّسَتني بهوى كانشطار المجّرة أو كالتفتّحِ في وردةٍ،
من يُشاطرني في التوحُّدِ هذا الهوى؟
إذْ أهيمُ بعينيكِ أرتجُّ،
يصبحُ للشعر سيفٌ يُسلطُه فوق رأسي،
ولا مهربَ الآنَ مما أفيضُ به،
لا هروب،
لما تناثرتِ همّاً على عتماتي هرعتُ إليكِ صبياً يُكفكفُ
دمعتَه، وجلستُ على فخذكِ المتمددِ عند نهاية
«سوق المُشير»[1] ومبتدأ البحر أرقبُ دكانةً للزغاريد،
حاولتُ منبهراً، أن اعُدَّ صدى الطّرقاتِ،
ولكنها تتداخلُ كالراقصينَ،
تفرّستُ فيهم،

* شاعر من ليبيا.

هم الواقفون تصارعُ أذرعُهُمْ كُتَلَ النّارِ في دُرْبَةٍ،
والأيادي استباحتْ تضاريسها لسعاتُ النحاسِ المُذَابِ،
ولكنني خِفتُ لما رأيتُ النّبوءَةَ نائمةً تحت أجفانهم،
ذكرتني بهم القصائدِ والسيفِ،
لاحقني السيفُ حتى استجبتُ لهمسِ الأزقةِ لي بالتفجر،
فاستلبتني نصاعةُ أرديةِ العرسِ والحائكينَ،
(ونحن، متى عرسنا؟)
لك رائحةُ الحلمِ والبحرِ والفتياتِ الصغيراتِ،
رائحةٌ كالقرنفل،
كالأغنيات الشجيةِ،
أو كارتجافِ المحبّينَ،
ساءلتُ نفسي:
لماذا تأخرَ هذا اللقاءُ العظيمُ، وما فتئَتْ **قدمايَ**
تفتشُ في مدنِ الأرضِ عنكِ، وعن موطنٍ للوصال،
تلمستُ قلبكِ في غفلةٍ عن عيونِ الحَرَسْ،
يالَدَمْدمةِ النّبضِ بالعَافيَةِ
باهرةَ الحُسنِ يامن تسيرينَ محفوفةً بالولاداتِ،
أناديك:
إني أحبّكِ من غَوْرِ هذا النتوءِ الكريهِ
وأصرخ:
باسلةٌ أنتِ أيتها المُتوردُ في وجنتيها
دَمِي

طرابلس ١١ مايو ١٩٨١م

(١) سوق المشير أحد أهم الأسواق التقليدية في طرابلس منذ عهد الاحتلال العثماني

شعر

المقاتل

جميل حماده*

عبّأ سُلّمَ الذاكرة
عبّأ الأمنيات
الكؤوسَ المترعة
منفضَةَ السجائر
شرايينَهُ المُشْرَعَة
عبّأ نافذةَ الشمس
قناديلَ المساء الوهميّ!
الهوامشَ الصغيرة
عصفورةَ التكوين الأول
غرفةَ الصمت المنّزور للخرافة
المقعدَ الخشبي الواقف
الليالي الموحشة
قارورةَ أحلامه المطفأة
أبناءَ القرى.. النائمات
عبّأ الدمعَ الفسيحَ
في البناء المطمئن لمرثية مقبلة
من مراثي الذي مات
عبأ جهدَهِ ما يستطيع...
عبأ صوته بالمغنى الذي
تجّهُ وجعُ القنبلة
ومضى في فضاء ملونا
بمحاذاة السحاب
عبّأ كلَّ شيءٍ ومضى
يمتطي حزنَه...
ثم غاب

*

عبّأ حُلمَه/ مجموعَ أحلامه
وبعضَ أشجار النزيف
عبّأ تبغَ الخريف
وإنسلَّ من موته شاهداً
لكنَّه جاء في حزنه الحالم
جاء
انتشرَتْ رياحُ الجراد
وكان يقاوم..
يقاوم.

* شاعر من فلسطين.

نشيد الانتفاضة

شعر

د . جميل علوش*

من ليلِ الأيامِ السُّودِ
من تعْسِ الحظِ المنكودِ
من خيْمةِ عانٍ مكمودِ
من سِجْنٍ سُدَّ على الأحياءْ.

هبّتْ كالعاصفِ كالإعصارْ
ماجَتْ كاللُّجّةِ كالتّيارْ
وتحدّتْ شمشونَ الجبّار
وبراثنَ قوّته العمياءْ.
من قَلْبِ القُدْسِ إلى يافا،
أطيافٌ هزّتْ أطيافا،
أسيافٌ شَدّت أسيافا
وتعالَتْ بالنصْرِ الأنباءْ.

قد ثارَ الشعْبُ على الغازي،
وتأهّبَ للصَيْدِ البازي،
ما بينَ الشامِ وبنغازي،
أسماعٌ تُطرِبُها الأصداءْ.

قد عَمّتْ ثورتُنا الوَطَنا،
الريفَ الأخضَرَ والمُدُنا،
والناشىءَ والشيْخَ اليَفنا،
والطودَ الشامخَ والبطحاءْ.
الثورةُ فجّرها الشعْبُ،

* شاعر من فلسطين.

والظالمُ زَعزَعَهُ الرُعبُ،
يا برْقَ الثورةِ لا تَخْبُ،
ولتغمرْ عالَمنا الأنواءْ.

أبناءُ فلَسطينَ النُجُبُ،
لقتالِ الغاصِبِ قد وَثَبوا،
خَفّوا للموتِ وما حَسِبوا،
للبغي حِساباً في الهيجاءْ.

خَفّوا للثأر وما جَبُنوا،
والأرضُ تُنادي والوَطَنُ،
خاضوا الأهوالَ وما وَهَنوا،
كنسورٍ تقتحمُ الأجواءْ.

الثورةُ تزْدَردُ الظُلْما،
تُظمي الأعداءَ ولا تَظما،
قد هاضَتْ للطاغي عظْما،
وتحدتْ سُنَتَهُ الهوجاءْ.

في السَّهْلِ تعالَتْ والجَبَلِ،
كلهيبٍ ضارٍ مُشتعلِ،
كسحابٍ منهلٍ هَطِلِ
يَهمي في الأفقِ بلا إبطاءْ.

شَبّتْ في القُدْسِ وفي صَفَدِ
لم تحْنِ الرأسَ ولم تَحِدِ
وتهادَت كالليثِ الحَرِدِ
يَختالُ بهمتهِ القَعْساءْ.

تاهَتْ بِبيارِقها القِمَمُ،
وزهت بخوارقها الأممُ،
وهمى فطغى السيلُ العَرِمُ،
في أرضِ فلسطينَ العَرْباء

من أقصى السّفْحِ إلى الوادي،
قد فاضَ السّيلُ على العادي،
وتصدّى الجائعُ والصادي،
لجحافلِ رابينَ الشوهاءْ.

ما قرَّ الثأرُ وما ناما،
والحُرُّ الثائرُ ما خاما،
سَيهزُّ الشَعْبُ الظلاما،
فَتُظِلُ بيارِقُهُ الجوزاءْ.

قد جدَّ الجِدُّ على العادي،
وأفاقَ الحاضِرُ والبادي،
لله قوافلُ أنجادٍ،
فاضت كالسَّيْلِ على الأعداءْ.

في وَجهِ الباطلِ قَدْ وقفوا،
وبِرُكنِ الباطِلِ قد عصفوا،
عَنُفَ الطغيانُ وقد عَنُفوا،
أيقابَلُ عُنْفٌ بالإغْفاءْ؟

القدْسُ مُسبّحةٌ تُعلي،
لله دعاها والرّسلِ،
والعالَمُ عنها في شُغُلِ

قد صدَّ السَّمْعَ فلا إصغاءْ.

الصَخْرةُ تصرُخُ والمَهْدُ،
وجفونُ القُدْسِ بها سُهْدُ،
قد طالَ على الغازي العَهْدُ،
فليرحَلْ عن أرضِ الإسراءْ.

القُدْسُ لنا والمهدُ لنا،
والشطُّ الحُلوُ وما اختزنا،
ما نامَ الثَّارُ ولا سَكَنا،
من يَنسى جَنّتَهُ الزهراء؟

من يَنسى حيفا أو يافا؟
وجناناً غُلباً ألفافا؟
ورباعاً فاقت أوصافا،
تزهو بخمائلِها الخضراء.
من ينسى الأرض المحتلّة؟
من ينسى اللدَّ أو الرملة؟
وخمائلَ فيها مخضلّة،
من يَنسى غَزّةَ والميناء؟

من يَنسى السَّهْلَ أو الجبلا؟
ودياراً قد فاضَتْ عَسَلا،
ومرابعَ قد رفَتْ غَزَلا،
كرفيفِ جنائنِها الغنّاء.

المجدُ لنا ولنا الظَفَرُ،
والموتُ له وله الحُفَرُ،
وبإذن اللهِ سننتصرُ،
وستخلُدُ ثورتُنا الشّماءْ.

يا شعبيْ الثائرَ لا تجزَعْ،
لن يغلبَ همّتَكَ المِدفعْ،
قد آنَ أوانُكَ أن تصدَعْ،
بالحقِ وثورتِه الحمراءْ.

عفواً!! وحنانَك يا بَلَدي،
كم قيلَ: العَوْدُ ولم نَعُدِ،
إن مرَّ اليومُ فبعدَ غَدِ
ما زالَ يُضاحكنا اللألآءْ.

قد طالَتْ رحلتُنا في التَيهْ،
ما بينَ الخِدْعة والتمويهْ،
واليومَ نرى بَرْقاً نُغليهْ،
يفترُّ لصادٍ في البيداءْ.

سنعودُ إلى أرض الوَطَنِ،
سنعودُ على رغمِ المِحَنِ،
وسنبني في تلك الدِّمَنِ

ما هدمَت الحَرْبُ الشعواءْ،
لِتَمكُنِ ثورتنا ندعو،
ولأنفِ أعاديها الجَدْعُ،
والعَيْنُ لها ولها السَمْعُ،
والعِزةُ طُرّاً والعلياءْ.

١٩٩٠/٣/٢٥

اعتذار

أبا ذر:

نجـوعُ ولا نهـزُّ السيف * يقتلنـا الحنين ولا نروم الوصل * يغيبُ أحبةٌ فنصاب بالنسيان * نعلك حلمنا الوردي ليلاً * ثم نبصق في الصباح على أمانينا *

شعر

ثمار الصفصاف

حسين هاشم*

عاشق، وأداري
أخبيء قلبي وراء الليالي
ستارات خوفٍ وراء عيون الصغار

●●●

يعاتبني صاحبي،
حين يضبطني في سجون انبهاري!!
فألتَّفُ حول الحديث حزيناً
وأرفع في لجة القمر مرتجفاً، خائفاً
راية الاندحارِ

●●●

وعذراً عيونَ التي حملتني
إلى موكب الانتظار
فهذي القناديل أطفأها العتمُ
والريحُ قد بددت ضوءَ ناري
السجونْ
السجونُ تضمُ بقايايَ من ألف عام
وعامْ

---

* شاعر من سورية.

وأصحابي الأوفياءُ طوتهم ليالي الضنى
ضيعتهم على غفلةٍ من عيوني
رمت وردهم في سلال الزحامْ

●●●

المناديل جَفَّتْ، فما عاد دمعٌ يبللها
حجّرَ الحزن دمعي
وضيّعَ مني قصائد عمري
وخبأتُ مندحراً في الزمان
جروح الكلامْ

●●●

(بلوتي) في الصنوجْ
انها تنهض الآن كاذبةَ الصوتِ
مسرفةً.. يا حبيبي الحزينْ
(بلوتي) في الصنوج التي تتعالى
كصوت النفير الإذاعيَّ
كالحبِّ دون احتراقٍ
وكالغيم دون مطرْ!
مطري في الأناشيد تدخل في القلب
هادئةَ البوح مثقلةً بالهوى، والجنون

●●●

أنت مستقبلي
رغم هذا الفراق الحبيب
ورغم الغياب
ورغم انتحار الأماني
ورغم احتقان الأغاني..
هروبي من لوعةٍ تختبي في العيونْ
رغم سكر الجنون
ورغم ارتحال السحابْ

زغردي!! لحظة الانعتاق من الخوف
تأتي
وتغمرنا بورود الصباح الجميل:
إذا ما كبسنا على جرح أحلامنا
وردة الصدقِ
يبدأ درب الاياب
رددي في الصباحِ نشيدي
فأحمل صوتك في العمرِ
في وحشة العمر
درباً أخاصرهُ، وأغني،

●●●

عاشقٌ... تفهمين
قتلوني جميعاً
أطلي..
فهذا الصباحُ الجميل لنا
فراشاته، وأغانيه
والورودُ
وضحكةُ غيم صديقِ
وأواهُ بعد الصباحِ الجميل يهلُّ
التعب.

●●●

تعلمين..
حبنا المستحيل سينمو
ويكبر، يكبرُ
هيا انشريه شراع المحبةِ
هيا..
فمركبنا عاشقٌ
والحنين نخبئه في العيون الحزينةِ

كالأرضِ حين ارتحال المطرْ

●●●

أغني..
فيجرح صوتي الحزينُ نهاري
أغني.. فتملأ أحزان عمري، فضائي،
وجدران غرفتي الباردهْ
ويطلُّ المحبونَ
يرحلُ حزني بعيداً
أحاور أفراحهم، وانتصاراتهم
وهزائمهم..
ثم يبدأ دربُ الفرحْ

●●●

حنيناً، لعينيك أنهدُّ
مثل الغمامهْ
مطراً ويهلُّ على ظامىءِ العشب
مثل هديل الحمامهْ

●●●

أغانيَّ أنتِ
وأنتِ حنيني..
وأنت طريق الهوى، والسلامهْ

●●●

سماءٌ ملبدةٌ بغيوم حنيني
وأرضٌ تداري هوايَ
وصوت أنيني وحزني..
أحبك بوابةً للرحيلِ الفجائيِّ
صوبَ البلادِ الجميلةِ
صوبَ الأغاني

أحبك كوني أماني.

●●●

تجيئين أم ترحلين
العصافير والأغنيات، وصوتي
وزوادةُ العمر
في وحشة الليل - قلبي - ودرب الرحيلِ
إلى الموتِ
موت العصافير
بوح الهوى، والتراتيلَ
لونُ المشاوير في الليلِ

●●●

وطني، ودمي، وانتمائي
دمعتي وحنيني،
تأخر صوتك.. حين أتاني حزيناً
وعكّرَ أمني
تجيء العصافير مقبلةً، فرحهْ
أنتِ ضوئي، وأيامي المقبلاتُ
وشوقي إلى وجهك المطريِّ
وأشواق عمري..
أحبك رغم انتهاء الأغاني..
ورغم اندحار الأماني
وصوتك وجهي، وأغنيتي

●●●

توقف..
تجيء الأناشيدُ
أو لا تجيء الأناشيد!!
وجهك قلبي
وصوتك (ملجايَ)

أنت حنيني
وضوء الليالي التي هجرتني
وأمني في خوفيَ الأزليّ
بوابةٌ لرحيلي الفجائيِّ
أنهدُ مثل النهار الحزين
تجيئين ورداً، وشوقاً، ومقبرةً
وانتماء.. وبعض حنين

●●●

مطرٌ لبلادي، وقلبي
وأمنيةٌ تشربُ الذاكره
أنت صوتي، ومقبرتي
أنت بوابةُ الزمن الجائرهْ
قاتلُ عشقكِ الأبديُّ
وأنتِ الحنين الذي ينعس الذاكره

●●●

أنتِ لي
رغم هذا الفراق الحبيب، ورغم الضنى
رغم جور الزمان المكابر، والأصدقاء
رغم هذا الفراق العجيب..
أنا...
عاشقٌ
عاشقٌ
عاشقٌ
والعَتَبْ
يتناثر في القلب
كيف تأخرتِ عشرين عاماً؟!
لماذا؟!

صيف ١٩٨٥

شعر

نداء
إلى المحاجر الصغير

سليمان السلمان*

مازال خطوُك يحتويك
فخذ مساركْ
الشمس تطلع من إهاب الفجر.... فانهض
واغسلِ الوجهَ المباركْ
قم ياصغيري
فبل ارتفاع الشمس فوق المسجد الاقصى
لتستقبلْ حجاركْ

* شاعر من فلسطين.

إدفع خطُاك بوجههم.... وابدأ نهارك

....

قمْ ياصغيرُ مع الصغارْ
فالشارعُ المرصودُ يملؤه الرفاقْ
كَبُرت يداك
تمردَّت عيناكَ.. وأُمتد النهارْ
ماعادَ حضني يحَتويكَ
تغيرَّتْ قُبلَ على خديكَ
واختلف العناقْ
.... إدفعْ جبينكَ
إدفعْ يمينكَ
إقذفْ بها ما جمعَّتْهُ أرضُك السمراءُ من زمَنَ الجدودْ
إقذفْ حجارتَكَ الأبيَّة
لتدقّ أسلحة الضباع العنصرية
إقذف حجارتك الأبيةَّ
حرّكْ بها عَفَن الجمُودْ
والعباءات الرخية
لتهزَّ جذرَ النَفْط في النبع الهنيِّ
وفي المَصبّات الهنية

....

قُمْ ياصغيري
نَهضتْ أراجيح المقالع والحجارةْ
بالأمس كنتَ تَشنُّ في لَعب وراءَ البيت غارةْ
واليومَ تَصنعُ ثورةَ في كلِّ حارةْ
فتَردُّ بالحَجَر الرصاصْ
وتَصدُّ غازَ الدَّمعِ بالليمون
وعَرَفتَ دَرْبَك والخلاصْ
ياصامداً في الأرضْ كالزيتونْ

لن يَسْبقوكَ الى الفداءِ
وأنْتَ أصْغَرُ مَن تَصدىّ
إقذفْ بوَجْهِك في الدخانْ
إطلع شهاباً أحمْرَ الجَنَبات يَرْقُص كالسِّنانْ
ورداءَ عزٍّ قَدْ تَردّى
اعداؤنا خَسئوا فَما كَسِبوا على شَعْبٍ رهانْ

....

أنتَ المُلثَّمُ كَيْفَ تَخفى
عَرَفوكَ مُذ طَلَعت يَداكْ
أنْتَ الفلسْطينيُ
تَزْرَعُ حيرةً بقصورهم وقصورهم
بظهورهم وظهورهم
بشعورهم وشعورهم
القابضون على خُطاكَ
منَعَوا عُبورَك.. بَعْد أن عَبَروا الطريقَ إلى عِداكْ
حَسَبوك مُتّ.. بَكوا عَليكَ
تزعزعوا........
لمّا رأوك طلعتُ طفلاً في ثَراكْ
وبقَيتَ وَحْدَكْ
فَرحوا بسِرِّهُم
وقَالوا اليومَ يطويه الهَلاكْ
ومشيتَ مُنْتصَراً.. فحاموا يَسْرقونَ اليوم جُهْدَكْ
المُدعونَ عمومةً وخؤولةً كرهوا العراكْ

....

فارفعْ لَهُم حَجَراً... فإن لَثُموا الحَجَرْ
دَعْهم وراءَك يَلْهَثونَ
فانّ نَصْرِكَ مُنْتَظَرْ
بدم الشعوب يُقامرونْ

يتبجّحون بلا حَياءْ
يتقهقرونَ....
المدَّعونَ النصْرَ.
مامن مَرّة شقّوا الطريقَ إلى الأمامْ
إلاّ وأعينُهم تَدورُ الى الوراءْ
مَامَرّة طَلبَوا السَّلامْ
إلا أرادوا خدمة الدولارِ
أو ليجدّوا عَهدَ الولاءْ
....

قمُ ياصغيرُ الى حجارتك التي انتظرتْك في الليل الطويلْ
القدسُ وَدّعت الصلاةَ وغزةُ الشمّاءُ تحْتَضن الصّهيلْ
قُمْ تلْقَ مثْلَك في الخليلْ
نَابُلُس تَصحْوا.. شَدّت الزَّندْ الأصيلْ
وفوارسٌ من كلِّ عُمْر في قُرانا والمزَارعِ والشّوارعْ
شَعْبٌ يُقاتلُ بَلْ يصُارعْ
وتَدورُ في أحيائنا أقسى المواقَعْ
وصياحُ مَوْلدٍ جَديدٍ... مَنْ يُنابيع؟
....

ماظَلَّ مَنْ يَغفو على حُلم ذَليلْ
شَعْبٌ كأنهار الربيع تَدفقت جيلًا فجيلْ
في كلِّ ناحيةٍ قَتيلْ.
دَمُهُ كما النسْغُ الجميلْ
يَخْضرُ كي يُعطي الدليلْ.
لجميع أهْلِ الأرض
....
أنّ تُرابَنا باقٍ.. وَنَحْنُ جُذورهُ
وَنموتُ لانَرضْى الرحيلْ.

دمشق في: ٦/١٢/١٩٨٨م

لهما... لطفلة الحرية

فؤاد كحل*

كم هما وطنان

رائعانِ إذا هطَلَ المطرُ
وإذا ارتعشا تحتَ جُنحِ الغمامةِ
أو أشرقا في الظلامِ
أو ابتسمتا لغدٍ هاطلٍ
أو زهَتْ فيهما الزهرتانِ
تضيئانِ ليلَ القرى
فيشعشعُ من حولنا الشجرُ

* * *

هاهما يعزفانِ على الصمتِ لحنيهما

---

* شاعر من سوريا.

ويحوكانِ سجادةَ الرغباتِ المضيئةِ
في عتمةِ الروحِ
ينبلجانِ كجوهرتينِ مكوّنتين على لهبٍ شامخٍ
نيرانِ هذا الوجودَ المعتمَ
تشتعلانِ كجمرتينِ من السنديانْ
هاهما . .
تمرُّ الأناملُ بينَ الشراراتِ
تلتهبُ الأمنياتُ
فتقتحمُ النارُ أمكنةَ الأقحوانْ
* * *
لم نكن نحنُ
كنا إذن حطباً لاشتعالٍ عظيمٍ
يوزّعُ ألسنةَ الرغباتِ
إلى كلّ ناحيةٍ
وفماً لمحيطِ الجسدْ . .
لم نكن نحن
كنا الأغاني التي كوكبتها يداكِ
وأنشدها طائر! شفتاكَ النديّتان
كنا ـ إذن ـ لهباً فوقَ ليلِ الطريقْ
الوجودُ أتى مطراً . . والحَياةْ . .
كلُ شيءٍ صديقٍ أتى يصطلي نارَنَا
وعدو توارى يسوقُ خفافيشَهُ
في شِعابِ البلدْ . .
* * *
وطنانِ اذا هَجَمَ الليلُ
أو نزفَ النجمُ
أو لبستنا الغيومُ مساءً
أو ابتهجَ الصمتُ

أو رقصَ اللوزُ
أو عانقتها النجومْ . .
وطنانِ : يشعّانِ عَبْرَ دمانا
فنبدو كما نجمةُ الصبحِ فوق الكرومْ
رقصتانِ اذا نقّرا حبّة القلبِ
فوقَ اليدينِ
وهلاّ برأسيهما من خلالِ الأناملِ
إنْ ادفآني بزغبيهما الناعمينِ
ومالا إليّ بعينيهما كي أعيدَ ابتهالي
إلى آخرِ النبضِ والرغباتْ
رقصتانِ هُما :
ماالذي أفعلُ الآنَ
إن ثار فينا اشتياقُ القرى؟
غير أن أشعلَ النَّبضاتْ!
* * *
لوزتَانِ إذا هبّتِ الريحُ فارتعشا
أو تراكمَ فوقَ الزجاجِ الندى . .
لوزتان اذا انبجسا
بعد هذا «التشيطنُ»
أو رسما فرحي . . اختفيا
ثم عادا يطلاّن من وَلَهٍ
في ثيابِ المدى . .
* * *
زهرتان، ألاحقُ ظلّيهما
وإذا ماتعبتُ، ينطانِ حولي
ثمّ يحطانِ مثل الحمائمِ فوق يدي
يزقّانِ روحي
يرِفّانِ في كلّ أمكنتي

وفضاءاتِ نبضي :
أنا الكونُ
لاشيء يفصلني عن صخوري
وينزعني من دهوري .
يحيطانِ بي
كم أنا فرحٌ وسعيدْ!
زهرتانِ تقولانني
كم أحبُّ ـ لأجلهما ـ
أن أكونَ شهيدْ . .
يداي تقودانني
فارشُفي جسدي واسكنيه
لنا مأمنٌ عن قراصنة الجهلِ
فلنتسابقْ إليهِ حميمينْ
مشتعلَيْنِ بنبضِ المياهْ
* * *
وطنان هُما . . ،
كم هُما وطنانْ . . !

السهوة ٦/٩/١٩٨٧

طفلة الحرية

تأتي في الليلِ صَباحاً
حاملةً طيرَ التاريخ
ألاقيها فرحاً بطفولتِها . .
تتوهّجُ بيَ أزهارٌ أولى
أشدو لحنَ النور الراكدِ في أعماقي

أتراقصُ بالأحلامِ الكونيّة
أهتفُ للطّيفِ البريِّ
وللأزهار وللأطيارْ . .
ينْفتحْ الأفقُ على روحي
الأمطارُ . . الناسُ
الحيواناتُ الشاردةُ . . الأشجارُ
الزرقةُ . . أسرابُ الدِّيَم
الأحلامُ . . الرؤيا . .
يتبدىء التاريخُ المستقبلَ
أصرخُ ملء فمي :
أينَ فمي؟ ياطفلةَ هذي الحريّةْ؟
* * *
تعطيني الفرحَ الراقصَ
أطلقهُ خلفَ نجومِ مرابعها
كغزالِ الغاباتِ
ألاطفُ هذا الطيرَ شغوفاً
فأُحسُّ العالمَ صبحاً
ـ مِنْ أينَ أتيتِ بنارك
والروحُ توارتْ خلفَ الأحجار الوحشيّةْ؟
ـ مِن أينَ أتى الكونُ بوردتهِ الأولى
فتحوّلَ هذا الرملُ اطمئناناً
وبحاراً من فرح
وغناءً للأزمانِ المَطريّةْ؟
ـ من أينَ أتى الحُلمُ الطفليُّ؟
إذن، أشرقْتِ مع الشمسِ صباحاً
وأتيتِ إلى الوطنِ المجروحِ
وقد خبأ قهرَ تفجُّرِه
وتهيأ للأحلامِ الدمويّةْ

من أينْ جلبتِ الزهرَ
وقد حاصرنا شوكُ الأصنامِ الهمجيّةْ؟

* * *

تتضَّوعُ ذاكرتي
فألملمها عن طيفيك وهجاً
أطلقهُ فوق الأعشابِ فراشاتٍ
ترعشُ حولَ تربيعِ الروح
وترسمُ خارطةَ الآمالِ الوطَنيّةْ:
ها.. شجرٌ وطيورٌ وربيعٌ
وندى وجنادبُ..
ها.. ريحٌ منعشةٌ ودربٌ شاسعةٌ
وفضاءٌ وورودٌ
وثُغاءُ غيومٍ ترعى
وطفولةُ قلبٍ
مازالتْ تتوهَّجُ تحت رُكامِ العمرِ..
تباريحُ وجنونٌ بريٌّ
وقصائدُ أفراحٍ تنشدُ نبضاً يمتدُّ
إلى آخرةِ الكونْ..
سلامٌ للرعشةِ مشرقةً
في هذا الحُلُمِ الصافي..
للزرقةِ تجمعنا
للقلب يدقُّ بنا مكتسحاً كلَّ قوانينِ الأرضِ الوحشيّةْ
لسماءٍ تعلتي رايتها
للسّاعدِ يبني مُقْتلعاً موتَ الأزمنةِ القسريّةْ
هيا انبثقي
انبثقي
للكون جميعاً..
ياطفلةَ هذي الحريّةْ.

شعر

سبب للغناء

مهاب نصر*

(...)
حين تتكسر الشمس
سبع دَوائرَ من تعب
تتكلس بعض الفراغات
تسكُن قنديلَها الداخليَّ
وتعلن في مَرَح عنصريتها
(أشياء خاصة جدا)
كان باب الحديقة مستغرقا في تأمله
كان يعلم
أن الحديقة مضمرةٌ فيه
أن ليس من مشهد خارجي يَرُدُّ الى الذات وحشتها
امرأةً واحدة
علَّقت جوربين على حبل إحساسها
واستراحت الى الباب
أعطته كل تفاصيلها في التصاق أليف
وقالت،...
ولكنها لم تقل غير أعضائها
استغرق الماءُ في الماء
واستغرق العُرْيُ في ذاته
- - - -
فجأة.. تغز الجرح من خشب الذاكرة
صار جسما بحجم التناقض
ملتصقا باللحاء
وصار لفكرته شرشفٌ
ليس يُفضِي الى شفة
وحدَة الماء
أفضى الى الياسمين الحقيقي
لم يكُ في حاجة للتساؤل

* شاعر من مصر

..كان يحتاج خمسةَ عشرَ فضاء
ليصنع دائرة حول دهشته
....
(سبب للغناء)
الجميلات للشرق والشجنْ
وله من سرير القرنفل ماجرحته الخلاخيلُ والدِّمَنْ
منزل دائم البوح
ماسرةً سرةً
وعراجينُ مطلقةً هكذا دونما سبب
وعراجينُ محفورةً في الرنين
آه ياسيدي
إن بعض الحنين لبعض
عكاكيزُ من قصب الروح مثقوبة
ومهيأة للغناء
بيد أن الجميلات
لاينتظمن على وتر واحد
والأصابع مشغولة بانفعالاتها
....
(الأبيض الثرثار)
بين وبين عرائش الفوضى
ضبابٌ كاتمٌ للصوت
زخّات من الحجل الوضي لذاته
لغةٌ تردُّ الى حرير مطبق العينين
وخزٌ باردٌ في قاع جمجمتي
ومساء لاينام
من أيمّا جهةٍ أتيت
خرجتْ الىَّ بحيرةٌ يغتابها المعنى
ويهجرها الكلام

شعر

الخروج من حضرة الجمع

وفيق سليطين*

أما زالَ لي أن أحبَّ وألّا أحبَّ
أما زال لي أن أرى خلفَ هذا المدى
فرساً أو بريقاً..

وهَل لي أفتّشَ عن نجمة في الحجارةْ؟!
فما عاد للزهر وقتٌ ليختار مَيْتَتَهُ أو ليحلُمَ فيها..
وللقلب ما عاد وقتٌ ليجمعَ أخشابَه..

أو يحدّثَ عنها
لوجهي سلامٌ من الحطب الغثّ
أو من صفيح المودّةْ.

●●●

* شاعر من سورية.

صباحاً.. يدي لم تلوّحْ لوجه الحبيبةْ.
وظهراً...

يُقال استقرّ الحَمام عليها

فلم ترتعشْ..

طار عنها الحَمامْ

بأيّ المهاوي أفتّشُ عن جانحيَّ وصوتي
بأيّ لسان أسائل هذا الخرابَ العميمْ
فيا قلبُ يا قفرُ يا متخمٌ بالحماقةْ..!
بماذا تضجُّ؟

وليسَ لروحك في المصرف المركزي رصيدٌ
أما أن تستقيلَ أباطيلُ لغوكَ والثرثراتْ؟!
يُقال بأن الطفولةَ صارت تبيعْ..

وصارت تُباعْ..

يُقال بأني تقدمت في المهزلةْ

●●●

أما زال لي أن أحبَّ وألّا أحبَّ
أما زال لي أن أمدّ الفضاءَ ودربي

أقول ابتعدْ يا قريبُ

أريد أشدَّ على قبضة الريح ...

أبني على الماءِ عاصمةً لا تُحدُّ..

وأستودع الجمر قلباً جليداً...

ونافذةً لا ترى في الظلام سواها

أنا زهرة الطين.. أمخض سرَّ الزمان ولحنَ الحقيقةْ،
أقول لكم: مسرفٌ في دم البوح هذا الجدار
له في عروقي كلامٌ.. له رئةٌ في الهواءِ..
وفي الأرض ما يشتهي من ثراء الأمومةْ.

●●●

على راحتيَّ رفعتُ السماءْ
زرعتُ بها حفنةً من بروقي
وهبتُ الطبيعة أسماءَها فاستفاقتْ
وقدّستُ فيها رؤايَ وناري
وكنتُ نسجتُ الغيوبَ وأطلقتُها..

كي أنالَ البعيدْ

وما كنتُ أعلم أنّي أرتّلُ فاتحةً لاحتضاري

●●●

أما زال لي أن أحبَّ وألّا أحبَّ
تقول النجوم: قضى نحبَه أو يكادْ
تقول العصافير:

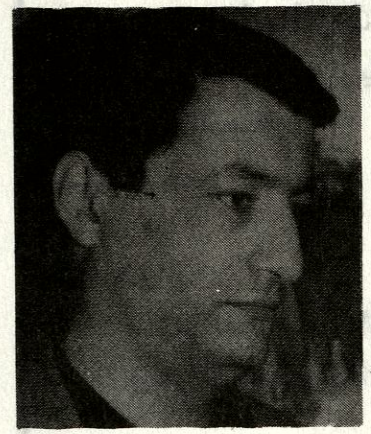
كان لنا شجراً

أو سحابْ

تقول الرياح:
سيبقى له أن يحبَّ وألّا يحبَّ
ويبقى له كلْمةٌ في لهاة الترابْ.

حوار

مع الفنان محمد الشاعر*



أمين سر
الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين

حوار عماد بني حسن

مارس الرسم منذ طفولته، التصق فنه بالواقعية منذ البداية، فسجل اللحظات الشاعرية على الورق بالالوان الزيتية والفحم، رسم الامومة وتعلق بها، لما تمثله من عطاء، في مراحله الاولى، الى أن تفتح على خصوبة الواقع، فسجله بتفاصيل مرئية من خلال اللوحات، المقروءة في قرى الجنوب، أم مخيمات الشتات قبل عام ونصف عرض نتاجه عن الانتفاضة في بيروت تحت عنوان ثورة الحجارة، فكان الحدث الاول والعمل الاعمق والاصدق في تأطير الصورة اليومية لابطال الحجارة. ثم تنقل بمعرضه الى صيدا وبين الفترة والاخرى تكبر اللوحات بمقدار تزايد الاحداث النضالية لثورة الحجارة..

في بيروت كان للكاتب معه الحوار الشامل التالي.

الكاتب س: ـ أولاً نريد أن ندخل معك بحديث شامل وصريح. من خلال موقعك في اتحاد الفنانين التشكيليين الفلسطينيين في لبنان، ما هي هموم الفنانين التشكيليين الفلسطينيين بصفتك أميناً للسر؟

الشاعر: بعد الاجتياح الاسرائيلي عام ١٩٨٢ للبنان، وتشتت الفنانين مرة أخرى بأكثر عن السابق، وانتقال الاكثرية منهم من بيروت الى سورية والى أقطار عربية وأجنبية، أصبح العبء أكبر، بحيث عملية التواصل بين فروع الاتحاد أصبحت أكثر صعوبة، وشعر كل فرع من فروعنا بأنه يعمل ويكد بمفرده، خصوصاً المتواجدين في سوريا والمتواجدين في الكويت وفي لبنان. بقي العدد قليلاً لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة من الفنانين المحترفين، كانت ظروفنا جداً قاسية وصعبة، من جراء الكابوس الحياتي الصعب، من ملاحقات وغيرها أسوة بمصير شعبنا على الساحة اللبنانية، الى جانب الحروب المتكررة التي عرفتها الساحة، ولازالت حتى الآن، بمعنى آخر، نعيش ظروفاً أكثر صعوبة مما يعيشه الفنانون الاخرون في الاقطار الاخرى، ورغم ذلك عملنا جاهدين بالعطاء وشاركنا في غالبية المعارض الجانبية التي أنجزت في لبنان، وخاصة بمتحف بيت الدين، حيث اشتركنا لمدة سنتين باسم اتحاد الفنانين الفلسطينيين، وعلى الصعيد الفردي قد أكون أكثر الفنانين الذي أنجز معارض خلال فترة ما بعد ١٩٨٢. بعيداً عن كل الظروف استمررت بالحضور في المعارض اللبنانية والفلسطينية والفردية بجهد متواصل، واشتركنا في المعارض الخارجية من خلال المعرض الكبير للاتحاد مع كل الفروع الاخرى، ومن خلال رصدنا لزملائنا الفنانين في دمشق، حيث الاكثرية الساحقة من الفنانين الذي استمروا في عطائهم ومعارضهم في المناسبات الوطنية بمعظم السنوات الماضية، وكذلك في الكويت، ولكن الملاحظ بأن عمليات التواصل كانت سلبية على نتاجنا وعطائنا الفني، وهذا حاصل بحكم أنه لم ينجز حتى الان بعد ١٩٨٢ أي معرض مشترك جماعي للاتحاد جديد، وانما نتعامل فقط في المعرض المنجز قبل ١٩٨٢، وهو الوحيد الذي يجمع الاتحاد والذي يشمل أكثر من مئة وثلاثين عملاً فنياً، ونسعى جاهدين بالطبع، ولكن صعوبة الظروف وعدم وجود تواصل دقيق وجيد ما بين الامين العام والامانة العامة رغم أننا مازلنا نحافظ على وحدة الاتحاد بصفة تميز بها الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين بأنه لم يتعرض للهزة الفلسطينية التي مررنا بها في السنوات الماضية، ولم تعرض لاي من التمزق أو المواقف المنفردة، وانما التزمنا جميعاً بناء لاتصالات وأحاديث كل رؤساء الفروع والامانة العامة، على أن نكون ملتزمين بفننا لفلسطين، كل فلسطين، بشكل أن لا ندخل في تفاصيل الصراعات الداخلية، لانه في الحقيقة فنانونا ليسوا هم في الاتحاد بصفة سياسية مميزة، انما هم أعضاء في الاتحاد لطاقتهم الابداعية، ولامكانيتهم كفنانين فلسطينيين وملتزمين بفلسطين، لان في الاتحاد هناك فنانين عرب، هناك سوريين ومصريين ملتزمين بالقضية الفلسطينية. هؤلاء الفنانون لا لوناً سياسياً لهم، وبالتالي لا يمكن أن نغوص وأن نغرق في المشاكل التفصيلية الفلسطينية التي سبقت، والآن نحمد الله على أن الامور تسير نحو الافضل، وهذا يؤكد صحة توجهنا كفنانين فلسطينيين نحو هدف واحد، ألا وهو فلسطين. يبقى أن أشير أن لكل فرع نشاطه الخاص المتميز، كما ذكرت هناك صعوبات التواصل فيما

بين بعضنا البعض. ولابد من ذكر الارض المحتلة التي تتميز بعطائها المستمر رغم قساوة الظروف، كما حال لبنان وظروفه أيضاً. ولكن العدد الاكبر موجود داخل الارض المحتلة فهناك أكثر من خمسة وعشرين فناناً محترفاً يعيشون ظروفاً قاهرة ويعيشون حالة الانتفاضة بكل معنى الكلمة، وهذا ما يميزهم عن باقي الفنانين الفلسطينيين، وقد أنجزوا معارض لم يصلنا منها سوى الاخبار البعيدة، حيث أنجزوا معرضاً عن الانتفاضة صوروا فيه وجوه الشهداء الاوائل للانتفاضة المجيدة على أرض فلسطين. وقد احتوى هذا المعرض على حوالي مئة صورة للشهداء الاوائل ووعدوا بأن يستمروا في هذا العطاء وكذلك شهدت دمشق عدة معارض حول الانتفاضة مشتركة لفنانينا، ولاتحادنا في سوريا، وشارك فيه فنانون عرب عبروا عن تضامنهم ودعمهم للانتفاضة.

الكاتب س: ـ لو تحدثنا عن معرضك الاخير الذي عرض في بيروت، ومن ثم صيدا تحت عنوان «ثورة الحجارة».

الشاعر ج: ـ أعتبر المعرض الذي أنجز في الذكرى السنوية الاولى للانتفاضة، أعتبر أنه المعرض الاول والوحيد من حيث تكامله، والذي يشمل في جميع لوحاته عن الانتفاضة، ولفنان منفرد، والانجاز لهذا المعرض كان مبكراً من قبلي بسبب أنني تفرغت للانتفاضة منذ الشهر الثاني لاندلاعها، وكان بذهني منذ البداية أن يكون معرضاً متكاملاً عن الانتفاضة المجيدة، وساعدتني الظروف بأن تطبع عن الانتفاضة في الذكرى السنوية الاولى، ومطلوب انجاز هذه اللوحات بأسرع وقت ممكن، وقد أنجزته فعلاً من خلال عمل متكامل بحوالي العشرة أشهر بحيث صببت كل جهدي وتفرغي له، حيث أقيم في نادي خريجي الجامعة الامريكية ببيروت. وأعتبر أنه السبق الاول لفنان فلسطيني أو عربي في معرض متكامل عن الانتفاضة، ومن ثم نقل المعرض الى صيدا وكان الهدف منه هو أن يشاهد شعبنا الفلسطيني هذه اللوحات التي هي مجرد أعمال تعبيرية عن انتفاضة أهلنا في الارض المحتلة. وكنت حريصاً على أن يحضره أكبر عدد من الناس، حالياً أنجزت أعمالاً جديدة، أضفتها الى لوحات الانتفاضة وأنوي اقامة معرض مبكر في بيروت. ولكن الظروف القاسية تحول دون ذلك. والمعرض منجز منذ عدة أشهر، واللوحات الجديدة تتناول حياة الفلسطينيين ومعيشتهم وصمودهم وآمالهم في هذا الوطن العربي، وأحرص على عرضه في بيروت قبل أن ألبي دعوات الخارج العديدة.

الكاتب س: ـ كيف ترى حركة الفن التشكيلي الفلسطيني، والى اين تتجه برأيك؟.

الشاعر ج: ـ المعروف أن للحركة التشكيلية الفلسطينية الموزعة في شتى أنحاء الوطن العربي والعالم رابطاً واحداً يربط الجميع به، ألا وهو تصوير آلام هذا الشعب أينما وجد في الداخل والشتات، وكذلك تصوير بطولته وصموده، أيضاً يرتبط من الناحية الفنية والحرفية باتحاد أسس عام ١٩٧٩، ويضم حوالي



مقاومة باستيل (٧٠ × ٩٠)

١١٥ فناناً تشكيلياً محترفاً، جزء منهم يعيش كما ذكرت في الداخل، وأستطيع أن أضيف على أن هؤلاء الفنانين، ومن خلال استمراريتهم بالعطاء الخلاق، يشكلون تميزاً في تيار التشكيل الفلسطيني الذي تفوح منه رائحة الارض ومشاعر وأحاسيس وتطلعات شعبنا الرازح تحت الاحتلال. منها لوحات فلسطينية، وجمل المحامل، وأطفال بلادي وغيرها لسليمان منصور. هذه العينات التي يجسدها فنانونا من خلال اللوحة ما هي الا معاناة حسية، ينقلها هؤلاء الفنانون الذين يعيشون الواقع ويلامسونه، فيرصدونه بشكل أدق وأعمق، يواجه ذلك مثلاً، افتعال حرق المعرض التشكيلي بأكمله في غزة عام ١٩٧٨، وكذلك قرار الاقفال بالشمع الاحمر لصالة عرض كاليري ٧٩ في الضفة الغربية عام ١٩٨١، والتي كان يديرها الفنان عصام بدره هذه أمثلة ذات دلالة على ما يقوم به شعبنا بكل فئاته ومن ضمنه الفنان التشكيلي، ولكن هل انهزم أو أخفق شعبنا باستمرارية كفاحه ومواجهة عدوه؟ اذاً فالفنان والاديب وغيرهما هم متوازون مع حركة الشعب الفلسطيني ومعاناته، ولا أعتقد أن هناك هزيمة لشعب، من هنا أجد الاجابة عن السؤال في أن أرى فن الشعب من خلال حركة نضاله المتصاعدة وهما مترابطان كلاً وفق الآخر من الناحية النظرية والفلسفية في المقارنة، وما ثورة الحجارة التي نعيشها اليوم سوى فصل من فصول وحلقة رئيسية من سلسلة نضالات هذا الشعب المكافح والتي لم تنطفىء منذ بداية هذا القرن رغم كل الصعاب. والفنان الفلسطيني الذي يعيش يومه مع شعبه متوحداً مع الذات الكفاحية لهذا الشعب، لابد من أن يرقى بفنه وعطائه التشكيلي المبدع للمستوى الذي يصبو اليه رغم كل العقبات والاشكاليات، وللمناسبة أضيف على أن

اجتماع الفنانين سنة ١٩٨١ في بيروت وبحثهم ودراستهم آنذاك للمجابهة بالحجارة التي حصلت داخل الارض المحتلة لعدة أيام، كان له الاثر الواضح في انتاج الفنانين التشكيليين فيما بعد رغم الاجتياح الاسرائيلي وتراكم الاحداث، وبعد التواصل فقد ظهرت لوحة «الكمين» للفنان اسماعيل شموط والتي عرضت في الكويت عام ١٩٨٤. وكذلك لوحة «النقافه» للفنان عبد الرحمن المزين عام ١٩٨٣، ولوحات أخرى من الفنانين الموزعين في شتى الاقطار لم يتسنّ لنا مشاهدتها.

يبقى أن نقول: ان رصد حركة التشكيل الفلسطيني في هذا التوزيع عملية ليست بسيطة وسهلة، وبالتالي تصعب عملية التقييم الدقيقة لمدى متابعة تطور هذه الحركة للمستوى النضالي والكفاحي للشعب الفلسطيني، وهل وصلت الحركة التشكيلية الفلسطينية الى المرحلة التي تطمح اليها، والتي تليق بالمستوى النضالي والكفاحي للشعب الفلسطيني؟. وهل وصلت الحركة التشكيلية الفلسطينية الى المرحلة التي تطمح اليها والتي تليق بالمستوى النضالي والثورى الذي وصل اليه هذا الشعب؟.

المسألة تحتاج الى التروي في الحكم. إذ من البديهي أن حركة الابداع والتشكيل ليست هي صورة للحدث أو الواقع، وانما هي استنتاج واختيار وتخزين قبل الفعل، غير محددة بزمن أو وقت، ورغم أن الترابط الشديد بين الحالة السائدة وطبيعة الابداع ومستواه في كافة العصور واضح، الا أنه لا يعني أن انتاج هذه المرحلة المهمة من حياة شعبنا سيكون بمتناول تقديرنا، وخاصة من زاوية التشكيل والابداع. ولكن يجب التأكيد قبل كل شيء على أن شعبنا يحمل بين طياته فنانين مبدعين يعيشون لحظات العطاء، والخلق، وضع الحرية، ولابد من انتشار وبعث عبير هذه الحرية المعمدة بالدم في عطاء خلاق متميز، يكون فوق كل التحليلات والتقييمات النظرية البعيدة عن أرض الواقع، يكون باختصار، كما كانت ثورة الحجارة فوق كل الاعتبارات المتعارف عليها أصيلة كتراثنا وتاريخنا وحضارتنا، ومبدعة مجددة طاهرة نقية كحجارة أرضنا.

محمد الشاعر،

- مواليد الجنوب عام ١٩٥١.
- درس الرسم في الاكاديمية اللبنانية للفنون الجملية.
- أقام معرضه الفردي الاول عام ١٩٦٦ في بيروت.
- اشترك في أكثر من ١٧ معرضاً عربياً ودولياً بينها، موسكو، البرتغال، اسبانيا، جنيف، المانيا، بولونيا، هنغاريا، تشيكوسلوفاكيا، فنلندا، الكويت، دمشق، أميركا، الامارات العربية.
- أقام معرضه «الجنوب الولادة عام ١٩٨٣ في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي».
- عضو الاتحاد العام للفنانين التشكليين العرب.
- عضو الرابطة الدولية للفنون التشكيلية.
- أمين سر الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين.
- أقام معرضه «ثورة الحجارة» في أوائل عام ١٩٨٩ في نادي خريجي الجامعة الامريكية. أقام معرض الانتفاضة في صيدا عام ١٩٨٩.

حوار

النهضة والوحدة العربية في حوار مع كمال عبد اللطيف*

الكاتب الفلسطيني

● س ١: لقد حاولت في اكثر من عمل من اعمالك تقويم تجربة فكر النهضة العربية، فهل تلخص لنا ما وصلت إليه ؟؟

■ ج ١: عندما بدأت العمل في إعداد دراسة عن فكر سلامة موسى في بداية السبعينات، كنت مدفوعاً بهاجس متابعة صيرورة وواقع الفكر الاشتراكي في الوطن العربي. فقد كان سلامة موسى كما هو معروف من أوائل المثقفين العرب الذين كتبوا عن الاشتراكية، (نشر كتباً عن الاشتراكية سنة ١٩١٣)،

وقد تابعت مجهوداته الفكرية ذات الطابع الصحفي ، وحاولت صياغة المبادىء والأطروحات والمفاهيم الأساسية الموجهة لفكره ومشروعه الثقافي في الاصلاح والنهضة ، وانتهيت الى خلاصات أبرزها ما يلي :

ـ إن سلامة موسى أسهم في تأسيس الملامح الأولى لجبهة نقدية هامة في مناخ الفكر العربي المعاصر في النصف الأول من هذا القرن ، وإن هذه الجبهة رغم مختلف أشكال القصور التي أحاطت بها تعد لبنة هامة في ترسيخ الإيمان بالعقل والإنسان والحرية والعلم .

ـ اعتمدت دعوة سلامة موسى على إيمانه القوي بالنموذج الأوروبي في الحضارة ، فقد دافع باستمرار عن وحدة الحضارة الإنسانية ودافع في نفس الإطار عن ضرورة التعلم من الدروس التي بلورتها هذه الحضارة باعتبارها حضارة متفوقة .

ـ وإذا كانت هذه المسألة تعد اليوم نقيصة بارزة في مشروع الأفكار النهضوية الليبرالية والتغريبية (نقصد هنا تقليد ونسخ مشروع برنامج النهضة الأوروبية) . فإن جهوداً فكرية جاءت بعد سلامة موسى ، أبرزت أهمية الاستيعاب الخلاق لمعطيات الحضارة الغربية ، وأظهرت أن ضرورة تمثل منجزات الحضارة الغربية لا تعني التبعية واستحضار الجاهز قدر ما تعني محاولة تطوير هذه الحضارة بتملكها ثم تجاوزها ، وهذا هو معنى النفي التاريخي الخلاق .

وقد حاولت في مؤلف لاحق توسيع دائرة اهتمامي بالنصوص السياسية العربية المعاصرة ، فقرأت أعمال خير الدين التونسي ، والطهطاوي ، والأفغاني ، ومحمد عبده ، وعلي عبد الرازق الخ . كما بحثت في مفاهيم الديمقراطية والعلمانية والتاريخانية . وقد ترتب على بحثي في هذه الموضوعات مجموعة من الخلاصات أوجز نماذج منها بالصورة الآتية :

ـ ثنائية المرجعية النظرية في الكتابة السياسية العربية المعاصرة ، التراث الإسلامي ، والفكر السياسي الليبرالي في صورته المتبلورة في القرن ١٩ .

ـ طغيان وغلبة آلية القياس والمماثلة على هذه الكتابة .

ـ طغيان وسيادة المرجعية التراثية على المرجعية الغربية ، رغم مزاوجة هذه الكتابة بين المرجعيتين .

وقد كان همي الأساسي في كتابي الثاني « التأويل والمفارقة » هو البحث عن سبل ووسائل التأصيل النظري السياسي في الفكر العربي المعاصر ، فقد فكرت وما زلت أفكر وأبحث في العوائق والعقبات التي تحول بين العرب وإنتاج منظومات نظرية سياسية مطابقة لحاضرهم ، وقادرة على تزويدهم بالرؤية التي تكفل لهم الخلق والابتكار ، في مجال النظر والوعي ومجال الفعل والممارسة .

● س ٢ : انت كاتب ومؤلف ، فكيف ترى مستوى النتاج الفكري العربي في العقد الأخير ؟ ما هو مستواه العلمي ؟ وما هي سماته ، ما علاقته بالنضال القومي والتحرر السياسي والاجتماعي ؟

■ ج ٢ : قد لا يجادل اثنان في التطور الحاصل في مجال الفكر العربي المعاصر ، فقد أثمرت جهود النهضويين العرب الأوائل محاولات جديدة في باب التعامل مع التأخر العربي ، وقدمت اجتهادات

إصلاحية وثورية في كيفية تجاوز هذا التأخر ، واستيعاب أصول المعاصرة . ففي باب الموقف من التراث على سبيل المثال لا الحصر نحن نثمن بكثير من الإيجاب محاولات محمد أركون ، ومحمد الجابري . وفي باب الجدل في موضوع الأصالة والمعاصرة نقدر كثيراً جهود عبد الله العروي ، وفؤاد زكريا . كما نثمن بكثير من الإيجاب أيضاً منجزات ما يمكن أن نسميه المدرسة المصرية في الابحاث السياسية العربية المعاصرة ، وهي أبحاث تتسم بكثير من الجدة العلمية وتبشر بامكانيات الابتكار في بابها .

صحيح إنه وسط هذه المنجزات المشرقة تنشأ في الساحة العربية كثير من الصيغ الفكرية المرتدة ، وتنتعش أدبيات وشعارات تدعو الى إفكار ورؤى قديمة ، ومتجاوزة . إلا أننا نرى أن هذه المسألة تدعو لمزيد من تعميق النظر في آليات دعم مقدمات وأصول المعاصرة في الفكر العربي المعاصر .

أما في مجال الفكر السياسي القومي ، فإننا نعتقد أن مراكز البحث الموجودة في بعض الساحات العربية أسهمت وما زالت تُسهم في نشر كثير من الأبحاث التي سيكون لها بدون أدنى شك أثرها في تطوير الفكر القومي وتجديده .

● س ٣ : وانت مدرس جامعي ، فما علاقة الكتاب الجامعي الفلسفي بفكر النهضة ماضياً وراهناً ؟ وما مستوى هذا الكتاب من الناحية العلمية ، وما مدى قدرة الطالب على استيعابه ؟ وما مدى قدرة الكتاب على تطوير معرفة الطالب وتلبية حاجاته العلمية ؟

■ ج ٣ : يتعلق الأمر في هذا السؤال كما فهمته بوضع الكتاب الفلسفي في الجامعات العربية ، ويبدو لي أن العناية بالفلسفة والفكر الفلسفي ما تزال دون المستوى المطلوب في أغلب الأقطار العربية ، فهناك عدد كبير من الأقطار العربية لا تسمح للسؤال الفلسفي بمساكنتها . ولا شك إن الخوف من الفلسفة ومن الأسئلة الفلسفية يعود الى سيادة سقف العقائد الجامدة ، ومع ذلك فقد انتعشت في الفكر الفلسفي في الستينات ترجمات بعض أصول الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، وهو أمر أسهم في تعميم المصطلح الفلسفي بلغته المباشرة بدل لغة الشروح والتعليقات والملخصات . لكن المرحلة الحالية لم تعرف في مجال الترجمة ما يماثل المرحلة المذكورة ، وقد طرأ أمر جديد على علاقة الفكر العربي بتاريخ الفلسفة ، حيث ظهرت أبحاث وظفت مفاهيم الفلسفة وتاريخها دون ان تكتفي بمجرد ترجمتها وتقديمها ، وذلك في الأبحاث التي اعتنت بقراءة ونقد التراث الاسلامي ، وهذه مسألة قد تكون مفيدة إلى أبعد الحدود ، فهي توسع دائرة أجرائية المفاهيم الفلسفية وتتيح إمكانية إغنائها ضمن آفاق نظرية وتاريخية مخالفة لمجال تشكلها الأول ، وهو مجال تاريخ الفلسفة في صيرورته الغربية . إلا ان هذا الأمر لا يعفينا من ضرورة ترجمة النصوص الفلسفية الهامة في تاريخ الفلسفة . فلا يمكن للفكر الفلسفي العربي أن يندرج في دائرة تاريخ الفلسفة ، وهو تاريخ كوني ، الا بتعامله من منطلقاته الخاصة المطابقة لتاريخه وواقعه وذاته مع نصوص وقضايا ومفاهيم الفلسفة الكبرى ، وهذه مسألة تغني تاريخ الفلسفة ، وتطوره ليستوعب تاريخنا ووعينا في جدله الفكري التاريخي العام .

نسجل إذن وجود تقصير في المؤسسات الجامعية ، ومؤسسات البحث في مجال تعريب النص الفلسفي الفاعل في تاريخ الفلسفة ، وبجانب ذلك نسجل قفزة نوعية في تعامل الباحثين العرب في مجال الفلسفة مع تاريخ الفلسفة ، رغم كل الصعوبات والمعوقات النظرية والتاريخية التي ما زالت ملازمة للقول الفلسفي والجرأة الفلسفية في النظر العربي المعاصر .

● **س ٤ : قضية الوحدة العربية مطروحة ، وهل تطرح اكثر من مشكلة ؟ من يحقق الوحدة ؟ وكيف تتحقق ؟ وهل هي وحدة اندماجية ام وحدة اتحادية ؟ وما رايك في تطورات الفكر القومي حول هذه القضايا ؟**

■ ج ٤ : لا شك في ان مشروع الوحدة العربية قد عرف منعطفاً هاماً في عقد الثمانينات من هذا القرن . فالتجمعات الاقليمية التي تمت في المغرب العربي وفي بلدان الخليج وبعض دول المشرق العربي تعد مؤشرات على بروز مسلسل جديد في مجال العمل الوحدوي العربي ، صحيح إن هذه التجمعات لم تنجز بعد من المشاريع التنسيقية والتكاملية ما يمنحها الرسوخ والفعالية ، لكنها تشكل ملامح أولية لأسلوب جديد في طريق تحقيق الوحدة العربية .

وبموازاة هذه التحركات نلاحظ أن الفكر الوحدوي العربي عرف محاولات هامة في مجال إنعاشه ، وإعادة بنائه وتسهم مجموعة من مراكز البحث بمنابرها ومنشوراتها في تعميم النقاش في موضوعات الفكر القومي ، والوحدة العربية ، ونحن هنا نشير بالذات الى مركز دراسات الوحدة العربية ، والمجلس القومي للثقافة العربية ، ومعهد الانماء العربي، الى غير ذلك من المؤسسات والمنابر التي تحاول المساهمة في اغناء دائرة الجدل القومي العروبي في الوطن العربي .

إن الجهود التي تبذلها المراكز التي ذكرنا تتيح للعرب إمكانية تشخيص عناصر واقعهم ، ومعرفة آفاق العمل المطروحة امامهم ، من أجل دعم الفكر الوحدوي وتجديده بالصورة التي تجعله مواكباً للمتغيرات المتعددة التي ما فتئت تحصل في الساحة القومية، وفي المجال الدولي . أما الخطوات الوحدوية الاقليمية، فلم يعد من الممكن النظر اليها كعوائق أمام الوحدة الشاملة ، ففي هذا الرأي كثير من الهروب الى الأمام ، بل يجب التعامل معها باعتبارها وسيلة مؤكدة لبلوغ درب الوحدة ولن يتم هذا الأمر إلا بواسطة الدفع بمواثيقها ومؤسساتها إلى إنجاز المهام التي وضعتها لنفسها ، ففي هذه الحالة سيبرز مسلسل الممارسة ما يُمكن من بلوغ مرمى الوحدة العربية .

ومعنى هذا : إن الوحدة العربية كما نفهمها ليست مجرد نزوة إرادية ، أو طموحاً معتمداً على بعد عاطفي ، أو شعاراً براقاً . إن الوحدة مشروع تاريخي عقلاني ، والمشاريع التاريخية الناجحة والفاعلة لا تتحقق الا بحساب ، وفي نجاح التجمعات الاقليمية ما يؤشر على سلامة العملية الحسابية في اتجاه الوحدة العربية ، فالتكامل الاقليمي ، والتنسيق الاقليمي ، والسوق العربية الاقليمية ، والمؤسسة المالية الاقليمية ، وجواز السفر الاقليمي ، خطوات دافعة في اتجاه السوق العربية المشتركة أولاً ، والوحدة

العربية الناظمة لتجمعات اقليمية مصالحها التاريخية مشتركة ، واستمرار وجودها وقوتها في العالم مرهون بوحدتها ، الوحدة التي ترى في تنوع شعوبها مصدر قوتها وخصوصيتها .

كمال عبد اللطيف

استاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الرباط ، شعبة الفلسفة ، ومجال التخصص الفلسفة السياسية والفكر العربي المعاصر . ومن مؤلفاته :

ـ سلامة موسى وإشكالية النهضة ـ دار الفارابي بيروت ١٩٨٢ .

ـ التاويل والمفارقة : نحو تاصيل فلسفي للنظر السياسي العربي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ١٩٨٧ .

تحت الطبع ـ الفلسفة العربية المعاصرة : حدود ومستويات .

اما المؤلفات المشتركة فهي :

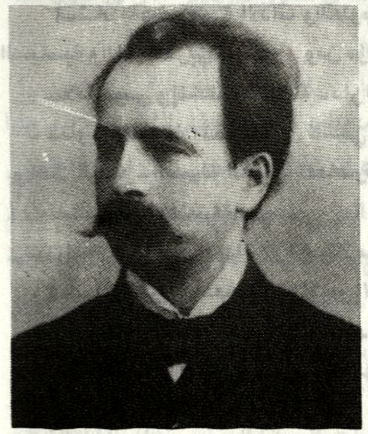
ـ دراسات مغربية ـ مهداة الى الاستاذ محمد عزيز الحبابي ـ المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ١٩٨٥ .

ـ الفلسفة العربية المعاصرة (المؤتمر الاول) مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ .

ـ في النهضة والتراكم ، دار توبقال ، الدار البيضاء ١٩٨٧ .

المعرفة والسلطة في الوطن العربي ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ١٩٨٨ .

شخصيات فلسطينية



بندلي صليبا الجوزي

١٨٧١ - ١٩٤٢ م

نصري الجوزي*

في سلسلة إحياء التراث الثقافي الفلسطيني، أعاد الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين - الأمانة العامة، أعاد طباعة كتاب: «من تاريخ الحركات الفكرية في الأسلام»، تأليف الدكتور بندلي الجوزي الذي ألفه في مدينة القدس - فلسطين سنة ١٩٢٨.

وقد كتب مقدمة الطبعة الثانية ١٩٨١ حسين مرورة في عشر صفحات، نقتطف منها مايلي: «هكذا نقرأ بندلي الجوزي».

«أما القول عن بندلي الجوزي، أنه رائد في حقل الدراسات التراثية العربية - الأسلامية، فذلك أصبح من مألوف القول عندنا، بل يكاد يكون من بدهياته» ويستطرد قائلاً:

«على أن عناصر الريادة في عمل بندلي الجوزي متعددة، فهي لاتقتصر على اقتحام التراث بقراءة منهجية، مادية، تاريخية، بل تضيف الى ذلك عنصرين يزيدان هذا العمل قيمة تاريخية بالغة الأهمية، هما: أولا:

* من رواد ادب المسرح الفلسطيني.

إن بندلي ينطلق منهجيا من وعي علمي لارتباط حركة تطور المجتمع العربي - الأسلامي بالقوانين العامة الموضوعية ذاتها التي ترتبط بها حركة تطور المجتمع البشري ككل، مع إدراكه أهمية الخصائص التاريخية التي تميز مصداقية تلك القوانين في المجتمع العربي - الأسلامي. إن وعيه العلمي لتلك الحقيقة المزدوجة يتجلى نظريا في مقدمته لكتاب «من تاريخ الحركات الفكرية في الأسلام»، كما يتجلى عمليا في فصول الكتاب، خلال دراسته تلك الحركات في صورة رؤية القوانين العامة الموضوعية التي تحكم ظروف نشأتها ومسار حركتها، إيجابيا وسلبيا.

أما العنصر الثاني من العنصرين الأضافيين في ريادة الرجل، فهو سبقه إيانا نحو نصف قرن، إلى كشف المنطلق الفكري للمنهج البرجوازي الغربي في دراسة تراثنا الفكري، وتحديد هذا المنطلق بكونه ينكر شموليته القوانين العامة الموضوعية لحركة تطور المجتمع البشري، أي كونه ينكر خضوع المجتمع العربي - الأسلامي لتلك القوانين ويفتعل قوانين خاصة لهذا المجتمع «الخاص» تحكمه، بمعزل عن القوانين العامة لتلك. ففي مقدمة الكتاب ذاتها، وفي سياق كشفه لهذا الأساس غير العلمي للمنهج البرجوازي الغربي يفضح الاستنتاجات المعادية للعلم التي تبنى على ذلك الأساس نفسه، ولاسيما الاستنتاج الذي يؤدي مباشرة الى الأخذ بالنزعة العرقية (العنصرية) في تصنيف شعوب البشرية وتميز بعضها من بعض، لابالخصائص التاريخية الواقعية، بل بالخصائص الفطرية الطبيعية التي يزعمون أن الطبيعة اختصت بعض الشعوب بالخصائص العالية الممتازة، في حين اختصت الطبيعة شعوبا أخرى بخصائص أدنى شأنا في سلم التطور الحضاري. وبناء على هذا الأساس الفاشي المعادي للعلم والشعوب، تتمايز شعوب العالم وتتفاضل، فإذا ببعضها يقع في ذروة الهرم البشري، وبعضها في أدنى درجات الهرم، وبعضها بين هذه وتلك.

إن إدراك بندلي الجوزي موضع الخطأ الفادح، وموضع العداءللعلم وللأنسان، في أساس المنهج البرجوازي الغربي في دراسة تراثنا الفكري، يصح أن نعده العنصر الأهم بين عناصر الريادة التي أصبحت الصفة اللازمة، بجدارة، الاسم بندلي الجوزي»

....

ولد بندلي الجوزي في الثاني من شهر تموز سنة ١٨٧١م في مدينة القدس، لأبوين من الطبقة المتوسطة العاملة. توفيت والدته أثناء الوضع، وتوفي والده الذي كان يعمل نجارا هو الآخر ولما بلغ بندلي السادسة من عمره. فتكلفه والدي الذي يكبره سنا، وأسهمت أخوته الثلاث في العناية به، والاهتمام بأمره.

ومما هو جدير بالذكر، ان العائلات المقدسية، كانت تسكن داخل أسوار المدينة، في بيوت تجاور بعضها بعضا، وتتصل بنائيا بعضها ببعض إضافة إلى أن المحبة كانت سائدة بين الناس، وأن الجيران كانوا يتعاونون فيما بينهم ويتشاركون في الأفراح والأتراح.

عاشت عمتي مريم اكثر من مئة سنة، وكنت كلما أسألها عن طفولة عمي بندلي تقول: إن طفولة عمك كانت هادئة. كان رزينا في تصرفاته، ويبتعد عن المشاكلة والنزاع مع أقرابه. وفي العاشرة من عمره،

كان يعتزل أولاد الحارة، ويصعد الى سطح الدار الذي يطل على مناظر مدينة القدس القديمة، وبيده كتاب يطالعه. كان ولوعا وشغوفا بقراءة القصص الأدبية منها، والبوليسية، كما كان يحلو له أن يقرأ في الأناجيل.

تلقى بندلي علومه الابتدائية، وقسما من الدروس الثانوية في دير «الأشارة الصليبي» المعروف «بدير المصلبة»(١)، الواقع في القسم الشرقي من القدس، وتابع دراسته في مدرسة «كفتين» في طرابلس الشام ـ لبنان كان الطلاب الأذكياء في المدارس الروسية واليونانية، يرسلون الى روسيا لأتمام دراستهم الجامعية، تقديرا لهم على اجتهادهم وطموحهم.

هاجر الى روسيا سنة ١٨٩١م، ليدرس اللاهوت ويتخرج كاهنا، ولكنه بعد دراسته اللاهوت مدة ثلاث سنوات، عدل عن هذا الموضوع، وانصرف إلى الدراسات العربية والأسلامية واللغات الشرقية في موسكو.

نال شهادة الماجستير من جامعة قازان، سنة ١٨٩٩م. وكان موضوع رسالته «المعتزلة ـ البحث الكلامي التاريخي في الأسلام»:

عاد إلى مسقط رأسه ـ القدس ـ سنة ١٩٠٠، مصمما على البقاء في بلاده التي أحب، وعندما شاهد الحالة المزرية المتردية، السياسية منها والاقتصادية، ورأى ماوصلت إليه البلاد من فقر وجهل وخنوع، وما تقوم به السلطات العثمانية الحاكمة من ظلم وتعسف واستغلال، والضغط على الحريات، ومحاولة القضاء على اللغة العربية ـ لغة الآباء والأجداد، عندما رأى أكثر من ذلك، آثر أن يعود من حيث آتى، الى قازان.

وفي سنة ١٩٠٣، تزوج بندلي من الروسية (لودميلا زويفا) المولودة في ٢٥ـ١٠ـ١٨٨٠م، والمتوفاة في الثلاثين من شهر حزيران سنة ١٩٣١ في مدينة باكو، فأنجبت له سبعة أبناء، ثلاثة ذكور وأربع إناث.

وقد اهتم عمي اهتماماً كبيرا بتعليمهم وتربيتهم. وهاهم في هذه الأيام يحتلون مراكز مرموقة في الاتحاد السوفيتي. وهم:

١ : **فلاديمر**: ولد سنة ١٩٠٤، حاز على درجة دكتوراه في الفيزياء. وهو الآن برفسور في جامعة أذربيجان. متزوج. لم ينجب.

٢ : **جيورجي**: ولد سنة ١٩١١ في مدينة قازان. أنهى كلية الجيولوجيا في معهد البوليتكنيك ـ أذربيجان سنة ١٩٣٣. عمل كجيولجي. قتل في الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢.

٣ : **بوريس**: ولد سنة ١٩١٣ في قازان. درس في كلية التنقيب الجيولوجي، في معهد أذربيجان الصناعي، وتخرج سنة ١٩٣٩. هو حاليا يشغل وظيفة رئيس قسم الفلزات الطبيعية غير المعدنية في وزارة الجيولوجيا في الاتحاد السوفيتي.

أما بناته الأربع فهن:

١ : **انتاسيا** المولودة في قازان سنة ١٩٠٥. درست أولا في قازان، ثم انتقلت مع زوجها، وابنتها الى باكو سنة ١٩٢٥. أنهت دراستها العلمية في جامعة أذربيجان ـ فرع الرياضيات والفيزياء: نالت شهادة الماجستير في سنة ١٩٣٩، وحصلت على الدكتوراه بامتياز. حضرت العديد من المؤتمرات الدولية ممثلة

الاتحاد السوفيتي. توفيت سنة ١٩٨١.

٢ : **الكسندرا**: ولدت سنة ١٩٠٧ في قازان. درستفي قازان وباكو. أنهت دراستها في كلية التربية ـ قسم علوم التاريخ العام من جامعة أذربيجان، سنة ١٩٣٠. توفيت في باكو سنة ١٩٣١.

٣ : **تمارا**: من مواليد قازان سنة ١٩٠٩. أنهت دراسة التكنولوجيا في جامعة أذربيجان، سنة ١٩٣١. حصلت سنة ١٩٤٩ على شهادة دكتوراه في العلوم.

٤ : **اولفا**: ولدت في قازان سنة ١٩١٥. تعيش حاليا في لينغراد. أتمت دراستها المتوسطة في باكو، وعلومها العالية في جامعة لينغراد، قسم البيولوجيا، باختصاص أعمال التعدين. حصلت على الماجستير سنة ١٩٥١، كما حصلت على الدكتوراه في العلوم البيولوجية سنة ١٩٥٤.

ومما هو جدير بالذكر أن أحفاد عمي وحفيداته ـ وهم كثر أصبحوا علماء متخصصين يشغلون مناصب رفيعة في سلك التعليم الجامعي، وفي معاهد العلوم والتكنولوجيا.

زيارات بندلي إلى مسقط راسه

زار فلسطين ثلاث مرات ١٩٠٩، ١٩٢٨، ١٩٣٠م.

وفي سنة ١٩٠٩ عاد بندلي إلى الشرق الأوسط، ضمن بعثة علمية استغرقت سنة كاملة، كان يشرف خلالها على رحلة طلبة روس قادمين الى فلسطين، حبا في الاطلاع على معالمها الأثرية، ورغبة في معرفة البلاد التي نشأ فيها أستاذهم وترعرع.

اغتنم والدي فرصة وجود عمي بين ظهرانينا، فطلب إليه أن يكون عرابي في المعمودية. وراح أفراد العائلة من عمّات وخالات وقريبات يفكرون في الاسم الواجي اطلاقه علي. فافترض أسماء روسية يونانية لاتمت الى واقعنا بصلة، فانبرى عمي لهن ـ هكذا قالت عمتي ـ وقال:

«الى متى نظل تبعاً، نسير في ركاب غيرنا من الشعوب، ولدينا أسماء عربية جميلة، وسمّاني نصري. ذكرت هذه الحادثة لأدلل أن عمي كان ثائرا على العادات والتقاليد، ناقما على الذل والخنوع.

سألني بعضهم، وكتب الي العديد من الأصدقاء والمعارف، عن سبب تسمية عمي ب ـ بندلي. وما معنى هذا الأسم(٢)، وهو الذي حرّر الفكر من أوهامه، وأتاح للناس أن تفكر تفكيرا علميا صادقا؟

تسللت بعض الدول الغربية، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الى منطقة الشرق الأدنى، حفاظا على الطوائف المسيحية ظاهرا، ومحاولة اقتسام تركة «الرجل المريض»، أي الأمبراطورية العثمانية باطنا. فراحت فرنسا تفرض نفسها حامية عن المسيحين الكاثوليك واللاتين، اما روسية القيصرية، فقد نصبّت نفسها حامية للمسيحين العرب، الأرثوذكس وأخذت تفتح المدارس ودور المعلمين والمعلمات حتى تفوز باحترام السكان وثقتهم.

إزاء هذه الهيمنة والسيطرة والتنصيب، أقبل الناس على الأسماء الأجنبية، فكثرت أسماء كلود وجان وفكتور ومادلين وجورجيت وجوزفين، كما نقل الروس الى المنطقة اسماء القديسين والقديسات والملوك

والملكات امثال قسطنطين، هيلانة، اسبر (اسبيريدون) نقولا. بندلي (اختصار (بندلايمون). وبند لايمون اسم رجل صالح، معناه الرجل الناصح، من فعل نَصَحَ ينصَحُ، وله معنى آخر هو الرجل الشفوق الرحيم. وبالفعل لقد نصح عمي بندلي الشعب العربي ان يستيقظ من سباته العميق، ويتحسس الخطر المحدق به من قبِل الصهيونية العالمية وأخطارها.

وفي رحلته هذه، ذكرت الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني حكاية رواها الكاتب الروسي المعاصر تيودورف قال فيها:

«اجتمعت ببعض أدباء القدس في منزل الخواجا بندلي الجوزي، أستاذ الآداب العربية في كلية قازان، وكان معي الخواجا كراتشكوفسكي - المستشرق الروسي، وقد جاء الى الشرق في مهمة علمية، فأقام في مصر وسورية وفلسطين لهذه الغاية، سنة ونصف سنة، فأتقن اللغة العربية، وتخلق بأخلاق العرب وعاداتهم. أما الأدباء الذين أشرت إليهم فهم: الأستاذ خليل السكاكيني، والشاعر والكاتب محمد إسعاف النشاشيبي، وارستقراطي من سلالة الفاتحين هو جمل الخالدي. كان حديثنا بعضه بالأفرنسية، وبعضه بالأنكليزية، وأكثره بالعربية، وكان رفيقي المستشرق وصاحب المنزل يترجمان بعض ما غمض من الحديث. وكنت أسمع - وأنا مسرور مرتاح - حديث هؤلاء الشبان المتقدين ذكاء وحماسة ووطنية. وقد علمت أمور كثيرة، مما لانعلمه نحن الأوربيين عن هذه الأمة العظيمة بتقاليدها وتاريخها وآدابها، ولايخفى أن جمهور السيّاح الأوربيين، إذا كتبوا شيئا عن سورية وفلسطين، إنما يلتقطون ذلك من أفواه الحوذيين والحمالين والباعة المتجولين.»

إلى أن يقول:

«كنت جالساً أسمع اللهجة العربية، وكأني أسمع أنغاماً موسيقية جميلة يُستشفُ منها القوة والعناد، وكأن تلك الألفاظ نار تستعرُ حدة».

ثم يقول: وبعد أن مضى هزيع من الليل اقترحت على النشاشيبي أن يسمعنا شيئا من شعره، فأنشدنا قصيدة في الحرية (ذكرى فتاة مكدونيا)، ارتحت اليها كل الارتياح، وأكبرت المعنى العربي العظيم في اللفظ العربي الفخم، وخلت كأني أسمع أصوات جمهور لافرد. كان هذا الشاعر يقرأ قصيدته، وفي كل نبرة من نبراته معان عظيمة. وقد ظهر لي، وهو يقرأ نشيطاً عنيداً متحمساً. هذا الشاعر عربي قبل كل شيء، مسلم، ولكنه يمتزج مع إخوانه المسيحيين امتزاج الراح والماء(١).

والى القاريء، هذه الابيات من قصيدة «ذكرى فتاة مكدونيا».

أخطري اليوم في البروع اختيالا ... لاتخافي من العدو اغتيالا
لاتخافي من كيده، لاتخافي ... إن كيد العدوّ ولّى وزالا

إلى أن يقول:

إنّ ذا العصر عصر علم وبحث ... ليس فيه لجاهل من هناء
إنّ ذا العصر عصر كدح ودأبٍ ... ليس فيه لغافل من بقاء
تتبارى فيه البراي وتسعى ... وتجارى والفوز للأقوياء

والقصيدة طويلة، وسنذكر معظم أبياتها عند الحديث عن الأديب إسعاف النشاشيبي(٤).

●●●

وفي رحلته عام ١٩٠٩ الى الشرق العربي، وإلى فلسطين خاصة، ازدادت صلته بكل من: خليل السكاكيني، إسعاف النشاشيبي، جميل الخالدي، عادل جبر، وتعرف الى المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي في بيروت سنة ١٩٠٩.

وأثناء رحلته الدراسية هذه، رأى مارأى من تأخر وجهل وظلم السلطات العثمانية، والإقطاعيين الذين كانوا يسيرون في فلك تلك السلطات، ويمتصون دماء العامل والفلاح، فراح يبشر - كلما سنحت له الفرصة - بأفكار جديدة تحررية، ويهيب بالناس أن يكسروا القيود، ويثوروا ضد الظلم والقوى الرجعية الحاكمة، ويتمسكوا بلغتهم العربية، وعاداتهم الموروثة، إذ تبين له، أن العثمانيين يحاولون القضاء على اللغة العربية، وعلى الأمجاد العربية، ورأى أن أفكاره لاتنبت في أرض سبخة، فآثر أن يعود الى روسيا، والحزن يملأ قلبه.

وكانت رحلته الثانية، سنة ١٩٢٨، بعد أن برَّح به الحنين، إلى مسقط رأسه، إلى فلسطين، إلى عائلة أخيه وأخواته وأصدقائه، فشد الرحال، وجاء إلى القدس، ليقيم في بيت أخيه والدي. وفي تلك الرحلة باشر بتأليف كتابه «من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام».

وقد أهدى كتابه:

«الى الشبيبة العربية الناهضة»

«الى الذين حرروا عقولهم من تأثير الخرافات الاجتماعية والدينية والقومية»

«إلى أصحاب العقول السليمة والضمائر الحية»

وقد وقف على طبع الكتاب صديقه المرحوم خليل السكاكيني(٥) وطبع في مطبعة «بيت المقدس» لصاحبيها الياس وأندريا مشحور - القدس في ١٠ آب ١٩٢٨ وكانت أول شحنة من الكتاب، وعددها ثلاثمائة نسخة، قد أُرسلت الى المجاهد الفلسطيني، محمد على الطاهر، صاحب جريدة «الشورى»، الذي كان يقيم في القاهرة(٧) ولم يمض إلا وقت قليل، حتى بيعت معظم النسخ، وأخذت الجرائد والمجلات تعلق تعليقاتها حسب عقليات محرريها المتحررة أو الجامدة.

وأثناء إقامته في القدس، أصبحت دارنا محجا لعشاق العلم والأدب والسياسة. فقد كان يلتئم شمل كل من: خليل السكاكيني، عادل جبر، إسعاف النشاشيبي، أحمد سامح الخالدي، والحاج أمين الحسيني، خليل بيدس، ورفله عبد النور، وجيمس الخوري أيوب، وجورج خميس، راغب النشاشيبي، فخري النشاشيبي، حسن صدقي الدجاني وغيرهم كثر.

وكان أهم الأبحاث التي تدور في تلك الحلقات هي:

١ - فكرة توحيد الصفوف، والعمل يداً واحدة للوقوف أمامم أخطار الصهيونية.

٢ - تبيان خطر الصهيونية العالمية، ومراوغاتها للوصول إلى تحقيق أهدافها.

٣ - سياسة الحكومة البريطانية الملتوية والنوايا السيئة التي تبيتها للفلسطينيين.

٤ ـ تأليف جمعيات ولجان شبيبية تستطيع أن تحرك دماً جديداً في الأوساط القديمة.

وكان في معظم الاجتماعات، وكلما سنحت له الفرصة، يهيب بالزعماء أن يتحدوا، ويعملوا ضد الأخطار المحدقة بالبلاد. وعندما كان بعض الزعماء يبينون أسباب خلافاتهم كان ـ رحمه الله ـ يقول:

«انسوا الخلافات وحب الكراسي ليتكم تعملون، وتقللون من الثرثرة والكلام الفارغ. كلكم يسعى لخدمة الوطن، كما تقولون، فلتكن أعمالكم المجدية اذاً في سبيل رفعة هذا الوطن وسموه».

وأثناء إقامته السنوية، طلب إليه أن يقوم بإلقاء المحاضرات في «معهد الحقوق ـ بالقدس، فلبى الطلب، ولا يزال الأحياء من طلابه يذكرون محاضراته الحقوقية بالاستحسان وإعجاب. وقد ذكر لي صديقي الشاعر عبد الكريم الكرمي (ابو سلمى) ـ وكان أحد طلاب المعهد ـ أن عمي كان يشدد في محاضراته على نقطتين هامتين:

١ ـ حق الإنسان في الحياة الحرة الكريمة، وكان يستشهد بقول الفاروق عمر بن الخطاب: «متى استبعدتم الناس وقد ولدتهم أماتهم أحرارا»

٢ ـ وحق الإنسان في الحفاظ على ارضه وبلاده، وحقه في العيش الكريم وفي سنة ١٩٢٨، ألقى سلسلة من المحاضرات الهادفة التحررية في كل من القدس، وبيت لحم، ورام الله، ويافا وحيفا وسائر المدن الفلسطينية، نبّه الشعب العربي إلى حقه في الحياة الحرة، وبيّن له المؤامرات والدسائس التي تحاك له من الصهاينة والإنكليز على السواء، وطلب من كل فرد أن يقوم بواجبه من أجل عروبة فلسطين، وكرامة الأمة العربية.

وكان رجال التحري والمخابرات، ومراسلو الجرائد والمجلات العربية واليهودية يتبعون خطواته. وكنّا أخي الأكبر صليبا وأنا، ننبهه إلى الفاسدين (الفسّادين) فيضحك ضحكته المدوية ويقول:

فليكتبوا ما يشاؤون وليقلبوا الحق باطلاً، أما أنا فعلي أن أؤدي الرسالة لبني قومي».

وقد ذكر المرحوم محمد علي الطاهر ما يلي:

«كُتِب إلينا أن العلامة الفلسطيني الأستاذ بندلي الجوزي قد وصل الى باكو، في روسيا، وأخذ يمارس أعماله التدريسية في جامعة باكو. ويشتغل الأستاذ الآن بوضع كتابه الثاني (الحركات الفكرية السياسية في الإسلام) تتمة لكتابه القيم «من تاريخ الحركات الاجتماعية، الذي طبع في الصيف الماضي». إنه ليعز على أبناء فلسطين، وأبناء العروبة جميعاً، أن تتمكن العصابات الصهيونية في فلسطين من حرمان وطن الأستاذ مسقط رأسه، من الانتفاع بعلمه وفضله. لقد عاد الأستاذ الى دار الغربة حزيناً كئيباً ولا شك، وكيف لا يكتئب ولا يحزن، وهو يرى وطنه، وقد أصبح نهباً مقسماً بين أطماع فئة طرأت تحكم غير بلادها وتتصرف في غير دارها» آه.

وقد ذكرت مصادر عديدة، أنه قام بنشاط واسع ض، «الانتداب البريطاني، مما اضطر السلطات المنتدبة إلى الطلب إليه أن يغادر فلسطين. . . وواقع الأمر أن عوامل عديدة حالت دون بقائه في القدس، منها الانتداب البريطاني، وجلّ زعماء العرب الفلسطينيين الذين كانوا يخشون على كراسيهم ونفوذهم وكما لم يسلم من وشايات بعض المتزعمين المأجورين، الذين اعتبروا أفكاره التحررية الثورية بدعة من البدع،



عليهم أن يحاربوها. أما ليهود المقيمون في فلسطين وخارجها، فقد أدركوا الخطر، بل الأخطار، التي سوف تنجم عن وهج هذه الشعلة المتوقدة، والافكار التحررية، فدسوا له مع الداسين لدى السلطات البريطانية

زيارته سنة ١٩٣٠ وهي الزيارة الاخيرة

تجمع الموسوعات العربية التي تناولت الحديث عن عمي أثناء زيارته الأخيرة لمدينة القدس، أنه ألقى سلسلة من المحاضرات لفتت إليها الأنظار.

وأذكر فيما أذكر أثناء مرافقتين لعمي بندلي أثناء تنقلاته لإلقاء محاضراته في شتى المدن الفلسطينية، أن الجواسيس كانوا أتبع له من ظله، يحيطون به في حله وترحاله. وكان مندوبو الجرائد والمجلات يشيرون إلى أهمية آرائه وأفكاره، ويحثونه على العمل المثمر، والتيقظ للدسائس والمؤامرات التي تحاك ضد نهضة العرب الفلسطينيين وتقدمهم.

زار القاهرة مع صديقيه المرحومين خليل السكاكيني وعادل جبر، فاحتفى به أهل الفكر والادب، وأقاموا له الندوات والحفلات، وأكرموه وصديقيه أجمل إكرام.

تصدى الدكتور بندلي للمتشرقين الغربيين الذين تخبطوا خبط عشواء وتجنوا على العرب والشرق، وبينّ لهم قصر نظرهم وتعصبهم الذميم. يقول في مقدمة كتابة «من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام» ما يلي:

«إن هؤلاء المؤرخين ويذكر نيبسور (Niebhur) ورانكه (Ranke) وشلوسر (Schlosser) بنوا أحكامهم

ونظرياتهم على تاريخ الغرب وحدة، إذ لم يكونوا يعرفون من تاريخ الشرق، إلا الشيء اليسير، سَهُلَ علينا والحالة هذه أن ندرك مقدار ما في أقوال مؤرخي الغرب عن الشرق وتاريخه من الغرابة والطيش، فهل طيش أكبر من أن يقول أحدهم «إنه لم يكن ولن يكون للأمم الشرقية تاريخ بمعنى هذه الكلمة، المعروف بين علماء أوروبا، وأن أساليب البحث التاريخي التي وضعها علماء الغرب لا يمكن أن تطبق على تاريخ الشرق، وأية غرابة أو بالحري أي جهل أعظم من أن يقال: «إن العوامل المؤثرة في تاريخ الأمم الأوروبية، والنواميس العمومية الفاعلة في حياتهم الاجتماعية، هي غير العوامل والنواميس العاملة في تاريخ الأمم الشرقية وحياتهم وثقافتهم».

ويقول الدكتور معلقاً:

«لو صدرت هذه الأفكار الغريبة عن مؤرخي الاجيال الوسطى، أو لو صدرت عن أناس عرفوا بالتعصب الديني أو القومي والأغراض السياسية والاستعمارية، لكان لهم في الجهل والتعصب عذر، أما وقد صدرت، ولا تزال أحياناً تصدر، عن فئة من العلماء، ومؤرخي القرن التاسع عشر بل العشرين، فأي عذر لهم؟؟

وكانت مجلة «السمير» قد كتبت في حينه أن بندلي الجوزي كان يسعى لاحياء الجوانب الإيجابية الثورية في تاريخنا العربي، واضعاً بذلك اللبنات الأولى للمؤرخين العرب التقدميين، الساعين إلى فهم التاريخ العربي فهماً علمياً، بعيداً عن الزيف والتزوير وأهواء الملوك، من أجل خدمة الحقيقية الناصعة والتاريخ العربي ذاته.

وإلى جانب لغة آبائه وأجداده، واللغة الروسية التي أصبحت لغة أصيلة ثانية، كان المرحوم يتقن - كما جاء في النشرة التي أرسلتها جامعة باكو، اللغات الآتية: الإفرنسية، والإنكليزية، والألمانية، والإغريقية (أي اليونانية القديمة) والتركية، والفارسية، والآذربجانية. وكان يجيد اللاتينية، واليونانية والعبرانية، ويقرأ بطلاقته، الإيطالية والإسبانية.

تقاعد بندلي الجوزي في شهر تشرين الاول سنة ١٩٣٨، إثر مرض القلب الذي لازمه بين الأعوام ١٩٣٣ و ١٩٣٧.

توفي ودفن في باكو، بعد نزيف دماغي أصابه، في ٢٠ كانون التالي سنة ١٩٤٢.

نصري الجوزي

بعض مؤلفاته

الرقم	اسم الكتاب	الأجزاء	المكان	السنة
١	مبادىء اللغة الروسية لأولاد العرب	٢	قازان	١٨٩٨ و١٨٩٩
٢	المعتزلة (بحث تاريخي عقائدي في الإسلام) (الأطروحة التي نال بها درجة الماجستير)	١	قازان	١٨٩٩

٣	تاج العروس في معرفة لغة الروس	٢	قازان	١٩٠٣
٤	الأمومة عند العرب (ترجمة عن ديكليف الهولاندي)	١	قازان	١٩٠٣
٥	رحلة البطريرك مكاريوس الى بلاد الكرج	١	قازان	١٩٠٥
٦	محمد المكي ومحمد المدني	١	قازان	١٩٠٦
٧	تاريخ كنيسة أورشليم	١	قازان	١٩١٠
٨	جبل لبنان - تأريخه وحالته الحاضرة	١	قازان	١٩١٤
٩	البحث في القرآن	١	قازان	١٩١٤
١٠	المسلمون في روسياومستقبلهم	١	قازان	١٩١٧
١١	ديوان لغة الترك	٢	باكو	١٩٢٦و١٩٢٧
١٢	كتاب فتوح البلدان (للبلاذري) ترجمة	١	باكو	١٩٢٧
١٣	تاريخ اليعقوبي (ترجمة عن العربية)	١	باكو	١٩٢٧
١٤	من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام	١	القدس	١٩٢٨
١٥	العلاقات الانكلو-مصرية	١	باكو	١٩٣٠
١٦	المصطلحات العلمية عند العرب المعاصرين	١	باكو	١٩٣٠
١٧	امراء غسان (بالاشتراك مع الدكتور قسطنطين زريق) ترجمة عن نولدلكه	١	بيروت	١٩٣٣
١٨	تاريخ اذربيجان لابن الاثير	١	باكو	١٩٤٠
	يضاف إلى المؤلفات			
١٩	الطاعون واعراضه والوقاية منه	١	قازان	١٨٩٧
٢٠	الإسلام والمتدن	١	قازان	١٨٩٩
٢١	أصل الكتابة عند العرب	١	بلا مكان	بلا تاريخ
٢٢	أصل سكان سورية وفلسطين المسيحيين	١	بلا مكان	بلا تاريخ
٢٣	تاريخ حياة الفارابي وتلخيص نظامه الفلسفي	١	باكو	بلا تاريخ

مخطوطات الدكتور بندلي الجوزي

١	ميديا والميديون	ص	١٢
٢	المتغلبون في بلاد القوقاز	ص	٥٢
٣	دولة عطا بيكوف في أذربيجان - تاريخ حياة ايلد بغيز	ص	١٨

٤	المزيديت ـ الشيبانيت في اذربيجان	ص	٥٢
٥	القبائل العربية في بلاد عبر القوقاز	ص	١٨
٦	النص العربي لرواية مجنون ليلى (ليلى والمجنون)	ص	٣٥
٧	الموسوعات العربية وقواميس الموسوعات	ص	٢٧
٨	تاريخ حياة جلال الدين	ص	٢٠
٩	ترجمة عدة فصول لابن الاثير (طبعت من قبل الفرع الاذربيجاني لأكاديمية علوم الاتحاد السوفياتي		
١٠	تاريخ الحركات الاشتراكية ـ الشيوعية في الاسلام	ص	١٢٥
١١	ترجمة بعض اجزاء القاموس الجغرافي لياقوت الخاصة بلاد وعبر القوقاز التي نسقها عضو الأكاديمية ي كراتشفوسكي والأستابيسليليف المخطوط كان محفوظاً في معهد التاريخ لأكاديمية علوم أذربيجان		

ملاحـظة: نقـلاً عن مؤلفـات الأستـاذ بندلي الجوزي الصفحة ٣ وهو ما ارسلته الي ابنة انتساسيا. عن مؤلفاته ومخطوطاته.

بعض كتاباته في الدوريات العربية

في مجلة الآثار	من خرافات العرب قبل الإسلام	مجلد (٢) ج (١١) ايار ١٩١٣
في مجلة الكلية	تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ـ بقلم عبد اللطيف الطيباوي	مجلد (١٥) ج (٥) تموز ١٩٢٩
في مجلة الكلية	هل اللغة العربية مفتاح اللغات؟	مجلد (١٦) ج (١, ٢) ت٢ وك١ ١٩٢٩
في مجلة الكلية	حقائق وخواطر في اللغة	مجلد (١٧) ج (٤) أيار ١٩٣١
في مجلة الكلية	مواد لغوية	مجلد (١٨) ج (٦) ايلول ١٩٣٢
في مجلة الكلية	الجزية والخراج	مجلد (١٨) ج (١) ت٢ ١٩٣١
في مجلة الهلال	تاريخ الالفاظ	مجلد (٥) ج ١٥ و١٦ نيسان ١٨٩٧
في مجلة الهلال	صفحة من تاريخ التمدن عند العرب	مجلد (٣٦) ج (١٠) آب ١٩٢٨
في مجلة المقتطف	الجزية والخراج في أوائل الإسلام	مجلد (٧٤) ج (٥) ايار ١٩٢٩
في مجلة المقتطف	الجزية والخراج في أوائل الإسلام	مجلد (٧٥) ج (١) حزيران ١٩٢٩
في مجلة المقتطف	هل أصاب الدكتور الجوزي. بقلم عبد اللطيف الطيباوي	مجلد (٧٥) ج (١) جزيران ١٩٢٩

في مجلة المقتطف	من المصيب؟	مجلد (٧٥) ج (١) ايلول ١٩٢٩
في مجلة المقتطف	حنين العرب إلى بني أمية	مجلد (٧٨) ج (٦) حزيران ١٩٣١
في مجلة المقتطف	حنين العرب إلى بني أمية	مجلد ٧٩) ج (١) تموز ١٩٣١
في مجلة المقتطف	المستشرق الروسي كرنشكوفسكي	مجلد (٧٩) ج ٣ أيلول ١٩٣١
في مجلة المقتطف	السفياني	مجلد (٨٣) ج (١) حزيران ١٩٣٣
في مجلة المقتطف	السفياني	مجلد (٨٣) ج (١) تموز ١٩٣٣
في مجلة المقتطف	أمير أموي من سلالة مسيحية (ترجمة)	مجلد (٧٩) ج (٢) أكتوبر ١٩٣١
في مجلة المقتطف	القرآن والبحر	مجلد (٧٥) ج (٢) تموز ١٩٢٩

ملاحظة: لعمي (٣٧) كتاباً بلغات مختلفة، كما ذكرت لي ذلك ابنة عمي انتساسيا، كما قدمت إلي أسماء المقالات التي نشرها في المجلات والصحف العربية (المذكورة أعلاه). وقد سبقني إلى نشرها الأستاذان الفاضلان جلال السيد وناجي العلوش في كتابها «بندلي صليبا الجوزي» دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب «دار الطليعة بيروت نيسان ١٩٧٧ صادر عن اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين.

الهوامش

١ ـ في سنة ١٨٥٥ م حوّل البطريرك كيرلس دير «المصلبة» الى مدرسة لاحوت لتعليم الطلاب الارثوذكس أصول المذهب. أغلقت هذه المدرسة سنة ١٩٠٩ بسبب ضائقة الدير المالية، ولا تزال مغلقة الى يومنا هذا.

«المسيحية في القدس» بقلم عارف العارف ـ مطبعة دير الروم الارثوذكس ـ القدس، سنة ١٩٥١ ص ٤٧.

٢ ـ بندلي اختصار بندلايمون، وهي كلمة روسية، ومعناها الرجل الناصح من فعل نصح ينصح. وتعني ايضاً الرجل الشفوق الرحوم.

٣ ـ مجلة «النفائس» لصاحبها خليل بيدس الجزء الخامس سنة ١٩١٠ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

٤ ـ إسعاف النشاشيبي (١٨٨٢ ـ ١٩٤٨) م أديب فلسطيني. من أعلام الفكر والأدب في فلسطين» ليعقوب العودات (البدوي الملثم) سنة ١٩٧٦ ـ جمعية عمال المطابع التعاونية. عمان ص ٦٢٦ ـ ٦٣٠.

٥ ـ خليل السكاكيني (١٨٧٨ ـ ١٩٥٣) كان مربياً وأديباً وشاعراً عمل مفتشاً للغة العربية في دائرة معارف فلسطين. من كتبه: كذا أنا يا دنيا. الجديد في تعليم القراءة والمطالعة (١٤ جزءاً) وعليه قس الخ. المصادر عديدة أهمها كتابه «من تاريخ أعلام الفكر والأدب ليعقوب العودات (البدوي الملثـ) سنة ١٩٧٦. جمعية عمال المطابع التعاونية عمان ص ٢٧٣ ـ ٢٨٤ والاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين وكتاب: خليل السكاكيني بقلم يوسف أيوب حداد ١٩٨١ بيروت ص ـ صفحاته ٣٨٥.

٦ ـ محمد علي الطاهر (١٨٩٦ ـ ١٩٧٤) من مواليد نابلس. مجاهد عاش في مصر ودافع عن قضايا العرب. أصدر جريدة «الشورى» في القاهرة.

«من أعلام الفكر والأدب في فلسطين» ليعقوب العودات (البدوي الملثم) عمان ١٩٧٦ الصفحات ٣٦٥ ـ ٣٦٨.

كتب

الانتفاضة . ثورة كانون: انجازات وافاق

تاليف: عمر حلمي الغول

عرض ومراجعة: نافذ أبو حسنه

من بين أسباب عديدة، فإن الجهد الواضح، مضافاً اليه القول: بأن ماخلص إليه الكاتب من استنتاجات، لايعتبر حقائق منتهية، يشكلان الدافع الأهم لعرض ومراجعة هذا الكتاب المتميز عما سواه من الكتب التي جعلت الانتفاضة موضوعاً لها، وصدرت حتى الآن، بمحاولة القيام بمعالجة واسعة للظاهرة المجيدة. حيث جرى تناول جوانب عديدة ومتشعبة. وهذا - كما نعلم - ليس بالامر اليسير، ولاسيما، ونحن أمام حدث لازالت تفاعلاته تأتي كل يوم بالجديد. إن أغفلنا أساساً حقيقة أن الظواهر - كمثل الانتفاضة - تبقى مجالاً رحباً للبحث والدرس والمناقشة يستمر طويلاً وطويلاً جداً.

إصدار: مؤسسة عيبال للدراسات والنشر. الطبعة الاولى. آذار ١٩٩٠ (٥٣٨ ص قطع متوسط).

يبسط الكتاب حديثه في ستة فصول مطولة، ضمنها الكثير من العناوين. وناقش فيها العديد من القضايا، الامر الذي يجعل محاولة عرض الكتاب محاطة بصعوبات جمة. ومعرضة لأن توسم بالنقص أو الاجتزاء. على أننا نسارع إلى القول هنا، بأن مانسعى إليه، هو عرض شبه شامل لمحتويات الكتاب. وإن إبراز نقطة دون أخرى ومناقشتها، إنما هو عائد لأهميتها، ولاعتبارها مثار أخذ ورد.

في إجابته عن السؤال.. انتفاضة أم ثورة؟» يقرر الكاتب: إن «السمة أو المفهوم الذي يتطابق بالتمام والكمال مع مايجري من حدث ثوري عظيم، إنما هو مفهوم الثورة، لا مفهوم الانتفاضة. على رغم أهمية محتوى وجوهر الانتفاضة. ولكن مما سبق ذكره (يقصد المحددات في بداية الفصل) عن خصائص الانتفاضة. ثبت بالملموس أن مايجري في الضفة والقطاع فاقه وتجاوزه في الخصائص، ليصل الى خصائص وسمات الثورة، بكل مايعني ذلك من معنى» (ص ٣٨).

تشكل العبارات الواردة أعلاه، تكثيفاً لما أراده الكاتب من الفصل الأول المعنون بالتساؤل «انتفاضة أم ثورة في الثورة؟»، والذي جاءت الاجابة عليه كمدخل نظري، الأمر الذي يتفق مع ماأراده الكاتب من جهة، ومع محتواه من الجهة الأخرى. وإذا كان واضحاً منذ البداية، أن الكاتب لايميل إلى إطلاق مفهوم «الانتفاضة» على مايجري في الأراضي المحتلة (٦٧)، فإنه ناقش المفهومين «الانتفاضة» و «الثورة» مناقشة مطولة، استند فيها الى التراث الماركسي - اللينيني، ومعالجته وتعريفه للانتفاضة بما هي شكل من أشكال النضال الطبقي والقومي له خصائصه وسماته المعينة. عاكفاً على ابراز «المشترك بين الانتفاضة (بماهيتها المحددة في التراث الماركسي - اللينيني) وثورة كانون».

من الواضح أن مسألة «المفهوم»، هي واحدة من المسائل التي شغلت حيزاً واسعاً في الحديث عن الشكل الكفاحي في الاراضي المحتلة. ويمكننا ملاحظة أن هناك من حاول تثبيت تعبير «الانتفاضة»، كتعبير من أصل اللغة العربية، يتماشى مع ماهو قائم (أحد تصاريف فعل نفض)، ويذهب إلى ذلك د. عبد الوهاب المسيري الذي ناقشه الكاتب في هذا الفصل داحضاً ماأراد المسيري تسويقه. وهناك من سعى الى تثبيت مفهوم «الثورة» لأن الانتفاضة بسماتها وخصائصها التي حددتها الماركسية - اللينينة، - بشكل أساسي - لاتنطبق على الحدث. وهناك من استعمل المفهومين سوياً «الانتفاضة / الثورة».

واقع الحال: إن تحديد خصائص وسمات الانتفاضة، في تراث الماركسية - اللينينة، إنما ينطلق من معطيات بعينها. ربما تشابهت معها /بعض/ أو خالفتها /بعض/ المعطيات القائمة في فلسطين حالياً. ولا نرى ضرورة للانطلاق من المحددات الماركسية فحسب، بالمحاكمة مايجري في فلسطين راهنا. وهو الأمر الذي لجأ إليه الكاتب حاشداً استشهادات مطولة من كتابات ماركس وانجلز ولينين، جاء البعض منها إضافات فحسب، بمعنى استطرادات لا لزوم لها. فالشكل النضالي الذي يجري في فلسطين. وإن أطلق عليه تعبير «الانتفاضة»، فإن ذلك لايعني «الانتفاضة، بماهيتها ومقاييسها المعروفة في التراث المشار اليه. وإنما هي احتلت مكانها في القاموس السياسي العربي والدولي على حد سواء، كناية عن شكل نضالي يجوز على خصائص وسمات بعينها تفتقدها الكثير من التجارب الأخرى. بهذا المعنى، نحن أمام نموذج خاص يحتاج الى تنظير ينطلق من وقائعه ومعطياته، من أجل تحديد مفهوم خاص به. لا مقارنته مع قوالب

جاهزة، ومفاهيم تطابق حالات محددة، أو الخوض في محاجات لغوية كتلك التي لجأ إليها د. المسيري. وكان الكاتب موفقاً جداً في الرد عليها. مع إمكان أن يشكل هذا التنظير إسهاماً في الاغناء، بدل أن يحاكم الجديد ويقارن بحالات جرى الحكم عليها سابقاً، وتحديد ماهيتها وفق وقائع ومعطيات واستخلاصات بعينها.

ربَّ قائل: إن إطلاق «مفهوم» الانتفاضة بداية، على مايجري في فلسطين، إنما جاء على خلفية عدم إدراك حجم الطاقة المختزنة لدى الجماهير، وقدرتها على إدامة اشتباكها مع العدو كل هذه الفترة وبالآلية المنظورة. ومن ثم بدأ «المفهوم» يكتسب خاصياته الجديدة. إن مثل هذا القول يحتاج إلى فحص عميق، يندرج في سياق قراءة الأحداث، وصولاً الى تحديد مفهوم خاص. أما مايذهب إليه الكاتب بإطلاق مفهوم «ثورة في الثورة» فإنه أيضاً بحاجة إلى فحص ودراسة. ذلك أن تناوله وتعميمه استناداً إلى الخصائص والمعطيات التي يحددها غير جائز. فهو جاء ـ أساساً ـ بالقياس إلى قوالب وتنظيرات جاهزة، حتى وإن حاول الكاتب الاستعانة بشواهد من واقع الفعل الشعبي الفلسطيني.

ثمة نقطة هامة أخرى، يتضمنها الفصل الأول، تتعلق بدحض «المفاهيم» التي أطلقها الصهاينة على الانتفاضة من مثل «أعمال شغب» «حرب أهلية». وقد عمد الكاتب في دحضه لتلك المفاهيم الى شرحها نظرياً، ومن ثم تبيان مخالفتها للواقع، موضحاً في الوقت ذاته الاضطراب الذي يسود الأوساط الصهيونية في تحديد «مفهوم» معين. وبالتالي منطلق معين للتعامل مع الانتفاضة.

* في الفصل الثاني يطالعنا مدخل نظري كتوطئة للولوج في معالجة مسألة مهمة أخرى، وهو «الثورة [الانتفاضة] بين العفوية والوعي».

لقد بات في حكم المؤكد أن الانتفاضة لاتحمل من العفوية إلا لحظة الانطلاق، لتدخل في حيز التنظيم بفعل مجموعة من العوامل المتداخلة، والتي تسهم جميعاً في انتظام حركة الجماهير. وإذا كان الكاتب يؤكد هذا الأمر، فإنه يستعرض مايمكن أن نسميه (مع بعض الحذر) أسباب ومقدمات الانتفاضة. فهو يتناول (وإن بشكل سريع ومختصر) الظروف المحيطة بالقضية الفلسطينية على مختلف الصعد، بادئاً بالصعيد الدولي الذي تراجعت أولوياته، معيداً هذا التراجع الى كونه نتاجاً لـ «قمة عمان»، وعلى الصعيد العربي يشير إلى التراجعات، مركزاً على عملية «التطبيع قبل التوقيع»، والتي كان يعمل لها الأردن وبعض الشخصيات الفلسطينية في الداخل، منتقلاً بعد ذلك إلى الاشارة الى العسف الصهيوني الذي طال مختلف الشرائح والفئات، والتي باتت تعبر عن رفضها لوجوده، وتجسيد هذا الرفض في سلسلة من الانتفاضات على مدى السنوات الثلاث التي سبقت انتفاضة كانون، والتي جعلت العديد من الباحثين والصحفيين الصهاينة «يتنبأون» بالانفجار ويحذرون ساسة الكيان من حجمه وتأثيراته المتوقعة.

إن الكاتب قد سارع في مقدمة كتابه الى القول، بأنه سوف يرجىء مناقشة مقدمات وأسباب الانتفاضة، وقواها المحركة إلى كتاب قادم. وإذ نطلق نحن على هذا الفصل «جوازاً» عنوان أسباب ومقدمات الانتفاضة. فلتيسير التعاطي مع محتواه. فما لجأ إليه الكاتب هو: توظيف ماأورده من مقدمات وأسباب. في تسويغ الدخول السريع للانتفاضة في حيز «التنظيم» ولابراز دور فصائل المنظمة في عملية

التنظيم تلك. وبالتحديد دور «الجبهة الشعبية» في «استشراف الآتي والاعداد له، ومن ثم المشاركة في تنظيمه» وقد جاء إبراز مثل هذا الدور صريحاً في الصفحات «٩٧ ـ ٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠٠ على سبيل المثال»، فيما جرى الالماح له في صفحات أخرى. ومثل هذا التركيز جنح بالفصل عن خدمة عنوانه في مناقشة «العفوية والوعي» الى الحديث عن دور فصائل المنظمة على نحو ما أسلفنا. ولتعزيز ذلك فإنه أفرد فقرة للهتافات التي أطلقتها جماهير الانتفاضة، والتي قال عنها إنها «تعكس دور ومكانة القوى السياسية في العملية النضالية» بمعنى أنها تعكس حجم ودور فصائل م. ت. ف. علماً أنه لم يشر إلى دور قيادة المنظمة آن الحديث عن التراجعات التي شهدتها القضية الفلسطينية. ولم يقل (مثلاً) ماهي دلالة هتاف من مثل «نعم للحجر. لا للمؤتمر». وهذه ـ على مانعتقد ـ مسائل بحاجة الى أن تبرز وأن تقرأ بشكل موضوعي.

يبقى أن الفصل يعرض بالتفصيل «لحادثة الدهس المتعمد» التي كانت الشرارة التي فجرت الانتفاضة المجيدة. بعد أن كانت الشروط الذاتية، والموضوعية قد اكتملت. وكسابقة يحتوي الفصل على استطرادات واستشهادات مطولة (في الفقرة المعنونة بـ «الاعتراض الصهيوني» مثلاً) ومسارعة للحديث عن الأساليب الصهيونية في مواجهة الانتفاضة من أدوات الموت والقمع إلى السجون والابعاد مع ضرب أمثلة حسية لكل أسلوب، والتعريف بالأدوات التي يستخدمها العدو من مثل الأعيرة المطاطية، أعيرة الالمونيوم، الطلقات البلاستيكية، الغازات السامة، وغيرها.

* إن القول بحاجة الثورة [الانتفاضة] «إلى أداة كفاحية تقود وتنظم وتبرمج عملها وتصوغ تكتيكاتها وأهدافها» أمر مقبول تماماً. فهي حاجة تمليها الضرورة وتفرضها للوصول بالفعل الكفاحي إلى مبتغاه، وإحداث التأثير المطلوب على العدو. ومدى ملاءمة أدائها لحاجات الثورة [الانتفاضة] وجماهيرها.

الفصل الثالث المعنون بـ «فن القيادة وأشكالها» مكرس للحديث عن «القيادة الوطنية الموحدة» و «اللجان الشعبية»، فبعد مدخل يتحدث عن «الظواهر» و «إفراز أطرها» تجدنا قبالة استعراض لأشكال قيادية، أُنشئت باتفاق فصائل المنظمة، في الضفة والقطاع. منها «الجبهة الوطنية ١٩٧٣»، لجنة التوجيه الوطني ١٩٧٨، ولجنة التنسيق في أوائل العام ١٩٨٧». وينتظم استعراض المؤلف لهذه الاشكال، أمران:

الأول: قصورها.

الثاني: الدور المعرقل والمعوق الذي لعبه اليمين الفلسطيني لجهة أداء هذه الاطر وتطورها.

لربما رأى الكاتب أن هذا الاستعراض ضروري للولوج في الحديث عن «القيادة الوطنية الموحدة» لتشكل الأخير، الذي ظهر كإطار قيادي لفصائل م. ت. ف. في الضفة والقطاع. فإن التعرض لهذا الاطار، ثمة الحديث عن دور اليمين المعرقل والمعوق ومحاولاته في الهيمنة والتفرد. وإن كنا لانعدم ملاحظة دور «معرقل ومعوق» لما أطلق عليه تعبير «بعض اليسار». وأحياناً «اليسار الاصلاحي».

ونقترح هنا، أن مثل هذه الاشارات الواردة أعلاه، تفترض أن يتم التركيز على ظروف نشأة الاطار، وكيفية انبثاقه (هل كان نتاجاً لمبادرة جماهيرية في المقام الأول، كما اللجان الشعبية، أم أنه فرض بقرارات من أعلى؟ مثلاً). فما يواجهنا في الحديث عن نشأة الإطار هو مجموعة من الروايات المختلفة، فمن يضل يزعم الفكرة لنفسه تماماً، إلى آخر يقول بأنه: استمرار اللجنة التنسيق ولكن بآلية جديدة، إلى مايقوله

الكاتب من أن «للجبهة الشعبية» دوراً مميزاً في الدعوة الى تشكيل الإطار («خلق مركز وطني» ص ١٥٩) وإجراء الاتصالات مع الأطراف الأخرى المكونة له. وصولاً إلى من رفض الانضواء تحت لوائه (من فصائل المنظمة) حتى وقت متأخر.

وبعد كل ذلك يبقى الأداء مسألة أخرى. لسنا نميل إلى مناقشتها أو مناقشة سابقتها، ولكننا سنسير مع ماعرضه الكاتب، من إبراز للدور الهام والمؤثر الذي تلعبه «القيادة الوطنية الموحدة» والتي وصفها بـ «قنديل الثورة الكانونية» معرجاً على نقاط ضعفها التي لخصها بالتالي:

١ - إنها حالـة تنسيقية، أرقى من الأشكال التي سبقتها، بحيث باتت في المسافة الفاصلة بين التنسيق الميداني، والجبهة الوطنية، ولكنها «ليست هذا ولا ذاك».

٢ - «عدم ثبات مندوبي الفصائل في هذه الهيئة القيادية. وبقدر ماتم التأكيد على إيجابية المرونة والمناورة في عدم ثبوت شخوصها بقدر مايتم التأكيد هنا على أن هذا الحراك في الشخوص يخلق في أحيان كثيرة شكلاً من عدم التجانس بين أعضاء الهيئة القيادية في معالجة الأمور المختلفة. وخاصة في نقاط الخلاف بين القوى الفلسطينية المشكلة لها».

٣ - «أحياناً عديدة ترسل بعض الفصائل مندوبين عنها لايملكون حق الموافقة والإقرار على الموضوعات المثارة. فضلاً عن أن بعض مندوبي القوى لايملكون حق التقرير عن قواهم وذلك يعود لتركيبة هذه القوى».

٤ - «غياب برنامج العمل المشترك للقيادة الوطنية الموحدة» [وعدم وصولها] «مرحلة الجبهة الوطنية» [وهو يعيد ذلك الى اليمين الذي] «يشكل العقبة أمام تطور أدوات العمل الجبهوية في الداخل لاعتبارات فئوية ضيقة جُلّها الخوف على موقعه في قيادة «الثورة» [وكذلك إلى] «تردد بعض اليسار».

٥ - «على الرغم من وجود الطابع الائتلافي لـ (ق. و. م) وكذلك للجان الشعبية في المناطق والأحياء فإن الصلة ليست قائمة بين هذه الأطر».

٦ - «سهولة انتحال اسمها من قبل العدو».

٧ - «التدخل من الخارج في نداءاتها» والتغيير في صياغة بعض الفقرات وشطب بعضها الآخر. خاصة تلك الفقرات أو الكلمات التي تحمل مدلولاً سياسياً جذرياً. هذه السياسة تعكس نفساً قيادياً هابطاً بالسقف النضالي الفلسطيني عامة. وسقف القيادة الموحدة خاصه».

٨ - «الثرثرات اللا مسؤولة عن القوى التي وافقت على إصدار هذا النداء أو ذاك».

وكان الكاتب قد ألحق بالفقرة السابقة، إشارة الى تدخل قيادة المنظمة في تحريك بعض الشخصيات والرموز لأن تروج لأفكار خطيرة» ويضرب مثلاً على ذلك «د. محمد ربيع» ودعوته «للتخلي عن حق العودة مقابل وقف الهجرة اليهودية». وإذا كان تحريك بعض الرموز المطبّعة مع الوجود الصهيوني، من قبل قيادة المنظمة، قد شكل واحداً من أهم الأزمات التي شهدها أداء القيادة الموحدة. إذا كان الأمر كذلك، فإن الكاتب لايعمق مناقشة هذا الموضوع، بل ينحو باتجاه مناقشة «محمد ربيع» وتفنيد دعوته على أساس أن الهجرة اليهودية في «تراجع مستمر»!!. وأنه لايجوز المساواة بين صاحب الأرض «الفلسطيني» والمستوطن

القادم كمغتصب.

وبعد عرض نقاط الضعف على نحو ماتقدم، يطرح الكاتب مجموعة من الأفكار التي يمكن من خلالها، تجاوز نقاط الضعف والقصور في أداء الأداة، فيشير إلى ضرورة منحها صلاحية صياغة برامجها، وأن «ترفع القيادة الرسمية للمنظمة في الخارج وخاصة بعض اليمين الفلسطيني يدها عن نداءات القيادة الموحدة.. وأن لاتهبط بنداءات ق. و. م بل أن ترفع سقفها لأن هذه السياسة هي التي تعزز مكانة ودور المنظمة، كمحاور قوي وصلب في أية مفاوضات مع العدو. وليس الهبوط بالبرنامج النضالي» وكذلك «وضع حد لتجاوز بعض الشخصيات المعتدلة، المحسوبة على اليمين وبعض اليسار، إطار القيادة الموحدة، بحيث يتم التكامل والتعاضد بين دوائر العمل الوطني المختلفة».. الخ (ص ١٩٩ - ٢٠٠).

ماتبقى من ذكر، للموحدة، في هذا الفصل يتوزع بين "ديناميكية ق. و. م» وهي والرأي العام العالمي، حيث ثمة التأكيد على نجاحها في مخاطبة هذا الأخير. ومن ثم الشعار مابين «المطلبي والسياسي» وفي هذه النقطة نلحظ التأكيد على أن «الموحدة» قامت بطرح الشعار المطلبي كتكتيك، ليليه السياسي. وأن ذلك استهدف «تعرية وجه الاحتلال» هذا إضافة إلى تأكيد سابق «من الكاتب» بأن السياسي سبق المطلبي في الهتافات التي أطلقتها جماهير الانتفاضة ومنذ لحظتها الأولى.

إن موضوع «القيادة الموحدة» يحتمل الكثير من النقاش، وقد آثرنا عرض وجهة نظر الكاتب على نحو ماسلف، كي نتحاشى أي شكل من أشكال الاجتزاء، أو العسف تجاه ماأورده. ولكننا نقترح هنا الآتي: إن معالجة موضوعية للمسألة محل النقاش تفترض أولاً وقبل كل شيء دراسة ظروف النشأة، ووضع النقاط على الحروف - تالياً - فيما يتعلق بدور قيادة المنظمة. وأيضاً تلمس الدقة فيما يتعلق بالمطلبي والسياسي فمعلوم أنه جرى وفي وقت مبكر تحريك بعض الرموز، ومن قبل قادة المنظمة، لكي تقوم بحرف الانتفاضة باتجاه أهداف مطلبية (وثيقة البنود الـ ١٤) وأن الجماهير الشعبية هي التي فرضت شعاراتها. وطرحت أهدافها. ومن ثم تبنت «الوحدة» بعضاً منها. ولتقع في مطب المطلبي فيما بعد، ولتقلص هذه الشعارات والأهداف تمشياً مع سياسة قيادة المنظمة. (حصلت بعض الاستثناءات التي أثارت أزمات في الإطار). ويمكن متابعة تطورات هذه المسألة في نداءات القيادة الموحدة.

في القسم الثاني يعرض الكاتب للجان الشعبية والوطنية، فيؤكد حقيقة أن «اللجان الشعبية» هي «العمود الفقري للثورة [الانتفاضة] الكانونية العظيمة (ص ٢٠٣). وأن اللجان الشعبية «لم تكن وليدة الصدفة ولا جاءت بقرار فوقي من القيادة الموحدة لأنها سبقت أصلاً تشكيل وبلورة قوم». ومع التأكيد على هذه الحقائق، ثمة الاشارة الى دور «الشعبية» يقول الكاتب: إن «الشعبية» وفي أعقاب انتفاضة كانون الأول ١٩٨٦ دعت إلى «تشكيل اللجان الشعبية».

وحول طابع اللجان الشعبية يلحظ الكاتب أنها «أمست ذات طابع جماهيري لم تعد مرهونة بوجود القوى السياسية أو عدمها كي يتم تشكيلها» (ص ٢٠٧). وواقع الحال، إن للمبادرة الجماهيرية - أصلاً - الدور الأساسي في انبثاق اللجان الشعبية والتي يعرض المؤلف لنماذج منها، وطرائق عملها. مدعماً ذلك ببعض الاستشهادات والوقائع الملموسة.

* أفرد الكاتب، الفصل الرابع من مؤلفه لمعالجة «جدل المدني والمسلح في الثورة» وفي اعتقادي، إن هذا الفصل هو أكثر فصول الكتاب أهمية، لأنه يثير قضية هامة جداً تتعلق بـ «سلمية الانتفاضة / وعنفها» هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن الكاتب يضعنا أمام النموذج الكفاحي الذي «أصلته» (وتظهر به) الانتفاضة ولعل هذا سيكون مسوغاً لتعرضنا إليه ببعض التفصيل والمناقشة.

كما الفصول التي سبقته، فإن أول مايطالعنا، مدخل [نظري] حول موضوعية «أشكال النضال» حيث الإشارة الهامة هنا إلى ضرورة «عدم وضع قوالب جاهزة لهذه الأشكال» ومن ثم التقيد والاحتكام لهذا الشكل دون ذلك. وبدون قفزات أو تخلف عن مواكبة حركة وديناميات الثورة. ولنا أن نعتبر الفقرة التي تلي المدخل استكمالاً له. إذ تتطرق لمعالجة «ضرورة الوقوف في كل مرحلة من مراحل الكفاح أمام الأشكال التي اتبعت لتحديد أيها الشكل الرئيسي). أيها الذي يحتل موقع الصدارة؟» ومن هذه المقدمة نفذ المؤلف إلى الدخول في استعراض انتهاج «المقاومة الفلسطينية للكفاح المسلح كشكل رئيسي» [كان هذا الشكل وحيداً في البداية ـ على مانعلم ـ].

هنا تطالعنا بعض العبارات من تلك الرائجة في مهاجمة اعتماد الكفاح المسلح كأسلوب وحيد أو رئيسي في مقارعة العدو، بل ومهاجمة القوى التي تعتمده على النحو المذكور. يقول الكاتب «إن من قال بالكفاح المسلح كأسلوب وحيد وقع في نزعة العدمية والتطرف» (ص ٢٥٣). ثم ينتقل إلى القول في فقرة تالية». . ولكن تجربة الحياة أقنعت الفصائل الفلسطينية بالعدول عن هذا المنهج الأحادي الجانب، المغامر، وفي فترة قياسية وجعلتها تعيد النظر في هذا الطريق. . [ويتابع] رغم أن الغالبية العظمى من الفصائل تراجعت عن هذا المنهج الأحادي الجانب في استخدام أساليب النضال، إلا أن الساحة الوطنية الفلسطينية لم تبرأ تماماً من أصحاب هذه النزعة المغامرة (!!) . . وبالمقابل واجهت الثورة النزعة الإصلاحية» (ص ٢٥٤).

وإذاً؟ لاشك في أن الكاتب يوقفنا في بعض الحيرة. ولنا أن نقدر (استدلالاً بفقرات أخرى في الفصل) أن الكاتب يبغى الخلوص الى نتيجة مفادها: ضرورة المزج بين أشكال النضال المختلفة، مع نفي فعالية «النضال السلمي» في مواجهة عدو كالذي نواجهه. وتأكيد على إيجابيات الكفاح المسلح وتأثيراته الهامة على العدو. ولكنه عند معالجة أخطاء أخرى، فإنه يعيدها الى إتباع الكفاح المسلح كشكل وحيد أو رئيسي (!).

وهذا مايقتضي بعض المناقشة. فإذا كان المقصود باعتماد الكفاح المسلح أن تلجأ الثورة إلى الاعتماد على «نخبة مقاتلة» وإهمال دور باقي القطاعات الجماهيرية، فإن ذلك يعني انتفاء المصداقية عن الشعار أصلاً. بانتفاء عملية التحشيد اللازمة لإنجازه ولاسيما وأن اعتماد هذا الأسلوب يعني زج قطاعات واسعة في عملية الصراع وخوض المعركة مع العدو، وبالتالي فإن مناقشة المسألة من هذه الزاوية، تصح، بل وهي لازمة. أما إذا كان المقصود هو مهاجمة الكفاح المسلح تمشياً مع ماهو سائد لدى أوساط قيادة المنظمة التي «تنبذ الإرهاب مضمنة إياه الكفاح المسلح، تمشياً مع إرادة الأعداء» فتلك مسألة أخرى.

إن رفع شعار الكفاح المسلح كأسلوب وحيد أو رئيسي إنما جاء منطلقاً من تحديد طبيعة العدو الذي

نواجهه (وهذا يشير اليه الكاتب). وبالتالي اختيار الشكل الملائم في خوض الصراع معه. وذلك لايعتبر في حالٍ من الأحوال عدمية أو مغامرة. ذلك أنه وعلاوة على نجاعته، لايتعارض مع تنظيم الجماهير وزجها في المعركة، باشكال مختلفة، بل إن مثل هذا التنظيم والزج هو أكثر العوامل أهمية في نجاح الأسلوب. بقول آخر: إن الخلل لايكمن في رفع الشعار واعتماد الكفاح المسلح شكلاً وحيداً أو رئيسياً. وإنما يكمن في طريقة تناول الشكل، وتجسيده في الممارسة العملية. آليات العمل به. ولايجوز أن نحاكم الشعار دون الشكل، واستتباعاته العملية، بالقدر الذي لايصح فيه أن نحاكم فكرة صحيحة من خلال تطبيق بائس ومتخلف لها. وبفعل قيادة لم تكن مخلصة للشعار، وآلية تجسيده، مفقدة إياه كل العوامل المساعدة. أمّا مهاجمة القوى الفلسطينية التي لازالت ترى في الكفاح المسلح أسلوباً وحيداً لمقارعة العدو، فإننا لانرى مايبررها في أي حالٍ من الأحوال. هذا إذا تجاوزنا عملية وضع هذه القوى في خانة واحدة مع تلك التي تدعو إلى «نضال سلمي» يريد أن يسقط حتى «الحجر» وربما قريباً الصراخ «بصوت عالٍ».

على كلٍ، فالمنحى الذي ناقش به الكاتب الموضوع، تطرق إلى معالجة، جملة من الأخطاء التي وقفت بها «المنظمة» مركزاً على خطأ مركزي يتعلق بعدم إيلاء أهمية للداخل، وقد قاده ذلك إلى ملامسة الأخطاء في التعاطي مع «الظاهرة العلنية» (الخارج). فواقع الحال يشير إلى أن التقصير باتجاه الداخل، قابلة تقصير آخر في الخارج، إذ لم يكن هناك تركيز مبرمج على تقوية ودعم وتمتين القوات المسلحة للثورة في الخارج. ونفترض أنه من الضروري التأشير هنا على أن التخلي عن الكفاح المسلح، واعتباره عدمية، جعل الشكل الأكثر بروزاً في ممارسات «قيادة المنظمة» هو المناورات السياسية البائسة والتي حاولت الاستفادة لبعض الوقت من منجزات الكفاح المسلح. ومن الملاحظ أن الكاتب يلقي بالمسؤولية عن التقصير في الاتجاهين على «اليمين الفلسطيني».

ومن معالجة هذا الموضوع ينتقل الكاتب إلى مناقشة «جدل المدني والمسلح» مستعرضاً عدداً من وجهات النظر المطروحة لتحديد ماهية الشكل المتبع في الأراضي المحتلة زمن الانتفاضة، مركزاً على مناقشة «د. محمد السيد سعيد» الذي يرى بأن «الكفاح المدني طويل الأمد لايستبعد استخدام درجات متفاوتة من العنف» وقد اتهمه الكاتب بإسقاط «مفاهيم مسبقة الصنع على ثورة كانون» ويناقش كذلك مواقف الحزب الشيوعي الفلسطيني حول «المقاومة اللاعنفية» معبراً عنها بتصريحات لبشير البرغوثي فندها المؤلف في الصفحات «٢٧٧ ـ ٢٧٨» ليخلصنا إلى القول بأن «ماجرى في الأرض الفلسطينية المحتلة عام ٦٧. ليس نضالاً سلمياً بحتاً. وإنما هو نضال متعدد الأشكال والأساليب، وسمته الرئيسية حرب شوارع من طراز جديد» ولتعزيز مايذهب إليه، فإنه يضرب أمثلة عديدة للتدليل على الطابع العنفي للانتفاضة. مورداً في سياق ذلك حوادث كثيرة أطلق عليها تعبير «اشتباكات». ولنا أن نقدر بأن الكاتب إذ ينفي «الطابع السلمي» للانتفاضة (وهو أمر تؤكده الوقائع) فإنه ينفي قوله «إن النضال المسلح هو النضال السائد بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، إنه موجود وملازم لسلوك الجماهير اليومي، ولكن مع خروج عن المألوف السائد. وبـاتت له خصائص وسمات جديدة تختلف إلى هذا الحد أو ذاك عن المرحلة الماضية» كذلك هو ليس «إضراباً سياسياً بالمعنى الكلاسيكي للكلمة». . «فإن المظاهرات ليست سلمية وهي شكل من أشكال

المواجهة تمتاز بطابعها الهجومي لا الدفاعي.. وهي مسلحة بقبضاتها وحجارتها وعصيها وقضبانها الحديدية».

بقول آخر، يقرر الكاتب أننا أمام نموذج جديد، كل الجدة يمزج «بين الكفاح المدني والمسلح في آن واحد، في وقت أمسى فيه الأسلوب المسلح شكلاً جماهيرياً غير مقتصر على الفدائي الفردي أو أعضاء المنظمات. وهو ربط بين العلني والسري، وبين الزخم الجماهيري في المظاهرات الهجومية وبين أعمال المقاومة العنيفة السرية» وكذلك «يجمع بين شكل النضال المسلح الكلاسيكي وشكل النضال العنفي الجماهيري» و«حرب شوارع من طراز جديد». ولتدليل أكثر ملموسية على الطابع العنفي، يستعرض الكاتب أدوات الكفاح اليومي، من حجارة، ومقاليع ومسامير ومولوتوف ومتاريس.. الخ.

يبقى أن الفصل يتضمن معالجة للعصيان الوطني الشامل، وفهم «الشعبية» لتطبيق هذا الشكل بطريقة «العصيان المحدود المتقطع».

* الفصل الخامس، خصصه المؤلف لـ «مفاعيل وإنجازات دولية وعربية» وفيه يتناول المكانة التي احتلتها القضية الفلسطينية بتأثير الانتفاضة، مشيراً إلى قرارات الامم المتحدة ٦٠٥ ـ ٦٠٧ ـ ٦٠٨. وفي الفصل نلحظ مزجاً متعمداً بين مفاعيل وتأثيرات الانتفاضة، ومفاعيل وتأثيرات مايطلق عليه «هجوم السلام الفلسطيني» وسعياً إلى جعل منجزات الانتفاضة، (الفعل الكفاحي المقاوم) منجزات للآخرين معاً، (الفعل الكفاحي ـ هجوم السلام). وإن كنا لانعدم الالماح إلى «أن عملية الركض وراء فتات مشاريع الحلول الصهيونية ـ الأمريكية واستعجال الاستثمار السريع لنتائج الثورة [الانتفاضة] لايؤدي للنتائج المرجوة. بل لنتائج عكسية وسلبية على النضال الوطني عموماً. الأمر الذي يتطلب من القوى المتعجلة الاستثمار قليلا من الثبات والصبر». ويذكرنا هذا على نحو ما بدعوات «ترشيد التنازلات ولا مجانيتها» والتي تطلقها بعض الأوساط الفلسطينية.

يعرض الكاتب لنماذج من التحولات على الصعيد الدولي. ومن ذلك «التحولات» في الموقف الأمريكي، والتي سبق الحديث عنها، مداخلة نظرية عن الفلسفة التي تحكم علاقات الولايات المتحدة مع الأطراف الأخرى. حيث يركز على «الذرائعية (العملانية)» بمعنى أن الولايات المتحدة «تصوغ سياستها بما يتلاءم مع مصالحها» وتحدث عن المراهنة على تغيير الموقف الأمريكي، والمستندة (المراهنة) على إمكانية أن يحدث «الفعل الانتفاضي» «خلخلة جدية في مردود الفائض (سياسي ـ اقتصادي) الذي تحققه اسرائيل لصالح زعيمة الامبريالية. فضلاً عن العامل القومي العربي التحرري الديمقراطي، وحجم الضغوط التي يلقيها على رأس «الثور» الأمريكي. والعامل الأممي... الخ. ولكن كل ذلك «مرهون ومشروط بمفاعيل العامل الذاتي».

ولانقابل جديداً هنا، فالحديث عن «الفلسفة البراغماتية» التي تحكم السياسة الأمريكية وإحداث تحولات فيها (لصالح العرب) بجعل المشروع الصهيوني أكثر تكلفة هي فكرة رائجة ولكنها بحاجة إلى فحص، ودرس معمق لطبيعة العلاقة بين الكيان الصهيوني والولايات المتحدة. وذلك في ضوء الوقائع المنظورة.

لقد أحسن الكاتب في استخلاصه، بأن «الجديد الأمريكي» هو «في سياق السياسةالاستراتيجية لزعيمة الامبريالية» والتي تستهدف راهناً تقويض الانتفاضة عبر مناورات سياسية يشترك فيها الفلسطينيون. ولكننا نطالع بعد هذا الاستخلاص إشادة بدور «هجوم السلام الفلسطيني في جعل الأرادة الأمريكية تقوم بخطوة. [وإن ما تبقى إنما هو متوقف على] «مهارة المفاوضين وصلابتهم»؟ض

ينتقل بعد ذلك الى تناول تطورات الموقف الأوروبي، طارحاً التحولات في الموقف البريطاني «كنموذج».

أما في الأنجازات وعلى الصعيد العربي، فثمة الأشارة إلى أنها دون المستوى المطلوب أو المرتجى، ويعرض الكاتب لنماذج من رد الفعل على الصعيد العربي، فهناك الأطراف الساعية إلى التفريض (هدنة مبارك). ثم هناك المنجز (وهو هنا فك الارتباط الذي أعلنه الملك حسين). ويميز المؤلف بين مواقف على الصعيدين الرسمي والشعبي، ففي مقابل «هدنة مبارك» هناك «المظاهرات الشعبية» مثلاً، وردود الفعل المراوحة بين البيان السياسي والندوة الفكرية والمظاهرة... وهو يقرر أن العرب لم يستخدموا أسلحتهم، «وهي كثيرة» في دعم الثورة ومواجهة العدو. بيد أن الكاتب يطرق في هذا السياق نقطة هامة تتعلق بدور«القيادة السياسية الفلسطينية» في تجليات رد الفعل العربي، مؤشرا على أن حالة التعامل كان يمكن أن تكون على غير ماهي في حين تكون «القيادة السياسية الفلسطينية أكثر تماسكاً وصلابة في مواقفها السياسية». ولكن (يقول الكاتب) «من المؤسف حقاً القول: إن بعض عناصر القيادة الفلسطينية يذهب أحياناً كثيرة بعيداً في الركض وراء السراب، وليس الأمريكي فحسب، بل والاسرائيلي أيضاً، الى الدرجة والحد الذي يشكل فيه «بلدوزر المهازل» الذي يمهد الطريق لسياسات المعسكر المعادي، وخاصة فريقه الرجعي العربي» ويضرب مثلاً لذلك «لقاء القمة» (ص ٤٢٩).

في الفصل السادس يتابع الكاتب تناول الأنجازات وتلمس الأفاق، وقد عنون هذا الفصل وهو الأخير ب «حقائق وآفاق فلسطينية واسرائيلية». وخلاف المدخل النظري، الذي كان يفتتح به الفصول السابقة، فإنه بدأ هنا بمدخل تاريخي، ومداخلة في التحولات على الصعيد الدولي، والتي تبشر (على مايذهب اليه) ب «تغليب لغة الحوار السلمي على لغة التفجير والتوتر» لقد كان ذلك المدخل وتلك المداخلة لازمين من أجل تقرير أهمية ما يسميه «مبادرة السلام الفلسطينية » من النمط «غير المتسرع الاستثمار». والمعتمدة على «إجادة فن التفاوض مع ممثلي الأدارة الامريكية» (ص ٤٣٧ـ ٤٤٠). وتأسيساً على ذلك، فإنه يقدم المسوغات للقبول «بقرار التقسيم (١٨١)» بعد مناقشة المتغيرات، والفرق بين قبول «الحزب الشيوعي» للقرار عام ١٩٤٧، وقبول فصائل المنظمة به راهناً. ومن المسوغات المقدمة مثلاً (في ص ٤٥٧) إن ولوج الثورة مرحلة التعادل الاستراتيجية ـ دفع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية إلى الإعلان عن وثيقة الاستقلال ـ استقلال الدولة الفلسطينية» (كما نعلم، فإن هذا الاعلان قد استند الى قرار التقسيم).

لقد هاجم الكاتب في فقرات عديدة، موقف «الشيوعيين» من قرار التقسيم، ولكنه بات يرى في قبوله «الآن» «وبعد الانتفاضة» أمراً طبيعياً اذا جرت حمايته فقط من «تنازلات اليمين» وكأني به يريد القول «إن القبول بهذا القرار الذي يهدر حقوق شعبنا وأمتنا لايعتبر تنازلاً البته، وإنما هو محصلة طبيعية لظروف

الانتفاضة وهجوم السلام»؟.

على الصعيد الآخر، تناول الكاتب تأثيرات الانتفاضة على الصهاينة، فلامس الأزمة السياسية الحادة التي يشهدها الكيان. وحكى عن تأثيرات الانتفاضة، في زيادة وتأثر الهجرة المضادة من الكيان. (وهو لايذكر شيئاً عن جموع المهاجرين التي تتقاطر على فلسطين المحتلة، مما يدفعنا الى التقدير، بأنه يتحدث عن إحصائيات الهجرة المضادة فحسب). أما التأثيرات على المؤسسة العسكرية الصهيونية، فقد أفرد لها مكانة مناسبة، مدعماً حديثه بشواهد مستقاه من تصريحات لصهاينة، ومقالات ظهرت في صحف الكيان. وأتبع ذلك بفقرة هامة أخرى عن الشروخ التي أصابت التجمع الاستيطاني الصهيوني، مبيناً دوافعها المختلفة، ومبيناً كونها نتاجاً لأزمة التجمع العامة، وصولاً الى طرق «إمكانية وقوع الحرب الأهلية في الكيان»، والتي يؤكد الكاتب في صددها، أن إمكانية ذلك الاحتمال باتت واقعية وليست مسألة وهمية تكهنية غيبية، (ص ٥٠٣). وهو يدَّعم تأكيده بالعديد من الشواهد المستقاه من صحافة العدو، ومتابعة الصدامات بين الجيش والمستوطنين الصهاينة. في الفقرتين الأخيرتين من الكتاب، يعالج الكاتب مسألتين عنونهما ب «الثورة بين نهجين وتكتيكين» و «طريق الدولة الفلسطينية لم تنته بعد». فقدم لنا تحت عنوان الأول مداخلة نظرية حول «التنازلات والمساومات» مفرقاً بين «مشروعية المساومة الثورية» و «المساومة الرخيصة اللامبدئية، غير المشرفة». وفي السياق يعالج موضوعة الاتصال بالصهاينة، ليصل إلى ضرورة حصرها ب «القوى التي تساند الكفاح الوطني الفلسطيني»؟

في الفقرة الثانية يقرر الكاتب أن «إمكانية الدولة قائمة بفعل الثورة الشعبية. مركزاً على دور «المفاوض الفلسطيني»، وضرورة التخلي عن التنازلات المجانية وتفليص الاهداف، وهما «دأب اليمين». وهنا يخال المرء أن الأمر منوط «بمهارة المفاوضين» ليحصل الفلسطينيون على دولة.

لربما تحتمل الفقرتان الأخيرتان نقاشاً مطولا، ولكننا لانميل اليه هنا، فملاحظتنا الختامية، تحمل بعضاً مما نريد إيراده في الحديث عما يطرح الكاتب.

ملاحظة ختامية:

إن المطلوب من ملاحظة ختامية، هو أن تقدم إجمالاً للكتاب المعروض، ولكننا اعتماداً على تعقيباتنا التي ثبتت في ثنايا الحديث، سنقصر حديثنا هنا على نقطة ـ نعتقد بأهميتها ـ تتعلق بالاستثمار السياسي للانتفاضة «استثماراً متأنياً وبدون تنازلات مجانية». ـ وعلى ماأعتقد ـ فإن التنازلات، تحمل صفة واحدة. هي تنازلات. وأن محصلتها حتى اللحظة حملت للانتفاضة أخطاراً تضاهي تلك التي تواجهها من عدوها المباشر اليومي.

لانريد الخوض هنا في معالجة منطلقات أصحاب دعوات الاستثمار بشكليه المتأني، والمتسرع، لأن النتائج الماثلة ـ على الأقل ـ تعفينا عن ذلك. بيد أننا لانرى بأساً في الاشارة إلى خلل أساسي يقع فيه أصحاب هذه الدعوات وهو، الانصراف إلى قطف الثمار دون تعزيز متانة الشجرةورفدها بأسباب القوة

والاستمرار، حداً يدفعنا إلى القول، بأنهم يحملونها أكثر مما تتحمل، ويجانبون الموضوعية في قراءتها، ونورد هنا بعض العبارات التي ساقها المؤلف في كتابه، كأمثلة للقراءة المتعجلة: - يقول الكاتب (ص ١٩٢) «إن الثورة الديسمبرية [الانتفاضة] القادرة على أن تجترح الصعاب، وأن تحطم كل المؤامرات وتتجاوز كل العراقيل وتستمر».

- وفي (ص ٣١٦) يرد قوله: «جملة التحولات التي حصلت حتى اللحظة في العامل الفلسطيني والعامل الاسرائيلي، وبالتالي العربي والدولي. تعمق الاستنتاج القائل، بأن الثورة الكانونية الشعبية بلغت بالثورة الفلسطينية الأم. ولوج مرحلة التعادل الاستراتيجي، بكل ما يعني هذا الانتقال من آفاق رحبة على طريق الحرية والاستقلال».

- وفي (ص ٥٢٢) «ورغم هذا الاقتناع باستشراف واقعية قيام وتجسيد الدولة الوطنية المستقلة فوق الاراضي الفلسطينية، التي تنسحب عنها اسرائيل، إلا أنه يجب التأكيد بأن العملية لن تكون سهلة، وليست بسيطة. بل انها عملية (جراحية) غاية في التعقيد. ولكنها باتت محطة شبه اجماع فلسطيني ودولي، وقبول ملحوظ في الأوساط العربية والاسرائيلية، وهذا ماسيسهل الاجراءات المهيئة لها».

- وفي نفس الصفحة «تمر الثورة الكانونية واسرائيل في مرحلة «عض الاصابع» فالقادر على التحمل أكثر، هو الذي سيربح الجولة، وهي بالضرورة لصالح الثورة الفلسطينية».

ويمكن الاستمرار طويلاً على هذا النحو. وليكن مفهوماً منذ البداية أننا لانرمي الى التقليل من منجزات الفعل الشعبي المقاوم، ولاتقزيم الجهد الجبار، ولا (أيضا) إغلاق الآفاق أمامه، ولكن السؤال المطروح. هل الأمر منوط بالانتفاضة وحدها؟ وهل أن حل الصراع العربي ـ الصهيوني القائم بات متوقفاً على جهد المنتفضين «المدعم بهجوم السلام»؟

لعل اجابة مفصلة عن هذا التساؤل ستدخلنا في حديث طويل. ولكننا ـ اختصاراً ـ نقول بأن الجهد يجب أن ينصرف الى دعم الانتفاضة، وتوفير أسباب صمودها واستمرارها، فالمسألة لاتتعلق «بمهارة مفاوضين» وحل التناقض القائم يقتضي جهداً تكون الانتفاضة جزءاً (أساسياً) منه. ولكنها ليست كله.

بقي القول: إن جهد الكاتب بيِّن، وتحليله لطبيعة العدو الذي نواجه بيِّن وصائب. فيا حبذا نتائج تستند على المقدمات الصائبة.

التقرير الأول

مجلة الدراسات الفلسطينية

● عماد لطفي ملحس

منذ تأسست في العام ١٩٦٣، أصدرت «مؤسسة الدراسات الفلسطينية» دورياتٍ ودراساتٍ وسلاسلَ توثيقية وتسجيلية بأكثر من لغة. وقد حرصت هذه المؤسسة التي مقرّها بيروت، أن تؤكد دائماً التزامها «بالأهداف والوسائل المحددّة في بيانها التأسيسي: الدفاع عن القضية الفلسطينية والحق العربي في فلسطين، بالبحث العلمي الهادف، ومن دونْ أي ارتباط حكومي أو حزبي».

ولا زلنا نذكر للآن «نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية» التي استمرت في الصدور منذ العام ١٩٧١ حتى نهاية العام ١٩٨٨، فكانت وماتزال تشكلّ زاداً اساسياً لكل المهتمينّ بقضية الصراع العربي ـ الصهيوني، من باحثين ورجال سياسة وإعلام وفكر، وفي مختلف جوانب هذا الصراع المتواصل السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، خاصة وأنها كانت «خطوة رائدة من أجل قراءة عربية منتظمة وهادفة وموثقة ودقيقة وأمينة، لما يصدر في الصحف والدوريات الاسرائيلية بالعبرية في موضوع الصراع العربي ـ الإسرائيلي» حسب وصف المؤسسة لها.

وإذا كنّا قد افتقدنا هذه النشرة المهمة، وأسفنا لتوقفها عن الصدور، حيث لم تُغنِنَا عنها زميلتاها الفصليتان: **Journal of Palestine Studies , Revue d'Études Palestiniennes** ، المستمرتان في الصدور عن المؤسسة في كل من واشنطن وباريس، فإننا لن نجد ما يشبع حاجتنا على هذا الصعيد في «مجلة الدراسات الفلسطينية» التي أصدرتها المؤسسة مع بداية هذا العام، لتحلّ حلّ النشرة التي توقفت منذ أكثر من عام.. ذلك أن للمجلة مجالات واهتمامات أشملَ وأوسع مما كان للنشرة.

ويرأس تحرير المجلة الوليدة الأستاذ أحمد سامح الخالدي: ويشاركه رئاسة التحرير الأستاذ محمود سويد، وهيئة تحرير مكوّنة من الاساتذة: حسين جعفر آغا، وأحمد خليفة، وخالد عايد، ورضى سلمان، ورندة شرارة، وسمير صراص، وكمال ابراهيم. وهي تتخذُ شعاراً لها، شكلاً دائرياً يعبّر عن «طائر اسطوري محفور بأشكال مختلفة على العديد من الآثار الفلسطينية القديمة، ويرمز إلى عراقة الحضارة الفلسطينية التي تعود إلى آلاف السنين، قبل مجيء اليهود إلى فلسطين».

وللتعريف بالمجلة وأهدافها نقتبس هذه العبارات التي وردت في تقديم المؤسسة للعدد الأول الذي صدر في كانون الثاني/ يناير

١٩٩٠: «وتحمل هذه المجلة، وهي مكرّسة كغيرها من منشورات المؤسسة لخدمة القضية الفلسطينية ـ العربية، رسالةً مزدوجةً إلى مجتمعنا العربي: فهي تهدف من جهة أولى إلى بذل جهد مركزٍ في قراءة واعية ومعمّقة للسياسات الإسرائيلية والعالمية تجاه قضيتنا، إضافة إلى رصد توثيقي وتحليلي للمجتمع الإسرائيلي في تقدمه وتخلّفه، وحدّته وتصدّعه، تطور نسيجه الداخلي وعلائقه الخارجية.. الخ..، وإلى رصد توثيقي تحليلي لمختلف نواحي الحياة في المناطق المحتلة، وخصوصاً ما يقوم فيها من ثورة شعبية ـ اسمها الانتفاضة ـ تطيح بمؤسسات الاحتلال القبيح، وترسي أسسَ الدولةِ الفلسطينية العتيدة، وأطرها ومؤسساتها الإنتاجية والقضائية والادارية.

وتهدف هذه المجلة ـ المنبر ـ من جهة ثانية إلى احتضان الطاقات البحثية العربية المتخصصة (ولا سيّما في الداخل الفلسطيني المحتل، وعلى اتساع الوطن العربي)، ومساعدتها في إطلاق إمكاناتها وبلورتها، لتجد في المجلة وفي منشورات المؤسسة عامة المكانَ الطبيعي للتعبير الحرّ المسؤول عن فكرها المبدع»..

وقد صدر من «مجلة الدراسات الفلسطينية» الفصلية الرُبعية حتى الآن عددان، تضمّن كل منهما مواضيع شتّى في إطار الأبواب التالية: آفاق الفصل، دراسات، مقابلات، الملف، قراءات، وثائق، إحصاءات واستقصاءات، إسرائيليات، تقارير دولية، مقالات، ندوات رسالة الأراضي المحتلة ١٩٦٧، رسالة الأراضي المحتلة ١٩٤٨.

ولعلّ أهم المواضيع التي تضمنّها العدد الأول ما يلي:

مقال افتتاحي للاستاذ قسطنطين بعنوان «كي نظفر بحقنا في فلسطين»، آفاق الفصل للأستاذين أحمد سامح الخالدي وحسن جعفر آغا، بعنوان «الدولتان العظميان والمنطقة»، دراسة للأستاذ رجا شحادة المدير المشارك لمؤسسة الحق / القانون من أجل الإنسان في الضفة الغربية، وهي بعنوان «هل يمكن لإسرائيل الاستمرار في حكم الأراضي المحتلة؟»، دراسة للاستاذ عادل سمارة، وهو باحث من الضفة الغربية متخصص بالشؤون الاقتصادية عنوانها: «أداء المؤسسات الاقتصادية في المناطق المحتلة قبل الانتفاضة وخلالها»، دراسة للاستاذ وليد حزوري مدير تحرير نشرة ميدل ايست ايكونوميك سرفي بعنوان «الاستكشاف والتنقيب عن البترول في إسرائيل»، ودراسة للأستاذ أسامة الغزالي حرب حول «الأعوام العشرة الأولى للعلاقات المصرية الاسرائيلية ـ تحليل وتقويم». وتضمّن العدد مقابلة مع «ستّين اندرسون» وزير خارجية السويد، تحدث فيها عن مهمته بين الامريكيين وم.ت.ف. أما ملّف العدد فكان حول «سياسة الترحيل الجماعي الإسرائيلية». هذا إلى جانب مجموعةُ من «القراءات» لكتابّ يهود وعرب، ومجموعة من «الوثائق القديمة والحديثة، وزاوية «إسرائيليات° التي تضمنت موضوعات حول «مبادرة السلام الإسرائيلية»، و «الجيش الإسرائيلي في مواجهة الانتفاضة°، و «تأثيرات

الانتفاضة الفلسطينية في الاقتصاد الإسرائيلي»، و «تطور العلائق بين إسرائيل والاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية في عهد غورباتشوف». وخُتِمَ العدد بتقرير مهم لمؤسسة (راند) الامريكية، كان قد نُشِر في نهاية عام ١٩٨٩، وهو بعنوان «لماذا أصبحت الدولة الفلسطينية حتمية؟».

أما العدد الثاني «ربيع ١٩٩٠» فكانت أهم مواضيعه هي التالية: الافتتاح للاستاذ برهان الدجاني «العقل العربي وإسرائيل»، آفاق الفصل حول «هجرة اليهود السوفيات»، دراسة للاستاذين علي الجرباوي من جامعة بيرزيت، ورامي عبد الهادي مدير مركز الهندسة والتخطيط في رام الله حول «مخططات ـ التنظيم ـ الإسرائيلية: الإداة الكامنة لدمج الأراضي الفلسطينية المحتلة في إسرائيل»، ودراسة للاستاذ نديم روحانا من جامعة هارفارد حول «التحول السياسي للفلسطينيين في إسرائيل: من الإذعان إلى التحدي»، ودراسة للاستاذ عباس شبلاق حول «شعور العداء لليهود في الدول العربية ـ مناقشة لوجهات النظر السائدة». وتضمن العدد ندوة أجرتها المجلة مع ثلاثة من كبار المفكرين الفرنسيين، هم مكسيم رودنسون، ريجيس دوبريه، وادغار بتراني (مستشار الرئيس ميتران، ورئيس معهد العالم العربي)، وتركزت الندوة حول «التحولات في الشمال، واثرها في مستقبل الجنوب». وكان الملف من تحرير رضى سلمان وبعنوان «المنسيون: عرب فلسطين ١٩٤٨، مرحلة النهوض من الصدمة». أما رسالة الأراضي المحتلة ١٩٦٧، فكانت من ربى الحصري حول «أساطير في انتفاضة نابلس»، ورسالة الأراضي المحتلة ١٩٤٨ من وليد العمري من حيفا «فلسطينيو الداخل بين الهجرة والتهجير». وتضمنت زاوية «إسرائيليات» مواضيع عديدة منها «الهجرة الجماعية لليهود السوفيات» لسمير جبور، و «الرؤية الإسرائيلية للتغييرات في أوروبا الشرقية» لرنده شرارة، و «عودة إسرائيل إلى افريقيا» لكمال ابراهيم، و «ماذا يجري داخل الحزب الشيوعي الاسرائيلي عشية المؤتمر الحادي والعشرين؟» لخالد عايد.

ومما يَلفِتُ النظر قراءة أولية لمواد العددين، أن الاتجاه العام للغالبية العظمى من هذه المواد، يسير نحو الترويج لخط التسوية السياسية للقضية الفلسطينية، وتكريس فكر التسوية ونهجها، بديلاً عن فكر المقاومة والكفاح المسلّح وتحرير كامل التراب الفلسطيني والعربي. والامثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، على الرغم من تأكيد المجلة أن «غايتها هي البحث العلمي» وانه ليس للمؤسسة التي تصدرها «أي ارتباط حكومي أو تنظيمي»، وأن المجلة «منبر يهدف إلى احتضان الطاقات البحثية العربية المتخصصة»، مما يجعلها مجلة اللون الواحد، والفكر الواحد، وهو فكر لا يمكن تجاهل خطورتِهِ على مستقبل القضية العربية الفلسطينية..

إن على الكتاب والباحثين العرب أن يسهموا في تعرية الأطروحات التي تروج المجلّة لها، وأن يكتبوا لها بوصفها «منبراً»، حتى لا تظل مجلة اللون الواحد..

التقرير الثاني

غياب عمر أبو ريشة في رحلة أبدية

● يوسف عبد الاحد

توقف قلب الشاعر الكبير، عمر أبو ريشة عن الخفقان، بعد صراع مع المرض، في الرابع عشر من شهر تموز عام ١٩٩٠، فترجل الفارس عن صهوة جواده الأصيل، وحطّ الرحال في المحطة الاخيرة.

كان شاعراً مبدعاً، من أكبر شعراء العرب المعاصرين، وأحد روّاد المدرسة الكلاسيكية الجديدة المتجددة، وكان الدورة الدموية في شرايين الشعر العربي، متوقد الحسّ، رقيق العاطفة، مجنح الخيال، بليغ الكلمة، وديبلوماسياً ناجحاً من الطراز الأول.

وبرحيله فقد الشعر العربي أحد عمالقته الافذاذ، وفرسانه المجلين.

مات عمر بجسده، اما روحه، فلازالت تعيش بيننا، فقد ترك ثروة غنية من الشعر والادب، لترسم لنا الدرب نحو المجد والتضحية الوطنية والكرامة.

مولده، نسبه وحياته

ولد الشاعر عمر بن شافع ابو ريشة في مدينة عكا بفلسطين، بتاريخ ١٠/٤/١٩١٠، وهو يتحدر من عشيرة (الموالي) العربية، وهي فرع من مجموعة قبائل (البوريشي) التي غلبت تسميتها عليه.

عاد والده بعد الحرب من فلسطين، واستقر في حلب، وعيّن قائمقام في منبج، وكان شاعراً مفطوراً.

أما والدته، فهي من أسرة عريقة بالصوفية، ووالدها شيخ الطريقة الشاذلية في فلسطين.

قضى عمر طفولته في حلب، وتلقى دراسته الابتدائية في مدارسها، والثانوية، ثم تابع دراسته في الجامعة الامريكية في بيروت، ثم أرسله والده الى (مانشستر) بانكلترا، ليدرس صناعة النسيج والكيمياء العضوية، لكن الشعر غلب عليه.

تزوج من (منيرة مراد) في التاسع من ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩، وهي لبنانية الاصل، من منطقة البقاع، ارجنتينية المولد، ورزق ثلاثة أولاد، رفيف وشافع، وابنة واحدة (ريف)، وهي متزوجة من المفكر (جميل مطر).

مناصبه في السلك الديبلوماسي

سفير سوريا في البرازيل والارجنتين وتشيلي (١٩٤٩ ـ ١٩٥٤).

سفير سوريا في الهند (١٩٥٤ ـ ١٩٥٨).

سفير الجمهورية العربية المتحدة في النمسا (١٩٥٩ ـ ١٩٦١).

سفير سوريا في الولايات المتحدة الامريكية (١٩٦٢ ـ ١٩٦٤).

يحمل عدة أوسمة، تقلدها من دول مختلفة، وكان آخرها وسام الاستحقاق اللبناني من الرئيس اللبناني الياس الهراوي.

عضو مراسل لمجمع اللغة العربية بدمشق.

عضو الاكاديمية البرازيلية للآداب

عضو المجمع الهندي للثقافة العالمية.

وكان يجيد تسع لغات، والف بسبع منها.

أعماله الشعرية

١ - ديوان (شعر) مطبعة العصر الجديد حلب ١٩٣٦.

٢ - من عمر أبو ريشة - دار مجلة الاديب - بيروت ١٩٤٧.

٣ - مختارات - المكتب التجاري - بيروت ١٩٥٩.

٤ - ديوان عمر أبو ريشة (المجموعة الكاملة) الجزء الاول - دار العودة ١٩٧١.

٥ - غنيت في مأتمي - دار العودة - بيروت ١٩٧٤.

٦ - ديوان بالانكليزية (جوّاب آفاق) ROVING ALONG دار الكشاف ١٩٥٩.

٧ - ديوان بالانكليزية (لامكان) NO WHERE

٨ - من وحي المرأة - دار طلاس - دمشق ١٩٨٤.

مسرحيات شعرية:

١ - ذي قار - مطبعة المعارف حلب ١٩٣١.

٢ - عذاب - اوبيرا من فصل واحد نشرت بمجلة الحديث الحلبية كانون الثاني ١٩٣٦.

٣ - مسرحية سميراميس.

٤ - مسرحية الحسين بن علي.

٥ - مسرحية الطوفان (نشرت بديوانه الاول عام ١٩٣٦.

٦ - مسرحية (ايدي يوريديس) لبدرو بلوك تعريب بالاشتراك مع الياس خليل زخريا - دار الحضارة ١٩٦٢.

التقرير الثالث

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في نابلس ١٨٥٠ - ١٨٧٥م

● عرض د. شوقي شعث

عنوان الرسالة التي قدمها الباحث عبد الله محمود حسين لنيل درجة الدكتوراه في الآداب.

في الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الثلاثاء الواقع في ٥ ذي القعدة ١٤١٠هـ والموافق ٢٩/٥/٩٠، نوقشت على مدرج شفيق جبري بكلية الآداب / جامعة دمشق الرسالة التي تقدم بها الباحث عبد الله محمود حسين، لنيل درجة الدكتوراه في الآداب قسم التاريخ. كانت الرسالة بعنوان «الحياة الاجتماعية والاقتصادية في نابلس في الفترة ما بين ١٨٥٠ - ١٨٧٥م، من خلال الوثائق الشرعية»، تألفت لجنة الحكم من الاساتذة الدكاتره: عبد الكريم رافق، استاذ التاريخ الحديث مشرفاً، ونور الدين حاطوم استاذ الشرف بالتاريخ الحديث عضواً، محمد عدنان نجيب نائب، رئيس الجامعة الاردنية، واستاذ التاريخ الحديث بها عضواً، عارف دليله، استاذ في كلية الاقتصاد بجامعة دمشق، وغانم هنا استاذ الاجتماع بجامعة دمشق. وقد استمرت المناقشة نحو خمس ساعات تقريباً، ناقشت فيها اللجنة الطالب في كثير من الموضوعات التي تضمنتها رسالته، ناقشته فس أسباب أختياره لهذه الفترة بالذات من تاريخ نابلس، وبالتالي من فلسطين، ناقشته بالمعلومات التي أوردها وبالمنهج التي اتبعه، كما لفتت نظره الى قضايا كثيرة اقترحت عليه حذفها عند طباعة الرسالة في شكل كتاب، وحيث أن الوثائق التي أعتمد عليها الباحث هي وثائق المحاكم الشرعية التي كان يدخل في أختصاصها كثيراً من الموضوعات في الفترة التي تعالجها الرسالة. لذلك جاءت الرسالة. شاملة لكثير من الموضوعات، مثل الموضوعات الاجتماعية كالزواج والطلاق والأسرة، والتركيب الاجتماعي في لواء نابلس، وكذلك الموضوعات الاقتصادية مثل البيع والشراء للدور والاراضي وكذلك العمران، فقد جاءت الرسالة شاملة مما جعلها طويلة جداً، وربما هذا هو الذي قاد بعض أعضاء لجنة الحكم للقول، بأن بها حشواً كثيراً لا يفيد الرسالة، في حين كان منهج الطالب، كما يبدو، البدء بالعموميات ثم التدرج نحو التخصصّ. وبمعنى آخر أنه عندما يريد الحديث عن مشكلة من المشاكل يقدم لها بمقدّمة تكاد تكون طويلة، ثم يدخل في المشكلة ذاتها.

من المفيد هنا أن نستعرض بشكل مقتضب جداً مضمون الرسالة التي نحن بصددها، لقد تألفت الرسالة من مقدمة وأربعة أبواب وملحق لنماذج سجلات الدراسة التي اعتمد عليها، ثم الحق بها ثبتاً بالمصادر والمراجع التي أعتمد عليها لفهم نصوص الوثائق، وتوضيح بعض الجوانب التي تحتاج الى ذلك. جاءت الرسالة في نحو ٥٧٠ صفحة من القطع الكبير المضروب على الآلة الكاتبة. إضافة إلى صور بعض الوثائق، وصور بعض المعالم في مدينة نابلس وجوارها غير مرقمة.

كان الفصل الأول منصباً على موقع نابلس وعمرانها وتاريخها، فهو يقول في هذا المجال «تعتبر منطقة نابلس بمثابة القلب من فلسطين تماماً، كما هي فلسطين للوطن العربي..»، يستعرض الباحث هنا الأهمية التاريخية لنابلس، وتطور تبعيتها الادارية عبر تاريخها الطويل، تحدث عن موقعها الجغرافي والجبال التي تحيط بها والتلال والوديان والعيون والقلاع والبوابات، أي بوابات المدينة، ثم محلاتها وأزقتها وأسواقها وبيوتها ومقاهيها ومرافقها العامة، كالخانات والحمامات والافران والبيمارستانات والسبل، كل ذلك مستمداً من واقع سجلات المحاكم الشرعية التي درسها، وقد

زودّ هذا الفصل بجداول إحصائية بيانية استنبطها من السجلات التي درسها. وعالج في الفصل الثاني، مظاهر الحياة الادارية في نابلس، من حيث الجهاز الاداري والوظائف مبيناً أن نابلس طبقاً للاوامر الصادرة من مركز الولاية، يتبين انها كانت تتبع تارة الى ولاية صيدا، وتارة الى ولاية دمشق، وأحياناً الى القدس، وكان من أهم الوظائف الادارية في لواء نابلس في الفترة التي شملتها الدراسة وظيفة القائمقام (قائمقام اللواء). والقاضي الشرعي، والمفتي ونقيب الاشراف وأعضاء مجلس المدينة ومحصلوا المقاطعات وأرباب التكلم وغيرهم، وبالطبع كان لواء نابلس ينقسم الى عدة نواح، كان على رأس كل ناحية مدير يعينه قائمقام نابلس مثال ذلك: مدير ناحية بني صعب، ومدير ناحية عرابّه ومدير ناحية وادي الشعير ومدير ناحية وادي الشعير الشرقي، ثم يتحدث عن وظيفة المختار التي استحدثها قانون الولايات العثماني الصادر في عام ١٨٦٤م. لقد تحدَّث عن ماهية تلك الوظائف وصلاحياتها والالتزامات المتوجبة عليها في إطناب ملحوظ، ونجده إضافة الى ذلك يتحدث عن الجمارك ورجالها ووارداتها، وعن الخدمة العسكرية والوحدات العسكرية والسلاح، وعن إعفاء غير المسلمين من أداء الخدمة العسكرية، ومقدار الاعانة العسكرية التي كانوا يدفعونها الى الخزينة مقابل ذلك، ثم يستدرك قائلاً إن هذا الغي بعد إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م، لتصبح الخدمة العسكرية فرض على كافة رعايا الدولة العثمانية من مسلمين وغيرهم، ونجده في آخر الفصل يتحدث عن التعليم والمدارس، حيث يعدد المدارس الخاصة بالذكور والاناث والتلاميذ والمعلمين والمكتبات العامة وغيرها.

وفي الفصل الثالث يتحدث صاحب الرسالة عن فئات السكان في لواء نابلس بالمدن والارياف والبادية ويقول «إن غالبية سكان نابلس والقرى المجاورة من العاملين في الزراعة مع وجود فئة حرفية من السكان، تشكل نسبة لابأس بها...» ويضيف قائلاً بأن المدن في تلك الفترة كانت بسيطة ضيقة الشوارع، لا تتوفر فيها الانارة، لان الكهرباء لم تعرف في عدد كبير من مناطق بلاد الشام، إلا في أوائل القرن العشرين..» ويستنتج قائلاً، إن طبقات المجتمع النابلسي وقت ذاك هي:

- الطبقة الحاكمة: مثل قائمقام اللواء ومسؤولي الدوائر الحكومية..
- أرباب العلم، وتشمل العلماء والفقهاء والقضاة والكتاب والأدباء وغيرهم.
- الاشراف وإن كان عددهم ليس بالكثير.
- الطبقات الاخرى مثل التجار والعمال والصناع والباعة.
- الفلاحون ويشكلون أغلبية السكان .
- الخدم والعبيد.

إضافة الى ما تقدم يتحدث عن المسيحين وعن رهبانهم وكنائسهم، وكذلك عن اليهود وأخبارهم، وخاصة عن طائفة السمره (السامريون). ونجده في هذا الفصل يتحدث عن الحمائل في مدينة نابلس وقضائها، ثم ينتقل الى دور المرأة ومكانتها في المجتمع النابلسي، والزواج والطلاق والارث والتركات والمشاكل الاجتماعية

والاوقاف.. الخ، وقد عزَّز الباحث هذا الفصل بعدد من الجداول، مثل جداول تبين أعداد وقيمة التركات، وجداول تبين تركات المتوفين من المسيحيين، واعداد الاولاد ومقاديرها، وجداول توزيع التركات.

وفي الفصل الرابع يتحدث عن الزراعة، مبيناً، أن المجتمع النابلسي كان مجتمعاً زراعياً، حيث كانت الزراعة المصدر الاول لحياة المواطنين. فمعظم تلك الزراعة معتمدة على مياه الامطار، أي الزراعة البعلية، أما أهم أنواع الزراعات فهي زراعة الزيتون والتين وسائر الفواكه، مثل، العنب والرمان، وقد أشاد الرحالة والجغرافيون بكثرة الاشجار في لواء نابلس وسائر فلسطين، بعد ذلك نجده ينتقل الى الملكيات الزراعية وأنواعها، وكيفية الحصول عليها. وأنواع تلك العلاقات، كالمغارسه والمساقاة، كما يتحدث عن الزراعات الصناعية الثانوية الاخرى، والسمسم الذي يستخرج منه زيت السيرج والكسبه، والدخان الذي تصنع منه السجائر، والعرقسوس الذي يستخرج منه شراب العرقسوس المشهور، والكتان والخروّب والسماق والعنب والتين والرمان واللوز... الخ، هذا إلى جانب حديثه عن أنواع الحيوانات التي كانت سائدة، أومستخدمة فيتحدث الباحث نقلاً عن رحالة اوربي اسمه تومسون عن وجود نمور، ودببه، وذئاب وضباع، أماالحيوانات الاخرى، فكانت مثل الابقار والاغنام والماعز والحمير والبغال والخيل والجمال وغيرها.

وعندما ينتقل للحديث عن الصناعة يقول «هي احدى الركائز الاساسية والمقومات الهامة للاقتصاد الوطني». ويعدد عدداً منها مثل: الصناعات اليدوية كصناعة الفخار وصناعة السلال والحصر والصناعات الخشبية والصناعات الغذائية مثل صناعة الحلويات كالحلاوة المنفوشة والكنافة والمربيات وتجفيف الفواكه وصناعة الاجبان والالبان وطحن الحبوب وصناعة الالبسة والنسيج والحياكة والدباغة والصناعات الجلدية وغيرها، ولا يفوته، أي الباحث، أن يتحدث عن الطوائف الحرفية والاسواق والضرائب المتنوعة مثل ضريبة المواشي والاعشار والبدل النقدي والعسكري والويركو وضريبة المسقَّفات والمعارف والعمال المكلفين، وضريبة التمتع وضريبة الملكية، ويختم هذا الفصل بالحديث عن العلاقات التجارية مع الدول الاجنبية، ووسائط النقل والنقود المتداولة ممثل: القرش والزهراوي والبشلك وريال عامود وريال سينكو (شينكو)... الخ، والمكاييل مثل الصأع والمدّ والغرارَه والكيله والطبّة والربعيه والكيس والقفير والرطل والوقيه والاقه، والمقاييس مثل: ذراع العمل ، وذراع البنا، الفدان، الدونم.. الخ.

وفي ختام الرسالة يلحق بها، كما ذكرنا سابقاً، نماذج من سجلات المحكمة الشرعية في نابلس التي اعتمد عليها في دراسته وقوائم بمصادره ومراجعة العربيه والاجنبيه.

على الرغم من أن الباحث توسع كثيراً في بعض الموضوعات، حيث نجده أحياناً يستطرد، كما نجده أحياناً يكرر الحديث عن أمور تحدَّث عنها في فصول سابقة، إلا انه - من الملاحظ بذل جهوداً مضنية في جمع المادة واستخلاصها

ودراستها، متصدّياً بذلك لعمل جليل، كانت نتيجته إطلاعنا على كثير من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية العمرانية والثقافية في نابلس وقضائها، وقد ينسحب ذلك على فلسطين كلها، وما أحوجنا الى مثل تلك الدراسات والبحوث لنتعرف على تاريخ مدننا وقرانا الذي هو تاريخ بلدنا وشعبنا، وهنا أقول أنني شعرت بسرور بالغ عندما استمعت إلى مناقشة تلك الرسالة التي أتعشم أن تتكرر مثيلاتها في المستقبل، كأن نَستمع الى رسالة عن صفد وقضائها، او غزة وقضائها، او الخليل وقضائها، او حيفا وقضائها، او الناصره وقضائها. إن بلادنا ومدننا لازالت بكراً، ومن المهم جداً أن ندرسها - دون غيرنا - لنمهّد الطريق الى كتابة تاريخ وطني، والامل كبير أن يحذو شبابنا حذو باحثنا، لاغناء تلك الدراسات، فالشكر كل الشكر لباحثنا الكريم الذي ضحىّ بوقته وجهده وبماله، حيث بذل الكثير من النفقات مقتطعاً ذلك من عيش اسرته، نظراً لغياب المؤسسات الفلسطينية، وحتى العربية، التي يمكن ان تقدم المؤازرة في هذا المجال. وعلى الرغم من ذلك فإننا نأمل أن تتقدم مؤسسة فلسطينية من تلك التي تختزن الاموال في صناديقها للانفاق على طباعة هذا البحث القيم وغيره من البحوث الجاده.

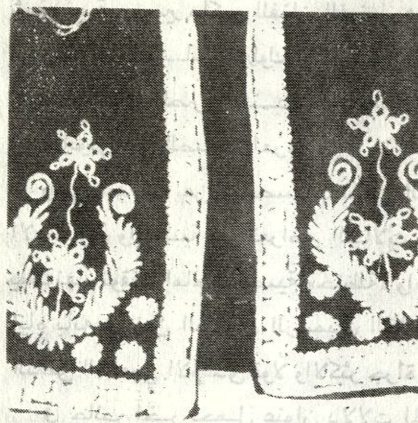
في نهاية المناقشة الغنيَّة التي رافقها استفسارات واسئلة، رد الباحث عليها، رفعت اللجنة جلستها لتعود حيث يعلن المشرف منح الطالب درجة الدكتوراه في الآداب بدرجة جيده جداً. فالتهاني الحاره للباحث، والأمل أن يتابع المسيره خدمة لقضيته وامته!

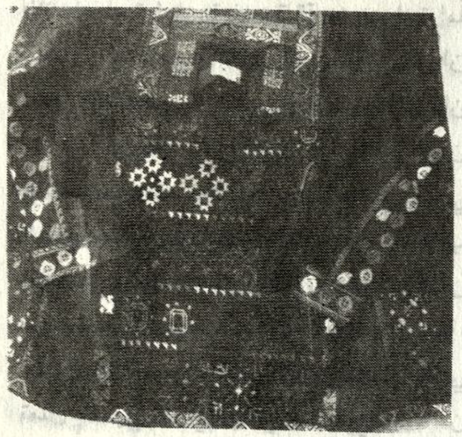
التقرير الرابع

أسبوع الفولكلور الفلسطيني

أقام الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين/ فرع سورية كعادته كل صيف، منذ العام ١٩٨٤، أسبوع الفولكلور الفلسطيني، وذلك في الفترة مابين ٩ - ١٥ تموز ١٩٩٠. تضمن المهرجان ثلاث فعاليات أساسية. الاولى: عروض فنية قدمتها الفرق الفولكلورية الوطنية الفلسطينية بيسان - الجذور - الزغاريد - زهرة المدائن - الصبار - فلسطين - القدس - القدس للأزياء - النضال الشعبي - الكرمل - البيادر.

كان ذلك على مسرح سينما النجوم، مخيم اليرموك، بدمشق، التي غصت قاعتها بالجمهور، الذي كان حماسياً ومشدوداً الى المسرح وهو يشاهد شبانه وشاباته يقدمون عروضاً منوعة من تراثه العريق، بالاضافة إلى الأهازيج





والأغنيات الوطنية المستمدة من تراثه الوطني.

الفعالية الثانية، تمثلت باقامة معرض للأزياء والموروث الشعبي الفلسطيني ومعرض الفن التشكيلي الذي اقيم في قاعة المركز الثقافي السوفييتي بدمشق، بالتعاون مع الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين في سورية.

لقد ضم هذا العرض اثواباً مطرزة من مختلف المناطق الفلسطينية: بير السبع، غزة، حيفا، القدس، رام الله، صفد، الخليل وغيرها.. وشملت مختلف اشكال التطريز الفلسطيني، كما شملت أثواب المناسبات المختلفة، وأثواب الحياة اليومية الاعتيادية.. هذا كما ضم معرض المصنوعات بعض الصناعات اليدوية الخشبية والنحاسية.

وأما الفعالية الثالثة، فقد كانت ندوة حول منهجية البحث والتراث، شارك فيها كل من الأساتذة: حسن حمامي، محمد خالد رمضان، ونزيه الحسن، وعوض سعود عوض.

التقرير الخامس

أمسية تأبينية لـ ناجي العلي

● عبده الأسدي

أقام الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين لجنة العمل النقابية بالتعاون مع الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين أمسية تأبينية بمناسبة مرور عامين على استشهاد المناضل الفلسطيني الفنان ناجي العلي. وذلك بتاريخ ٢٨/٨/١٩٩٠.

وقد قدّم الامسية الاستاذ حمزة برقاوي أمين عضو لجنة العمل النقابية، نائب رئيس فرع

الاتحاد استهلها بوقوف دقيقة صمت احتراماً لذكرى استشهاد ناجي العلي مؤكداً على ان ناجي العلي لم يكن نموذجاً فحسب، بل كان مدرسة في النضال والابداع ثم قدم الفنان التشكيلي عماد عبد الوهاب دراسة عن ناجي العلي سلط فيها الاضواء على بعض الجوانب الهامة في مسيرته الفنية المميزة. ولدى حديثه عن موقع ناجي العلي من حركة الكاريكاتير العربية، اشار الى الدور الريادي البارز لناجي والذي تمثل بتعميق دور الكاريكاتير السياسي، ونقلة من العام الى الخاص ومن الحدثي الى اليومي، رابطاً بين النتائج والاسباب، فاضحاً الاولى بتعرية الثانية واظهار ما خفي منها. هذا إضافة الى دوره في خلق قاعدة شعبية لهذا الفن، ونقله من حيز مشغول على صفحه يومية الى مادة واسعة الانتشار والتداول.

وفي جانب آخر تطرق المحاضر الى التشخيصية في كاريكاتير ناجي العلي، وأشار الى انه لا يتحرك على مساحة ثالثة من حيز الصراع، فاما أن تكون مع وإما أن تكون ضد و «اللعم» تعني الانحياز للثانية، عليه فإن شخوصه توزعت على هاتين المساحتين، فالوطني في مقابل الرجعي، والفقير في مواجهة الغني، والمواطن نقيض السلطة المستبده، والمناضل يقاوم الداخل الانتهازي والخارج الانهزامي. عليه فإن شخوص ناجي العلي كما يقول عماد عبد الوهاب، اتت شعبيه تحمل رائحة الارض وعشق الوطن، مشيراً الى ان ناجي قد استفاد وبرؤية تجديدية من التجارب الكاريكاتيرية السابقة والتي خلقت شخصياتها الشعبية من نمط شخصية روبير ماكير للفنان الفرنسي هنري دومييه، وكوماس فيرلوك لغارفاني... او شخصيات المصري افندي، ورفيعة هانم وبهجاتوس على الصعيد العربي.

ولدى حديثه عن شخصيات ناجي العلي الايجابية والسلبية واستعراض الحالات التي يمثلونها، توقف امام شخصية «حنظلة» واصفاً اياه بأنه في زمن الناطقين الرسميين الكثر، هو الناطق الشعبي الاصدق قولاً والاكثر جرأة.

في جانب آخر يحمل عنوان دلالات المكان والزمان في رسوم ناجي العلي، تحدث المحاضر عن المستويين المترابطين في اعماله، حيث وضع ناجي ذاكرته في سياق الزمن، وبالتالي اعطى تلك الاعمال قدراً من السيرة الذاتية اوالتاريخ، الخارجي، اما المستوى الآخر فتمثل في الرسوم التأويلية أو الذهنية المرتبطة بنقد ما هو قائم.

الزمن عند ناجي العلي يتماهى مع الذاكرة، التي تعيد تكثيفه على شكل المكان والمكان في كل ابعاده يحتوي على الزمن مكثفا، وتاره أخرى على شكل احداث يقاربها بما هو آني ويومي.

المكان بالنسبة لناجي العلي ليس الجغرافيا، فهو الفه الروح وهو التفاصيل المكونة لنسيجها، والمكان هو الحاضن للفعل التحويلي المعني به.

اما عن الشاعرية في اعمال ناجي، فقد اشار الى حجم الانفعال الداخلي لدى شخوصه، وكأنهم بركان هائل قبيل لحظة الانفجار بلحظات. وقال «وان كان ناجي العلي في تكوينه الشخصي يحمل قدراً كبيراً من الميلودراما ومن السخرية السوداء ومن الشاعرية الحزينة، فإن ابطاله يحملون ذات السمات».

وفي نهاية مداخلته تحدث عماد عبد الوهاب عن الشكل والتكنيك في اعمال ناجي العلي، مشيراً الى أنه لم يكن يوماً يميل الى الفانتازيا في الرسم أو الى المبالغات المضحكة بشكل سطحي. فالرسم عنده حامل للفكرة ومدخل لها. دون اسقاط الموجبات الجمالية سواء على صعيد الخط أو التكوين، فالحالة الانسانية هي الاكثر تأثيراً، والغواية بالرسم التفصيلي تفضي الى الشكلانية. ان سواء اللوحة عند ناجي العلي يمنحها قوة غرافيكية وتعبيرية، ويمنح شخوصها سطوعاً وبروزاً.

كما أن اعمال ناجي عموماً تحمل سمات تكوينية جيدة سواء لجهة اتزان العلاقة بين الكتلة والفراغ. او لجهة الانشداد للتكوين المحكم وشفافية الخطوط واتساقها والعلاقة المتبادلة التأثير بين الاسود والابيض.

ثم ألقى الاستاذ حسين حموي كلمته التي أكد في مستهلها على ضرورة دراسة الجانب الابداعي لدى ناجي العلي الذي ترك بصمات واضحة ليس على واقعنا وانما على أجدر الأزمنة المستقبلية وتابع الحموي كلمته قائلاً: «بين أن تكون انساناً بكل مشاعرك ومواقفك، وبين أن تكون غير ذلك، مسافة اقرب وأضيق من حبل الوريد الى العنق، وبين أن تكون مقداماً شجاعاً تواجه أعداء الخير والحقيقة بكل رجولة وعزّة، أو بين ان تكون مناوراً أفاقاً جباناً، مسافة أقل من انتباهة العين واقفالها.

كثيرون يحسبون ان حياة الانسان، تقدّر بعدد السنوات التي يعيشها في هذه الحياة الفانية وكثيرون يظنون انهم عندما ينهبون من هذه الحياة لذتها وسعادتها، وان كانت تلك اللذة والسعادة على حساب الآخرين، هم الاعلون، ولعلَّ الامر مختلف تماماً عند القلائل (لكنهم الكثرة) الذين ينظرون الى الحياة على انها جديرة أن تعاش في ظلال الكرامة والعزّة والعطاءات النبيلة، وغير جديرة أن تعاش في ظلال المذلة والمهانة ذلك ان النفوس العظيمة الابية دائماً تختار متيتها بشرف وتعرف كيف تجيد اختياراتها على طريق العزة والكرامة.

لقد كان المناضل الشهيد ناجي العلي واحداً من اولئك القلائل الكثر الذين اتقنوا صناعة الموت في ظلال المواقف العظيمة، والمبادىء السامية. كان من اولئك الذين لا يقنعون أنفسهم بالكمّ العمري في سجل العابرين دورب الحياة بل من اولئك الذين يعتبرون الحياة نوعاً من العطاء وقدراً من الطاقة، وشكلاً من أشكال التضحية وموقفاً من مواقف الرجولة والبطولة.

ولأنه كذلك، فقد دفع ضريبة تماثل وتوازي تلك الافكار والمبادىء التي يحملها وهو يعبر جسر الحياة إلى أيكة الخلود السرمدي الذي لا تعرف تنازليه الشحوب أو الانطفاء مهما تراكمت السنون وتعاقبت الأزمان. لقد كان الفنان ناجي العلي عبقرياً ليس في فنه فقط بل في مواقفه والتزامه تجاه كل ما يؤمن به ويعتقد بصمته منهجاً وفكرياً وسلوكاً، وفي شخصيته ذات الاتجاه الواحد، والوجه الوحد، انصهرت تلك المنهجية الفكرية والسلوكية المنفردة على شكل موقف صريح واضح جزيء تجاه القضايا المصيرية بلا موارية أو احتراز مما جعله يؤثر الغربة والمنافي ليس عن الوطن الام الذي ولد فيه

وترعرع في كنفه فحسب بل عن التراب العربي بالكامل، ليعيش في بلاد المنافي والغربة خارج حدود الوطن العربي كله والى هناك امتدت الاصابع الاخطبوطية الى هناك، حيث كان يؤثر حياة التشرّد والنفي على حياة المصانعة والنفاق، الى هناك امتدت اليه يد الغدر والخيانة لتغتال روحه الرافضة المتمردة الحالمة بالوطن العودة والثورة والتحرير.

هكذا الفت الاصابع الاخطبوطية عملية الانقضاض على العقول المبدعة، لاغتيالها وهي في أوج عطائها وحلمها وهكذا تعودت أن تتعامل مع فنان مبدع من شعبنا لم يساوم على قضية نفية، ولم يهادن على أفكاره ومبادئة ومواقفه بروحه. لقد استطاعت تلك الايدي الملوثة؟ ذات الأظافر الصهيونية الطويلة أن تقتنص روح ناجي العلي من خلف ذلك القفص الصدري الذي يتسع لحبّ العالم بأكمله. لكنها فشلت في انتزاع ذلك الحب الذي يتأجج يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام لروحه الخالدة وفنه العظيم. ولا نقول هذا الكلام من باب المجاملة الذي يقال عادة في توديع الراحلين وذكراهم، وانما نقوله لأننا ندرك حجم المعاناة وحجم الفن وحجم الموقف الذي كانت روح ناجي العلي ضريبة له طيلة حياته وانه حيث يرقد الآن جسداً مسجى في تربة غير عربية بكل أسف وحيث تطوف روحه بيننا الآن يحيننا واحداً واحد لتقول الينا مع كل موقف عظيم نقفه مع ذواتنا وتجاه الآخرين ومع كل لوحة صادقة نقف أمامها أو نبدعها ومع كل كلمة جريئة ننطق بها أو نرسمها فوق صفحات كتاب او ودرية تقف لتقول الينا أنا أنتم وأنتم انا. وتلك لعمري قمة التقدير والتكريم للرجال العظام الذين يُحتفى بهم، وتكتب حروف اسمائهم ناصعة في سجل الخالدين. وذروة الاحتفاء بمبدع يليق به مثل هذا التكريم.

وختم كلمته بالشكر الجزيل باسم اتحاد الكتاب العرب في القطر العربي السوري لجميع الذين دعوا الى تكريم الشهيد الفنان ناجي العلي في ذكراه الثانية.

بعد ذلك القيت كلمة اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين القاها الشاعر الاستاذ خالد ابو خالد عضو لجنة العمل النقابية - أمين سر فرع الاتحاد بدأها بتساؤل، هل صحيح ان ناجي العلي كان عدمياً، وهل صحيح أنه شتم شعبه وولغ في لحمه وأجاب أن ناجي العلي كان وفياً لشعبه وكان شعاره فلسطين، ناجي العلي فهم المناورة كما طرحت بالضبط، فهم انهم يبيعون فلسطين، بسبب ذلك كان ناجي العلي قادراً على تغيير الرأي العام الفلسطيني في جريدة القبس والسفير، الصفحة الاخيرة صباح كل يوم والانتقال به الى مواجهة مؤامرة التسوية.

لماذا فعل ناجي العلي كل ذلك، لانه لم يكن مصاباً بالشزوفيرينا التي تصيب المثقفين. لقد هُدِدَ ناجي العلي، ولكنه أكدَّ دائماً ان المناضل موقف. قليلون هم الذين يعرفون ان ناجي العلي محارب، فقد إجتاز في عام ١٩٥٨ دورة مغاوير، وقاتل من أجل تحرير لبنان من الطغمة الحاكمة انذاك.

ناجي العلي خلال مسيرة حياته كان المحارب الذي لا يقبل الازدواج، ناجي العلي في مهرجان

الكاريكاتير العربي الذي عقد اواخر السبعينات عرض ثلاث مرايا: مرآة تقول: «انت مطلوب حياً أو ميتاً»... والثانية تقول: «أنت سجين»، والثالثة تقول: «الله يرحمني».

ناجي* العلي يضعنا جميعاً في خانة واحدة لان الحرب التي تشن على هذا الشعب وعلى هذه الامة هي حرب ابادة نحن مطلوبون فيها جميعاً.

واستطرد يقول، دعوني احدثكم عن ناجي العلي الانسان المتواضع حتى النخاع، ناجي العلي الذي كان يخاف الملاحقة، والسجن، والقمع، ولكنه كان شجاعاً أيضاً في مواجهة كل ذلك، واذا اردنا ان نقارن ناجي العلي فناناً وانساناً بانسان آخر، لكان ناجي العلي قد انتكس ولكنه كان يتقدم كل يوم.

لم يكن ناجي العلي على ارض محايدة، ولم يقف قط على ارض محايدة، ناجي العلي تقدم نيابة عنا كمسيح عصري، وضحى بنفسه ثم وجد ان لكل ذلك سقف فرحل عن الكويت بعد أن لُوحِق وهدد، رحل مباشرة الى لندن، وقتل هناك لان الذين قتلوه قالوا ان لم ترحلوه سوف نقتله على ارضكم، وسوف تكون عند ذلك مشكلتكم. في لندن قال لزوجته انني ذاهب الى الجريدة، اتصلي بي بعد نصف ساعة، واذا لم أرد عليك يكونون قد قتلوني. ذاته لم تكن ذاته الفردية بل الشعب الفلسطيني انهم يقتلون الشعب الفلسطيني ناجي العلي غنى للانتفاضة الفلسطينية قبل أن تنفجر، ولم يتوقف ناجي عن تمجيد الكفاح المسلح والتحريض عليه لان ناجي العلي كان محارباً بالاصل فالمحارب يقاس بروحه. فقد كانت ومازالت روح ناجي العلي روحاً محاربة.

حين زار ناجي العلي فيتنام لم يكن له شروط بل اراد أن يعلم كل شيء عن هذا الشعب وقيادته خلال الفترة المتواجد بها، وكم تمنى أن تكون لنا مثل تلك القيادات التي كانت تقود ذاك الشعب الى النصر.

وأختتم قوله بأن الحديث عن ناجي العلي كشخصية حديث طويل وجوهر هذا الحديث ان ناجي العلي لم يكن شخصية مزدوجة، ولم يكن فرداً بل كان مسؤولاً مسؤوليتين، مسؤولية شعبه ومسؤولية فنه.

محور العدد القادم

نلفت نظر الأخوة القراء والباحثين إلى أن محور العدد القادم سيكون كما هو مبين. آملين منهم الاسهام في بنوده حسب اختصاصاتهم واهتماماتهم.

ـ التحرير ـ

محور العدد ٢١

العرب في الأرض المحتلة

١) الديموغرافيات في ظل الاحتلال.
٢) الحياة الاجتماعية.
٣) الحياة السياسية: آ: الأحزاب.
ب: المشاركة في انتخابات الكنيست.
٤) الحياة الاقتصادية:
آـ الزراعة.
ب ـ الصناعة.
جـ ـ التجارة.
د ـ الحرف.
٥) الحياة الثقافية.
٦) العرب والثقافة الصهيونية.
٧) العرب والثقافة العربية.
٨) شهـادات، ساسـة، مدرسـون ـ مثقفون، ادباء، عمال، سجناء.

ملاحظة: تنشر المواد الخاصة بهذا المحور، في العدد اذا وصلت قبل العشرين من تشرين الثاني ١٩٩٠.

سعر العدد:

● لبنان ٢٥٠ ل.ل. ● سوريا ٢٠ ل س. ● الأردن دينار واحد ● العراق دينار واحد ● الكويت دينار واحد ● الامارات العربية ١٥ درهما ● البحرين دينار واحد ● قطر ١٥ ريالا ● السعودية ١٥ ريالا ● اليمن ١٤ ريالاً ● اليمن الديمقراطية ٦٠٠ فلس ● مصر جنيه واحد ● السودان ٢.٥٠ جنيه ● الصومال ٢٠ شلناً ● ليبيا دينار واحد ● الجزائر ١٢ ديناراً ● تونس دينار واحد ● المغرب ١٢ درهماً ● موريتانيا ١٥٠ اوقية ● قبرص ١.٥٠ جنيه ● اليونان ٢٠٠ دراخما ● فرنسا ٢٥ فرنكا ● المانيا ١٠ ماركات ● ايطاليا ٥٠٠٠ لير ● بريطانيا ٢.٥ جنيه ● سويسرا ١٠ فرنكات ● هولندا ١٠ فلورن ● اميركا وسائر الدول الاخرى ٦ دولارات.

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين
لجنة العمل النقابي

مكتب دمشق

الجمهورية العربية السورية ـ دمشق ـ الازبكية ـ ص . ب ٨١٥٧

الثمن ٢٠ ل . س أو مايعادلها